الجواهر العجيبة

من تآليف سيدي

أحمد بن عجيبة

ستة شروح شرعية وصوفية

١ - اللوائح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية
٢ - نبذة عن مناقب الزهاد السبعة
٣ - كشف النقاب عن سر لب الألباب
٤ - شجرة اليقين فيما يتعلق بكون رب العالمين
٥ - منازل السائرين والواصلين وأسرار علم الحقيقة ودوائر الحضرة وأصناف الأولياء الكرام
٦ - فضائل نور سيد المرسلين وذكر أطواره في الكونين

جمع وتقديم وتصحيح
عبد السلام العمراني الخالدي
زاده الله من المدد

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

الجواهر العجيبة

من تآليف

سيدي أحمد بن عجيبة

ستة شروح شرعية وصوفية

1- اللوائح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية

2- نبذة عن مناقب الزهاد السبعة

3- كشف النقاب عن سر لب الألباب

4- شجرة اليقين فيما يتعلق بكون رب العالمين

5- منازل السائرين والواصلين وأسرار علم الحقيقة ودوائر الحضرة وأصناف الأولياء البررة

6- فضائل نور سيد المرسلين وذكر أطواره في الكونين

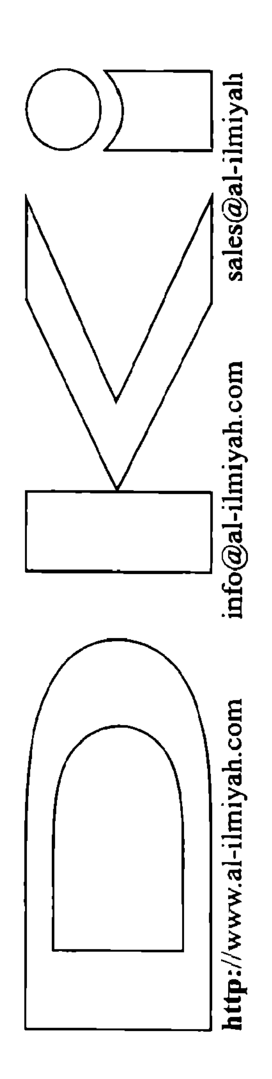
جمع وتقديم وتصحيح

عبد السلام العمراني الخالدي

زاده الله من المدد



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban



الكتاب: الجواهير العجيبة
من تآليف سيدي أحمد بن عجيبة

Title: AL-JAWĀHĪR AL-'AJĪBA
MIN TA'ĀLĪF SĪDĪ AHMAD BIN 'AJĪBA

التصنيف: تصوّف

Classificaton: Sufism

المؤلف: أحمد بن عجيبة الحسني

Author: Ahmad ben Ajiba Al-Hassany

المحقق: عبدالسلام العمراني الخالدي

Editor: Abdulsalam Al-Emrany Al-Khaledy

الناشر: دار الكتــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	280	عدد الصفحات
Size	17 x 24 cm	قياس الصفحات
Year	2019 A. D. - 1440 H.	سنة الطباعة
Printed in	Lebanon	بلد الطباعة لبنـــان
Edition	3rd	الطبعة الثالثة

Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beirut - Lebanon No Part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system,or to post it on Internet in any form without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, ou téléchargement sur Internet de quelque mamière que se soit faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

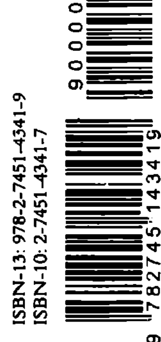
جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لـدار الـكـتـب العـلـمـيـة بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية أو تحميله على صفحات الإنترنت بأي شكل من الأشكال إلا بموافقة الناشر خطياً.

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تعريف بسيدي أحمد بن عجيبة، وتقديم ستة من شروحه العجيبة

الحمد لله العليم الغفار، ذي الطول الواسع والنعم الغزار، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نور الأنوار، وسر الأسرار، وعلى آله وصحابته الأطهار. وبعد،

فإن سيدي أحمد بن عجيبة الحسني، عالم مغربي شهير، وعارف بالله كبير، متضلع في علوم الصوفية، معروف لدى المشارقة والمغاربة، أشهره ما طبع من مؤلفاته الفريدة، وضعت فيه وفي علومه أطروحات عديدة. وإن مؤلفاته التي وضعها في الشريعة والحقيقة، بلغت الأربعين وكلها في غاية الدقة، فقد تضاءلت الفهوم أمام فهومه، وتقاصرت الجهود أمام جهوده، فهو فريد عصره وأوانه، انحدر من أسرة منورة مكرمة، أفرادها ذكوراً وإناثاً نابغون بالعلم والحكمة، والذوق والهمة.

أخذ علم الشريعة عن أكابر علماء المغرب، يتصدرهم العلامة سيدي التاودي بن سودة: شيخ الجماعة بالمغرب، والعلامة سيدي محمد بنيس الفاسي، والعلامة سيدي محمد الورزازي.

وقد أجازوه إجازة عالية، وكان في علوم الشريعة بحراً لا ساحل له، وأخذ علم الحقيقة عن شيخه القطب الرباني، سيدي محمد البوزيدي الحسني، وقد تغلغل في علم القوم وتفنن في معانيه، وتجلى ذلك في شرحه لكلامهم وحل ألغازه. وقد قال في فهرسه وهو صادق في كلامه: «أما علم التصوف فهو علمي، ومحط رجلي، ولي فيه الباع الطويل»، وهو الذي جدد طريق القوم في القرن الثاني عشر الهجري على أسس ذوقية رفيعة، وقال بعدها في طليعته اللامعة: «وهذا ذوقي لا أقلد فيه أحداً» ويكفي أنه المفسر للقرآن العظيم بالعبارة والإشارة. وعبد ربه المعرف به وبعلومه، والمساهم في طبع عدد من مؤلفاته، قد ساقني ربي إلى أكابر أحفاده البررة، شيوخ التربية النبوية في الأزمة الحاضرة، ففتحوا لي قلوبهم، وذوقوني علومهم، وصرت

أعرف بهم وبعلومهم، حتى إن كثيراً من الباحثين في سيدي أحمد بن عجيبة، يقصدني لإتمام الفائدة لكوني أعرف به من غيري، وأتوفر على مؤلفاته في خزانتي.

وقد كلفت غير ما مرة بطبع كتبه وتقديمها، وقد بدأت بطبع لشرح الصلاة المشيشية. ثم بتقديم وجمع وطبع السلسلات النورانية الفريدة، المؤلفة من عشر شروح صوفية. ولتوسيع نشر دائرة علومه وفهومه، أردت هنا أن أتبعها بطبع ست من مؤلفاته، في كتاب يتضمن فصلين هامين:

في الفصل الأول شرحه للوظيفة الزروقية، وما اتصل بها من الأوراد الشاذلية، والذي سماه: اللواقح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية. وفي الفصل الثاني خمس من مؤلفاته العجيبة:

1 ـ نبذة عن مناقب الزهاد السبعة.

2 ـ كشف النقاب، عن سر لب الألباب.

3 ـ شجرة اليقين، فيما يتعلق بكون رب العالمين.

4 ـ منازل السائرين والواصلين، وأسرار علم الحقيقة ودوائر الحضرة وأصناف الأولياء البررة.

5 ـ فضائل نور سيد المرسلين، وذكر أطواره في الكونين. وقد سميته: «**الجواهر العجيبة، من تآليف سيدي أحمد بن عجيبة**».

وكما سبق أن ذكرت أني قدمت للطبع، الصلاة المشيشية، وبعدها السلسلات النورانية الفريدة، وعرفت فيها بسيدي أحمد بن عجيبة، وبعلومه النادرة. وجاء تكلفي بهذه المهمة السامية، من عدة أمور شرعية وذوقية.

أولها: كوني أعرف الناس بمؤلفاته وعلومه الظاهرة والباطنة.

ثانيها: للإذن الذي لي في جمعها ونشرها من شيخي سيدي عبد القادر بن عجيبة ومن صاحبها في عدة رأى منامية.

ثالثها: لكون نسخها المستوعبة لفنونها بخط يدي وبخزانتي متوفرة.

رابعها: لاعتبارات أخرى ربانية، تركتها تواضعاً لله تعالى وله الحمد والمنة.

وإني على أتم الاستعداد للقيام بتصحيحه ورده. والله أسأل أن ييسر في طبعه ونشره، وينور بما فيه صدور عباده وأحبائه، إنه ولي التوفيق ونعم المولى ونعم النصير، والحمد لله بدءاً وختاماً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

العرائش «المغرب الأقصى» في يوم الجمعة 23 شعبان عام 1422 هجرية، الموافق لـ 9 نوفمبر سنة 2001 ميلادية.

جامعه ومقدمه للطبع

عبد السلام العمراني الخالدي زاده الله من المدد

بداية كتاب: «الجواهر العجيبية» اللوائح القدسية، في شرح الوظيفة الزروقية.

الحمد لله الذي شرح صدور أوليائه لذكره، وجعلهم من أهل وداده وحبه، وكشف الحجب عن قلوبهم، حتى تنزهوا في رياض قدسه. ونسلم حضرة الكرامة حتى تنعموا بمشاهدة قربه. ومواكب مؤانسته وأفلاك نسبته. نحمده تعالى ونشكره على ما أولانا من سابغ فضله. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نحوز بها قصب السبق في ميادين أنسه. ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذي ابتهجت الأكوان بجماله وحسنه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وأحزابه السالكين على المنهاج القديم من بعده. وبعد: فأهم ما يشتغل به العبد لسانه في هذه اللحظة اليسيرة من العمر، ذكر الله تعالى على نعت الحضور والتدبر، فإن الذكر منشور الولاية، ولا بد منه في البداية والنهاية. وهو يثمر أحوالا شريفة ومقامات عالية منيفة، وعلوما لطيفة، ويجلي عوالم طال ما كانت قبل صوانا. ويلبس النفس وجنودها ذلا وسبانا، ونظيره إذا وصل للقلب كدخول الماء في الأسراب فإنه يخرج ما فيها من الحشرات والدواب. فكذلك الذكر إذا صادف القلب، ودخل سويداءه فإنه يخلصه من مسكانة طلكل النفس، ويزيل عن ناظره الغشاوة واللبس، ولهذا كان أفضل الأعمال وأزكى الأحوال. وفضل على جهاد النفس والعمال. قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا». وقال تعالى: «فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم». وقال صلى الله عليه وسلم: «من عجز منكم عن الليل أن يكابده، وبخل بالمال أن ينفقه، وجبن عن العدو أن يجاهده، فليكثر من ذكر الله». وقال صلى الله عليه وسلم: «لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله. وما من شيء أنجى من عذاب الله من الذكر». قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع». وقال رجل: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله». رواه الترمذي. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قلت: فأي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله». رواه ابن أبي الدنيا. وقال صلى الله عليه وسلم: «مررت ليلة أسري بي برجل مغيب في نور العرش. قلت: من هو؟ قال: هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطبا من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم يستسب لوالديه». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم». قالوا: بلى، قال: «ذكر الله». رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

مسلم

صورة الصفحة الأولى من المخطوط الأصلي

=239= نهاية الجواهر العجيبة

الشوابح، والمبادرة: النوابح، والعاصفات: الروائح، والذاريات: اللواقح، فضربت البحار بعضها بعضاً
فلم تزل كذلك حتى زبدت، وعظمت أمواجها، وعلا دخانها، فقال لها الجليل جل جلاله: اجمدي، فجمدت، فقال للزبد
كوني أرضاً، وقال للدخان: كوني سماء، فذلك قوله تعالى: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها
وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل
سماء أمرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح؛ ذلك تقدير العزيز العليم»، وخلق الله تعالى تحت الأرض السابعة
الثقلين سريراً، والسرير على منكب ملك، والملك على قرن الثور، والثور على الصخرة، والصخرة على الماء،
والماء على الهواء، والهواء على الخلاء، والخلاء على الفناء، والضياء على الظلمة، والظلمة على البرق،
والبرق على العلم، والعلم على الحلم، والحلم على الأزلية، والأزلية على الكون، والكون على القدرة، والقدرة
على الإرادة، والإرادة لا يعلم ما تحتها إلا الواحد القهار، سبحانه «إذا أراد شيئاً أن يقول له كن
فيكون». انتهى بحمد الله وحسن عونه. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني - كان الله له -

ويقول جامعه ومقدمه للطبع - خديم الطريقة العجيبية، وجامع مؤلفات سيدي أحمد بن عجيبة - عبد السلام العمراني الخالدي - هذا ما أردناه، والحمد لله بدءاً ومنتهاه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الفهرس:

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط الأصلي

الفصل الأول

اللواقح القدسيّة في شرح الوظيفة الزروقية

الحَمْدُ لله الذي شرح صدور أوْليائِهِ لذِكْرِهِ، وجعلهم من أهلِ ودَادِهِ وحُبِّهِ، وكَشف الحجب عَنْ قُلُوبِهِم حتى تنزَّهوا في رِياضِ قُدْسِهِ. وكَسَاهم حُلَّةَ الكرامَة، حتى تنعَّمُوا بمُشاهَدَةِ قُرْبِهِ، وموالاة مؤانَسَتِهِ وإفاضة كَسْبِهِ. نحمده تعالى ونشكرهُ على ما أولانا مِن سَابغ فَضْلِهِ، ونَشْهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له شهادةَ نَحُوز بها قَصَب السَّبْق في ميادين أُنسِهِ، ونَشْهَد أنَّ سيّدنا ومَوْلاَنا محمداً عَبْدُهُ ورَسُوله الذي تبهجت الأكوان بِجَمَالِهِ وحُسْنِهِ صلَّى الله عَلَيْه وعلى آلِهِ وأصْحَابِهِ وعِتْرَتِهِ وأحزابِهِ السَّالكين على المِنْهَاج القديم من بَعْدِهِ.

وبَعْد؛ فأهَمّ ما يُشْغِلُ به العبد لسانَهُ في هذه اللحظة اليسيرة من العُمُرِ ذِكْرُ الله تعالى على نَعْت الحضور والتدبّر فإنَّ الذِّكر مَنشور الوِلاية ولا بُدَّ في البِداية والنهاية وهو يثمر أحوالاً شريفة، ومقامات عالية منيعة، وعلوماً لطيفة، ويُحيي عوالم طال ما كانت قَبْل مواتاً، ويُلبس النَّفْس وجنودها ذلَّة وسُبَاتاً، ونظيره، إذا وَصل للقَلْبِ، كدخول الماء في الأسْرابِ، فإنه يُخرّج ما فيها من الحشرات والدَّوابِّ، فذلِكَ الذِّكْر إذا صَادَمَ القلب، ودخل سَوَائده، فإنَّهُ يُخَلِّصه من مسكانةِ صَلْصَلِ النَّفسِ، ويُزيل عن ناظِرِهِ الغشاوة واللّبْس ولهذا كان أفضل الأعمالِ، وأزكى الأحوالِ، وفُضِّل على جهاد النَّفسِ والقتال. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النّساء: الآية 103]، وقال ﷺ: «مَنْ عَجزَ مِنْكُمْ عَنِ السَّيف أنْ يُكابِدَهُ، وبَخِلَ بالمالِ أنْ يُنفقَهُ، وجَبن عنِ العَدُوّ أنْ يُجاهِدَهُ، فَلْيُكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الله».

وقال ﷺ: «لِكُلّ شَيْءٍ صَقَالَةٌ، وإنَّ صقالة القُلُوبِ ذِكْر الله، ومَا مِنْ شَيْءٍ أنْجى مِنْ عَذَابِ الله مِنَ الذِكْرِ»، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله، قال: «ولَوْ أنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ حتَّى ينقطع».

وقال رَجُلٌ: يا رسُولِ الله، إنَّ شرائع الإسلام قد كَثُرت عليَّ فأخْبِرْنِي بشيْءٍ أتشبث به. قال: «لا يَزَال لسانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ الله»، رواه الترمذي.

وعن معاذ بن جَبَل رضي الله عنه قال: آخر كِلاَم فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قُلْت: فأيُ الأعمالِ أحَبّ إلى الله، قال: «أنْ تَمُوتَ ولِسانك رطب من ذِكر الله». رواه ابن أبي الدُّنيا.

وقال ﷺ: «مَرَرْت ليلة أُسْرِيَ بي برجل مغيب في نُور العَرْشِ، قلت: مَنْ هُوَ؟ قال: هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطباً من ذِكر الله، وقلْبه معلق بالمساجِدِ، ولم يستسبّ لوالديْه». وقال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبئكم بخير أعمَالكم، وأزكاها عند مَوْلاَكُمْ وأرْفعها في دَرَجاتكم، وخَيْر مِنْ إنفاقِ الذَّهَبِ والوَرَق، وخَيْر لكم مِنْ أنْ تَلْقوا عدوّكم فَتَضْرِبُوا أعْنَاقَهُمْ ويَضْرِبُوا أعْنَاقَكُمْ، قالوا: بلى، قال: ذِكْرُ الله». رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

وسُئِلَ رسول الله ﷺ: أي العِبَاد أفْضَل درجة عند الله يوم القيامة. قال: «الذَّاكِرُونَ الله كثيراً». قال أبو سعيد الخدريّ: قلتُ: يا رسول الله، ومِنَ الغَزْو في سبيل الله، قال: «ولو ضرب بسيفه في الكُفَّار والمشركين حتَّى ينكَسِرَ ويَخْتَضِبَ دماً، لكانَ الذَّاكِرون لله أفْضَل منه درجة». رواه الترمذي.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: لمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبَة: الآية 34] قال بعض أصحابِهِ: أنَزلَتْ في الذَّهبِ والفِضَّة؟ لو علمنا أيُّ المَالِ خَيْرٌ فَنَخْتاره. قال: أفْضله لسان ذاكرٌ، وقلبٌ شاكر، وزوجة مُؤْمِنَةٌ، تعِينه على إيمانِهِ» رواه الترمذي.

وقال ﷺ: «أربع مَنْ أُعْطِيهنَّ فقد أُعْطِي خَيْرَ الدّنيا والآخِرة: قَلْباً شاكِراً، ولساناً ذاكِراً، وبدناً على البلاءِ صابِراً، وزوجة لا تبغِيه حُبّاً في مالِهِ» رواه الطبراني.

وقال رسول الله: «لَيَذْكرنَّ الله أقوام في الدنيا على المُمَوَّهة، يُدْخِلهم الدرجات العُلَى». رواه ابن حبَّان في صحيحه.

وقال ﷺ: «مَثَل الذي يَذْكُر رَبَّه والذي لا يَذْكر رَبَّهُ كمثل الحيّ والميّت» رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «أكْثِرُوا ذِكر الله، حتى يَقُولُوا مَجْنُون» رواه الطبراني.

وقال ﷺ: «سَبَقَ المُفَرِّدونَ»، قالوا: وما المُفَرَّدُون يا رسول الله، قال: «الذَّاكِرُونَ الله كثيراً». وفي رواية الترمذي: «المُسْتهتِرُونَ بِذِكْرِ الله يَضَع الذِّكر عنهم أثقالهُمْ فيأتُونَ يومَ القيامة خِفَافاً».

وقوله: المُفَرِّدُونَ بفتح وكسر الرَّاءِ. وقوله: المُسْتهترون بفتح التَّاءِ: أي المُولعُونَ بالذِّكرِ المُداومون عليه.

وقال النبيّ ﷺ: «ما مِنْ يوم وليلة إلاَّ ولله عزَّ وجلَّ فيه صدقة يَمُنُّ بِهَا على مَنْ يشاء منْ عِبادِهِ. وما مَنَّ الله على عَبْدٍ أفضل مِنْ أن يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ» رواه ابن أبي الدُّنيا.

وسُئِل رسول الله ﷺ: أيُّ المجاهدين أعْظَم أجْراً، قال: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذِكْراً»، قيل: أي الصالحين أعْظم أجْراً. قال: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذِكْراً» ثم ذَكَرَ الصلاة والزَّكاة والحجّ والصدقة، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذِكراً»، فقال أبو بكرٍ لِعُمَر: يا أبا حَفْصٍ، ذَهَب الذَّاكِرون بكُلِّ خَيْرٍ. فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ أنَّ رَجُلاً في حجْره دَرَاهم يقسمها، وآخر يَذْكُر الله كان الذَّاكِر لله أفْضَل». وفي رواية: «ما صَدَقَة أفْضَل مِنْ ذِكْرٍ». رواهما الطبراني.

هذا، وقال علماؤنا رضي الله عنهم: مَنِ التَزَم أذْكَار الصَّباح والمساء وما له أسباب معينة كالأكل والشُّرْب والنَّوْم واليقظَة، والصباح والمساء، وشبْه ذلك كانَ من الذَّاكرينَ لله كثيراً والذَّاكِرات.

وقدْ رَتب الشيوخ رضي الله عنهم أوراداً، ووضعوا في ذلك وظائف، تذكر صَبَاحاً ومساء، جمعوا فيها ما وَرَدَ في ذلك مِنَ الأذْكار النبوية، والآيات القرآنية، فمنهم المُقِلّ ومنهم المكثر.

وأفْضَل ما جُمِعَ في ذلك وظيفة النَّجاة والسُّرور، وفتح الهِدَاية وتَيْسير الأمُورِ، ووظيفة الفَوْز والنَّجاة، وحِزب البر والبركات، واتباع السّنَّة في أذكار العشي والغداة، وهي الوظيفة الكُبْرى النَّافعة في الدُّنيا والآخِرة، الفريدة المشهورة، المُسْتَخْرجة من الأخبار الصَّحيحة المأثُورة المحتوية على الاسْم الأعْظَم: وظيفة الشيخ الفقيه، الوليّ النَّبيه، قُدْوة السَّالكين، وإمام المحققين، وسيد العَارِفينَ أبي العبَّاس، سيدي أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسَى البرنوسي الفَاسي المشهور بزرّوق، رضي الله عنه ونَفَعَنَا به في الدّنيا والآخرة.

قال رضي الله عنه: «يَنْبَغِي لِقَارِيء هذه الوظيفة، حُضور قلبه، والتَّدبّر فيما اختوتْ عليه مِنَ الأقوال القرآنية، والأذكار النبوية، وكل عِبَادة قوْلية أو فِعْلية، لا يعلم مَعْنَاها فهي ناقصة».

وقد اسْتخرت الله تعالى في وضع تقييد يكون كالشَّرْح لألفاظها، وبيان إسْنادها، وأضفت إلى ذلك تَنْبيهات وفوائد ممَّا يَحْتَاج إليه كل سَالك وقَاصِد، وسَمِيَّتُهُ: باللَّوَاقِحِ القدسية في شرح الوظيفة الزَّرُوقية، نسْأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجْهِهِ وأن ينفع بِهِ كما نَفَعَ بأصْلِهِ بجاه سيدنا محمد نبيه وحبيبه صلَّى الله عليه وعلى آلِهِ وصحبِهِ. ولنقدّم بيْن يَدَي الكلام مُقَدّمتين، الأولى: في التعريف بالشيخ ومَنَاقِبِهِ. والثانية: في

فضل هذه الوظيفة ووقتها وكيفية ذِكْرَها على الوجهِ الأكْمَلِ.

المقدمة الأولى

قال في كِفَايَةِ المُحْتَاج: الشيخ زرّوق، هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي، عرف بالزرّوق، الغوْث العارف بالله، الرَّحلة المشهورة شرقاً وغرباً، ذو التآليف العديدة المفيدة، والمناقب العتيدة المجيدة، وُلِد يوم الخميس في طلوع الشمس ثاني وعشرين مِنَ المحرَّم، عامَ ستَّة وأربعين وثمان مائة، وتوفي أبُوه قبل السَّابع، فكفَلَتْهُ جَدَّتُهُ، فحفظته. وتعَلَّم الخِرَازة، ثم اشتغل بالعلم في السَّادس عشر من عمره، فقرأ الرّسالة على أبِي عبد الله الفَخَّار، وعلى السطي بحثاً وتحقيقاً. ثم أخذ عن القوري والزّرهوني والمجاحي والأُستاذ الصَّغير، والتصوف عن عبد الرحمٰن المخذوبي، والقوري، وقرأ عليه البُخَاري، وأحكاه عَبْد الحق الصُّغْرى والتَّرمِذي وغَيْرهم.

وصَفَه ابن غازي، بالفقيه المحدّث، الفقير الصوفي الصافي البرنوسي، نِسْبَة لبعض العرب بالمغرب، بضَمّ النون بعد الرَّاءِ. هـ.

ومن شيوخه: سيدي عبد الرحمٰن الثعالبي والمشدالي، وإبراهيم التَّازي، واخْلُولوا والرصاع، والأخضري، وأحمد بن سعيد الحبَّاك، وابن مهدي المواسي، والسنوسي، والتناسي وأخذ بالمشرق عن السنهور، والحافظيْن: الدَّميري والسخاوي. والوَلييْن أحمد بن عقبة الحَضْرَمي والشهاب الأفسيطي وآخرين.

ولَهُ تآليف كثيرة، مختصرة، محرّرة، محققة، مفيدة، كشرحي الرسالة وشرح الإرْشاد، وشرح مواضع من مختصر خليل، رأيتهما بخطِّهِ، وشرْح القرطبية، والوغليسية، والضافقية العقيدة، والقدسية. ونيف وعشرين شرحاً على الحِكَم لابْنِ عَطَاءِ الله، وقفْنَا منه على السابع عَشَرَ والخامس عَشَر والرَّابع عشر. وشرحي حزب البَحْر، وشرح مشكلات الحزب الكبير، وشرح حقائق الصّغرى، وشرح قطع الششتري، وشرح أسماء الله الحسْنَى، وشرح المراصد لشيخه ابن عقبة، والنَّصيحة، والكافية، ومختصرها، وإعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتَّمكين، وقواعد في التَّصَوُّف في غاية النبل والحسْن، والنُّصْح اللامِّع، والجنَّة للمعتصم، والسّنَّة، وعِدَّة المريد الصَّادق، وأسْبَاب المقت في بَيَان الطريق، وحوادث الوقت، كتاب جليل في مائة فَصْل في بِدَع فقراء الوَقْتَ، وتعليق على البخاري في ضبط الألفاظِ، وجزْء صغير في عِلْم الحديث، ورسائل كثيرة لأصحابه في آداب ومواعظ وحِكَم ولطائف.

وبالجُمْلَة فقدره فوق ما يُذْكَر، فهو آخر الأئمة الصوفية، المحققين الجامعين للحقيقة والشريعة. لَهُ كَرَامات، وحجّ مرَّات، وأخذ عنه خَلْق، كالشهاب القسطلاني، والشمس القانِي، والحطَّاب الكبير، وطاهر القسطنطيني وآخرين.

توفي ببلادِ طرابلس في حَضَر عام تسع وتسعين وثمان مائة. وتنسب له قصيدة على منهاج القصيدة الجيْلانية:

أنـا لـمُـريـدِ جَـامِـعـاً لـشَـتَـاتِـهِ   إذا سَـطَـا جَـوْر الـزّمـان بِـنَـكْـبَـتِـي

فَإِنْ كُنْتَ في كَرْبٍ وضيْقٍ وَوَحْشَةٍ   فَـنَـادِ أَيَـا زرُوق آتِ بِـسُـرْعَـتِـي

فَكَمْ كـرْبـة تُـجْـلَـى بِـمَـكْـنـونِ عِـزّنَـا   وكَـمْ طُـرْفـة تُـجْـنَـى بِإفْـرَادِ صُـحْـبَـتِـي

ويَذكر عن شيخه سيّدي زيتون أنه قال فيه: رأس السنَة الأبْدان. نفَعَنَا الله بِهِ. اهـ. كلام كفاية المحتاج مختصراً. وفيه كناش المصنف رضي الله عنه: كَان جَدّي أزرقَ العيْنيْن، فقالوا له: زروق. فسرتُ في عَقبه، وكانت جدَّتي تُعلمني التوحيد والتوكل والإيمان والدِّيانة بطريق عجيب، وذلك أنها كانت في بَعْضِ الأيام لا تهيء لي طعاماً طيباً، فإذا جئت من المكتب للفطورِ، قالت: ما عِنْدي شيءٌ، ولكن الرزق في خزائِن مَوْلانا. فاجْلس نرْغبه، فتمدّ يَدَها وأمُدّ يدي إلى السَّمَاءِ داعينَ سَاعَة. فتقول: انظر هَل الله جَعَلَ في أرْكَان البيت شيئاً، فإنَّ الرزق خفِيّ. فنقوم أنا وهي فإذا عثرت على ذلك يعظم فرحِي بِهِ وبالله الَّذي فتح لي فيه، فتقول لي: تَعَالَ نشكر الله، وحينئذ نأكله لأجْلِ أنْ يزيدنا مَوْلاَنَا. فنمدّ أيْدينا ونأخذ في الحَمْد والشكر ساعة، ثم نتناولهُ، نفعل ذلك المرَّة بعد المرَّة، ولم نزل كذلك حتى عقلت. فكانت تحدّثني بحكايات الصَّالحين، وأهل التوكل، وعير ذلك، ومقويات الإيمان، وما كانت تحدثني لموضع الخرافات، إلاَّ بمعجزاته ﷺ وغزواته، وغرائب الكرامات، والمنقطعين إلى الله تعالى، وكانت تأمرني بالصلاة فَأُصَلّي بلا وُضوءٍ، فتقول لها خالتي في ذلك: دعِيهِ يُصلّي بلا وضوء حتى يُصلّي بالوضوءِ.

ولمَّا ناهزت الاحْتَلام كانت تُهَيِيء لي في كُلّ يوم درْهماً إذا قُمْت في الصُّبْحِ، وتقول: خذهُ. وتقول: هذا الدِّرْهَم يعينه على الصَّلاَة ويمنعه من الفَسَاد، ويقيه التشوف في الشهوات. وكانت تتركني كثيراً لا أحْلق رأسي، ولا تغْسِل ثوبي، إلاَّ بعد مُدَّة طويلة وتقول: الصَّغير إذا تنظَّف تتبعه العيُون، فينفسد. وكانت تحذرني الشِعْر وتقول: الَّذي يترك العلم ويشتغل بالشِّعْر كمن يُبَدِّل القمح بالشعير. وكانت تقول: لا بد من تعليم القراءة للدِّين، والصناعة للمعاش، فكانوا يسلمونني لتعليم الصّنَاعة في الخميس والجمعة والاثنين، إن خرَجْت مِنَ المَكْتبِ. هـ المراد مِنْهُ.

وفي الدَّوحة، يُحكى أن الشيخ زروق صحب الشيخ أبا عبد الله محمد الزَّيتوني، وكان رجلاً أعمى من أهْل التصريف، فتوغَّل في صحبته، كان من امتحانه في ذلك أن جاءَ زائِراً لهُ فدقَّ الباب، فَسَمِعَ صوتاً بالأذنِ، فدخَل الدَّار فلم يجد أحداً، فعاد إلى غرْفَتِهِ في أعْلَى الدَّارِ، فوجَد الشيخ جالساً في وسَط الغرفة وعن يمينه امرأة مُزَينة، وعن يساره امرأة أُخرى؛ وهو يلتفت إلى هذه مرَّة ويقبّلها، ويرجع إلى الأُخرى كذلك. فقال الشيخ زروق: هذا رجل من الزَّنادقة. وولَّى راجعاً، فنادى الشيخ الزَّيتوني: يا أحمد الكَذَّاب، ارجع. فرجَعَ، فلَمْ يجد معه أحَدٌ. فعَلم أنه امتحان، فقال الزَّيتوني: أمَّا التي رأيت عَن يميني فهي الآخِرة، وأمَّا التي عَنْ يساري فهي الدُّنيا، وأنت كَاذِب، ولكنك لا تبقى في المغرب ساعة واحدة. فخرج الشيخ زروق من حينه وتوجَّه إلى المشرق مشفقاً على نَفْسِهِ حتى انتهى إلى الدِّيار المصرية فوجد أصحاب الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي ينتظرونَهُ على ضفة النِّيل لأنَّ شيْخَهم أمَرَهم بذلك، وأخْبَرَهم بقدومه، فَسَلَّمُوا عليه ورَحَبُوا به، وحملوهُ، فلَمَّا دخل على ابن عقبة الحضرمي وسلَّم عليه قال له: يا أحمد، ما جَرَّأك على الأفعال العمياء، وإني المشفق عليكَ مِنْهُ ها هُنَا. فَحَمله إلى بيْت عندَهُ، وأمَره بلزوم الذِّكر. فَبَعد ثلاثة أيام سمع الشيخ ابن عُقبة رجَّة عظيمة وهو مع أصْحَابِهِ، فصاح: الله. ورفع يده ثم قال: قومُوا بِنَا. فقامُوا، فوَجَدَوا البَيْتَ الذي فيه الشيخ زروق صَارَ دكاً. فقال ابن عقبة: احضروا عليّ صاحبكُمْ. ففعلُوا إلى أن وَجَدُوه في رُكْن البَيْت، وهو قد لطمت عليه الخشب أوَّلاً، فَدَفعَت عنه الرَّدْمَ ونَجا. فلمَّا رَآه ابن عقبة قال: الحَمْد لله الَّذي عَصَمَكَ يا أحْمَد. وهذه آخر عقوبة الزَّيتوني، ضرَبَكَ ضَرْبَة بأقْصَا المغرب فدفعتها عَنكَ بيَدي، وها هِيَ مكسُورة من ضَرْبَتِهِ. وأخرجها من تحته مَكْسُورة، ثم لازمه إلى أن انْفَصَل عَنْهُ. هـ.

وفي الدَّوْحَة أيْضاً: يُحكى أن الشيخ ابن غازي طلب من الشَّيْخ زروق أنْ يُجيبه إلى مَنْزِلِهِ في جُمْلة أصْحَابِهِ، واسْتأذنَهُ أن يَصْنَعَ له طعاماً كثيراً، فأذِنَ لَهُ، وقال: انتظرنَا بعْد صَلاةِ العِشَاءِ. فلمَّا جَاءَ الوَقْتُ وقف ابن غازي بباب دارِهِ ينتظِرُ القَوْمَ. فجاءَهُ الشيخ زروق وَحْدَهُ فقال ابن غازي: أيْن أصحابنا؟ فقد جَمَعْتُ طَعَاماً كثيراً وخفنا عليه الفسَاد. فقال الشيخ زرّوق: يَصْلح إن شاء الله ولا يَفْسُدُ. ثم قال: هَاتِ ما عِنْدَكَ مِنَ الطَّعَام. فأَمَرَ ابن غازي بإِتْيَانِهِ وقُرِّبَ إليه، فقال الشيخ زروق: أخرج هؤلاء الخدَّام حتى لا يبقى إلاَّ أنا وأنتَ. فخرج الخدَّام، وشَمَّرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ وصار يَدْفع الطعام بِيَدَيْهِ جميعاً ويجعله خَلْفَهُ ومع كل حَفْنة مِنَ الطَّعام قطعة لَحْم. فَسَمِعَ الشيخ ابن غازي ضَجَّة وَرَاء الشيخ زرُوق فنَظَرَ فإذا بخلق عَظيم ما بين ضعفاء وصبيان ونِسَاء، وكُل واحد مِنهُم يمدّ يَدَهُ ويقول: يا سيّدي أعْطني، وهم في مَراحٍ وَاسِعٍ، حتى قسمَ

عَلَيْهم ذلك الطعام كله، فقال ابن غازي: هَلْ بَقِي مِنْ طعامك شيءٌ؟ فقال: لا يا سيّدي. فغَسَلَ يَدهُ فحمد الله، فَتَعَجَّب ابن غازي، وقال له: يا سيّدي، هذه الكرامة مِنْ كَرَامة الأوْلياء. فقال له: أحمد الله الذي أراك إيَّاها، فقال له: سألتكَ بِالله يا سيِّدي مَنْ أولئك الخلق؟ وما ذلِكَ المَرَاحُ؟ فقال: هم ضعفاء مَدِينَة تونس، قد مَسَّتهم الجائحَة، وذلك المَرَاح صحن جامع الزَّيْتونة. هـ.

المقدمة الثَّانية

في فضل هذه الوظيفة ووقتها، وكَيْفية ذِكْرها.

أمَّا فضْلها فقال الشيخ رَضِي الله عنه، مُجَلّياً هذه الوظيفة الميمونة: هذه وظيفة النَّجَاة والسُّرُور، وفتح الهِداية والتَّيسُّر في الأمور، بل وظيفة الفَوْز والنجاة، وحِزْب البِّر والبركات، وإشباع السنة في أذكار العشي والغداة. ثم قال رحمه الله بعد كلام على غيرها: وفائدة جمع الوظيفة ثلاثة أمُور:

أحدها: جامعة لمعاني ما وَرَد في غيرها مع قرْبهِ.

الثاني: أنه غالِباً مِن مشهور الأحاديث ومَذْكورها، مع وضوح لفظه ومَعْنَاهُ.

الثالث: فيه برِكَة التلقّي على الشيوخ زائد على ألْفَاظِ النبوة.

ثم قال: ولا يشترط الصحة في الأذكارِ الواضِحَة؛ لأنَّها جِنْس ما يطلب الإكثار منه مطلقاً، وهو الذِّكر. انتهى المراد مِنْهُ.

قال الشيخ سيّدي محمد بن علي الخروبي ـ وقد كان وارث مال الشيخ المؤلف ـ ما نصُّهُ: اعلم أن هذه الوظيفة المُبَاركَة اشتمَلَتْ على اسْتعاذة وبَسْمَلة وصلاة على النبي ﷺ، وقراءة وتسْبيح، وتهليل ودعاء واسْتغفار، واعتصام بالله، واعْتراف بِنِعَمِهِ، وإقْرار بربوبيتهِ، والشهادة بِوَحْدانيته، والرّضَى بِهِ وبرسوله ﷺ وشرائعه، وإظهار أوْصاف العُبُودية، من الذّلِّ والفقر والاحتياج إلى الله تعالى، والاعْتراف بالتَّقصير في حُقوقه، والرَّهبة والخوْف مِن سطوتِهِ وقَهْرِهِ، والرَّغبة في بَرَكاته وخيْرِهِ، إلى غير ذلك ممَّا لا نحيط بذِكْرِهِ، وكل واحد من هذه الأحوال له فضل عَظِيمٌ، وثواب جسيم وحده، فما بالك بمجموعِهَا، وسنشير إن شاء الله تعالى إلى بعض ذلك. ولنذكر الآن بعض منافِع الأذكارِ، وما احتوتْ عليه من المنافِع والأسْرار.

فمنها: ما هو لِدَفْع العَوَارض الشيطانية.

ومنها: لتحسين البداية، ودفع النقصِ وجلب الكَمالِ.

ومنها: لِتَحْسين النّهاية وتمام الكمَالِ. فمن ذكره ظهر توفيقه، وثبت كَمَاله

ونجاحه. وفيها آيات اشتملت على الاسم الأعْظَم، الذي إذا دُعِي بِهِ أجَابَ، وإذا سُئل به أعْطى، وفيها آيات تَحْفَظُ قائلها من الشيطان وجنودِهِ، وفيها ما يكفي قائلها عن قيام الليل إذا ذَكرَهَا بل تكفيه عن كل شَيْءٍ، وفيها ما يَعْدل القرآن والتوراة والإنجيل والزَّبور. وفيها ما يحسِّن الهيأة، ويُوسع الرِّزق حَضراً وسَفَراً. وفيها ما يُذْهِب بِكبير الشَّرِّ وصغيره، وفيها ما يُذْهب الهَمَّ، ويقضي الدَّيْن. وفيها ذِكْرٌ مَن قاله غُدْوة ومات من يَوْمِهِ دَخَلَ الجنَّة، وإن قالهُ مساء ومات فكذلك. وفيها ذِكر يتم الله به النِّعمة على قائله في الدّنيا والآخرة. وفيها ذكر مَن قاله صَباحاً أدّى شكر يَوْمِهِ، ومساء أدّى شكْر ليلته. وفيها ذِكْرٌ تَتْعَبُ الملائكة في استيفاء كتاب ثوابِهِ. وفيها ذِكْر يُرَجِّح بكَثير من الأذكار على غيره. وفيها ذِكْرٌ من قاله أخَذَه ﷺ بيده وأدْخله الجَنّة. وفيها ما يحفظ قائله مِنَ الحيَّاتِ والعَقَارِيب وجميع ذوات السُّمُوم. وفيها ما يوكل الله لقائِلِهِ في يومه سبْعين ألف ملك، يُصَلُّون عليه ويحفظونه إلى اللَّيْلِ وإن قاله مَسَاءَ فكذلك إلى الصَّباح، وإن مات في يومه ذلك أو ليلته ماتَ شهيداً. وفيها ما يَغفر الله لقائِلِهِ وإنْ كانت ذنوبه مِثْل زبد البَحْر. وفيها ما هو أمَان لقائله مِنَ العَمَى والجنون والجذام والبَرَص، والفالج، وفيها ما يذهب بالوحشة في الحَضَرِ والسَّفر. وفيها ذِكر لا يُقال في آخر مجلس باطِلٍ، إلاَّ كَفَى لقائِلِه سوء ما قيل فيه ولا قِيلَ في مَجْلس خَيْرٍ إلاَّ طبع عليه كما يطبع على الصحيفة.

فهذا بعض منافعها على الجملة باختصار، وإلاَّ فكل أصل منها وَرَدتْ فيه أحاديث كثيرة، ودُوِّنَتْ فيه دواوين عديدة. وقد حازت الوظيفة المُباركة من القرآنِ أفْضلَهُ وأعْظَمَهُ وأخَذَت منه سيّدة آياتِهِ وفواتحه وخواتِمِهِ، وجملة آيات شريفة، وفيها ما يَعْدل رُبع القرآن، وفيها ما يعدل مثلهُ.

فلنبيّن ما أشرنا إليه هنا لئَلاَّ ينكره من لا يَعْلمه، ويطعن فيه مَن يجهله:

أمَّا سيّدة آيات القرآن، فهي آية الكرسي، بدليل قوله ﷺ: «لكل شَيْءٍ سَنَام، وسنَام القرآن البقرة». وفيه آية سيّدة آي القرآن، وهي آية الكرسي، وهي أعْظَم آية في القرآن فَمَنْ قرأها مع أول (حم المؤمن) صباحاً حُفِظَ إلى الليل ومن قرأها مَسَاء حُفِظَ إلى الصباح. وعنه ﷺ: «مَنْ قرأ آيةَ الكرسي دُبُرَ كل صلاة لم يَمْنعه من دخول الجنَّة إلاَّ الموت».

وأمَّا فواتحهُ، فهي الفاتحة، وهي التي تعدل الكتب المنزَّلة.

وأما خواتمه، فقل يا أيّها الكافرون. قال عليه السلام: «تعدل ربْع القرآن». وكذا قال عليه السلام: «إذا جَاءَ نَصْر الله إنها تعدل رُبُع القرآن». وقال عليه السلام في سورة

الإخلاصِ: «أيَعْجِزُ أحدكم أنْ يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟» وكيف يقرأ ثلث القرآن يا رسول الله؟، قال: «قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ، تَعْدِل ثلث القرآن».

وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ (قُلْ هو الله أحَدٌ) فقال: «وجَبَتْ»، قيل له: وما وَجَبَت يا رسول الله؟ قال: «الجنَّة».

وأمَّا المعوّذتين فقد قال فيهما عليه السلام: «ما سأل سائل ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما». وقال عليه السلام لبعض أصحابِهِ: «ألاَ أُعَلِّمُكَ أفضل سُورتين»، فذكر المعوّذتين، وقال: «إحداهما كلما نمت وقمت». وكان عليه السلام يتعوَّذ من الجن بغيرهما. فلما نزلتا أخذ بهما وترك سواهما.

وأمَّا خواتِمُ البقرة: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البَقَرَة: الآية 284] إلى آخر السورة، فقال عليه السلام: «مَن قرأهما في ليلة كفتاهُ». قيل عن قيام الليل، وقيل عن قراءةِ القرآن هـ.

وقال في موضع آخر: كان عليه السلامُ يقول: «أقرأ» مختلفة المعاني. وإنما اختلفت أقوالهُ لاختلاف أحواله ﷺ فكل حالة تَرِد عليه من استعلاء يقابلها بما يليق بها ويكون ذلك عبودية في حقه ﷺ فجمع الشيوخ رضي الله عنهم من أقواله أقوالاً وجعلوها وظائف لهُم ولأصحابهم، يقولونها صباحاً ومساءً، قاصدين بذلك الاقتداء والحِفظِ والاهتداء.

والذي أختاره لنفسي ما تَعلَّق في هذه الوظيفة التي هي للإمام حجة الإسلام، الولي الصالح، الجامع بين الحقيقة والشريعة، أبي العبَّاس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي، الشهير بزرُّوق أفاض الله علينا وعلى المسلمين مِنْ بَرَكاته لقلَّة ألفاظها وكثرة فَضْلِها وصحّة طرق أذعيتها. وقد قيل: إنَّ الشيخ الذي وضعها لمَّا جمعها رأى النّبي ﷺ في النّوم وقال له: هذه وظيفتك ووظيفة أصحابك.

ونُقل عن الشيخ أنّه قال: مَن داوَمَ على ثلاثة أشياء، أضْمَن له ثلاثة أشياء: مَن دَاوَمَ على وظِيفتي هذه صباحاً ومساءً والصلوات الخمس في الجماعة وصيام الاثنين والخميس، أضْمَن له المَوْت على الشهادة، وأن لا يكون ذليلاً بين النَّاس، وإن استغاث في إغاثته. وقد صحَّ عنه رضي الله عنه أنّه لَمْ تفته صلاة الجماعة رضي الله عنه أرْبعين سنة. هـ كلام الشيخ الخروبي.

قال الشيخ محمد بن عبد الرحمٰن الزواوي رحمه الله، على هذه الصفة المقيدة قرأتها على الشيخ سيدي محمد بن علي الخروبي الطرابلسي، ثم قرأتها أيضاً بباب عروة، أحد أبواب الحَرَم الشهير، زاده الله شرفاً وتَعْظِيماً، ومهابة وتكريماً، على مفتي

المسلمين بالبلد الحرام، الشيخ بركات الحطاب المالكي، على هذه الصّفَة بالمسجد المذكور، وأخْبَره عن مُؤَلفها أنه لمَّا شاهد ضريح النبي ﷺ فَسَلَّم عليه، فقال له عليه السَّلامُ: وعليك السلام يا أحْمَد. ثم قال له ﷺ: «اقرأ عليّ وظيفتك»، فقال الشيخ: يا رسول الله صلَّى الله عليك وسلم، إنَّ لي وَظَائِف كثيرة، فقال: التي أوَّلها: «وإلٰهكم إلٰه واحِدٌ. وكانت أكثر مما هي عليه الآن مِنَ الآياتِ القرآنية والأحاديث النَّبوية فجعل الشيخ يقرؤها عليه، وهو صَلَّى الله عليه وسلَّم يقول: إحْذف هذه وأثبتْ هذه، إلى آخرها.

إلى أن صارت إلى ما هي عليه الآن. وأخبرني مَن أثق به أنَّ الشيخ لما قَدِمَ لزيارته ﷺ قال لصاحبَيْه سيدي يحيى البُخَاري وسيدي الزَّوَاوي: إذا طالت إقامتي بين يدي النّبي ﷺ وألْبَسَنِي حَالاً فَتَنَحَّيَا عني. فلما وصل الشيخ الضَّريح الكريم على صاحِبِهِ أفضل الصَّلاةِ وأزكَى التَّسْليم، وسلَّم عليه، فقال: وعليك السَّلام يا أحمد، أذنُ مِنّي واقْرَأ عليَّ وظيفتك التي أوَّلها: وإلٰهكم إلٰهٌ واحد... الخ، فقرأها عليه، فحذف منها ما شاء الله وأثبت فيها ما نَحْن وأنتم عليه. وأعاننا الله وإياكم على تعظيمها والقيام بِحَقُّها وذِكرها آمين يا رَبَّ العالمينَ هـ.

وأمَّا وقتها، فقال الإمام الخروبي: وقتها مِن طلوع الفجر إلى الضحى الأعْلَى، ومن بعد العَصْرِ إلى وقت النَّوم، ويتسع وقتها إلى آخِرِ اللَّيل.

قال الشيخ المؤلف رضي الله عنه: وفائدة توسيع وقتها ثلاثة أشياء:

أحدها: إيقاعها على سماح في النَّفسِ إذ قد لا يتَّسع أمْرها إن كان لها وقت واحد.

الثاني: إن ذلك أحْفظ لإقامتها، وإلاَّ مع الضّيْق فقد تَتَوالى الأشغال فيؤدي إلى تركها.

الثالث: الاتباع للشَّارع في ذِكْر المَسَاءِ والصباح في ألفاظِها، وما عداها فضَيْق الوقت لخفّته. هـ من كلام الشيخ زرّوق رحمهُ الله تعالى.

وأمَّا كيفية ذِكرها، فينبغي لقارئها عند قراءتها كمال الطَّهارة واسْتقبال القبْلَة والسكون وحضور القلب، وأن يَصْرِف همَّتَهُ إلى تدبّر الأقوال النَّبَوية، وما احْتَوَتْ عليه مِنَ الأقوال القرآنية، وعدم اشتغاله بما لا يَعْنيه، فلا يَنظر بعينَيْهِ ولا يَسْمَع بأُذُنَيه ما لا يَعْنيه.

تَنْبيهٌ: كل عبادة فِعْلية كانت أو قَوْلية لا يَفهَمُ العَبْد معناها ولا يعرف مقتضاها؛ فهي ناقصة، فلا بدّ للعَبْد إذا تَعَبَّد لِمَوْلاهُ تعالى لعبادة فعلية أو قولية، أن يعرف معناها

ويعرِف مقتضاها. وإليهِ التوفيق إلى سواء الطريق هـ. قاله الخروبي، وقراءتها جماعة أوْلَى.

قال المؤلف رحمهُ الله: وفائدة ذِكْرِها بالجَمْعِ ثلاثة أُمُور:

أحدها: تعاضد أنوار قلوب الذَّاكرين لها.

الثاني: ما صح من قولِهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْم مُسْلِمين جَلَسُوا مَجْلساً يذكرون الله فيه إلاَّ حفَّتْ بِهِم الملائكة ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرَّحْمَة، وذَكرهم الله فيمن عِنْدَهُ». أخرجه البخاري وغيره.

قلت: ومما رواه الطبراني عن عمر وابن عنيسة رضي الله عنهما من قولِهِ ﷺ: «عن يمين الرَّحمٰن وكلتا يديْهِ يمين رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يُغشّي بياض وجوههم نظر النَّاظرين يَغْبِطهم النبيئون والشهداء بِمَقعدهم وقُرْبِهم مِنَ الله عزَّ وجلَّ. قيل: يا رسول الله، من هُم؟ قال: هُم جُمَّاع ونَوَازع العرب ـ أو قال: مِنْ نوازع عَرَب القبائل ـ يَجْتمعون على ذِكْرِ الله فينتقون أطايِبَ الكَلام كما ينتقي آكل التمر أطائبه». هـ.

قولهُ: جُمَّاع بضمّ الجيم، وتشديد الميم: أخْلاطٌ مِنْ قبائل شتَّى. قالهُ المنذري.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ الله: الوجه الثالث، أي من فوائد الجمع، ما فيه من إظهار أبْهات الإسلام عند درسها، وإعانة ضعفَاء المسلمين على الذِّكر، وإلاَّ فالخفي أوْلَى. ورَجَّحَ النَّووي الجَهْر. هـ. وهذا آخر الكلام على المقدِّمَتَيْن.

وحَيْث أشَرْت بالسِّين المهملة فَلِبَيَانِ السَّنَد وبالعجْمة فَلِبيان شَرْح الألفاظِ. ونشرع إن شاء الله في الكلام على الوظيفة الميمونة فنقول، مسْتعيناً بالله تعالى، ومتبرئاً مِن حَوْلي وقوَّتِي: لما كان مقصوده رضي الله عنه من هذه الوظيفة التضرّع إلى الله والالتجاءِ إليه والتَّحصّن به، قدَّمَ الآيات التي فيها اسْم الله الأعْظم، الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وإذا سُئِل به أعْطَى، وافتتحها بقوْلِهِ:

«أعوذُ بالله مِنَ الشَّيطان الرَّجيم» امْتِثالاً لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: الآية 98] وذلك مِنْ سُنن الأنبياء، وسِيَر الصَّالِحينَ، كما تقتضيه آيات وأخبار وآثار. فمِن الآيات قوله تعالى حِكاية عن نوح عليه السلام حين قال: ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هُود: الآية 47] فلمَّا قال ذلك أعطاه الله السَّلام والبركات. كما أخبر عنه بقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هُود: الآية 48]، ومنها قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام حين راودته زليخا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسُف: الآية 23] أي فَصَرف الله عنه السُّوء والفَحْشاء. ومنها قوله تعالى حِكاية عن موسى عليه السَّلام حين أمر قَوْمه بذبح البقرة،

فقالوا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية 67] فأزال الله عنه التُّهمَة، وأحيا القتيل، كما أخبر عنه بقولِهِ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية 73]. ومنها قوله تعالى، حكاية عن أمّ مَريَم: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان 36، 37]. ومنها قوله تعالى، حكاية عن مَريم حين رأت جبْريل عليه السَّلام بصُورَة بشَرٍ، يقصدها في الخَلْوة: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريَم: الآية 18] فأعطاها الله ولداً مِن غير أبٍ، ونزَّهها بلسانِ وَلدها عَنِ السُّوءِ، إذ قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريَم: الآية 30]. ومنها: إنَّ الله أمر نبينا ﷺ بالاستعاذة مرّة بعد أخرى، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان 97، 98] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفَلَق: الآية 1]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [النَّاس: الآية 1] إلى آخر السورتين، فأنجاه الله من شرِّ الشَّيطان والسَّاحر حتَّى أسْلم شيْطانه وأذْعَنَ لأمْرِ خالِقِه.

وقال تعالى في سورة الأعرافِ وفصّلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [فُصّلَت: الآية 36]، و[الأعراف: الآية 200].

ومِن الأخبَار ما ورد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: جَاءَ رجلانِ عند النبيّ ﷺ فقال النبيّ ﷺ: «إني لأعْلَم كَلِمَة لو قالاها تذهب ذلكَ عَنهُما: أعُوذ بالله مِنَ الشيطانِ الرَّجيم». ومنها ما رُوي عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «مَنِ اسْتعاذَ بالله في اليومِ عشر مرّات وكَّلَ الله تعَالى ملكاً يزيل عنه الشيطان».

ومنها: ما رُوي عن خَولة بنت حكيم، عنه ﷺ أنّه قال: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فقال: أعُوذ بكلمات الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْء، حتى يرتحل من ذلك المَنْزل».

ومنها: ما رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه، أنّه ﷺ كان يعوِّذ الحسن والحسين ويقول: «أعوِّذكما بكلمات الله التَّامَّاتِ، مِن كل شيطانٍ وهامَّة، ومن كل عَيْنٍ لامَّة»، ويقول: كان إبراهيم يعوِّذ بهما إسماعيل. وأما الأقوال والآثار المَرْوية في فضائل الاستعاذَةِ فأكثر من أن تُحصى فلا نطيل بِنَقْلِها.

ومعنى الاسْتِعاذة: طلب العَوْذ، كالاستِخارة، والاستقامة، والاستغاثة، وللعَوْذ بالله معْنيانِ:

أحدُهما: الالتجاء والاستخارة. يُقال: عُذْتُ بفلان واسْتَعَذْتُ بهِ إذ التجأت إليه.

والثاني: الالتصاق. يُقال: أطيب اللَّحْمِ عوذه؛ وهو ما التصقَ منه بالعَظْمِ. فعلى الوجه الأوَّل: معْنَى أعُوذُ باللهِ: ألتجيء إلى رَحْمَة الله وعِصْمته. وعلى الثاني معْنَاهُ: ألصق نفسي بفضل الله وبِرَحْمَتِهِ.

والله اسم علم على الذَّات، الواجب الوجود، المستحق لجميع المحامِدِ.

وأمَّا الشيطان فاشتقاقه إمَّا مِنْ شاطَ يشيطُ شيْطاً، وشيُوطة، وشِيَاطَة بالكَسْرِ، إذا بَطل أو احترق غَضباً. حتى كان يُهلك، وأشاطه: أحْرقَهُ كشيطة. فوَزْنه فعلان، ونونه زائدة. ولكن الشيطان مخلوق من قوّة النَّارِ اختصَّ بفرطِ بقوَّةِ الغَضَبية والحميةَ والذميمَة حتى امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ.

قال أبو عبَيْدة: وهو اسْم لكل عَاتٍ مُتَمَرِّد من الجنّ والإنسان والحيوان، وأمَّا مَن شطنت داره شطوناً من باب قَعُدَ، بعدت، وأنشطه الحبل، والجمع: أشطان، كسَبب وأسْباب. وشطن: بَعُد عَنِ الحق، أو عن رَحْمة الله، فتكون النُّون أصْلية، ووزنه فَيْعَال، وهو هنا محتمل أن يراد به الجنس فتكون الاستعاذة من جميع الشياطين أو العهد. فالاستعاذة من إبليس.

والرَّجيم: فُعَيْل، بمعنى مَفْعُول، والرَّجْم مثل كف خَضيب، بمعْنى مخضوب، ورجل لعين، بمعنى ملعون. والرَّجْم بمعنى اللَّعْن أو الطَّرْد، وُصِفَ به الشَّيْطان لكونِهِ مَلْعُوناً مِن قِبلِ الله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ [ص: الآية 78] ولكونِهِ مطرود من السَّمَاءِ لِرَمي الملائكة بالشهاب والثواقب. ولتعلم، أن الشيطان عَدوّ حذَّر الله منه، إذ لا مطمع في زوَالِ عَدَاوتِهِ، وهو يَجْري من ابن آدَمَ مَجْرَى الدَّم فيأمره أوَّلاً بالكُفْرِ، ويُشكِكُهُ في الإيمان، فإنْ قدر عليه وإلاَّ أمَرَهُ بالمعاصي، فإن أطاعه، وإلاَّ ثبَّطه عَنِ الطَّاعَةِ، فإن سلم من ذلك أفسدها عليه بالرِّيَاء والعُجْبِ. والشيطان أحَد القواطع عن الله، ثم النفسُ، ثم الدّنيا، ثم الخلق. فعلاجُ الشيطان بالاسْتعاذة منه والمخالفة له، وعِلاج النَّفس والهَوَى بالقَهْرِ، وعلاج الدُّنيا بالزُّهْدِ، وعلاج النَّفس بالانقباضِ والعُزْلَة، وعند عَسْرِ ذلِكَ كُلِّهِ فليس إلا الالتجاء إلى الله سُبْحَانه كما قيل:

إنّي بُلِيتُ بأربعٍ يَرْمينني ... بِالنَّبْلِ عَنْ قَوْسٍ لها توثيرُ
إبليسُ والدّنيا ونَفْسِي والهَوَى ... يا رَبُّ أَنْتَ عَلَى الخَلاصِ قَدِيرُ

هذا ولا تتم الاستعاذة إلاَّ بِعلم وحَال وعَمَلٍ. والأول عِلْمُ العبد بكونِهِ عاجزاً عن جَلْبِ المَنَافِعِ ودَفْع المضارّ، دِيناً ودُنْيَا، إلاَّ بقدرة الله تعالى عن ذلِكَ قدْرة تامَّة لا تُمْكِن لأحدٍ سِوَاهُ. فإذا حصل هذا العلم في القَلْبِ تولَّد عنه فِيهِ حَالة خضوع

وانكسار، فينتقل عند ذلك إلى التضرع إلى الله تعالى والرَّغبة له بلسَانِهِ، في حصول هذه المعنى، فيقول: أعُوذ بالله مُريداً أن يصونه الله من كل آفاتٍ، ويخصّه بإفادة الخَيْرات، فثبت هنا أن العَبْد ما لم يعْرف عِزَّة الرّبوبية وذلَّة العبودية لا يصحّ منه قولُ، أعُوذُ بالله. تحقق بِوَصْفِه يَمُدَّكَ بِوَصْفِكَ، فإذا حَصَلَتْ تلك العلوم في القلب وصار العَبْدُ مُشاهِداً لها، وجب أن يحصل في قلبه الطلب الذي هو الاستعاذة، وفي لسانِهِ اللَّفظ الدَّال على ذلك الطَّلَب، وذلك قوله: أعُوذُ بالله، ثم ها هنا مَبَاحث:

الأول: إنَّما قدَّمَ العامل في التعوّذ مع أن تقديم المعمُول يُؤذِنِ بالحَصْرِ وتَحصل به المُوافقة بين التَّعوّذ والتَّسبُّب، إذ فيها تقديرُ العامِلِ مُؤخَّراً كما هو مقرر في محلِّه، لأنَّ الاهتمام هنا بِذِكْرِ التعوذ كما قدَّم العامل في ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العَلق: الآية 1] إذ هو أوَّل سورة نَزَلَتْ، فكان الأمر بذكر القراءة أهَم ولأنَّ الاستعاذةَ تطهير اللِّسانِ عن لوْثِ ما جَرَى عليه مِن ذِكْرِ غَيْرِ الرَّحْمٰن. فإذا قال أوَّلاً: أعُوذُ، حصل الطهور لذِكْرِ الله بلا قُصُورٍ.

الثاني: إنما عَدَلَ عَنِ الماضي إلى المُضارع، لقَصْد التجدّد والاسْتِمْرار. والاستعاذة لا تتعلق إلاّ بالمُسْتقبل، لأنها دُعاءٌ، وإن كانت بلفظِ الخَبَرِ فمعناها: اللهم أعُوذني من جميع المضارّ الدِّينية والدّنيوية. ولمَّا كان مُعْظَم مقاصِدِ الإنسان دَفْعَ وساوِس الشيطانِ خَصَّهُ الله بالذِّكرِ وإن كان القَصْدُ مِنَ الاستعاذةِ ليس مُنْحَصِراً فيه كما يُوهمه تخصيصه بالذِّكْرِ.

الثالث: إنما أمَرَ الله تعالى بالاسْتِعاذة عِنْدَ القِراءة مَعَ مطلوبيتها في سَائر العباداتِ، بل في كل الأحْوَالِ والأوقاتِ، لأنَّ أعْظَمَ الطَّاعات قراءة القرآن، والإخلال بها بالوساوسِ أهَمُّ عند الشيطان، ولأنَّ قِرَاءَةَ القرآنِ مكَالَمَة مع الله الذي هو أحبّ مِن كُلِّ مَحْبُوبِ بلا اشْتِباه. فلا بُدَّ أن يُسد الطريق أوّلاً عَنِ الأغْيار، بالاستعاذةِ مِنَ العَدُوِّ الغَرَّار. والسِّرُّ في تخصيص ذِكْرِ اسم الله في الاستعاذَةِ وبين الأسْمَاءِ الحُسْنَى: أنَّ الشَّيْطان عَدُوٌّ مُبِينٌ، قوي متينٌ في الإغْوَاءِ، فاخْتير اسمٌ جامع لجميع صفات الكَمَالِ، فكأنه ذكر في دَفْع شره ذاتِهِ، مع جميع صِفاته سُبحانه. وفي الاسْتِعاذَة قولٌ كثيرٌ وكلامٌ غَزيرٌ، مَبْسُوط في كُتُب المُطوَّلاتِ، ثم أتى بالبَسْمَلة بعد التَعوُّذ، لقوله ﷺ: «كُلّ امريء ذِي بَالٍ لا يُبْدَأ فيه بِاسْم الله فَهُوَ أجْذَمُ». فقال: «بِسْم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم». ولما رُوي عنه ﷺ أنه قال: «لا يُرَدّ دُعَاء أوَّله بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم».

وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه: أنَّه حاصر قوماً مِنَ الكُفَّار في حَضْرٍ لهم، فقالوا: إنَّك تَزْعم أنَّ دين الإسلام حقّ، فأرِنا آية لِمُسْلم. فقال: اِتوني بالسّم، فأتَوْهُ بكأسٍ من سمّ سَاعة فأخذه، وقال: بِسْمِ الله الرَّحمٰنِ الرَّحيم - وفي رواية أُخرى: بِسْم

الله خَيْر الأَسْمَاءِ في الأَرْضِ وفِي السَّمَاءِ ـ ثم شربه وقام سالماً. فقالوا: هذا دين حَقّ. وأسلَمُوا.

وقال بعض العلماء: مَن رَفَعَ قِرْطاساً من الأرْضِ فيه اسْم الله تعالى إجْلالاً أن يُدَنَّس، كُتب عند الله مِنَ الصّدّيقينَ.

وعن منصور بن عامِر رضي الله عنه: أنَّهُ وَجَدَ رقعة في الطَّريق مكتوب فيها: بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم، فَلَمْ يجد لها مَوْضِعاً يحوطها فيه، فابْتَلَعَها. فرأى في المَنَامِ قائِلاً يقول: قد فتح الله عليك باب الحِكْمَةِ.

وعن بِشْر الحافي رضي الله عنه: أنَّهُ وَجَدَ رُقْعَة فيها اسْم الله تعالى، وكان معه درهمَيْن لا يَمْلكُ غَيْرهما، فاشترى بهما غالية وطيّب بها الرُّقْعَة، فرأى في المنام الحق سُبحانه وهو يقول: يا بِشر، طيَّبْت اسْمِي لأُطيّبَنَّ اسْمَكَ في الدُّنْيا والآخرة.

ورُوِي أنَّ عيسى عليه السلام: مَرَّ بِقَبْر تُعَذِّبُ المَلائكة صاحِبَهُ، فانْصَرَفَ. ثم رَجَع فرآهُمْ ومَعَهُمْ أطْباق من نُورٍ، فتَعَجَّبَ مِن ذلك، فأوْحَى الله تعالى إليهِ: أن كانَ هذا عَاصياً، وقد تَرَكَ ولداً صَغِيراً فأسلمته أُمه إلى المَكْتَبِ فلقَّنَه المعلم: بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم، فاستحييْت أنْ أُعذِّبَهُ ووَلده يذْكر اسْمِي. ذكَرَه الشيرازي في تفسير الفاتِحَةِ.

ورُوِي عن بعض الصَّالحين، أنَّه قال: مَنْ قرأ بِسْم الله الرحمٰن الرحيم اثني عشر أَلْف مرَّة في آخرِ كلّ أَلفٍ يُصَلّي على النبيّ ﷺ ويَسْأل حاجتَهُ، ثم يعود إلى القراءة فإذا بَلَغَ أَلْفاً عاد مثل ذلك إلى انقضاءِ العدد المذكُورِ فمَنْ فعل ذلك قُضِيَتْ حاجَتُهُ كائِنَة ما كانَتْ بإذْنِ الله تعالى.

ويُحكى أنَّ الشيخ أبا بَكْر السّرّاج، اجْتَمع يوماً ببعْضِ الصَّالحينَ وحَصلت له منهم إشارة أن يكتب بسم الله الرَّحمٰن الرحيم ستمائة وخمسة وعشرين مرَّة، ثم يحمله معه، فإنه يكسوه الله تعالى هيْبة عَظِيمة ولا يَقدر أحد أن يَنَاله بِسُوءٍ. وقد جُرِّبَ ذلك فَصَحّ. والله تعالى أعْلَمُ.

(ش) ومعنى البَاءَ فيها الاسْتعانة، وتتعلق بمحذوف مُقَدَّر يقدر مناسباً للمقام. والله عَلَمٌ على الذَّاتِ، الواجب الوُجُود، المستحق لجميع الكَمالاتِ. والأصحُّ عدم اشتقاقِهِ.

رُئِي الخليل في المنام، فقيل لهُ: ما فَعل الله بِك؟ فقال: غَفَر الله لي بقولي: إنَّ اسْمَ الجلالة غَيْر مشتق. ورُئِيَ سيبويْه فقال: غفر لي. وذَكَر كَرَامة عَظِيمة، فقيل تم، فقال بقولي: إنه أعْرف المَعَارِفِ.

والرَّحمٰن الرَّحيم: صفتانِ مشتبهَتّان بُنيا للمبالغة، من رَحُمَ. والرَّحمة هنا مجاز بمعنى الإنْعام. وإرادته وحقيقته هنا مُحال، فلذا قيل: إنَّ الرحمٰن من المجاز الذي لا حقيقة له، إذْ لا يُوصف به غيرهُ تعالى. وفيه من المُبَالغَةِ ما ليس في الرَّحِيم. ولذا قيل: يا رحمٰن الدُّنيا ويا رحيم الآخِرة، فالمعنى الرحمٰن لجميع العالمين، والرَّحيم لعباده المؤمنين. وقيل: الرَّحمٰن بِجلائل النِّعَم. والرَّحيم بما دَقّ منها. فهو كالتّتمة والرّديف. وقال بعض: لما كانت صيغة فَعْلانَ تقتضي الزَّوال، كشعْبَان وغضبان أُتبع بفَعيل المقتضي الدَّوام، وعدَم الزَّوال كظريف وشريف. نقله السبكي في الطبقات. وقيل: الرحمٰن بِنِعمه الظاهرة، الرَّحيم بنعمه الباطنة. ثم قال رضي الله عنه: «وإلٰهُكُم إلٰهٌ وَاحِدٌ لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ».

عن أسماء بنت يزيد قالت: سَمِعت رسول الله ﷺ يقول: «اسْم الله الأعْظم في هاتين الآيتيْن: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البَقَرة: الآية 163] وفاتحة آلِ عمران: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان 1،2] أخرجه أبو داود والترمذي. وقال: حديث صحيح.

(ش): قال ابن عبَّاس: قال كُفّار قريش: يا محمَّد، صِفْ لنا رَبَّكَ وانْسُبْهُ. فنزلت سورة الإخلاص وهذه الآية: قوله تعالى: وإلٰهكم إلٰه واحدٌ. خطاب عام، أي المستحق منكم العبادة، واحد لا شريك له، يصحّ أن يُعْبَد أو يُسَمَّى إلٰهاً، لا إلٰه إلاَّ هُوَ، تقرير للوحدانية، وإزاحة لأنْ يتوهَّمَ أنَّ في الوجود إلٰهاً، ولكن لا يستحق منكم العبادة: «الرحمٰن الرَّحِيم» كالحجَّة عليها، فإنه لمَّا كان مَوْلى النِّعم كلها، أُصُولها وفروعها، وما سواه، إمَّا نِعْمة، أوْ مُنْعَم عليه، لم يستحق العبادة أحد غَيْرهُ، وهما خبرانِ بقوله: إلٰهُكم، أوْ لمُبْتدأ محذوف. قاله البَيْضاوي.

ابْن جُزَي: واعلم أنَّ توحيد الخَلْق على ثلاث دَرَجات:

الأولى: توحيد عَامَّة المسلمين، وهو الذي يفصم النَّفس والمال في الدّنيا، وينجي من الخلودِ في النار في الآخِرة، وهو نفي الشركَاءِ والأنْداد، والأشبَاه والأضداد.

الدَّرجة الثانية: توحيد الخاصَّة، وهو أن يَرَى الأفعال كلها صادرة من الله تعالى وحْدهُ، ويُشاهد ذلك بطريق المكاشفة، لا بطريق الاسْتِدلال، فإنَّ معرفة ذلك لا يحتاج إلى دليل. وثمرة هذا العلمِ الانقطاع إلى الله، والتوكل عليه وحدهُ، وإطْراح جميع الخلق فلا يعرف إلاَّ الله ولا يخافُ أحداً سِوَاهُ، إذ ليس يرى فاعِلاً إلاَّ إيَّاهُ، ويَرى جميع الخلق في قَبْضة القَهْرِ، ليس بيَدِهم شيْء من الأمْرِ فيطرح الأسْباب، وينْبذ الأرْبَاب.

الدَّرجة الثالثة: ألاَّ يَرَى في الوُجودِ إلاَّ الله وَحْدهُ، فيغيب عن النظر إلى المخلوقات، حتى كأنَّها عِنْدَه مَعْدُومة، وهذا هو الَّذي تُسَمِّيه الصُّوفية: مَقَام الفَنَاءِ، بمَعْنَى الغَيْبَة عَنِ الخَلْق، حتى أنَّه قد يَفْنَى عَنْ نَفْسِهِ، وعن توحيده أي يغيب عن ذلِك باستِغْراقه في مُشاهدة الله. هـ.

ثم قال رضي الله عنه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عِمرَان: الآية 2] هكذا في أكْثَرِ النُّسَخ وعليه اسْتمرَّ عمل الناس اليوم في قراءَتِها، وفي بعض النّسخ العتيقة تركها، وهو أصْوب، والله أعلَمُ، لأنه سيأتي في الآية بعدها مكرّراً بلفظِهِ فلا حاجة لزيادتِهِ، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

ثم قال رضي الله عنه: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عِمرَان: الآيتان 1، 2].

(ش) تقدَّم حديث أسماء بنت يزيد أنَّ النَّبِيّ ﷺ قال: «اسم الله الأعْظَم في هَاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [البَقَرَة: الآية 163]، وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عِمرَان: الآيتان 1، 2]» رواهُ أبو داود واللَّفظ له، والتِّرْمذي وابن ماجه وقال: حديث حسن صحيح.

(ش): اخْتُلِفَ في سائر حُرُوف الهِجَاءَ أوائل السُّوَر، وهي: ألَمّ، والمص، والرَ، والمر، وكهيعص، وطه، وطَسم، وطس، ويَس، وصّ، وحَم، وحَم عَسق، وقَ، ن.

قيل: من المتشابهِ فلا تفَسَّر. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لَهُ في كل كتاب سِرٌّ، وسِرّ القرآنِ فَوَاتح السُّوَر.

وعن علي رضي الله عَنْهُ: في كل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّي.

وقال المصنف في شرح الحِزْب الكبير: هذه من رمُوز الحق تعالى في كتابِهِ، وقد حارت العُقول في رموز الحكماء، فكيف بالعلماءِ، فكيف بالأنبياءِ، فكيف بالمرسلينَ، فكيف يُطْمَع في حقائق رموز رب العالمينَ هيهات. لا يدرك إلاَّ به ومِنْهُ، وهي إحاطتهُ، فلا يُمْكن ارتفاع الخِلاف عنها لكن قد يُفتح لبعض الخواصّ من نَفَحاتها على قَدْرهم لا على قَدْرِه. ثم قال: وجُمْلة الحروف ظاهر معناها من السُّورة، نصوصها مجموعة في كل قصّة من قصصها، وذلك وجه الكتاب العزيز في جُمَل نصوصِهِ. ولذلك قرنت كل ترجمة منها بذكر الكتابِ على صيغة تقتضي أنه عَيْن التَّرْجَمَة هـ.

وقيل: هي أسْمَاء السُّوَر، وقيل: أسماء الله. وقيل: أشياء أقْسَمَ الله بها لشرفها

من حيث أنَّها أُصُول اللُّغَات التي في كُتبه المنزَّلة، ومبادىء أَسْمائِهِ الكريمَة.

وقيل: إنها حُرُوفٌ مقطَّعة من كَلِماتٍ، فالألف مِنَ الله، واللام من جِبْريل، والميم مِن محمَّد ﷺ، والرَّاء مِن رَؤوف رحيم، والصَّاد من صَادِقٍ، والكاف مِن كَافٍ، والهاء من هَادٍ، واليَاء مِنْ حَكِيم، والعيْن من عَالِمٍ، والحاء من حَلِيمٍ، والميم من محمد، والسين من سَابِقٍ، والقاف مِن قاضٍ.

وقيل: إنها إشارة إلى صفات الأفعال، فالألف آلاؤهُ، واللام لطفُهُ، والرَّاء رحْمَتُهُ، والكاف كِفَايتهُ وكَفَالتُهُ، والهاء هِدَايتهُ، واليَاءُ ولايتُهُ، والعَيْن عِنَايتهُ، والصاد صِدْقُهُ، والحاء حمايتَهُ، والسّين سلامتهُ، والقاف قِدَمُهُ، وكل ذلك من قصص الأنبياء المَذْكورين فيها، حيْث ظَهَرَتْ عليهم آثار هذه الصِّفَات من النَّصْر والكِفَاية والحمايَة، وغير ذلك.

كما يُسْتدل بالاسم على الذَّاتِ، كذلك يُسْتَدل بكلِّ حَرْف من حُرُوف الاسْمِ على حقيقة الذَّاتِ. ووصف من أوصافها ذاتِي أو فِعْلِي، ولا يقتصر في دلالةِ الحَرْف على صِفة واحدة من الصفاتِ، بل كل صِفَة كانت مفتتحة بذلك الحرْفِ دال عليها الحرف، وقاعِدة ذلك: أنَّ كُلَّ اسْم مدح، وكُلّ حَرْف مِن حُرُوفِهِ يدلّ على صفة ذميمَةٍ، وكذلك سرّ من تعليم الله آدَمَ الأسماء كُلها، ونطقه بها بجميع اللغات، فكلُّ اسم دالّ على ما وُضع له بكله أو ببعْضِهِ، وعلى أنه اسم من أسماءِ الله.

ورد في الحديث: «إذا بَيّتم فقولوا: يا حَم لا ينصرون». قال أبو عبيدة: كأنَّ المَعنَى: اللهم لا يُنْصَرُونَ. وفي القوت عن علي: يا كَهَيْعَص أعُوذ بك من الذنوب التي توجب النقم، أوْ تُغَيّر النّعَم، أو تهتك العِصَم، أو تَحْبِسُ غيْثَ السَّمَاء، أو تذل الأعداء، فانصُرْنا على مَنْ ظلمَنَا.

وعن سيدي أبي عبد الله بن سلطان، أحد أصحاب الشيخ الشّاذِلي رضي الله عنهما، أنه رأى في نَوْمِهِ كأنه اختلف مع بعض الفقهاء في تفسير قوله تعالى: كَهيعص، حَم عسق. قال: فقلت: هي أَسْرَار بين الله تعالى وبين رسُولِه ﷺ وكأنَّه قال: كُن أنت كَهْف الوجود الذي يأوي إليه كل موجود، أنت كذا لوجودها هَبْنا لك المُلْكَ، وهَبْنا لك الملكوت. يَع. يا عَيْن بعيون. صاد صفات الله، مَن يطع الرّسول فقد أطاعَ الله، حَا. حَبَبْنَاكَ. ميم مَلَّكْنَاك. عيْن عَلَّمْنَاكَ. سين سَارَرْنَاكَ. قاف قَرَّبْنَاكَ. فنازعوني في ذلك ولَمْ يقبلوه مني. فقلت: نَسِير إلى النبيّ ﷺ لِيقْضِ بيننا. فسرْنا إليه فَلَقِينَا رَسُول الله ﷺ فقال لنا: «الَّذي قال محمد بن سلطان هو الحقُّ» هـ. وهذا يشير إلى أنها صِفات أفْعال.

فائدة: يُقال: إنَّ مَنْ عَقَدَ أصابِعَه بِحُرُوفها، أي كَهيعص، في مجلس مَن يُخاف منه حيث يُقابله سواء رآه أو لم يره، كانت له حِصْناً وقبولاً عظيماً، وإن أضاف إليها: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية 137] كان سِرّاً عجيباً. انتهى من شرح الحِزْب الكبير للبناني. ثم قال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: الآية 111].

(ش): عن أبي أمَامة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «اسْمُ الله الأعْظَم في ثلاث سُوَرٍ: البَقرة، وآل عمران، وطه». قال صاحب السلام، هو اسمه الحي القيوم، ويؤيده ما رواه النسائي والحاكم في المستدرك عن علي رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوم بَدْر، قاتلت شيئاً مَنْ قتال، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ أنْظُر ما صَنَعَ، فإذا هو ساجِدٌ يقول: يا حيّ يا قيوم، يا حَيُّ يا قيُومُ، ثم رجعْت إلى القِتَالِ. ثم رَجَعْت، فإذا هو ساجد لا يزيد على ذلك، ثم ذهبت إلى القتالِ، ثم رجعت فإذا هو ساجد يقول ذلك، حتَّى فتح الله علَيْهِ. قالَهُ صاحب السَّلام هـ مِن الجواهِرِ الحِسَان.

(ش): قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ [طه: الآية 111] أي: ذلّت وخَضَعت خضوع العناة؛ وهم الأسْرى في يدِ الملك القهَّار. وقوله: الوجوه، يقتضي العموم. ويجوز أن يراد بها المجرمون، فتكون اللاَّم بَدَل الإضافة، ويؤيده قوله تعالى بعدها: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: الآية 111] قاله البيضاوي. ثم ذكر المصنف آية الكرسي لما فيها منَ الخيْرِ العَظيم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] إلى ﴿العَظِيم﴾.

(ش): عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ سَنامٌ، وسَنَامُ القرْآنِ البَقرة، وفيها آية سيدة آي القرآن: آية الكُرْسي» أخرجه الترمذي. وعن أبي كَعْب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا منذر، أي آية من كتاب الله مَعكَ أعظم؟ قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] فضَرَبَ صدْرِي وقالَ: ليهنئك العلم أبا المنذر. ثم قال: والَّذي نَفْسي بيده، إنَّ لهذه الآية لسَاناً وشفتيْن تُقدّس الله عِنْدَ ساق العَرْشِ» أخرجه المغني وحديث أبي هُرَيْرة المشهور في البخاري وغيرهُ، حيث وكّله رسول الله ﷺ لحفظ زكاة الفِطْرِ فجاءهُ الشيطان فجَعَلَ يَحْثُو منها، فقال له: والله لأرْفَعَنَّكَ إلى رسول الله ﷺ. فشكا له حيلة وعيالاً، فتركَهُ. ثم عادَ. فقال له مثل ذلك، فلمَّا أعاد الثالثة أخَذَهُ فقال له: اتركني ونُعلمك آية إذا قرأتَها عِنْدَ النَّوْمِ لا يَقْربك شيطان، ولا يزال عليك مِنَ الله حافظ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] وناظره فيه مطوَّلاً.

فائدة: قال في نوادِرِ الأصول: لقِيَ جبريل موسى عليه السَّلامُ، فقال جِبْريل: إنَّ ربَّك يَقُولُ: مَن قال في دبر كلِّ صلاةٍ مكتوبة مَرَّة واحدة: اللَّهُمَّ إنِّي أُقدم إليك بَيْنَ

يَدي كُلّ نَفسٍ ولمْحَة وطَرْفة يطرف بها أهْلُ السماوات وأهْل الأرْض، وكل شيء هو في عِلْمِكَ كائِنٌ أو قَدْ كان، أقدّم إليك بين يدَيْ ذلك كُلّهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] إلى ﴿العَظِيمُ﴾ فإن اللّيْل والنَّهار أرْبع وعشرون ساعة ليس منها إلاّ ويصعد إلى الله منه فيها سبعونَ ألف ألف حسَنَة حتى يُنفَخ في الصُّورِ وتشتغل الملائكة بذلك.

قال الحكِيم الترمذِي: حصلنا ليلة، فبلغ ثمان مائة ألْف ألف، وأرْبعين ألفاً، وبالنَّهار مِثْلَهُ، فذلك كله ألف ألفِ وستمائة ألف ألف، وثمانون ألف ألف هذا اليوم وليلة، فحقيق أنْ تشتغل الملائكة بذلك هـ. قال سيدي عبد الرحمٰن الفاسِي: ومقتضاه أنّ آية الكرسي كانت لموسَى، وهو خلافُ حديث أبي أمامَة عن عليّ، عَن النبي ﷺ أنه قال: «أُعْطِيتُ آيَة الكُرْسي من كنز تحت العَرْشِ، ولم يوتها نَبِيّ قَبْلي» أخرجه أبو القاسم بن الطيلسَاني في مسلماته هـ قاله في الحاشية على الحِزْب الكبير، وسيأتي بعض فضائِلَها إنْ شاء الله.

(ش): الله لا إلٰه إلاّ هُوَ: مُبْتدأ، وخبره نفي الألوهية على كل إلٰه سِوَاهُ. وأثْبَت الألوهية له سبحانه وتعالى عن طريق لا بَلغية، فهو كقولك، لا كريم إلاّ زيد، فهُوَ أبلغُ من قولكَ: زيْد كَرِيمٌ. «الحي» الحي الدَّام بلا أول، الباقي بلا زوَالٍ، الذي لا سبيل عليه للمَوْت والفَنَاء؛ وهو إمّا خَبَر ثان أو خبر لمبتدأ محذوفٍ. «القيّوم»: أي القائم بالأمور. تقول: قام بالأمْرِ إذا حفظه أي دائم القيام بتدْبير الخلقِ وحفظه في إيصال المنافِعِ ودفع المضَار وجَلْب الأرزاق، وكل ما يحتاجُونَ إليهِ فهو بناء مُبالغة ولذا قريء القيّام والقيم. وقيل: هو الدَّائِم بلا زَوالٍ، الموجود الذي يمتنع عليه التغيير. وقيل هو: القائمُ على كُلّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ» أي المُجَازي لها بما فَعَلَتْ. فالحَيُّ القيوم مِنَ الأسْمَاءِ العِظَام، أسْماء الذَّات الكَريمة. قيل: هو اسم الله الأعْظم. وقد تقدَّم: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] السِّنَة ما يتقدَّم النَّوْم مِن الفُتُورِ، لقول علي في عينيه سِنَة وليس بنائِم. والنوم حالة تعرض للإنسان، من استرخَاءِ أعصابِ الدِّماغ، من رطوبات الأبخرة المُتَصَاعدة فَتَقف الحواسُّ الظاهِرة عن الإحساس رأساً، وتُقدَّم السِّنَة عليه، وقياس المُبالغة عَكْسُه على ترتيب الوجود. ونظيره قولهم: فلان فيلا ولا كثيراً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ [التوبَة: الآية 121] المراد بيان انتفاءِ عن وَضع شيءِ منها له سُبْحانه لعدم كونها من شأنه تعالى، قصداً إلى تَنْزِيهه تعالى عن الآفات البشرية، وتأكيد كَوْنه حيّاً قيُوماً، فإنَّ مَنْ أخَذَه نُعاس أو نَوْمٌ كان مؤقت الحياة، قاصراً في الحفظ والتَّدبير، ولذلك تَرَك العطف فيه وفي الجمل التي بعده لأنها كلها مقدرة له.

أخرج مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بِخَمْسِ كلماتٍ، قال: «إنَّ الله عَزَّ وجَلَّ لا يَنَامُ ولا يَنْبَغِي له أنْ يَنَامَ، يخفض القسْط ويرفعهُ، ويرفع الله عَمَلَ اللَّيل قبل عَمَلِ النَّهار، وعمل النهار قبل عمل اللَّيْل، حجابه النور ـ وفي رواية: النّارُ ـ لو كشَفه لأحرقت سُبُحات وجْهه ما انتهى إليه بَصَرُهُ من خَلْقِهِ».

وروى الطبراني بِسَنَدٍ عَنْ ابن عبّاسٍ في قوله: «لا تأخذه سِنَة ولا نَوْمٌ» إنَّ موسى عليه السلام سأل الملائكة: هَلْ ينام الله تعالى؟ فأوحى الله تعالى إلى المَلائكة أنْ يُرَافِقَهُ ثلاثاً فلا يَتْرُكُونَهُ يَنَام. ففعلوا، ثم أعْطوه قارُورَتَيْنِ وحذَّروه أن يكسّرهما. فجَعَلَ يَنْعَسُ ويَنْتَبِهُ، حتّى نَعِس نَعْسَة فضَرب إحْدَيْهما بالأخرى فكَسَّرَهما. قال مغني: إنما هو مثل ضَربَه الله تعالى يقول: فكذلك السماوات والأرض، لَوْ كان سُبْحانه وتعالى يَنَامُ لَمْ تَسْتَمسكَا. انظر الخازن.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [البَقَرَة: الآية 255]، تقرير لقيُّوميته تعالى واحْتِجاجٌ على تفرده في الألوهية. والمراد بما فيهما ما هم أعمّ من أجزائهما الدَّاخلة فيهما، والأمور الخارجية عنهما، المتمكّنة فيها مِنَ العقلاء وغيرهم، فهو أبْلَغُ مِنْ قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [الإسراء: الآية 44]، ومن قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ [المَائدة: الآية 120] يعني: أنَّ الله تعالى مَلك جميع ذلك من غير شَرِيكٍ ولا مُنَازع، فهو خالقهم، وهم عَبِيدُهُ، وإنما عبَّر بما لإجراء الغالب مجرى الكُلِّ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] هَذَا بيان لكبْرياءِ شأْنِهِ، وأنّه لا أحَدَ يُسَاويه أو يدانِيهِ ويسْتقل بأن يَدْفع ما يريده شفاعة واستكانة فضلاً أن يعاوقهُ عِناداً أو مُنَاصبة. قاله البَيْضاوي.

والاسْتِفهام إنكاري، أي لا أحد يشفع عنده فيمَن أراد تعالى عُقوبته، إلاَّ بإذنه، وذلك أنَّ المُشركين زعَمُوا أنَّ الأصْنَام تشفع لهم فأخبر تعالى ألاَّ شَفَاعة عِنده إلاَّ بإذنه سُبْحانه، يريد بذلك شفاعة النبيّ ﷺ وبعض الأنبياء والملائكة والمؤمنين بعضهم لبَعْضٍ.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] يَعْني ما بَيْن أيْديهم من الدّنيا، وما خلفهم من الآخِرة. وقيل عكْسُه؛ لأنهم يَقْدمون على الآخرة ويُخَلّفون الدُّنيا وراءَ ظهورهم. وقيل: يَعْلم ما كان قَبْلَهم وما كان بَعْدَهُم. وقيل: يعلم ما قدّموه بين أيْديهم من خَيْر أو شَرٍّ، وما خَلْفَهُم، ما هم فاعِلُوهُ أو عَكْسُهُ. والمُراد: أنّه سُبْحانه أحاط علمُه بالأشيَاءِ كُلِّها فلا يخفى عليه شيء مِن أحوالِهِم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] يُقال: أحَاط بالشيءِ إذا عَلِمَهُ، أي إذا عَلِمَ وُجوده وجنْسَهُ وقدره وحقيقَتهُ، فإذا عَلمَهُ ووقف عليه وجمعه في قلبه، قيل: أحاط بهِ. والمُراد بالعِلْم، المَعْلُوم، أي لا يحيطون بشيءٍ من معلوماتِ الله تعالى إلاَّ بما شَاءَ أن يُطلعهم عليه، وعطفه على ما قبلهُ لأن جمعهُ يُدل على تفرُّدِهِ بالعلم الذَّاتي التام، الدَّال على وحْدَانيته تعالى.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] يُقال: وسِعَ الشيء سعة، إذا احْتملهُ وأطاقَهُ، وأمْكَنه القيام بِهِ. وأصلُ الكُرْسي في اللُّغَة: مِن تَرَكُبِ الشَّيْءِ بعضه على بعض. ومنه الكُرَّاسة، لتركُّب بعض أوْراقها على بعضٍ، والكُرْسيّ في اللّغةِ: اسْم لما يُقعد عليه، سُمّي به لتركّب خشباتِهِ. واختلف في المُرَادِ به هنا: فقيل: العَرْش. قاله الحسَن. وقيل غيره؛ وهو إمامه فوق السماوات السَّبْع، ودون العَرْش، قاله السّدّي. قال: «إنَّ السماواتِ والأرض في جَوْفِ الكُرْسي كَحَلقَةٍ في فلاةٍ. والكُرسيّ في جانب العَرْش كَحلقَة في فَلاةٍ. وعن ابن عبَّاسٍ: إنَّ السماوات السبع في الكرسي كدارهم سَبْعة في ترْس. وقيل: إنَّ كلَّ قائمة من قوائم الكُرْسي طولها مثل السماوات والأرض. يحمل الكرسي أربعة أمْلاك لكُلّ مَلك أرْبعة وجوه، وأقدامهم على الصَّخرة السُّفلى. مَلَكٌ على صُورة آدَمَ، وهو سيل الرِّزق والمطر، مِنَ السنة إلى السنَة، ومَلَك على صورة الثَّوْر وهو سيل الرزق للأنعام كذلك. وملك على صورة السبع وهو سيل الرزق للوُحُوش كذلك، ومَلَك على صورة النَّسْرِ وهو سيل الرزق للطيور طول السنة.

وعن بعض الأخْيَار أنَّ ما بين حَلقة العَرْش وحَمَلة الكُرْسي سَبْعِين حجاباً من ظلمات، وسبعين حجاباً من نُورٍ، غلْظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، ولوْلاَ ذلك لأحْرَقت حملة الكرسي من نور حملة العرْش. وقيل: كُرْسيّه: عِلْمُهُ. البَيْضاوي: هو تصويرٌ لعظمَتِهِ وتمثيل مجرَّد كقولِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: الآية 67] ولا كُرْسي في الحقيقة، ولا قَاعِد، وقيل: كُرْسيه: مجاز عن عِلْمِهِ أو مُلْكِهِ، مأخوذ من كُرْسيّ العالِم أو المَلِك، وقيل: هو جِسْمٌ بين يَدَي العَرْش، ولذلك سُمِّي كُرْسياً محيطاً بالسماواتِ السَّبْع لقوله عليه الصَّلاة والسلام: «ما السماوات السَّبع والأرَضُون السَّبْع في الكرسي إلاَّ كحلقَةٍ في فَلاَةٍ»، وفضل العَرْش على الكُرْسي كَفضلة تلك الفلاة على تكلُم الحلقة ولعلَّه الفلك المشهور بفُلك البُرُوج، وهو في الأصْلِ: اسم لما يُقْعَد عليه ولا يَفضل عن مَقْعَد القاعِدِ وكأنه منسُوب إلى الكُرْسي، وهو الملك. هـ.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] أي لا يثقُلُه. مأخوذ من الأوْد، وهو الاعْوِجاجُ.

قال في القاموس: يأوَد أوَداً: أعْوَج. لا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حِفْظ السماوات والأرض، أضيف المَصْدر إلى المفعول ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] المتعالي عن الأشباه والأنداد ﴿العَظِيمُ﴾ أي عَظِيمُ الشَّأنِ، جليل القَدْر، الذي يُسْتحقر كل شيء دون عَظَمته. البيضاوي.

وهذه آية مشتملة على أمَّهاتِ المسائل الإلهية فإنها دالَّة على أنَّه تعالى موجود واحد في الألوهية، متصف بالحيَاة، واجِب الوجود لذَاتِهِ، مُوجِدٌ لِغَيْرِهِ، إذ القيّوم هو القائم بنَفْسه، المُقيم لغَيْره، منزَّه عَن التَّحيز والحلول مُبَرَّأً مِنَ التَّغيُّر والفتور لا يُناسِبُ الأشبَاحَ ولا يَعْتَرِيه ما يَعْتري الأرواح، مالِكُ المُلْكِ والمَلكُوت، ومبدع الأصول والفروع، ذو البَطْش الشديد الذي لا يُشفع عنه إلاَّ مَن أذن له. عَالِمٌ بالأشْيَاء كلِّها جَليها وخفيها، كُلِّيها وجُزْئيها، واسِع المُلْكِ والقُدْرة كل ما يصحّ أن يملك يقدر عليه لا يَؤُوده شأنٌ، ولا يُشغله شأنٌ، مُتَعالٍ: لا يُدْركُهُ وَهْمٌ، عَظِيمٌ لا يحيط بِهِ فَهْمٌ، ولذلك قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنَّ أعْظَم آية في القرآن آية الكُرْسِي من قرأها بَعَثَ الله مَلكاً يكتب من حسناته، ويَمْحُو من سيئَاتِهِ إلى الغَدِ من تِلكَ السَّاعَة». وقال: «مَنْ قَرأ آيَة الكُرْسي دُبر كُلّ صَلاةٍ مَكْتُوبة لم يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُول الجَنَّةِ إلاَّ المَوْت، ولا يُوَاظِب عليها إلاَّ صِدِّيق أوْ عابدٌ، ومَن قرأها إذا أخذ مَضْجَعَهُ أمَّنَهُ الله على نَفْسِهِ وعلى جارِهِ وجَار جَارِهِ والأبيات حَوْله» هـ مِنْهُ.

وقال عليه الصلاة والسَّلامُ: «ما قُرِئَتْ هذه الآية في دَارٍ إلاَّ هجَرَته الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحرٌ ولا ساحِرَة أرْبعين. يا علي، عَلِّمْها وَلَدك وأهْلك وجيرانَكَ فما نزلت آية أعْظم منها».

وقال عليه الصَّلاة والسَّلامُ: «سَيِّد البَشَر آدم، وسيّد العرب محمد ﷺ، ولا فَخر، وسيِّد القرآن البَقَرَة، وسيّد البقرة آية الكُرْسي»، ثم قال: «بِسْم الله الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم. ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: الآيات 1-3].

(س): عَن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ قرأ حين يُصْبِح آية الكُرْسي وآيتين من أوّل ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: الآيتان 1،2] حُفِظَ يَوْمه ذلك حتى يُمْسِي، ومَن قرأهما حين يُمْسي حُفظ لَيْلَته تلك حتى يُصْبح» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

(ش): قوله: حَم. تَقَدَّم الكلام على فَوَاتح السُّور. ويُقْتصر حَم بأنَّه ذلك، قيل: معناه حَم الأمْر، أي قصر. وقال ابن عبَّاسٍ: الر وحم ونون، هي حروف

الرَّحْمٰن، قوله: تنزيل الكتاب: مُبْتدأ وخبره مِن الله أو خبر عن مُبْتدأ مُضمَر، تقديره: هذا تنزيل من الله. على هذا يتعلَّق بتنزيل أو يكون خبراً بعد خَبَرٍ، مبتدأ آخر محذوف. والكتاب هُنا: القرآن أو السُّورة. وأجاز ابن عطية، أنْ يُراد به جِنْسُ الكُتب المنزَّلة. انتهى من ابن جُزَيٍّ.

وقوله: العزيز، أي الغالب. وقوله: العليم، أي المطلع على حقائق الأشياء، خَفيّها وجَليها. ولعلَّ تَلْخيص هذين الوصفين لما في القرآن مِنَ الإعجاز والحِكم الدَّال على القدْرة الكامِلَة، والحِكمَة البالغة.

وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [غَافر: الآية 3] أي ساتره وماحيه. وقوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غَافر: الآية 3] أي قابل التَّوْبة من عِبَادِهِ التَّائِبينَ. والتَّوْب مَقْدَّر كالتوبة، وقيل جَمْعُهَا. وقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المَائدة: الآية 98] أي مشدّدهُ، أو الشديد عقابه، فحذف اللاَّم للازدِوَاجِ وأمْنِ الإلباس. وقوله: ذي الطَّوْل: أي ذي الفَضْل والإنْعَام، وقيل: الطول: الغنى والسعة، والإضافة في هذه الأوصاف حقيقة على أنه لم يرد زمان مخصوص وأتى بهذه الأوصاف بعد ذِكر الكتاب لتحقيق ما فيه من الترغيب والتَّرهيب، للحثّ على ما هو المقصود منه، مِنَ الاتِّباع ووسط الواو بين الأولَيْن لإفادة الجمع بين محْوِ الذُّنُوبِ وقبول التوبة والتغاير الوصفين، إذ رُبَّما يتوهَّم الاتحاد أوْ تغاير موقع الفعلين لأنَّ الغَفْرَ هو السّتر، فيكون الذَّنب باقياً لمَنْ لم يَتُبْ، فإنَّ التَّائب مِنَ الذَّنبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ له. ووحَّد سُبْحانه صفة العَذَاب، مغمورة بأوصاف الرَّحمة السَّابقة واللاَّحقة له، لرجحانِها.

«إن رحمتي سبقت غضبي» اللهُمَّ غشِّنَا برحمتك الواسِعة وحفنا برعايتك الكافية يا أرْحَم الرَّاحمين. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البَقَرَة: الآية 163] أي لا يسْتحق العبادة غيره، لأنه لا يتصف بهذه الأوصاف أحد سِوَاهُ. وقوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غَافر: الآية 3] أي المَرجعُ بالمَوْت والبعث، فتظهر آثار أوصافِهِ بالطَّوْلِ والإحْسان على التَّائِبين والانتقام بالغَضَبِ على الكافِرينَ والمصرِّينَ.

ثم أتى بخاتِمَة البقرة لما يذكر فيها، فقال: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [البَقَرَة: الآية 284] إلى آخر السورة».

(س): في الصحيحين عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «آيتان من سورة البقرة، من قرأها في ليْلَة كَفَتَاهُ» معنَاهُ: كفتاهُ مِنْ كلِّ ما يحذر، من كل هامَّة وشيطان، فلا يَقربه في تلك الليلة. وقيل: كفتَاهُ من قيام اللَّيْلِ.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه قال: بينما رسُول الله ﷺ عنده جِبْريل إذ سمع

نقيعاً من حوله، فرفَع جِبْريل بصره إلى السَّمَاء فقال: هذا بابٌ مِنَ السَّماءِ فُتح اليَوْم، لم يُفتح قطُّ إلاَّ اليَوْم. فنزل منه مَلَك فقال: هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض لَمْ ينزل قط إلاَّ اليوم. فَسَلَّمَ وقال: أبْشِر بنُورَيْنِ أوتيتهما لَمْ يوتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فاتحة الكتاب وخواتم سُورة البقرة. أن تقرأ بحرف إلاَّ أُعطيته». رواه مُسْلِمٌ.

وعَنِ النُّعْمان بن بشير رضي الله عنه، عَنِ النبي ﷺ قال: «إنَّ الله كَتَب كتاباً قَبْل أنْ يخلق السماوات والأرض بألْفَي عَام، أنزل منه آيتين خَتَم بهما سُورة البقرة ولا يُقرآن في بيت فَيَضرّ به شيطان في ثلاث لَيالٍ» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

(ش): قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: الآية 284] ملكاً وخلقاً وعبيداً. ﴿وَإِن تُبْدُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية 284]: أي تُظْهِروا للنَّاس ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 235] من السُّوءِ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البَقَرَة: الآية 284] تَسُرُّوهُ ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية 284] أيْ يُجَازيكم عليه. ومقتضى الآية المحاسبة على ما في نفوس العباد من الذّنوب سواء أبْدَوْه أو أخْفَوهُ. ثم المعاقبة على ذلك لمن يشاء الله أو الغُفْران لِمَن شاء الله، وفي ذلك إشْكَال المعارفة لقول رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تَجاوَز لأُمَّتي ما حدّثت به أنفسها» وأُجيب عن ذلك بأن الآية مَنْسُوخة بما بعدها، وسيأتي حديث أبي هُرَيرة، وقيل: هذا في الخواطر المَعْزوم على إظهارها، دُونَ التي لا تتمَكّن في القَلْبِ.

قال ابن المُبَارك: سألتُ سُفيان، أيُؤاخذ الله بالهِمَّة، قال: إذا كانَتْ عَزماً. وقيل: خاصّ بكتْمَانِ الشَّهادة، وهو ضعيف. وقيل: تقع المحاسبَة على الجميع لله تعالى عُقوبة الخواطِرِ في الدُّنيا بالمصائب والأحْزَانِ والأمراض، ويؤخر عقوبة ما أظهروه إلى الآخِرة.

وفي حديث: سُئلت عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية، وعن قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: الآية 123] فقالت: سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «هذه مُعَاقبة الله للعَبْدِ بما يُصيبه مِنَ الحُمَّى والنَّكبة حتى البضاعة يضعها في جيبه فيفقدها، فيحزن عليها» هـ. وقال ﷺ: «إذا أرَادَ الله بعَبْدِهِ الخَيْر عجَّلَ له العُقوبة في الدُّنيا، وإذا أراد بعَبْدِهِ الشَّر أمْسَكَ عليه العُقوبة بِذَنْبِهِ حتى يوافيه يوم القيامة». وقيل: مَعْنَى المحاسبة، الإخبار والتعريف، فترجع المحاسبة إلى كَوْنِهِ تعالى أحاط عِلْمُه بالسَّرَائر والظواهر، أي وإن تُبْدُوا ما في أنفسكم فتعلموا به أو تخفوه نويتم ذلك يُحَاسِبكم به الله، أي يُخَبركم به ويُعَرّفكم إيَّاه، ثم يغفر للمؤمنين فضلاً ويُعَذّب الكافرين عَدْلاً. يَدُلُّ على هذه، قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُم﴾ [البَقَرَة: الآية 284] ولم يقل: يُعَاقِبْكُم.

تنبيه: إنما قَدَّم الإبْدَاءَ على الإخفاء عكس قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 29] لأن المعَلَّق به هنا المُحَاسَبَة. والأصل فيها: الأعمال الظَّاهرة. وأما الآية الأُخْرى فالمُعَلَّق به العِلْمُ، ويستوي الظَّاهر والباطنُ لأنه سُبْحانه يَعْلَم السَّرائر، كما يعلم الظَّوَاهر، ولمَّا كان ما يَبْدُو على الظَّاهر يتقدَّم له إضْمارٌ في البَاطِنِ كان مُقَدَّماً في الوجودِ، فتعَلَّق علمه سبحانه بالباطِنِ قبل الظاهر انظر أبا سَعود. ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية 284] مغفرته ويعذِّب من يشاء تَعْذيبه، وهو صَريح في نفي وجوب التَّعْذيب. وقد رفعه ابن عامرٍ وعاصِم ويعقوب على الاستناف وجزمَهُمَا الباقونَ عطفاً على جَوَابِ الشَّرْط، وقدَّم المَغْفِرة لسَبْقيتها: «إن رحمتي سبقت غضبي»، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية 284] فيقْدِرُ على الإحياء والمحاسبَة. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية 285] شهادة تصنيف من الله على صحة إيمانه والاعتداد به، وأنه جازم في أمره غير شك فيه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية 285] إما عطف على الرسول أو مبتدأ خبره ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية 285] فعَلَى العَطفِ يكون الضمير الذي ينوب عنه التنوين عائداً على الرسول والمؤمنين وعلى الابتداءِ يكون خاصّاً بالمؤمنين. والجملة من كلٍّ خَبَره وإفراد الرسول حينئذ بالحكم إما لتعظيمِهِ أو لأنَّ إيمانه عَنْ مشاهدةٍ وعيانٍ، وإيمانُهُمْ عن نَظر واستدلالٍ. ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية 98] أي يُصَدِّق بوجودهم وأنّهم معصومُونَ مُطَهَّرون وأنّهم وسائط بين الله تعالى ورُسُلِهِ ليسوا بذكور ولا بإناثٍ، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يَتَناسلُونَ يُسَبِّحون اللَّيل والنَّهار لا يفترُون. لا يَعْصون الله ما أَمَرَهُم ويَفْعَلُون ما يُؤمَرُونَ. ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية 285] أي المُنَزَّلة على رُسُلِهِ بأنّها حقٌ وصِدْقٌ، من عند الله تعالى من غير شكٍّ ولا ارتيابٍ وأنَّ القرآن لم يُبَدل ولم يحذف، وأنه مشتمل على المحكم والمتشابه. وأن محكمه يكشف عن متشابِهِهِ.

وقرأ حمزة والكسائي «وكتابه» يعْني القرْآن أو الجِنْس، والفَرْق بينه وبين الجَمْع أنه شائع في واحدٍ، إن الجنس والجمع في جموعِهِ ولذلِكَ قيلَ: كتابه، أكثر من كتبه.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية 98] أي بأنهم رسل الله إلى عباده، وأمناؤه الروحية، وأنهم معصومُونَ وأنهم أفضل خلق الله، وأن بعضهم أفضل من بعضٍ. وقد أنكر بعضهم ذلك متمسكاً بقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية 285] وأُجيب بأنَّ المقصود مِن الآية الرَّد على اليهود والنصارى الذي يُقرُّونَ بنُبُوءَةِ موسى وعيسى، وينكرون نبوءَة محمَّد ﷺ. وقد ثبت النصُّ الصريح بتفضيل بعضهم على بَعْضٍ بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البَقَرَة: الآية 253] والمعنى: لا نُفرِّقُ بين الأنبياء فنؤمن ببعضٍ ونكفر ببعْضٍ كما فعلت اليهود والنَّصارى بل نُؤمِن

بالجميع. وفي الآية إضمار تقديرهُ: يقولون، وقرأ يعقوب: لا يفرق بالياء على أن الفِعل لكلٍّ. وقرىء: لا يفرّقون بالجمعِ حمْلاً على معناه كقولِهِ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النّمل: الآية 87] واحد في سياق النّفي. كقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحَاقَّة: الآية 47] وكذلك داخرين. قاله البيضاوي. وقال ابن جُزَيّ: والمعْنَى: لا نُفرِّق بين أحدٍ من رُسُله وبين غيرِهِ. اهـ.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البَقَرَة: الآية 285] أَمْرَكَ. ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البَقَرَة: الآية 285] أي نطلب غفرانك ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: الآية 285] أي المرجع بعد الموت، وهو إقرارٌ منهم بالبعثِ.

ومن قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البَقَرَة: الآية 285] إلى هنا، مَدْح للصحابة رضي الله عنهم، وسببها ما رواه أبو هريرة رضي الله عَنْهُ قال: لمَّا نزلَت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية 284] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ وبَرَكُوا على الرُّكَبِ، وقالوا: يا رسول الله كُلِّفنا مِنَ الأعمال ما نطيق، الصَّلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد نزلَتْ عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتُرِيدون أنْ تقولوا كما قال أهْل الكِتابيْن: سَمِعْنا وعَصَيْنَا. بل قولوا: سَمِعْنَا وأطعْنَا غُفْرانك ربَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ». فلمَّا اقتداها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ إلى ﴿الْمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: الآية 285] فلما فعلوا ذلك نَسَخَها الله تعالى فأنزل قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: الآية 286] إلا ما يَسَعُهُ قدرتها فضلاً ورحمة، وهو يدُلّ على عَدَم وقوعِ التكليف بالمحالِ ولا يدلّ على امتناعِهِ وهو جائز عَقلاً عند الأشعرية، وممتنع عقلاً عند المعتزلة. واتفقوا على عدم الوقوع ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: الآية 134] من خيرٍ ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: الآية 286] من شرٍّ. لا ينتفع بطاعتها ولا يتضرر بمعاصيها غيرها، وتخصيص الكسْبِ بالخير والاكتساب بالشرّ لأنَّ في الاكتساب ضرب من التعمُّل حسبما تقتضيه صيغة افتعل، والشرّ تشتهيه النفس وتنجذب إليه فكانت أجدّ في تحصيله وأعْمل بخلاف الخير. والتنبيه على زيادة اللطف، وكمال الفَضْل حيث يثيبُهُ على الخَيْر كيفما وقع ولا يُعاقب على الشرّ إلاّ بعد الاعتمال فيه وقوة التصرّف.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البَقَرَة: الآية 286] أي قُولُوا ذلك، فهو تعليم من الله لعبادِهِ كيف يَدْعُونَهُ، أي لا تؤاخِذْنا بما أدّى بنا إلى نِسْيَان أو خطأ من تفريط وقلّة مُبَالاةٍ أو بأنفسهما إذْ لا يمْتنع المؤاخذة بهما عَقلاً فإنَّ الذنوب كالسُّمُوم، فكما أنَّ تناولها يؤدّي إلى الهلاكِ وإن كان خطأً فتعاطي الذُّنُوب لا يبعد أن يفضي إلَى

العِقَابِ وإنْ لَمْ يكن عزيمَة لكنَّه تعالى وعَدَ التجاوُز عنه رَحْمَة وفَضلاً، فيجُوز أن يَدْعو الإنسان به استمادة واستعداداً بالنعمة فيه. ويؤيد ذلك مفهوم قوله عليه الصَّلاة والسلام: «رُفِعَ عن أُمَّتِي الخَطأ والنِّسْيَان» قالهُ البيضاوي.

وانظر الخازن في بَسْطِ البَحْث والجواب: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ [البَقَرَة: الآية 286] عِبْئاً ثَقِيلاً يأصُرُ صاحبه أي يحبسه في مكانِهِ. يريد به التكاليف الشَّاقة. وقرىء: ولا تُحَمِّل بالتَّشديد للمبالغة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البَقَرَة: الآية 286] حَمْلاً مثل حَمْلِكَ إيَّاه مَنْ قبْلَنا، أو مثل الذي حَمَّلْته إيَّاهم، فيكون صِفة لإصْر. أو المراد به ما كَلَّفَ بني إسْرَائيل مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ وقطعِ مَوْضع النَّجاسَةِ وصَرْف ربع المال إلى الزَّكاةِ وما أصابَهم من الشَّدَائِد والأهْوَالِ والمِحَنِ.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية 286] مِنَ التكاليف التي لا تَفِي بها الطاقة البشرية، وهو يدلُّ على جواز التكليف بما لا يُطاقُ إلا لما سُئِل التخلص عنه. ابن جُزَي.

وتحقيق ذلك: أنَّ ما لا يُطاق أرْبَعَة أنواع:

الأول: عقلِي محض، كتكليف الإيمان لمَنْ عَلِمَ الله أنَّه لا يُؤْمِنُ. فهذا جائز واقع باتِّفَاقٍ.

والثاني: عادي، كالطيرانِ في الهَوَاء.

والثالث: عَقْلِي وعادِي، كالجَمْع بين الضِدّين فهذان وقع الخِلافُ في تجاوز التكليف بهما، والاتفاق على عَدَمِ وقوعه.

والرَّابع: تَكْلِيفُ ما يَشُقُّ ويَصْعَبُ، فهذا جائز اتفاقاً، وقد كَلَّفَهُ الله على مَنْ تقدَّم مِنَ الأُمَمِ، ورفَعَهُ عن هذه الأُمَّةِ.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ [البَقَرَة: الآية 286] وامْحِ ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [البَقَرَة: الآية 286] واسْتِر عيوبنا ولا تَفْضَحْنا بالمؤاخذةِ ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البَقَرَة: الآية 286] وتعطَّف بنا وتفضَّل علينا ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البَقَرَة: الآية 286] سيّدنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 286] فإنَّ من حَقّ المَوْلى أنْ يَنْصُر مواليه على الأعْدَاءِ. والمراد به عامَّة الكَفَرَة.

وفي حديث أبي هريرة المتقدم: فأنزل الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البَقَرَة: الآية 286]، قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البَقَرَة: الآية 286] قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 286] قال: نعم. أخرجه مسلم.

وفي رواية ابن عبّاسٍ: قد فعلت في الجميع اهـ، فللّه الحمدُ وله الشكر، ثم أتى بسورة تعدل رُبُع القرآن، فقال: «بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافِرون: الآية 1] إلى آخرها، مرّة عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لما نزلت: «تَعْدل نصف القرآن. وقل هو الله أحَد، تَعْدل ثلث القرآن. وقُلْ يا أيُّها الكافِرونَ تعدل رُبُع القرآن». رواه الترمذي والحاكِم كلاهما عن يمان بن المغيرة العَنْزِي. قاله المُنْذِري.

(ش): ابن جُزَي: سبب نزول هذه السورة أنَّ رهطاً من قريش، منهم الوليد بن المغيرة، وأُمَية بن خلف، والعاصي بن وائل، وأبو جهل، ونظراؤهُم قالوا: يا محمد اتبع ديننا ونتبع دينك، اعبد آلهتنا سَنَة ونَعْبُد إلٰهك سنة. فقال: «معاذ الله أن نُشْرِك بالله شيئاً». ونزلت السورة في مَعْنَى البراءة مِن آلهتهم. ولذلك قالﷺ: «مَنْ قرَأها فقد بَرِيءَ مِنَ الشِّرْكِ».

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافِرون: الآية 1] يعني كَفَرَة مخصوصين، قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافِرون: الآية 2] فيما يُسْتقبل، فإنَّ لا، لا تَدْخل إلاَّ على مضارع مستقبل، كما أنَّ ما لا تَدْخل إلاَّ على مضارع بمعنى الحال. ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافِرون: الآية 3] أي فيما يستقبل، لأنه في قران لا أعْبُدُ. ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ [الكافِرون: الآية 4] في الحال وفيما سَلَفَ. ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافِرون: الآية 3] أي في الحَالِ، يعني ما تَعْبُدونه أنتم في أي وقتٍ لا أعْبُده أنا. وأما ما أعبده أنا فلا تعبدونه أنتمُ، وهذا في قوم مخصوصين ماتوا على الكفر، كأبي جَهْلٍ والوليد بن المغيرة والعاص بن وَائلٍ والأسْود بن عبد المطلب، وأمية بن خَلَف وغيرهم ممَّن ماتُوا كُفَّاراً. وإنما لم يقل: ما عبَدتُّ، ليُطابق ما عَبَدتُّمْ لأنهم ماتوا مسومين بعبادة الأصْنَام قَبْل البعثة بخلاف ﷺ، فَلَمْ تتحقق له عبادة الله سبحانه إلاَّ بعد البعثة. قاله البيضاوي.

إنَّما قال: ما دُونَ مَن في الثاني لأنَّ المراد الصفة كأنه قَالَ: لا أعْبُد الباطِلَ، ولا تعبدون الحقَّ. أو للمطابقة، وقيل مصدرية، أي لا أعْبُد عبادتكم ولا تَعْبُدونَ عبادتي، وهو ضعيف.

ثم أتى بسُورة النَّصْرِ؛ وهي تَعْدِلُ رُبُع القرْآن أيضاً فقال: «بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: الآية 1] إلى آخرها مَرَّة.

(س): عَن أنس رضي الله عنه، أنَّ رسُولُ الله ﷺ قال لرجُلٍ من أصْحَابِهِ: هَلْ تَزَوَّجْتَ يا فلان؟ قال: لا والله يا رَسُولِ الله، ولا عِنْدِي ما أتزوج بِهِ. قال: ألَيْسَ

عندكَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية 1] ، قال: بَلَى، قال: ثلث القرآن. قال: أليسَ معَكَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: الآية 1] ؟ قال: بَلَى. قال: رُبُع القرآن. قال: أليسَ معك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: الآية 1] ؟ قال: بَلَى. قال: رُبُع القرآن، قال: أَلَيس معك﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الزلزلة: الآية 1] ؟ قال: بَلَى. قال: ربع القرآن، تزوَّج تزوَّج». رواه الترمذي، عن سلمة بن ودال عن أنس، وقال: هذا حديث حسن اهـ، قاله المنذري.

(ش): ابن جُزَي: سأل عُمَرَ بن الخطاب جماعةً من الصَّحَابَة عن معْنَى هذه السُّورة، فقالوا: إنَّ الله أمَرَ رسوله عليه السلام بالتسبيح والاسْتِغْفَار عند النصر والفَتْح، فقال لعبد الله بن عباس بمَحْضَرِهم: ما تقول أنت يا عبد الله؟ فقال: هو أجَلُ رسُول الله ﷺ أعْلَمَه الله بقرْبِهِ. فقال عُمر: ما أعلمُ منها إلاَّ ما عَلِمتَ. وقد قال بهذا ابن مسعود وغيره. ويؤيده قول عائشة لرسول الله ﷺ لمَّا فُتِحت مكَّة، وأسْلَم العَرب، جعل يكثر، أي يقول: «سُبْحانَكَ اللَّهُمّ وبحمدكَ. اللَّهُمَّ إنِّي أسْتغفركَ بتأول القرآن، أي هذه السورة، وقال لها مرَّة: ما أرَاه إلاَّ حضور أجَلِي». وقال عمر: نزلت هذه السورة بمِنَى أيَّام التشريق. وعاش النبيّ ﷺ بعدها ثمانين يوماً أو نحوها. وقال ابن مَسْعُود: هذه السّورة تسمَّى سورة التوديع. اهـ.

البيْضاوي، والأكثر على أنَّ السُّورة نَزَلتْ في قصّة مكَّة، وإنه نَعَى الرسول ﷺ نفسه، لأنَّهُ لمَّا قرأها بَكَى العباسُ، فقال له عليه السَّلامُ: «ما يُبْكيكَ؟ فقال: نُعِيتْ إليك نَفْسُك، فقال: إنه لك ما تقول. ولعَلَّ ذلك لدلالتها على تمام الدَّعْوة وكَمَال أمْر الدِّين»، فهو كقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: الآية 3] ألاَ ولأنَّ الأمر بالاستغفار تنبيهٌ على دُنُوّ الأَجَلِ لهذا سُميَتْ سُورة التَّوْديع.

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: الآية 1] أي إظهاره إيَّاك على أعْدَائِكَ. وقال ابن عبَّاس: نَصْرُ الحديبية. «والفتح» فتح مكَّة اهـ.

وقيل: المراد جنْس نَصْر الله للمؤمنين وفتح مكَّة، وسائر البلاد عليهم. وإنَّما عبَّر عن الحُصُول بالمجيء تَجَوّز الإشعار بأن المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة، فتغرب منها شيئاً فشيئاً، وقد قرب النَّصْرُ من وَقْتِهِ، فكُنْ مترقباً لورودِهِ مستعداً لشكرِهِ.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: الآية 2] أي جماعات كثيفة كأهل الطَّائف واليمن وهَوَازِن وسائر قبال العَرَب.

ابن جزي: فقد رُوي أنَّ رسول الله ﷺ كان معه في فتح مكَّة عشرة آلافِ وكان

مَعَهُ في غزوة تبوك سبعون ألْفاً. وقال عمر بن عبد البَر: لم يمت رَسُول الله ﷺ، وفي العَرب رَجُلٌ كافِرٌ. وقيل: إنَّ عدد المسلمين عند مَوْته عليه السلام مائة ألفِ وأربعة عَشرَ ألفاً. اهـ.

وقوله: يَدْخُلُون، حال، إن كانت الرؤيا بصرية أو مفعولاً ثانياً إن كانت عِلمية.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحِجر: الآية 98] أي نَزّهه تعالى كما كانت الظلمة تقول حامداً له على صِدْقٍ وعَدْلٍ أو فأثن على الله بصفة الجلالِ حامداً له على صفَة الإكرام والجمال. أو فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر بِبَال أحَدٍ حامداً له أو فَصَلِّ له حامداً له على نِعَمِهِ. ﴿واسْتَغْفِرْهُ﴾ هضماً لنفسك واسْتقصاراً لعلمك، وعَنْه عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله في اليوم واللَّيْلة مائة مرَّة».

وقيل: اسْتغفِرْ لأمَّتِكَ. وتقديم التسبيح، ثم الحمد على الاسْتِغفار على طريق النزول من الخالق إلى الخلق. كما قيل: ما رأيْت شيئاً إلاَّ ورأيْت الله قَبْلَه اهـ، مِنَ البيضاوي.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: الآية 3] لِمَن اسْتَغفر مذ خَلَق المكلفينَ. وفي الحديث: إنَّ إبْليسَ لعنَهُ الله قال لرَبِّهِ: وعِزَّتِكَ لا أبْرَح أغْوي بني آدَمَ ما دامَتِ الأرواح فيهم. فقال الله لَهُ: فَوَعِزَّتي وجلالي لا أبْرَح أغفر لهُمْ ما اسْتَغْفَرُوني». وإنما أمرهُ الله تعالى بالتسبيح والاسْتغفار عند رؤية النَّصرْ والفتح، واقتراب الأجَلِ ليكون شكراً على النَّصْرِ والفَتْحِ، وزَادَ الآخِرة واللقاءِ هذا وقراءة هاتَيْن السّورتين في الوظيفة مرَّة واحدة بخلاف الباقِي، ثم أتى بِسُورة الإخلاص، لما وَرَد فيها من الخَيْر الكثير أو الأجْر الكبير، فقال: «بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية 1] إلى آخرها» ثلاثاً.

(ش): عن عبْد الله بن حبيب رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ: «قُلْ هُوَ الله أحَدٌ والمعوِّذَتَيْنِ ثلاثاً صبحاً، وثلاثاً مسَاء، تَكْفيكَ من كل شَرّ» أخرجه الترمذي وأبُو داود والنسائي، وقال: حديث حسَن غريب. وأخرجه البُخاري ومُسْلم، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «قُلْ هو الله أحَدٌ ثلث القرآن»، وفي رواية البُخَاري: «تَعْدِل ثلث القرآن». وأخرج مُسْلم والترمذي أنَّ الرسول ﷺ سمع رجُلاً يقرؤها فقال: «وجَبَتْ لهُ الجَنَّة». وفي رواية النَّسائي: «أما هذا قدْ غفر لهُ». والحديث المشهور في الصَّحيحين في الرجل كان يُصَلِّي بقومِهِ ويخْتم بها. فقال النَّبِيُّ ﷺ: «إسْألوه ما حَمَله على ذلك. فقال: لأنها صفة الرَّحْمٰن فأنا أُحِبُّ أنْ أقرأها. فقال رسول الله ﷺ: أَخْبِرُوه بأنَّ الله يحِبُّهُ».

وفي رواية الترمذي: أنَّ رسول الله ﷺ قال للرَّجُل: «حُبّك إيَّاها أدْخلَكَ الجَنَّة».

وأخرج الترمذي: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرأ قُلْ هُوَ الله أحَدٌ، مائتي مَرَّة في كُلِّ يوْمٍ غفر له ذنوب خمسين سنة إلاَّ أن يكون عليه دَيْنٌ».

وعن عَبْد الله بن الشخير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ قُلْ هو الله أحَدٌ في مَرَضِهِ الذي يموتُ فيه لَمْ يُفْتَنْ في قَبْرِهِ وأمن مِن ضغطَة القَبْر وحمَلَتْهُ الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه الصّراط».

وقال صاحب التَّذكرة: هذا حديث حسَن غريب. وحديث يزيد تفرَّدَ به. نصَّ به ابن حَمَّاد. قلت: وقد رواهُ أبو نعيم في حِلْيَتِهِ بهذا اللفظ. اهـ، قاله الثعالبي في علوم الفاخرة.

ورُوي عن معاذ بن أنَس الجهني رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قرأ قُلْ هُوَ الله أحَدٌ حتَّى يَخْتِمَها عَشْرَ مرَّاتٍ بنَى الله له قصراً في الجَنَّةِ». فقال عمر بن الخطاب: إذاً نَسْتَكثِرُ يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وأكْثِرْ» رواه أحمد. قالهُ في التَّرغيب.

ابْن جزي: اخْتُلِفَ في معنى قوله ﷺ: «قُلْ هُوَ الله أحَد، تَعْدل ثلث القرآن»، فقيل: إنَّ ذلِكَ في الثوابِ، أي لِمَن قرأها لَهُ من الأَجْرِ مثْل أجر مَن قرأ ثُلث القرآن. وقيل فيما تضمنته من العلوم والمعاني؛ وذلك أن عُلوم القرآن ثلاثة: توحيد، وأحْكام، وقصص. وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد؛ فهي ثلث بهذا الاعْتِبار، وهذا أظْهَرُ. وعليه حمل ابن عطية الحديث. ويؤيده أي في بعض روايات الحديث: أنَّ الله جَزَّأ القرآن ثلاثة أجْزَاء، فجعل قل هو الله أحَد جُزءاً مِن أجْزَاءِ القرآنِ. اهـ.

(ش): سبَبُ نزول هذه السورة أنَّ اليهود دَخَلُوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمَّد صِفْ لنا ربَّكَ وانْسُبْه، فإنه وَصَفَ نفسه في التوراة ونَسَبها. فارتعد رسول الله ﷺ حتى خَرَّ مَغْشياً عليه، فنزل جبريل عليه السَّلام بهذه السورة. وقيل: إنَّ المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: أنسُب لنا ربَّكَ. فنزلت، فعلى الرّواية الأولى تكون السورة مدنية. وعلى الرواية الثانية تكون مكّية.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: الآية 1] الضَّمير للشأنِ الذي يراد به التعظيم والتفخيمُ ومتبدأ خبره الجُمْلَة بَعْدَه المُفَسِّرة له، ولا حاجة إلى العائِدِ لأنها هي هو. وقيل: لمَّا سُئل عنه أي الذي سَألتموني عَنْهُ هو الله واحِد بدل منه، أو خبر ثانٍ، والأول هو الله. يدل على مجامع صفات الجلالِ كما أنَّ الثاني وهو أحَدٌ يَدُل على مجامع صفات الكَمَال. إذ الواحد الحقيقي ما يكون مُنَزَّهاً بالذَّاتِ عن إعادة التركيب

والتعدد، وما يستلزم أحدهما كالجِسْمية والتحييز والمشاركة في الحقيقة وخواصّهَا، كوُجُوب الوجودِ والقدرة الذّاتية والحِكمة التّامّة المقتضية للألوهية. قاله البَيْضاوي.

ابن جزَي: واحد هُنا، ليس معناه المختص بالنّفي، بل بمعنى واحد، وأصله وحد. ثم أُبْدِلَت الواو همزة. اهـ. وفي شَرْح الأسماء للمصنف: الواحد المُفرَد في ذَاتِهِ وصفاته وأفْعَاله، فهو واحد في ذاتِهِ لا ينقسم ولا يتجَزّأ ولا يحلّ في محلٍّ واحِدٍ في صفاته لا يشبِهُ شيئاً ولا يُشبهه شيْءٌ واحد في أفعاله لا شريك له ولا نظير، والأحد معناه كالواحِدِ بزيادة تأكيد في وصْف الوحدانية.

«الصَّمَدُ» السيد المصمود إليه في الحوائِج، مِنْ صَمَد إذا قَصَدَ، فهو الموصوف به على الإطلاق، فإنه يسْتغني عن غَيْره مطلقاً وكل ما عَدَاهُ مُحْتاج إليه في جميع جهاتِهِ وتعريفه بعلمهم بِصَمديته بخلافِ أحَديتهِ. قاله البيضاوي.

وقال بعض المشايخ: الصَمَد مطلقاً هو الملجأ الذي لا يمكن الخروج منه لإحاطة أمْرِهِ، فهو راجع إلى اسم الله. اهـ البيضاوي: وتكرير لفظ الله للإشعار بأنّه من لم يتصفْ به لم يسْتحق الألوهية وإخلاء الجملة عن العاطِف؛ لأنها كالنتيجة الأولى، أو الدّليل عليها. اهـ.

وقال الطيبي، ولم يعطفْهُ على ما قَبْله؛ لأنه محقق لمعْنَى الجملة المتقدمة ومُبيِّن لها، إذ الصَّمَدية دليل للأحَدِية فإنه لَوْ لم يكن أحَد لما كان غَنِيّاً مطلقاً بحيث لا يحتاج إلى شيْءٍ ويحتاج إليه كل شَيْءٍ. اهـ.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: الآية 3] لأنّه لم يجانس ولم يفتقرْ إلى مَن يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفنا عليه، ولعل الاقتصار على الماضي لوروده ردٌّ على من قال: الملائكة بنات الله، والمسيح ابن الله، أو ليطابق قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: الآية 3] وذلك لأنّه لم يفتقرْ إلى شَيْءٍ ولا يَسْبقه عَدَمٌ. قاله البَيْضاوي.

ابن جزي: وقد أقام الله البَرَاهين على نفي الولدِ وأوْضحها أربعة:

الأول: إنَّ الولد لا بُدَّ أنْ يكون من جِنسٍ، والله تعالى ليس له جِنسٌ، فلا يُمْكن أن يكون له وَلَدٌ. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: الآية 75] الآية، فوصفها بصفات الحدوث لينفي عنها صفة القِدَمِ. فتَبْطِل مقالة الكُفّار.

الثاني: إنَّ الوَلد إنما يتخذ للحاجة، والله لا يفتقر إلى شَيْءٍ، فلا يتخذ ولداً، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [يونس: الآية 68].

الثالث: إن جميع الخلق عباد الله، والعبودية تنافي البُنُوّة، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: الآية 93].

الرابع: أنه لا يكون إلاّ لِمَنْ له زَوْجَة، والله تعالى لَمْ يتخذ زوجة، فلا يكون له ولد، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: الآية 101]. ولم يعطف لَمْ يَلِدْ على ما قَبْله؛ لأنه كما قال الطيبي: محقق لمضمون الله. الصَّمَد، لأنَّ الغنيّ المُطلق الذي يفتقر إليه كل شيْءٍ لا ينبغي أن يكون وَالِداً ولا مَوْلوداً لأنَّ ذلك يَسْتلزِم الافتقار بالضرورة. اهـ.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: الآية 3] رَدٌّ على الذين قالوا: أَنْسُبْ لنا رَبَّكَ، وذلك أنَّ كل مولود مُحدَث، والله تعالى لا افتتاح لوجوده، وعطف على لَمْ يَلِدْ، لأنَّ يُولَدْ لا يبقى على لَمْ يلد. فلم يكن محققاً لمعناه، بل الجملتان محققتان لمعنى الجملة السّابقة. وقَدَّمَ لم يَلِدْ لأنه ادُّعِي. قال ابن عربي: لأن لم يولد فقد نفى وصفاً عنه تعالى، لم يقل به قائل ولا نَسَبَهُ إليه مُبْطِل. قال الشيخ سيدي عبد الرحمٰن الفاسي: لأنَّ نفي النَّقص مع استحالتِهِ نَقْصٌ لولا ادعاؤه فنقتصر على نفي دعْوى المُبْطل الكافر، كالشريك والولد والصاحبة، كما في الإخلاصِ والهَيْللة، وكما في البخاري: «إن الله لَيس بأعْوَر»، في حديث الدّجّال مُدَّعي الأُلوهية مع كونه أعور. اهـ.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: الآية 4] أي ولم يكن أحد يكافئُهُ أو يماثله من صاحِبَة أو غيرها. وقدِّم المجرور وكان أصله التأخير، لأنه صلة للاغتناء والتعظيم، لأنَّ الضمير لله تعالى، ولأنَّ هذا الظرف به يتم الخَبَرُ وتكمل فائدتُهُ لأنه ليس المقصود نَفْي الكُفؤ مطلقاً بل نفيه عن الله تعالى، فاعتنى بما يُجَوِّز هذا المعنى. وذكر قوله: لم يلدْ الذي مع أنَّ الله أحَدٌ يتضمنه للاعتناء بالرَّدِّ على الكفَّارِ للإيضاح والبيان، فإن دخُول الشيءِ في العموم ليس كالنَّصِّ عليه بالخصوصِ وعَطف لم يكُنْ. . . الخ، لأنَّ مضمونَهُ غَير مُحقق لمضمون ما قبله. قاله في شرح النصيحة.

ثم قال: «بِسْم الله الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفَلَق: الآية 1] » إلى آخِرها «ثلاثاً». وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [النّاس: الآية 1] الخ «ثلاثاً».

(س): عَن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألَم تَرَ آيات أُنزلت اللَّيْلة، لَمْ يُرَ مِثْلَهُنَّ: قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ، وقُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» رواه مسلمٌ وغيره. ولفظه، قال: كنت أتعوَّذ برسُول الله ﷺ في السَّفر فقال: يا عقبة ألا أُعَلمك خير سورتين قريتا»، فعلَّمني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفَلَق: الآية 1] و﴿قُلْ أَعُوذُ

بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [النّاس: الآية 1] ».

وفي رواية أبي داود: بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ بيْن الجحفة والأبْوَاءِ، إذ غشيتْنَا ريح وظُلْمَة شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوّذ بـ«قُلْ أعُوذُ بربِّ الفلق» و«قُلْ أعوذُ بربِّ النَّاس» ويقول: يا عقبة، تعوَّذ بهما فما تَعَوَّذ متعوِّذٌ بمِثْلِهِمَا». وقال: سَمِعْتُهُ يؤُمُّنَا بهما في الصَّلاة. رواه ابن حِبَّان في صحيحه.

ولفظُه: قلت يا رسول الله أفدني أياً من سورة هود وأياً من سورة يوسف، فقال النَّبِيّ ﷺ: «يا عقبة بن عامِرِ، إنك لن تقرأ سورة أحبّ إلى الله ولا أبْلَغ عنده من أن تقرأ: قُلْ أعوذُ بربِّ الفلق، فإن اسْتطعت ألاَّ تفوتك في الصَّلاة فافْعَلْ». رواه الحاكم ولم يذكر فيه: «قُلْ أعُوذُ بربِّ النَّاسِ».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأْ يا جابرُ. فقلتُ: وما أقرأ يا رسول الله بأبِي أنتَ وأُمّي. قال: قُلْ أعوذُ بربِّ الفَلَقِ، وقُلْ أعُوذُ بربِّ النَّاس. فقرأتهما، فقال: اقرأْ، فلن تقرأ بِمثلهمَا» رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

(ش): ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفَلَق: الآية 1] : ما يفلق عنه. أي ما يُفتح عنه: فَعَل بمعنى مفعول فيصحُّ جميع الممكنات والله تعالى فَلَقَ ظُلْمَة العَدَم بنورِ الإيجاد، سِيَمَا ما يخرج من أصْلٍ، كالعيون والأمطارِ والنبات والأولادِ، ويخص عُرْفاً بالصبح، ولذلك فلَبِس به لما فيه من تغيّر الحال وتبدّل وحْشَة الليل بسرور النُّور، ومحاكة فاتحة يوم القيامة، والإشعار، فإنَّ من قدر أن يزيل ظلمة الليل عن هذا العالَم، قادِرٌ أن يزيل عن العائذ بِهِ ما يخاف. ولفظ الرَّبّ هنا أوْقع من سائر أسمائه تعالى، لأنَّ الإعاذة من المضَارّ ترتيبه. قاله البيضاوي. ابن جزي: وقيل: الفلق جب في جَهَنَّم؛ وقد رُوي عن رسول الله ﷺ.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفَلَق: الآية 2] يعم جميع المخلوقات وشرّهم على أنواع كثيرة، أعاذَنَا الله منها. البيضاوي: خص عالم الخلق بالإستعاذة مِنه لانحصار الشَّر فيه فإنّه عَالَم خير كله، وشره اختيار لازم ومتعدد كالكُفرِ والظُّلم، وطبيعي كإحراقِ النار وإهلاك السُّمُوم اهـ.

وقوله: وشَرُّهُ، أي عَالَم الخلقِ. وانظر قوله: وطبيعي الخ، فإنَّه مذهب الفلاسفة، ومذهب أهل الحق لا طبيعة، بل الله هو الفاعل المختار.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ [الفَلَق: الآية 3] ، ابن جُزَي، فيه ثمانية أقوال:

الأوّل: أنّه الليل إذا أظلَم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسرَاء: الآية 78]

وهذا قول الأكثرينَ، وذلك لأنَّ ظُلْمة الليل ينتشر عندها أهلُ الشَّرِّ من الإنْسِ والجِنِّ، ولذلك قيل في المَثَلِ: الليل أخفى للوَيْلِ.

الثاني: أنَّه القَمَرُ. أخرج النسائي أنَّ رسول الله ﷺ رأى القَمَر فقال: «يا عائِشَة اسْتَعِيذي بالله من شَرِّ هذا، فإنه الغَاسِق إذا وقب»، ووقوبه على هذا: كُسُوفهُ.

ثم قال: **الثالث**: إنه الشمس إذا غربت، والوقوب هنا بمعنى الظلمة والدّخول فيها.

والرَّابع: أنَّ الغاسق: النَّهار إذا دَخَل في الليل.

الخامس: أنَّ الغاسق سُقوط الثريّا، وكانت الأسقام والطاعون تهيج عنده. وروي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «النجم هو الغَاسِق»، فيحتمل أن يريد الثريَّا.

السَّادِس: أنَّه الذَّكر إذا قَامَ. حكى النقاش هذا عن ابن عبَّاسٍ.

السابع: قال الزَّمخشري: يجوز أن يُراد الأَسْوَد من الحيات. ووقيه: ضربُهُ.

الثامن: أنه إبليس. حكاه السُّهيلي.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفَلَق: الآية 4] أي: ومن شَرِّ النُّفوسِ أو النِّسَاءِ السَّواحِرِ اللاَّتي يعقدْن عقداً في خيطٍ وينفثن عليها. والنفث: النفخ مع ريق؛ وهذا النَّفث ضرْب من السحر؛ وهو أن ينفث على عقد، تعقد في خَيْطٍ على اسم المسحور، فيضره ذلك. وحكى ابن عطية أنه حدَّثه من يثق به، رأى عند بعض النَّاس بصحراء المغرب، خيطاً أحْمَر، قد عُقدت فيه عُقَدٌ على فضلان، وهو أولاد الإبل، فمُنِعت ذلك من إرضاع أُمَّهاتها، فكان إذا حَلَّ عُقْدة جرى ذلك الفضيلُ على أُمّه فرضع في الحين.

قال الزمخشري: في الاستعاذَة من النَّفَّاثات ثلاثة أوْجُهٍ:

أحداها: أن يُسْتعاذ من مثل عَمَلهنَّ، وهو السِّحْرُ، ومن إثمهنَّ في ذلك.

والآخر: أن يُسْتعاذ من خِداعِهِنَّ للنَّاس وفِتنتهِنَّ.

الثالث: أن يُسْتعاذ مما يميت مِنَ الشَّر عند نفثِهِنَّ. والنفث بناء المبالغة، والموصوف محذوف تقديره من النساء أو النُّفوس أو الجماعات، والأول أرجح، لأنه رُوي أنه إشارة إلى بنات لبيد بن الأعْصَم اليهودي وكُنَّ ساحِرَات سَحَرْن هُنَّ وأبوهنَّ رسول الله ﷺ وعقَدْن له إحدى عشرة عُقدة، فأنزل الله المعوّذتين إحدى عشرة آية بعدد العُقَدِ، وشفا الله رسول الله ﷺ. وإنما عَرَّف النَّفث دُونَ غيره ليفيد العموم، لأنَّ كل نفاثة شريرة، بخلافِ الغاسِق والحَاسِدِ، فإنَّ شَرَّهما في بَعْضٍ دون بَعْضٍ.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلَق: الآية 5] ، إذا ظهر حسَده، وعمل بمقتضاه فإنه لا يَعُود ضرر منه قبل ذلك إلى المحسودِ، بل يخص به لاغتمامه بشرور المحسودِ.

ابن جُزَي: فإن قيل: لِمَ، قال: إذا حَسَدَ، وإذا وقب فقيَّد بإذا التي تقتضي تخصيص بعض الأوقاتِ دون بعضٍ، فالجواب: أن شرَّ الحاسِد ومضرَّته إنما تقع إذا مضى حسده، فحينئذٍ يضر بقوله أو بفعله أو بإصابته بالعَيْنِ، فإن عَيْن الحسود قاتلة. وأما إذا لَمْ يَمْضِ حسده، ولم يتصرَّف بمقتضاه فشره ضعيف، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ: الحَسَدُ، والظَّنُّ، والطِّيرة. فمخرجه من الحسَدِ ألا يَبْغي، ومخرجه من الظَّنّ ألاَّ يمحق، ومخرجه مِنَ الطيرة ألاَّ يرجع». فلذلك خصَّهُ بقولِهِ: إذا حَسَدَ. وكذلك ظلمة الليل، وإنما لم يكتفِ بعموم قوله: من شَرّ ما خَلَقَ، الشامل للجميع، للاعتِنَاءِ بما ذُكِرَ بعد العموم لشدَّة شرهنَّ، ولقد تأكد ما ذكر بعد العموم بسبب السّحر الذي سحر اليهود به رسول الله ﷺ وشدة حسدهم له. هذا ولِتَعْلَم أنَّ الحسد مَذموم طبعاً وشرعاً، قال رسول الله ﷺ: «الحسَدُ يأكُلُ الحسنات كما تأكُل النَّارُ الحَطَب الرقيق». وقال بعض العلماء: الحسَد أول معصية عصي الله به في السماءِ وفي الأرض. أمَّا في السَّماء، فحسد إبليس لآدم. وأمَّا في الأرضِ، فقتل قابل لأخيه هَابِل بسَبب الحسَد. ثم إنَّ الحَسَد على درجات:

الأولى: أن يحبّ الإنسان زوال النِّعمة عن أخِيهِ المُسْلِم.

الثانية: أن يحبَّ زوال تلك النعمة لرَغبته فيها ورجاء انتقالها إليه.

الثالثة: أن يتمنّى لنَفْسه مثل تلك النّعمة من غير أن يحبَّ زَوَالها عن غيره؛ وهذا جائز وليس بحَسَدٍ، وإنما هو غِبْطَة. والحاسد يضر نفسه ثلاث مضرات:

إحداها: اكتساب الذّنوب، لأنَّ الحسد حرامٌ.

الثانية: سوء الأدب مع الله تعالى، فإنَّ حقيقة الحسد كراهية إنعام الله على عبده واعتراض على الله في فِعلِهِ.

الثالثة: تألُّمُ قلبه، وكثرة هَمّه وغَمّه، فنرْغب الله أن يجعلنا محسودينَ لا حاسِدِينَ، فإنَّ المحسود في نعمة والحاسِد في كَرْب ونقمة. ولله درّ الشاعر في قوله:

وإنّي لأرْحَم حاسديَّ لِفَرْطِ ما ضَمَّتْ صُدُورُهُمْ مِنَ الأَوْغَارِ
نَظروا صنيع اللّه بِي فَعُيُونهم فِي جَنَّةٍ وقُلُوبهم في نَارِ

وقال آخر:

إن يحسُدُوني فإني غير لائِمِهِمْ قبلِي من الناسِ أهل الفضل قد حسَدوا
فَدامَ لِي ولَهُمْ ما بي وما بِهِمْ ومَات أكثرنا غيْظاً بِمَا يَجِدُوا

ثم إن الحَسُود لا تزول عداوتهُ ولا تنفع مُدَاراتهُ، وهو ظالم يشتكي كأنه مظلومٌ ولقد صدَق القائل: كُلّ العداوة قد تُرْجَى إزَالَتها إلاّ عَدَاوة مَنْ عَاداكَ مِنْ حَسَدِ. وقال حكيم الشعراء:

وأظْلَمُ خَلْقِ اللّه مَنْ باتَ حَاسِداً لِمَنْ باتَ في نَعْمائِهِ يتَقَلَّبُ

قال ابن عطية: قال بعض الحذّاق: وهذه السُورة خَمْس آيات، وهي مُراد الناس بقولهم: للحاسد الذي يخاف منه العَيْن: الخَمْسَة على عَيْنك، انتهى.

وقال ابن جُزي: «بِسْم الله الرحمٰن الرَّحِيْم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾ [النّاس: الآية 1] »: لما كانت الاسْتِعاذة في السّورة المتقدمة، مِنَ المضارّ البدنية وهي تعمُّ الإنسان وغيره أي تقع من الإنس وغيره. والاستعاذَة في هذه السُورة من الأضرار التي تعَرض للنُفُوس البشرية، وتخصصها عمَّمَ الإضافة ثم. فقال: برب الفلق، في كل مفلوق، من نباتٍ وحيوانٍ، عاقل أو غيره، أو ظلمة الليل بنور الفَجْرِ كما تقدَّم. وخصَّصها بالنَّاس هنا فكأنه قيل: أعُوذُ من شَرِّ الوسواس إلى النَّاس بِرَبِّهم والذي يَمْلك أمورهُمْ ويَسْتحق عبادتهم.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ③﴾ [النّاس: الآيتان 2، 3] هذا عطف بيان لربِّ النَّاسِ على سبيل التَّرقِّي فإنَّ الربَّ قد لا يكون مَلِكاً لأنه يُطلق على ربّ الدَّار، وربّ الدَّابة، وشبه ذلك. وأمَّا المَلِك فلا يوصف به أحد من النَّاسِ، وهم الملوك، ولا شك أنهم أعلى من الناس، فجيء به بَعْد الرَّبّ. والمَلِك قد لا يكون إلٰهاً، فالإلٰه أعلى مِنَ المَلِك، فجيء به بَعْده. فالإلٰه واحِدٌ لا شَرِيك له، ولا نظير له، فلذلك خَتَم به.

البَيْضاوي: وفي هذا النَّظم دلالة على أنَّه حقيق بالإعَاذَةِ، قادر عليها. غير ممنوع عنها، وإشعار على مراتب النَّاظر في المعارف فإنَّه يَعْلم أوَّلاً بما يَرِد عليه من النِّعَمِ الظاهِرة والباطنةِ أنَّ له رَبّاً، ثم يتفاضل في النَّظَرِ حتى يتحقق أنه غني عن الكل، ويفتقر إليه كل شيءٍ. واحتياجه إليه ومُصادِق أمره، فيعلم منه أنه المَلِك الحقّ، ثم يستدل به على أنه سبحانه المستحق للعبادة لا غيره وبعضه بالمعنى، وإنما كرَّر المضاف إليه، وهو النَّاس، ولم يُضمره في المرَّة الثانية والثالثة لما في الإظهار من مزيد البيان والإيضاح والإشعار بشرفِ الإنسانِ والاعتناءِ به، فهو كقول الشاعِرِ:

لا أرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ نَغَّص المَوْت ذا الغِنَا والفقير

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ [النَّاس: الآية 4] أي المُوَسْوس، مشتق من الوَسوسة، وهو

الكلام الخفي، فهو اسم الفاعل، ولذا قال ابن عطية: إنه اسم للشيطانِ، ويحتمل أن يكون مصدراً أو وصف به للمبالغة كَعَدْل وصَوْم، أو على حَذفِ مُضافٍ، أي ذي الوَسواسِ.

وقال الزَّمخشري: إنه المصدر بالكَسْر. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ [النَّاس: الآية 4] الذي عادَتُهُ أنْ يخنس أي يتأخر إذا ذَكَرَ الإنسان ربَّهُ وتَعَوَّذ به، فإذا غَفَلَ رجَع إليه يُوَسْوِس.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [النَّاس: الآية 5] إذا غَفَلوا عن الذِّكر، وَوَسْوسة الشيطان في الصُدور بأنواع كثيرة، منها فساد الإيمان، والتشكيك في العقائِدِ، فإن لم يَقْدر على ذلك أمَرَه بالمعاصي، فإنْ لم يَقْدَر على ذلك ثَبَّطَهُ عَنِ الطَّاعاتِ، فإن لم يَقدرْ على ذلك، أدْخَلَ عليه الرِّياء في الطَّاعات ليحبطها، فإن سلم من ذلك أدخل عليه العُجْب بنفسِهِ، واستكثار عَمَلِهِ. ومن ذلك أنه يوقد في القلب نارَ الحَسَدِ والحقْد والغضَب، حتى يقود الإنسان إلى شَرِّ الأعْمَالِ، وقُبْح الأحوال.

وعلاجُ وَسْوَسته بثلاثة أشياء: الإكْثار من ذِكرْ الله، والإكثار من الاستعاذة منه، ومن أنفع شيء في ذلك قراءة هذه السُّورة، والثالث: مخالفته والعَزم على عصيانه. فإن قلت: لِمَ قال في صدور النَّاس ولم يَقُل في قلوب النَّاسِ؟ فالجوابُ: أنَّ ذلك إشارة إلى عَدَم تمكُّن الوسوسة وأنها غير حالَّة في القلب بل محومَة في الصَّدْر حَوْل القلبِ.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [هُود: الآية 119] : بَيَان للوسواس، أو الذي أو متعلقة بيوسْوِسُ، يَعْني أنَّ الوسواس يكون من الجِنِّ والإنْس، ثم إنَّ الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد به من يوسوس بخدعهم بحيالِهِ وأقواله الخبيثة، فإنه يشيطن. كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعَام: الآية 112] . ويحتمل أن يُريد به النَّفس، فإنها تأمر بالسُّوءِ، والأول أظهر، ويحتمل أن يكون والنَّاسِ معطوف على الوسواس كأنه قال: من شَرّ الوسواس، ومن شرّ النَّاس، وليس النَّاس على هذا ممَّنْ يُوَسوس. انظر ابن جزي.

تنبيهان، الأول: اختلف، هل يجوز تفريق في آي القرآن، وسُوَرِهِ، فيقرأ آية من هذه السورة وآية من سورة أُخرى، أو لا يجوز، والأصح الثاني. قال في نوادِر الأصول: روي عن بلال رضي الله عنه أنَّه مرَّ به النبيّ ﷺ وهو يقرأ آية من هذه وآية من هذه، فسَأله عليه السلام عن ذلك، فقال له: أُخَلِّط الطِّيب بالطِّيب، فقال له عليه السلام كما في بعض الروايات: «أحْسَنْتَ». وفي رواية: «اقرأ السُّورة على وَجْهها». فعلى الرواية الأولى يستحسن ما يفعله الشيوخ في الوظائف والأحزاب، وقد مثّلوا ذلك

بالنحلة تأكل من الحُلوّ والمُرّ، ويمسي ذلك حلواً وشفاء. وأما على رواية أمْرِهِ عليه السلام بتمامِ قراءة السورة على وجهها، فمن باب المحافظة على نظمه، ولأن الشفاء فيما اقتضى تدبيره تعالى من النَّظم، وقد سَمَّاه الله تعالى شفاءً لما في الصُدُورِ. وفي نوازل البرزولي قال: قد رأيت أحاديث في الرّقي والحفظ من القول ما يقتضي جواز قراءة القرآن مُفَرّقاً. وكذا جُلّ أحزاب الشيخ العارف أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وقد أكثر منها في حِزْبِهِ الكبير المشهور اهـ.

الثاني: قال بعض العلماء: فينبغي للعبد في تلاوة الآيات القرآنية المجعولة في الأحْزَاب، والأذكار، أن ينوي أحد أمُور:

منها: التبرك بالقرآن، لمعرفة قدره وعظمته.

ثانيها: رجاء أن يكون في مطلبه مثل ما كان فيمن نزلت فيه تلك الآية من الخير.

ثالثها: التوسل بها إلى الله تعالى. ففي الحديث: «أحَبُّ الكلام إليَّ القرآن، وما تقرَّب إليَّ المتقرِّبُون بأفضل من كلامي».

رابعها: امتثال أمر الله تعالى في الالتجاء إلى القرآن في كل أمر دنيوي أو أُخروي، كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: الآية 38] لأنَّ في ضِمْنِ هذه الآية فالتجؤوا إليه، فإنَّ فيه جميع ما تحتاجون من أمْر دينكُمْ. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: الآية 82] فاستشفوا به من مَرضهم الظَّاهر والباطن.

خامسها: بيان السؤال بها لمُجانَستها للغَرَضِ المطلوب. فإذا قال العَبْد: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية 64]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: الآية 9] كأنه قال: يا مولانا إنك قلت ذلك فاجعل مثل ذلك من الحفظ والرَّحمة. وإذا قال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البَقَرَة: الآية 18] فكأنه قال: اجعل لأعدائي ومَنْ أرادني بسُوءٍ مِثْلَ ذلك، وليُقَسْ ما لم يُقَلْ. هكذا ينبغي للعبد أن يكون مع كتاب الله العزيز مع ما في ذلك من الاستمساكِ بكتاب الله تعالى. وانظر قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْرَحْ بالقرْآنِ صَدْرِي، ونَوِّرْ بهِ قَلْبِي، واجْعَلْه شفاءً وذهاباً لغَميّ وحُزْني، واخْلِطْ بركته بلحومنا وجلودنا ودمائنا» اهـ. ومع ما في ذلك من الاعتناء بكلام المحبوب، والتوسل به إليه في المطلوب حتى لا يكون له تعلق إلاَّ به، ولا غَرَضٌ إلاَّ فيه، ولا أخْذٌ إلاَّ عنه، ولا دَفْعٌ إلاَّ بِهِ، ولا دَفْع إلاَّ منه، ولا اتِّكال إلاَّ عَلَيْهِ.

إلَيْكَ رَفَعْنَا الأمْرَ يا مَنْ لَهُ الأمْرُ فَلَيْسَ لنَا زَيْدٌ سِوَاكَ ولا عَمْرُو

ولمَّا أتى رضي الله عنه بالآياتِ القرآنية؛ التي ورد التَّرْغِيب في ذِكْرها بُكْرَة

وعَشِيّاً التي فيها من الخَيْرات ما لا يُحاطُ بِوَصْفِه، أتبَعَها بالأذْكَارِ النَّبَوِيَّة التي ثَبَت لها مِنَ الثوابِ والخير مثل ذلك. وقدَّم ما يذكر بصغير الشِّرْك وكبيره، فيحصل الإخلاص الذي هو شرط في القبول فقال: «اللَّهُـمَّ إنِّي أعُوذُ بك أنْ أُشْرِكَ بِكَ وأنا أعْلَـم، وأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أعْلَمُ».

(س): عن جُرَيْج قال: بَلَغني أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي بَكْرٍ: «ألا أدُلُّكَ على ما يُذهب صغار الشرك وكِبَرَه» قال: بَلَى يا رسول الله، قال: «تَقول كُلَّ يوم ثلاث مرَّاتٍ: اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ أنْ أُشرِكَ بِكَ وأنا أعْلَمُ، وأسْتَغْفِرُكَ لِمَا أعلم». أخرجه الترمذي الحكيم في نوادرِهِ. ورواه أبُو يَعْلَى وأحمد والطبراني عن أبي موسى بلفظ: اللَّهُمَّ إنَّا نَعُوذ بك أنْ أُشرِك بِكَ بِشَيْءٍ نَعْلمهُ ونَسْتغفرك لِمَا لا نَعْلَمُه» اهـ. قاله المصنف في إسناده لهذه الوظيفة. قلت: وأخرجه المنذري عن أبي موسى الأشعري.

قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيُّها النَّاس اتَّقوا هذا الشِّرْك فإنه أخفى من دبيب النَّمْلِ»، فقال من شاء الله أن يقول: كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النَّمْلِ يا رسول الله؟ فقال: «قولوا: اللَّهُمَّ إنَّا نعوذ بك أن أشرِكَ بك شيئاً نعلمهُ، ونَستغفرك لِمَا لا نعلمه»، رواه أحمد والطبراني ورواته إلى أبي يعلى محتجّ بهم في الصحيح، ونقله ابن حبان، ولم أرَ أحداً جرحه. رواه أبو يعلى بنحوه من حديث خديجة، إلا أنه قال فيه: يقول فيه كل يوم ثلاث مرَّات. اهـ.

(ش) اللَّهُمَّ: هي توجُّه للمطلوب. وطَلَبٌ بحصول المَرْغوب بالتَّوسُل بالإسْم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِل به أعْطَى، حُذف منه النِّدَاء لتضَمُّنه لوجود البَيْنونَةِ المَعْنَوية النفسانية، إذ حَذْفها يقتضي زوال ذلك. ولا شكَّ أنَّ المصطفى ﷺ في مقام الجمع الدَّائِم غائباً عن الفَرْقِ فينبغي الاقتداء به ﷺ في الغَيْبِ عن الكَوْنِ والتعلق بالمُكَوِّن، فيَنال المطلوب، ويتَّصِل بالمَرْغوب. وتعويض الميم من الياء في لفظ الجلالةِ يقتضي قوّة الهمّة في الطَّلَبِ والجَزْمِ به. وأمَّا جعل هذا الاسم العظيم في أوائل الأدعية غالباً، لأنه جامع لمعاني أسماءِ الله الكريمة، وهو أصْلُها، فجميع معاني أسماءِ الله راجعة إليه.

قال النضر بن شميل: الميم في قولِكَ: اللَّهُمَّ، بمثابة الجمع، فإذا قلت: اللَّهُمَّ، فكأنما دَعَوْتَ الله بأسمائه كُلّها. وقال الحسَن البصري: اللَّهُمَّ، فجَمْع دعاء. وقال أبو رجاء العطَّاري: اللَّهُمَّ، فيه تسعة وتسعون اسْماً من أسماءِ الله تعالى. قال الأقليشي: قال الإمام أبو محمد البطليوسي ـ يعني ابن رشيد فيما قرأت عليه ـ ومعنى هذا، أنَّ الميم في كلام العرب تكون من علامات الجمع، ألا ترى أنك تقول عليه للوَاحِدِ، وعليهم للجمع، فصارت الميم بمثابة الواو في قولك ضَرَبُوا، وقامُوا، فلمَّا كانت

كذلك زيدتْ في آخر اسم الله تعالى لتُشْعِرَ وتُوذِن بأن هذا الاسم قد اجتمعت فيه أسماء الله تعالى كلها، فإذا قال الدَّاعي: اللَّهُمَّ، فكأنه قال: يا ألله الذي له الأسْمَاء الحُسْنى، قال: ولأجل استغفاره أيضاً بجميع أسْماء الله تعالى وصِفاته لا يجوز أن يوصف، لأنها قد اجْتمعت فيه، وهو حجَّة. قاله سيبويه اهـ. يغْني في مَنْعه ووصفه، ولأجل ما تضمنه هذا الاسم من عَظِيم الثناء يؤثر ويرغب في التوجه به في الدُّعاء. وقيل فيه: إنه اسم الله الأعْظَم.

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ [هُود: الآية 47] أسْتجيرك أو ألتجيء إليك، أو أتَحَصَّنُ بك، هي: «أنْ أُشرِكَ بِكَ» أي مَعَك شيئاً، فحذف المفعول للعموم، وقد صَرَّح به في رواية أخرى.

﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ﴾ [المُمتَحنَة: الآية 1] أنَّه شرك. والجملة حالية، أي أتَحَصَّن بك أنْ يقع مني شِرْك، وحالة كوني عالماً به وهذا هو الشِّرْكُ الجَلِيُّ أعاذنا الله منه. وأمَّا الخَفِي الذي يذب ذبيب النَّمْلِ، فقد أشار إليه ﷺ بقوله: «وأسْتَغْفرك» أيْ أطلب مَغفرتك «لما لا أعلم» أي للذي لا عِلْمَ لي به بإخفائه وعُسْر زَوَالِهِ، وهذا منه ﷺ لأُمَّتِهِ وإلاَّ فهو ﷺ عيْن التوحيد، وأصْل التقديس والتفريد. فإن قلت: لِمَ تَعَوَّذ ﷺ من الشِّرْك الجَلِي واسْتغفَرَ من الشِّرْكِ الخَفِي، ولم يتعوَّذ مِنَ الجميع؟ قُلْتُ: هذا مقام التعليم، فنَبَّه ﷺ على أنَّ العَبْد في مقام التضمير ولو بَلَغ من الله ما بَلَغَ في التوحيد ما عَسَى أن يَبْلُغ، إذ التطهير من جميع أنواع الشِّرْك خاصّ بمقام النبوءة والصدِّيقين. وأيضاً: الخوفُ على قدر المَعْرِفَة، والاسْتِغْفار من شأنِ الكُمَّالِ مع ما مَنَحهم الله من الفضل والنَّوَال. وأيضاً: فإنَّ الدُّعاء كُلَّما كان أشمل كان أكمل، فالجمع بين التعوُّذ والاسْتغفار أوْلى وأفْضَل. هذا والشركُ المُسْتعاذ منه على أنواع كثيرة، أمَّا عند المتكلمين فستة أنواع:

قال في المقدماتِ: وأنواع الشرك ستة: شرك استقلالٍ، وهو إثبات إلٰهَيْنِ مستقلَّين كشرك المَجُوس، وشرك تبعيض؛ وهو تركيب الإلٰه من آلِهَة، كَشِرْكِ النَّصَارى. وشرك تقريب، وهو عبادة غَيْر الله تعالى ليقرب إلى الله تعالى زُلْفَى، كشرك متقدمي الجاهلية. وشرْك تقليد، وهو عبادة غير الله تعالى تبعاً للغَيْر كشرك مُتأخري الجاهلية، وشرك الأسْبَاب، وهو إسْنَادُ الأسْبابِ للعَادَةِ، كشركِ الفلاسفة والطبَّائعين ومن تبعهم على ذلك. وشرك الأغراض، وهو العمل بغير الله. وحكم الأربعة: الأول: الكُفر بالإجماعِ. وحكم السادس: المعصية من غير كُفرِ بإجْمَاعٍ. وحكم الخامس: التفصيل. فمن قال في الأسباب أنها تؤثِّر بطبعها، فقد حكى الإجْماع على كفرهِ، ومن قال بقوَّةٍ أودعَهَا الله تعالى فيها، فهو فاسق مبتدعٌ. وفي كُفْره قولان. اهـ.

وأمَّا الشِّرْكُ عند أهل التَّصَوُّف فأربعة أنواع: شِرْك اعتقاد، وشِرْك إسْناد، وشِرْك اسْتناد، وشرك اعتمادِ.

أما شِرْك اعْتقاد، فهو المتقدم عند المتكلمين. وأما شِرْك إسْناد، فهو أن يُسْنِدَ الفِعْل إلى نفسه ويعتمد على حَوْلِهِ وقوَّته، وهذا هو أصل العُجْب، وهو ادّعاء المحَاسِنِ قَوْلاً وفِعْلاً وحَالاً لنَفْسِهِ، وإن لم يخرج بذلك للغير، وهو من شَرِّ معاصِي القلب. فقد قيل: إنما يعجب بنفسه. وقد رُوي في الخَبَرِ: «لَوْلا أنَّ الذَّنب خَيْر مِنَ العُجْب ما خَلَّى الله بين مُؤمن وبين ذَنْبٍ أبداً». وقال الشيخ أبو مَدْين رضي الله عنه: انكسار العاصي خيْر من صَوْلة المطيع. وقال بعضهم: لأن أبِيتَ نَائماً وأُصْبح نَادِماً خَيْر لي من أن أبِيتَ قائماً وأُصبح مُعْجَباً. وفي الحِكم: معصية أورثتْ ذُلاً واسْتصغاراً خَيْر من طاعة أورثتْ عِزّاً واسْتكباراً.

وقال ﷺ: «ثَلاثٌ مُهْلكَاتٌ: شحّ مُطاعٌ، وهوًى متبع، وإعجاب المَرْءِ بِنَفْسِهِ» اهـ. والخَلاصُ من العُجْب برؤيَة مِنَّة الله تعالى في كل شيءٍ، وفاقتك وفقرك وعزّك في كل شيءٍ، إذ لو كان شيء منك كنت تدفع عن نفسك ما لا تريده مِنَ الضَّروريات كالبَولِ. ولا يمكن ذلك، فدلَّ على أنَّ ما بِكَ من نِعْمة فمن الله، ليس لك منه شيء، وقد يتولَّد أيضاً من هذا الشِّرْك الكِبْر، لأنَّ من رأى الكمال لنفسه رأى لها الفَضْل على غيره. وهذا هو الكِبْر بعَيْنه فقد قيل: مَن رأى أنَّه خَيْر من الكَلْبِ، فالكلبُ خير منه. وفي الخبر الصحيح: «العَظَمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما قصمته» أي أهلكته. وقال ﷺ: «مَنْ تواضع لله رفعه الله، ومن تكبَّر قَصَمَهُ الله». ومن كلام الحكماء: التواضع من مَصَائِدِ الشَّرَف، والخلاص من الكِبْر الرجوع إلى أهْلِ الأمْر، بأن ترى نفسك ليست بأهْلٍ لشيء مما أنت فيه، وأنَّ ما بك من خير فمن الله، وكما هو وهَبَه لك، فهو قادر على أنْ يَسْلُبَهُ منك ويَمْنَح ما تكَبَّرْتَ عليه ما هو أعظم منه.

وقال الشيخ أبو العباس الحَضْرَمي: كيف تتكبَّر على من لا تقطع أنك خير منه، وما تدري وما أحَد من النَّاس يَدْري ما يفعل الله به وبغيره. اهـ.

ما قاله المصنف في شرح الوَغليسية، وأما شِرْك اسْتنادِ، فهو أن يسْتند إلى الأسْباب، ويركن إلى المعارف والأصحاب فيعتمد على الخلقِ، ويغفل عن المَلِك الواحد الحقّ.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القَصص: الآية 68] فقد نزَّه الله سُبْحانه نفسه عن هذا الشرك، فمن اعتمد على مخلوق في جَلْبِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضرٍّ فبالضرورة يطمع فيه، ويتزيَّن له، ويُحِبّ

أن تظهر محاسنه له، فينطبع بالرياء، وهو الشرك الأصْغَرُ.

قال بعضهم: مَن أحبّ أن يطّلع النَّاس على عمله، فهو مُرَاءٍ. ومن أحَبَّ أن يطّلع الناس على حاله فهو كذّابٌ. وقال يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه: أشد شيء على النَّفْسِ الإخلاصُ وكم اجتهد في إسْقاط الريَاءِ من قبْلي كأنّه ينبت على لَوْنٍ آخر. وروي عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الإقبال على العمل، أشد من العَمَلِ، وإنَّ الرَّجل يعمل العَمَلَ فيكتب له عمل صالح معمول به في السرّ، يَضعف أجْرُه سبعين ضِعْفاً، فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويغلبه، فيكتب علانية، ويمحى تضعيف أجره كُلّه. ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس، ويحُبّ أن يحمد عليه فيُمْحى من العَلاَنية، ويُكْتب ريَاء...» رواه البيهقي.

ويَتَخَلَّصُ من الرّياء بالاعتماد على الله تعالى في كُلّ شيءٍ، واحتقار النَّفْس مع كل شيءٍ، حتى لو قال له الشيطانُ مثلاً: أنْتَ مُرَائِي، لقال له: ومتى كنت قط مخلصاً لذلك، إذا أثبت الريّاء في حالةٍ فقد أثبت الإخلاص في الأخرى. وقال مرائي فَزِدْني طولاً. اهـ.

وعلامة وجُودِ الرياء، سُقوط النَّشاطِ حيثُ لا يراه النَّاس، فعلى العبد أن يعمل في الملأ ما يعمله في الخَلاءِ، وبالعكس، ومتى أتت نفسه عن واحدة ففيه من الرياء بقدر ذلك إلاّ بحَالةٍ غالبة. وبالجملة، فيتخَلَّص من هذا الشرك بِرَفْضِ الأسْبَاب والتَّعلق بربّ الأرباب، فيرى الخلق كلهم في قبضة القهر ليس بيدهم نفع ولا ضرر.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يُونس: الآية 107] وفي وصية المصطفى ﷺ لابن عبَّاس: «واعلم أنَّ الأُمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلاّ بشي قد كتبه الله لكَ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروكَ إلاّ بشيءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ. رُفِعَت الأقلامُ، وجُفت الصّحف» اهـ. رواه الترمذي مطوّلاً.

وقال عطاء الخراساني رضي الله عنه: لَقِيتُ وهب بن منبه في الطريق، فقلت: حَدِّثْني حديثاً أحْفظه عنك وأوْجز. قال: أوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «أما وعزَّتي وعَظَمتي لا يعتصم بي عبد من عبادي دون خلقي، أعْلَم ذلك من نِيّته فتكيده السماوات السَّبع ومن فيهنَّ، والأرضون السَّبع ومن فيهنَّ إلاّ جعلتُ لك منهنَّ فرجاً ومخرجاً. أما وعِزَّتي وعَظَمتي لا يَعْتَصم عبد من عبادي بمخلوقٍ دوني، أعلَمُ ذلك من نيته إلاّ قطعتُ أسباب السماوات من يَدِهِ وأضحتُ الأرض من تحته ولا أبالي في أي وادٍ هَلك» اهـ.

وأمَّا شِرْكُ اعتمَادٍ، فهو الاعتماد على الأعْمَالِ والوقوف مع المقامات والأحوال. ولا شك أن هذا الوصف مذمومٌ عند الكُمَّالِ مُوجِب للانقطاعِ والانفصالِ. وفي الحِكَم: مِنْ علامات الاعتماد على العمل نقصانِ الرَّجاءِ عند وجود الزَّلل. قال سيدي ابن عبَّادٍ رضي الله عنه: الاعتماد على الله نَعْتُ العارفين المُوَحِّدِين، والاعتماد على غَيْرِهِ وَصْف الجاهلين الغافلين، كائناً ما كان ذلك الغَيْر حتى علومهم وأعمالهم وأحوالهم. أما العارفون الموحِّدون فإنَّهم على بِسَاطِ القُرْبِ والمشاهدة ناظِرون إلى ربّهم، فانُونَ على أنفُسِهِم، فإذا وقعوا في زَلَّةٍ أو أصابتهم غَفْلَةٌ شهدوا تصريف الحقّ سبحانه، وجريان قضائه عليهم كما أنهم إذا صدرت منهم طاعةٌ أو لاحَ عليهم لائحٌ من يقظةٍ، لم يشهدوا في ذلك أنفسهم ولم يَرَوا فيها حَوْلَهُم ولا قوَّتهم، لأنَّ السَّابق إلى قلوبهم ذكر ربّهم فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره، وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنوارِهِ، ولا فَرْقَ عندهم بين الحالتين لأنَّهم غَرَقُوا في بَحْر التوحيد قَدِ استوى خوفُهُم ورجاؤهم، فلا يُنقِّصُ من خوفهم ما يجتنبون من العصيان، ولا يزيد في رجائهم ما يأتون به من الإحْسَان. اهـ.

وقال سيّدنا رسول الله ﷺ: «لَنْ يدخل أحَدكم الجنَّة بعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنْتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا. إلاَّ أن يتغَمَّدني الله بِرَحْمته» اهـ. رواه مسلم في صحيحه، فإذا تَخَلَّص العبد من أنواع الشِّرْكِ كلها، فقد اتَّصَفَ بمقام الإخلاصِ الخاصِّ، وهو إفْرَاد النّية وتصفيتها من مُلاحظة الغَيْر، مع إخْفَاءِ العمل وتَرْكِ ذِكْرِهِ.

وفي الرسالة القشيرية: هو إفرَاده تعالى في الطَّاعة بالقَصْدِ، وهو أن يُريد بطاعته التقرُّب إلى الله تعالى دونَ شَيْءٍ آخرَ من تَصَنُّعٍ لمخلوقٍ، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى، وهي ثلاث درجات: عُلْيَا وَوُسْطى ودُنْيا. فالعُلْيا أن يعمل العَبْدُ لله وحده، امتثالاً لأمرِهِ وقياماً بحقِّ العبودية. والوُسْطَى أن يعمل لثواب الآخِرة. والدّنيا أن يعمل للإكْرَامِ في الدّنيا والسلامة من آفاتها وما عَدَا الثلاثة مِن الرِّياء، وإن تفاوتت أفراده. قاله شارحها شيخ الإسلام زكرياء.

ويصحُّ أن يُقال: الإخلاص، التقى عن ملاحظة الأشخاص. وعن الحسن قال: سألت خديجة عَنِ الإخلاص ما هو. قالت: سألتُ النبيّ ﷺ قال: سألتُ جبريل عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألتُ رب العِزَّة عنِ الإخلاص ما هو؟ قال: سِرٌّ من سِرِّي استودعته قلب من أحْبَبْته من عبادي. اهـ. قاله القشيري. وكأنَّه من معنى الإحسان الذي هو: أن تعْبُد الله كأنك تراهُ، فإن لَمْ تكُنْ تَرَاهُ فإنه يراكَ من حيث لا تَرَاه، فإنه توحيد وضِدّه شِرْكٌ. وأما الوقوف مع المقامات والأحوال فهو قاطع عن الوصال،

ومانع من الاتصال. وفي الحكم: ما رأت هِمَّة سالكٍ أن تقف عندما كشف لها إلاَّ ونادَتَه هواتف الحقيقة الذي تَطْلُبُ أمامك، ولا تبرَّجَتْ ظواهر المكوّنات إلاَّ ونادته حقائقها إنَّما نحن فِتْنَة فلا تَكْفُر». ولقد أحْسَن الشيخ أبو الحسن الشُشتري في هذه المعنى حيث يقول:

فلا تَلْتَفِتْ في السَّيْرِ غَيْراً وكُلَّما ... سِوَى اللَّهِ غَيْرٌ فاتَّخِذْ ذِكْره حِصْنا
وكُلُّ مقامٍ لا تَقُمْ فيه إنَّهُ ... حِجَابٌ فجُدّ السَّيْر واسْتَنْجِد العَوْنَا
ومَهْمَا ترى كُلَّ المَراتِبِ تُجْتَلَى ... عَلَيْكَ فَحُلْ عنها فعَنْ مِثْلِها حُلْنَا
وقُلْ ليس لي في غَيْرِ ذَاتِكَ مَطْلَبٌ ... فلا صُورَة تُجلَى ولا طُرْفَة تُجْنَا

وبالله التوفيق. لا رَبّ غيره ولا خَيْر إلاَّ خَيْرُه، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العَلِيّ العَظِيم.

ثُمَّ أتَى رضي الله عنه، بما يُذْهِبَ الهمَّ والحُزْنَ، فقال: «اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ من الهَمّ والحُزْنِ، وأعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ، وأعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ والجُبْنِ، وأعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وقَهْرِ الرِّجَالِ».

(س) عَنْ أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يَوْم المَسْجِد، فإذا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الأنْصَارِ يُقال له: أبو أُمامة، جالساً فيه، فقال له: «يا أبا أمامة، إني أراك جالِساً في المَسْجِد في غير وقت الصَّلاةِ»، فقال: هُمُوم لزمتني وديُون يا رسول الله. فقال له رسول الله ﷺ: «أفَلاَ أُعَلِّمك كلاماً إذا قلته أذْهب الله عزَّ وجل همَّكَ وقَضَى عنكَ دَيْنَكَ، فقال: بَلَى يا رسول الله، قال: «قُلْ إذا أصْبَحْتَ وإذا أمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمّ والحزن. .» إلى آخر الحديث. قال: فَعَلْتُ ذلِكَ. فأذْهَب الله هَمِّي وقضى دَيْنِي. رواه أبو داود. وعن أنس بن مَالِكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لمُعَاذ: «ألا أُعَلِّمُكَ دُعاءً تَدْعُو به لو كان عليك مثل جَبل أُحُد دَيْنَاً لأدَّاهُ الله عَنكَ، قُلْ يا مُعَاذ: «اللَّهُمَّ مالِكَ المُلكِ توتي المُلْك من تشاءُ، وتَنْزِعُ المُلك ممَّن تشاء، وتُعِزُّ مَنْ تشاء وتُذِلُّ مَنْ تشاء، بِيدَكَ الخَير إنَّك على كل شَيْءٍ قديرٌ» رَحْمٰن الدُّنيا والآخِرة ورَحِيمها، تعطيها من تشاء وتَمْنَعها من تشاء، ارْحَمْني رَحْمَة تغنيني بها عن رَحْمَة مَنْ سِوَاك» رواه الطبراني في الصغير بإسنادٍ جيد.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلَ عليَّ أبو بكر الصدِّيق رضِيَ الله عنه فقال: علَّمنِي رسول الله ﷺ دُعَاء، قال: كان عيسى بن مَرْيم يُعلِّمُهُ أصْحَابَهُ ويقول: لو كان على أحَدِكم جَبَل ذهَبٍ ديْناً فدعا به لأدَّاهُ الله عنه: «اللَّهُمَّ فارج الهَمِّ، كاشِف الغَمِّ، مُجِيب دَعْوَة المضطرّين، رَحْمٰن الدّنيا والآخرة ورَحِيمها، أنت ترحمني

فارحمني رحْمَة مِنْ عِنْدِك تغنيني بها عن رحْمَة مَنْ سِوَاك». قال أبو بكر الصدّيق: وكانت عليَّ بقية من الدَّيْنِ، وكنت للدَّيْن كَارِهاً، وكُنْت أدْعُو بذلك الدُّعاءِ، فأتاني الله بفائدة فقضى عنِّي دَيْني.

قالت عائشة رضِيَ الله تعالى عنها: كان لأسْمَاء بنت عميس عليّ دينار وثلاثة دراهم، وكانت تَدْخُل عليَّ فأستَحْيي أن أنْظُرَ في وجهها، لأني لا أجِد ما أقضيها به. فكُنت أدعو بذلك الدُّعاء، فما لبِثت إلاَّ يسيراً حتى رزقني الله رزقاً ما هو بصدقةٍ ولا ميراثٍ. فقَضَاهُ الله عني وقسَمْت في أهلي قسماً حسناً. رواه البزَّار والحاكم والأصبهاني، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وبحث فيه الحافظ المنذري.

(ش) اللَّهُمَّ: يا الله، حذفت الياء إزاحة البَيْنونَةِ والفَرْق. وعُوِّضَتِ الميم إيذاناً بالجَمْعِ. وقيل: إنما زيدت الميم للتفخيم والتعظيم كزيادتها في رزقتم، وأنتم، وهذا لا يُنَافِي مَذْهب سيبويه، لأنه لا يَمْتنِع أن تكون للتفخيم والتعظيم، وإن كانت عِوَضاً مِنَ اليَاءِ، وقد جاء في التفسير ما يؤيدهُ، وإنما فُتحت لتكون بإزاء الفتحة في مسلمون وصالحون وشُدِّدتْ لتكون مُعَادلة للحرفين المزيدَيْن في مسلمُونَ وصالحون.

«إنّي أعُوذُ بِكَ» أي أسْتَجِيرُ بِكَ «مِنَ الهَمِّ والحُزْنِ» قال في القاموس: الحُزْن بالضمّ والتحريك: الهَمُّ. اهـ.

فعلى هذا يكون الحُزْنُ والهَمُّ مُترادفان. وقيل: الهَمّ غَمُّ القَلْبِ، وضَيْقُ الصَّدْرِ من توقع لمكروهٍ. والحُزْنُ: توجُّع القَلْبِ وانكسارُهُ على فوات أمْر مطلوبٍ، فيكون متعلق الهَمِّ في المُستقبل ومُتَعلق الحُزن على الماضي. ذكر معناه في فتح الباري في كتاب المرضى. وأما ما يكون في الحالِ فلعلَّهُ يُسَّمى كَرْباً. قال في فتح الباري: والكَرْب ما يُذْهم المَرْء مما يأخذ نفسه، فيغمّه ويحزنه اهـ.

والحاصل على هذا، أنَّ ما يتوجَّع منه القلب ويَغْتمّ إن كان مستقبلاً فَهَمٌّ، وإن كان ماضِياً فحزْنٌ، وإن كان واقعاً فَكَرْبٌ، والله أعلم. والتعوُّذ إما من سَبَبه أو من نفسه، بحيث يجعل الله منه فرجاً ومخرجاً. وألْ فيه للاستغراق، أي من جميع الهموم. فهموم الدّنيا وغمومها لا تَنْحَصِرُ. وفي الحِزْب الكبير: وأرِحْنا مِن هموم الدنيا وغمومها بالرَّوْحِ والرَّيحانِ إلى الجنة ونَعِيمها، والاشتغالُ بهذه الهُمُوم الدّنيوية والاسترسال معها قبيح مذمومٌ مُنَاقِضاً للعبودية ومُضادٌّ لأحْكامِ الرّبوبية. وفيه تعب عظيمٌ اسْتَعْجَلَهُ لنفسه ولعلَّ أكثر ما يُدَبّره في نفسه لا يقع فيخيب ظنه ويَبْطل سَعْيُهُ ويَضِيع عُمْرُهُ.

أوْحَى الله إلى داود: «يا داود تريد وأنا أُريدُ، ولا يكون إلاَّ ما أُرِيدُ، فإن سَلَّمْت

لي ما أُريدُ أعطيتك ما تريد، وإن لم تُسَلّم لي ما أُريد أتعبك فيما تريد ولا يكون إلاّ ما أريد». وقال ﷺ: «مَنْ جَعَلَ الهُمُوم هَمّاً واحداً، كفاه الله هَمّ دُنْياهُ ومن تَشَعَبَتْ به الهُمُوم لَمْ يُبَالِ الله تعالى في أي أودية الدنيا هلكَ» اهـ. ويتخلَّصُ من هذه الهموم، بترك التدبير والاختيار والسُّكون تحت مجاري الأقدار.

وقد ألَّفَ الشيخ ابن عطاء الله كتاب التَّنْوِير في إسْقاط التَّدْبير، أحسن فيه غاية الإحسان، فيجب تحصيله على الإنسان. ولمَّا أكمَله أتى به إلى الشيخ سيدي ياقوت القرشي تلميذ أبي العبَّاس المِرسِي، ووارثه في القطبانية، فلمَّا نظر فيه قال: «جميع ما قلت جُمع في بَيْتين، وهما:

مــا ثــم مــا أراد فــاتْــرُكْ هُــمُــومَــكَ وانْــطَــرِحْ
واتْــرُكْ شَــوَاغِــلَــكَ الــتــي شُــغِــلْــتَ بــهــا تَــسْــتَــرِحْ

فائدة: فيما يُذْهِبُ الهَمّ والحُزْن والكَرْب، وهي أمُورٌ:

منها: قوله ﷺ: «ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حُزنٌ فقال: اللَّهم إني عبدكَ وابن عَبْدكَ، وابن أمَتِكَ في قبْضتك، ناصيتي بيَدك، ماضٍ فيَّ حُكْمك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤكَ، أسألك بكل اسْم هو لك سَمَّيْتَ به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علَّمته أحداً من خَلْقِك أو استأثَرْتَ به في علم الغَيْبِ عِنْدَكَ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قَلْبي، ونُورَ بَصَرِي، وجَلاَءَ حُزْني، وذهاب هَمِّي. إلاَّ أذهب الله عزَّ وجلَّ هَمَّهُ وأبْدَل مكان حُزْنِهِ فَرَجاً. قالوا: يا رسول الله يَنْبغي لنا أن نتعلَّم هذه الكلمات، قال: «أجَلْ ينبغي لِمَنْ سَمِعَهنَّ أن يتعلَّمهن». وفي رواية: قال قائل: يا رسول الله إنَّ المَغْبُون لمن غبن هؤلاء الكلمات، فقال: «أجَلْ فقولُوهُنَّ وعلِّمُوهُنَّ فإنّه مَنْ قالَهُنَّ وعَلَّمَهُنَّ ملتمساً ما لهُنَّ، أذْهَبَ الله كَرْبَهُ وأطال فَرَحَهُ» رواه الطبراني وغيره. انظر المنذري.

ومنها: قوله ﷺ: «مَنْ قال لا إلَهَ إلاَّ الله قَبْل كل شيءٍ، لا إلٰه إلاَّ الله بَعْد كُلِّ شيءٍ، لا إلٰه إلاَّ الله، يبقى ربّنا ويفنى كل شيء، عُفِي مِنَ الهَمّ والحُزْنِ» رواه الطبراني في الأوسط.

ومنها: قوله ﷺ: «الله ربي، لا أُشرِك به شيئاً».

ومنها: الاسْتِغفار. قال ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاستغفار، جعل الله له من كل ضِيْقٍ مَخْرجاً ومن كلِّ هَمّ فَرَجاً، ورزقه من حَيْث لا يَحْتَسِب». رواه أبو داود وغيره.

ومنها: ما كان يقوله ﷺ عند الكَرْب: «لا إلٰه إلاَّ الله الحَلِيمُ العَظِيمُ، لا إلٰه إلاَّ الله ربّ العَرْشِ العَظِيم، لا إلٰه إلاَّ الله ربّ السماوات والأرْض، ورَبّ العَرْش الكريم». رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ومنها: الصَّلاة على النبيّ ﷺ، فإنها تكشف الهموم والكرُوب، وتقضي

الحوائج، كما هو مجرَّب مشهورٌ. ولا سيما الصَّلاة التَّامَّة. وأمّا قوله ﷺ: «وأعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ» فهو الضعف وعدم القدرة، وهو مثلث العَيْنِ، وقد تفتح الجيمُ، والماضي كضرب وسَمِعَ فهو عاجِزٌ إذا ضَعُفَ من مصالح نفسه الدِّينية والدّنيوية جَلْباً ودَفْعاً. إمّا بطلان الحواس الفاعِلة أو لآفَةٍ تَمْنَعها من تمام التصرُّف. وأمّا الكَسَل فهو تثاقل الأعضاءِ وفُتُورها وتثبطها عن الأفعال المحمودة، مع سلامتها في الظاهر، وهو علامة الخِذْلانِ والعياذِ بالله، وسببهُ أكل الحَرَامِ، أو ارتكاب المعاصي، أو اشتغال القَلْب بالذَّنْبِ، أو تكلّم بما لا يَعْنِي.

قال بعض الصالحين: إذا رأيت قسَاوَةً في قلبك، وثِقلاً في بَدَنِكَ، وحِرْماناً في رزقك، فاعلم أنك تكلَّمت بما لا يَعْنِيك. اهـ. وضده النشاط، وهو خفَّة الأعضاء ومُسارعتها إلى مكارم الأفعال مع الفرح وانشراح الصَّدْر، وهو نتيجة الهِداية كما قال البصيري.

وإذا حَلَّتِ الهِدايَة قَلْباً نَشِطَتْ لِلعِبَادة الأَعْضَاءُ

والفرق بين العَجْز والكسل، أنَّ العَجْزَ لسبب مانع في الأعضاء، بخلاف الكسل، الأعضاء معه سالمة.

فائدة: من أصابه ضعف ظاهر أو باطن في العبادة فليذكر اسمه تعالى القادِر مائة بعد صلاة ركْعَتين، فإنه يؤثر فيه القوَّة، وإن ذكره بَعْد الوُضوء قهر الأعداء وظفر بهم. قاله المصنف في خواصّ الأسماء.

وأما قوله ﷺ «وأعوذُ بك مِنَ البُخْلِ» فهو لغة: ضدّ الكَرَم. اهـ منه، وهو مَصْدر بَخِلَ بكسر الخاء، يَبْخَل بفتحها، إذا منع الفَضْل. فالبُخْل مَنْع الفضل، والإمساك عن بذلِ ما ينبغي بذله شرْعاً، أو مُروءةً، وهو مذمُومٌ شرعاً وطبعاً، وصاحبه مألومٌ إنْ مَنَعَ الواجبَ أو محروم إن منع الفضل.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «السَّخِي قريبٌ من النَّاس قريب من الله، قريب من الجنَّةِ، بعيدٌ من النَّار. والبخيلُ بعيدٌ من الله، بعيد من الناسِ، بعيدٌ مِنَ الجنَّة، قريبٌ من النَّارِ. والجاهل السَّخِي أحَبّ إلى الله من العالم البخيل»[1] اهـ. مِن الرسالة القشيرية.

(1) رواه الترمذي بلفظ: «عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار ولجاهل سخي أحب إلى الله عز وجل من عالم بخيل». (سنن الترمذي، باب ما جاء في السخاء، حديث رقم (1961) [ج3، ص 92 ـ 93] طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت).

وفي الترغيب عن ابن عبَّاس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلَقَ الله جنة عَدنٍ بيدِهِ: لبنة من درَّة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولِبنَة من زَبَرْجدة خضراءَ، ملاطها مسك، حشيشها الزعفران، حصباؤها اللّؤلؤ، وترابها العَنبَر. ثم قال لها: تَكَلَّمي، فقالت: قد أفلَحَ. فقال الله عزَّ وجلَّ: فوَعِزَّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل». رواه ابن أبي الدُّنيا. اهـ. والبُخْل يكون بالأموال والأبدان والأنفس. أمَّا بخل الأموال فمنعها مِنَ الحقّ الواجِب. وأما بُخْل الأبدان فتثبُّطها عن الطَّاعة ولذلك قال ﷺ: «بِحَسْبِ المَرْءِ مِنَ البُخْلِ أنْ أُذْكَر عنده فلم يُصَلّ عَلَيَّ؛ لأنَّه بُخْل بما لا مشقة فيه من تحريك شَفَتَيْهِ بالصَّلاة عليه ﷺ فضلاً عَنِ الإكثار منها فلا أعظم بُخْلاً منه. وأما بُخْل الأنفس، فإيثار حَظِّها واتّباع هواها وعدمُ مجاهدتها في طاعة الله تعالى، وبالتخلّص من رذيلة البخْل يحصل على منقبة السَّخاء، وحقيقته ألاَّ يَصْعب عليه البَذْل، وهو من أعظم المراتب، وأسْنَى المقامات، وأفضل المَنَاقب.

قال الشيخ العارِف، الوليّ الكبير، سيدي أبو العبَّاس السَّبتي رضي الله عنه ونفَعَنا ببرَكَاتِهِ: ما بَلغَ أصحاب النبيّ ﷺ ما بَلَغُوا بِكثرة صِيام ولا صَلاَة، وإنما بَلَغُوا بِسَخَاوة النُّفوسِ وسلامة الصَّدْر والصَّدقة والإيثار. قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: الآية 9] اهـ.

وقال القشيري رضي الله عنه: السَّخَاءُ عند القَوْم، هي الرتبة الأولى ثم الجود ثم بعده الإيثار. فمن أعْطَى البَعْضَ وأبقى لنَفْسِهِ الأكثر، فهو صاحب السَّخَاء، ومن أعطى الأكثر فهو صاحب الجود، ومن قاسَى الضَّرَّاء وصَبر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثارٍ. اهـ. وبكى عليّ رضي الله عنه ذات يوم، فقالوا: ما يُبْكيك؟ فقال: هذه سَبْعَة أيَّام لَمْ يأتِ فيها ضَيْف، فأخاف أن يكونَ الله تعالى قد أهانَنِي.

ورُوِي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: زكاة الدَّار أن يُتخذ فيها بيت للضيافة. وقال إبراهيم: أن الجنيد كان يقول: أربعة لا ينبغي للشريف أن يأنَف منهم وإن كان أميراً: قيامه مِن مَجلسه لأبيه، وخدمته لضَيْفِهِ، وخِدْمته للعَالم ليتعلَّم منه، والسُّؤال عمَّا لا يعلم. قاله في الرسالة القشيرية.

وأمَّا الجُبْنُ فهو الخَوْفُ، وهو ضعفٌ ووهَنٌ في القَلْبِ، يوجب التَّأخير عن الإقدام إلى المَكَارِه. يُقال: جَبُنَ كَكَرُمَ، جبانة وجُبْناً بالضمّ، وبضمتين فهو جَبَان، إذا كان هيوباً للأشياء، وهو مَذموم طَبْعاً وشَرْعاً وضِدّه الشجاعة، وهو قوَّة توجبُ التقدم والإقدام على المكَارِهِ، وإنما تعوَّذَ منه ﷺ لأنَّه يَمْنع صاحِبَهُ مِنَ الجهادِ الواجبِ والمستحب. ويَمْنَعُ صاحبه من الدَّفع عن محارمه وعِرْضِهِ، وناهيك به رذيلة، والعياذ بالله منه.

وأما قوله ﷺ: «وأعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَة الدَّيْن»، فغلبته هو ثقله واستيلاؤه بحيث لا يَجِدُ ما يوفيه به، ولا سيما مع شدَّة طلب صاحبه. قال بعض السّلف: ما دخل همُّ الدَّيْن قلباً إلاَّ أذهبَ من العَقْل ما لا يعود إليه. وقد كان ﷺ يكثر التَّعوذ مِنَ المأثَم والمَغْرَم، وهو الدَّيْن. فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، ما أكثر ما تتعوّذ مِنَ المَغْرَمِ، فقال: «إنه من غرم، حَدَّثَ فكَذَب، ووعد فأخْلَفَ» اهـ.

وقوله ﷺ: «وقَهْر الرِّجال»، أي شدّة تسلُّطِهم كاسْتيلاءِ الرعاع مرحاً ومرجاً.

تنبيه: هذا الدّعاء من جوامع الكِلَم، الذي خُصَّ به النبيّ ﷺ فإنَّ كمالاتِ الإنسان مُنحصرة في كَمَال عَقْلِهِ، وصحَّة جِسْمِهِ، وسخاوة نَفْسِهِ، ووفُور مالِهِ، وتمام عِزّه وجاهِهِ. وقد اشتمل هذا الدّعاء على التحصُّن من جميع ما يشوّش على كل واحدٍ منها. فتعوذ مما يشوّش على العقل بقوله: من العجز والكسل، وتعوّذ مما يشوش على كَرَم النَّفس بقوله: مِنَ البُخل والجُبْن، وتعوَّذ مما يشوّش على وفُور المال بقوله: «وغَلَبَة الدَّيْنِ» وتعَوَّذ ممَّا يشوّش على الجَاهِ والعِزِّ بقوله: «وقَهْرِ الرِّجَالِ». ثم قال: «اللَّهُمّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكُفر والفَقْرِ وأعُوذُ بِكَ من عَذَابِ القَبْرِ، لا إله إلاَّ أنت - ثلاثاً - اللَّهُمّ عَافِنِي في بَدَنِي، اللَّهُمّ عافِني في سَمْعِي اللَّهُمّ عَافِني في بَصَرِي، لا إله إلاَّ الله» ثلاثاً.

(ش) عَنْ معقل بن يسَارٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيّ ﷺ كان يتعوَّذ بهما صباحاً ومساءً لا يدَعَهما. رواه أبو داود والنسائي، كذا نسب في الحِصْن.

وعن عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قُلْت لأبي: أسْمعك تقول: اللَّهم إني أعُوذُ بك من الكُفرِ والفَقْرِ، وأعوذُ بك من عَذَابِ القَبْرِ، لا إله إلاَّ أنت، اللَّهُمّ عافِني في بَدَني، اللهم عافني في سَمْعِي، اللَّهُمّ عافِني في بَصَرِي، لا إله إلاَّ أنْت. تكررها ثلاثاً حين تُصبح، وثلاثاً حين تُمْسي.

قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يتعوَّذ بهنَّ، وأنا أُحِب أن أسْتَنَّ بسُنَّتِهِ. أخرجه أبو داود، كذا أخرجه المُصَنّف، والله تعالى أعلم.

(ش) قولُهُ: «الكُفر بالضَّمّ ضِدّ الإيمان، ويُفتح ويُقال: كَفُور وكُفْرَان. يُقال: كَفر عليه يكْفر غطاهُ. وكَفَر الشيء: سَتَرَهُ، وكَفَر نعمة الله بها جحدها وسَتَرَها. ويقال للزَّارع كافر، لأنه يكفر البذور أي يسترها، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحَديد: الآية 20] أي الزَّراع، وهو على قسمين: كفر الإيمان، وكُفر الإحسان. أما كفر الإيمان فهو جحد ما ثبت بِبُرْهان العقل، أو صحيح النَّقل المعلوم ضرورة، وهو مفصَّل في علم الكلام فلا نطيل به. وأما كفر الإحسانِ، فهو كُفر النِّعْمة، أي

سَتْرِها، وعدم الشكر عليها أو نِسْبتها لغير مَنْ أنْعَم بها، فكُفر الإيمان يوجُب الخلود في النِّيران، وكُفر الإحسان يُوجب السَّلْبَ والحِرْمان. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝﴾ [إبراهيم: الآية 7]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: الآية 11]. وفي الحِكَم: «مَنْ لَمْ يشكر النِّعَم، فقد تعرض لِزَاولها، ومن شكر فقد قيَّدها بعقالِهَا». واجتمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة، فقالوا: الشكر قيد النِّعَم. وقالوا: الشكر قيْد الموجودِ وصَيْد المفقود. وكان يُقال: النِّعم إذا روعيَت بالشكر فهي أطواق. وإذا رُوعيَتْ بالكُفرِ فهي أغلال.

والشكر على ثلاثة أوجه: شكْر بالقَلْبِ، وشكر باللسانِ، وشكر بسائر الجوارح. فشكر القلب أن يُعْلم أنَّ النِّعم كلها من الله تعالى، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية 53] وشكر اللسان، الثناء على الله تعالى وكثرة الحَمْد والمَدْح له. ويدخل فيه التحدّث بالنِّعَم، وإظهارها ونشرها. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾ [الضحى: الآية 11]. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذاكروا النِّعَمَ، فإنَّ ذِكْرَها شكرٌ. ومن شكر اللسان: شكر الوسائِطِ، بالثناء عليهم والدُّعاء. وفي حديث النّعمان بن بشير رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومَنْ لَمْ يشكر النَّاسَ لم يشكر الله».

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شكر النَّاس لله شكرهم للنَّاس، وشكر سائر الجوارح أن يعمل بها العمل الصالح. قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سَبَإ: الآية 13] فجعل العمل شكْراً.

ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قام حتَّى انتفخت قدمَاهُ، فقيل له: يا رسول الله تفعل هذا، وقد غَفَرَ الله لكَ ما تقدَّم من ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ» فقال: «أفلا أكُون عَبْداً شَكُوراً».

وسأل رجُلٌ أبا حازِم رضي الله عنه فقال له: ما شكر العَيْنَيْن؟ قال: إذا رأيْت بهما خيْراً أعْلَنْتَه وإذا رأيت بهما شرّاً سترتهُ. قال: فما شكر الأُذُنين؟ قال: إذا سَمِعْتَ بهما خيْراً وعيْتهُ وإذا سمِعْت بهما شرّاً دفنتهُ. قال: فما شُكر اليَدَيْن؟ قال: لا تأخُذ بهما ما ليس لك ولا تَمنع حقاً هو لله فِيهما. قال: فما شكر البَطْنِ؟ قال: أن يكُونَ أسْفله صبراً وأعْلاهُ عِلماً. قال: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ [المؤمنون: الآيتان 5، 6] قال: فما شُكْر الرِّجْلَينِ؟ قال: إنْ رأيت شيئاً غبَطته استعملتهما وإن رأيت شيئاً مقتّهُ كَففتهُمَا.

وقال الجُنَيد رضي الله عنه: كُنْتُ بين يدي السّري وأنا ابن سَبْع سنين، وبين يدي جَمَاعة يتكلَّمون في الشُّكر. فقال: يا غُلامُ ما الشُّكر؟ فقلتُ: ألاَّ يعْصَى الله بنِعَمِهِ. فقال: يوشك أن يكون حظُّكَ مِنَ الله لسانك. قال: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة. انتهى من ابن عبَّادٍ.

وأفْضَل النِّعَمِ وأعظمها على الإنسان، نِعْمَة الإسلام والإيمان، وكراهية الكُفْر والعِصْيَان، فلَوْلاَ تولي الله تعالى عبده بتلك النِّعْمَة لتاهَ في ظلمات الضَّلالات، وغرَق في بَحْر الجهَالاتِ. وقد نبَّه الله عزَّ وجلَّ على هذه النِّعْمَة في كتابه الكريم فقال جلَّ من قائل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحُجرَات: الآيتان 7،8] .

قال الإمام القشيري رضي الله عنه: وإنَّ مَنْ فكَّرَ في صُنُوفِ الضَّلالِ وكَثرة طُرُق المِحَالِ وشِدَّة أغاليط الناس في البِدَعِ والأهْوَاءِ وما شعب، فكل قوم مُخْتلفو المذاهب والآراء ثم فَكَّر في ضُعْفِهِ ونقصان عَقْلِهِ وكثرة تحيّره في الأمور وشدَّة جَهْلِهِ وتناقص تدبيره في أحوالِهِ وشدَّة حاجَتِهِ إلى الاستعانةِ بأشكالِهِ في أعمالِهِ، ثم رأى خالص يَقينه وقوة اسْتِبْصاره في دينه، ونقاء وجه توحيده عن عبادة الشرك، وصفاء عين بصيرته عن وَهْمِ الشكِّ عَلِمَ أنَّ ذلك ليس من طاقتِهِ ولا بِجهده وكَدِّهِ، ووسعه وجدِّهِ، بل بفضل ربِّه، وسابغ طولِهِ. قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [القمَان: الآية 20] فهو الظاهر بنعمائِهِ، ونِعمه عليك مُتظاهرة، والبَاطِن بالآئِهِ وزوائد كَرَمِهِ لديْكَ متواترة. اهـ.

وقال أبو طالب المكِّي رضي الله عنه بعد كلام: فلو قلَّب قُلُوبنا عنِ التَّوحيد، كما يُقلِّب جوارحنا في الذّنوب، ولو قلَّب قلوبنا في الشّكِّ والضّلالِ كما يُقلِّب نياتنا في الأعْمَالِ، أيّ شَيْءٍ كنا نَصْنَع، وعلى أي شيءٍ كنا نُعَوِّلُ، وبأيّ شيءٍ كنا نَطْمَئِنّ ونرجُو. فهذا من كبائر النِّعَم، ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان توجب العقوبة وادعاء الإيمان أنه عن كَسْبٍ معقُول، أو استطاع كَسْبَهُ بقوَّةٍ وحَوْلٍ، هو كُفْر نعمةِ الإيمانِ، وأخاف على مَن تَوهَّم ذلك أن بسبب الإيمان بَدَّل شُكر نعمة الإيمان كُفراً. اهـ.

وقوله: «والفَقْرُ» فيه لُغَتَانِ: الفتح والضَّمُّ. قال في القاموس: الفقر بالفتح ويضم: ضد الغناء، وضِدّهُ أن يكون له ما يكفي عياله أو الفقير من يجد القوت، والمسكين لا شيء عنده، أو الفقير: المحتاج، والمسكين من أذلّه الفقر، أو غيره من الأحوال.

ثم قال: أو الفقير من له بُلغة، والمسْكين من لا شيء له، أو هو أحْسَن حالاً من الفَقير، أو هما سَوَاء، فَقُرَ كَكَرُمَ فهو فقير الخ... وقال غيره: فقر ككرُم: إذا احتاج فهو فقير، أو كثير الاحْتياج أو دائِمُه. اهـ.

والفقرُ على وجهين، أحدهما: أن لا يجد صاحبه ما يُقيم به صُلْبَه ولا ما يَسْتر عَوْرته ولا ما يقوِّت به عيالهُ، فيَفْضي بصاحِبهِ إلى ذُلِّ السؤال والطَّمَعِ في المخلوقات وربّما أفضى به إلى الغَصْبِ والسّرقة، وربما يؤدي به إلى الشك في قسْمَة الرزق، فيؤديه إلى الكُفرِ، أعاذنا الله منه، وهذا الوجه هو الذي اسْتعاذ منه ﷺ وقرنه مع الكُفر.

وقيل: الفقر الذي اسْتعاذ منه ﷺ هو فَقْر القَلبِ، الذي لا يزولُ بملك الدّنيا بحذافيرِها.

والوجه الثاني: أن يكون له بُلغة يقيم صلبه، ويقوت بها عياله إلاّ أنه لا يجِدُ ما ينبسط به في الشّهَوَاتِ واللّذَّاتِ، ويتصرف به في أنواع التجارات، فهذا إنْ صَاحَبه الصبر والقناعة ورضي بما هو عليه من الحالةِ، فخَيره جَسِيمٌ وأجْره عند الله عظِيمٌ، وهو الّذي قال فيه رسول الله ﷺ: «يَدْخل فقراء أُمَّتي الجنَّة قبل الأغنياء بأربعينَ خريفاً»، فقيل: صفهم لنا. قال: «الدّنس ثيابُهُمْ، الشعثة رُؤُوسُهمْ، الذين لا يؤذنُ لهم على السدات، ولا ينكحون المتنعِّمات، توكل مشارقها ومغاربها، يعطون كل الذي عليهم ولا يعطون كل الذي لهم». رواه الطبراني في الكبير.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عَنِ النّبي ﷺ قال: «يجتمعون يَوْم القيامة فَيُقال: أيْنَ فُقَراء هذه الأمة؟ فَيُقال لهم: ما عَمِلْتُمْ؟ فيقولون: ربَّنا ابْتليتنا فَصَبَرْنا، ووليت الأمْوال والسلطان غَيْرَنَا. فيقول الله عزَّ وجلَّ: صَدَقْتُمْ. فيُدْخَلون الجنّة قبل الناس، وتبقى شدَّة الحساب على ذَوِي الأمْوَالِ والسلطانِ. قالوا: فأين المؤمنون يَوْمَئذٍ؟ قال: تُوضع كَرَاسي مِن نُورٍ لهم، وتظلل عليهم الغمام، ويكون ذلك اليوم على المؤمنين أقصر من ساعة من نهارٍ». رواه ابن حبّان في صحيحه. اهـ.

وهذا يدُلّ على أن الفقير الصّابِر أفضل من الغَنِيّ الشّاكِر، وفيه خِلاف كبيرٌ، وقد أطال الكلام فيه ابن حجر في كتاب الدّعوات، وما قوله ﷺ: «وأعُوذُ بك مِنْ عَذَابِ القَبْر» فعذَابُ القَبْر ثابت في الصّحيحين في حديث القبرين، قال: «إنَّهما ليُعَذَّبَانِ وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ. أما أحدهما فكان لا يَسْتَبْرِيء من بَوْلِهِ، وأمَّا الآخر فكان يَمْشي بالنَّمِيمة» الحديث. وقال ﷺ: «إنَّ المَوْتى ليُعَذَّبُونَ في قُبُورهم حتى إنَّ البَهَائِم لتسمَع أصْوَاتَهُم». وقال ﷺ: «لَوْلاَ أن تُزَايدوا لدعوت الله أن يُسْمِعكم عَذَاب القَبْر».

وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقَفَ على القَبرِ بَكَى حتَّى بلَّ لِحيته، فقيل له: تذكر الجنّة والنّار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي. فقال: إني سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «القَبْرُ أوَّل مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرة فإن نجا منه فما بَعْده أيسر، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدُّ». قال: وسمعت رسُول الله ﷺ يقول: «ما رَأيْتُ مَنْظراً قطُّ إلاَّ والقَبْرُ أفْظَعُ مِنْهُ». وقال ﷺ: «يُسَلَّط على الكافِر تسْعَة وتِسْعُون تِنيناً تنهشه وتلدغهُ حتى تقوم السَّاعة، فلَوْ أنَّ تِنِّيناً مِنْها نَفَخَتْ في الأرْضِ ما أنبتت خضراء».

وقال ﷺ: «المؤمِنُ في قَبْرِهِ لَفِي رَوْضة خَضْراء، فيزحف له قبْره سَبْعون ذِراعاً وينوَّر له كالقمر ليلة البَدْر، أتدرون فيمن نَزَلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: الآية 124] قال: أتدرون ما المعيشة الضَّنْكُ؟ قالوا: الله ورسُوله أعلمُ، قال: عذاب الكُفَّار في قُبُورِهِم، والَّذي نَفْسِي بيدِهِ لَيُسَلَّط عليه تسْعة وتسعون تِنِّيناً أتَدْرون ما التِّنين؟ التِّنين: سَبْعون حيّة، لكُلِّ حيَّة سَبْع رُؤُوس يَلْسَعُونَه ويَخْدشُونَهُ إلى يوم القيامة» اهـ.

فَعَذاب القبر غَيْر السّؤَالِ، لأنه ورد في حديث البخاري: «وأعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ ومِن عَذَاب القَبْر». ويحتمل هنا الشُمُول والله أعلم.

تنبيه: قال بعض العلماء في حَدِيث القبْرَيْن: إنَّما وقَع التَّعْذِيبُ في القَبْر على البَوْل والنميمة؛ لأنَّ الوُضُوءَ وسيلة للصَّلاَةِ، والنَّميمة وسيلة للقتْلِ. وأوَّل ما يُحاسب عليه العبد الصَّلاة، باعتبار حقوق الله تعالى وأوَّل ما يُقْضَى فيه بَيْنَ العِبَادِ في الدِّماءِ، فَعَجَّلَ في البَرْزَخِ التعذيب للأرْوَاح على الوسائِلِ. وإذا عاد الجِسْمُ عُذِّبَ على المقَاصِدِ. انتهى بالمغنَى.

فوائد: الأولى: فيما يأمن به من الكُفْر وسَلْبِ الإيمان.

قال الشيخ أبو عبد الله التّرمذي الحكيم رضي الله عنه: رأيت رب العزّة جلَّ جلاله أكْثَر مِنْ ألْفِ مرَّةٍ، وفي كُلّها أقُولُ: يا ربِّ، إني أخاف زَوَال الإيمان، فأمَرَنِي ربِّي جلَّ جلالُهُ في كلِّ مرَّةٍ أن أقولَ بين صَلاَة الفَجْرِ والفريضة أربعين مرَّة: «يا حَيُّ يا قَيُّومُ، يا بَدِيع السَّماوَاتِ والأرْضِ، يا ذا الجَلالِ والإكْرَام، لا إله إلاَّ أنْتَ، أسألُك أنْ تُحْيِي قَلْبي بمعرفَتِكَ أبداً سَرْمداً. يا ألله يا ألله يا ألله».

وقال الشيخ الكتّاني رضي الله عنه: رأيْتُ رسُول الله ﷺ في المَنَام، فقلت: أدْع الله أن لا يميتَ قلبي، فقال: «قُلْ كُلَّ يوم أربعين مرَّة: يا حَيّ يا قَيُّوم فأحيَا الله قَلْبَهُ وأنْطَقَه بالحِكْمة وشرح صَدْرهُ». قاله في نزهة المجالس. وقال المصنف: مَن ذكر

اسمه تعالى: الباعث، عند النَّوم مائة مرَّة، ووَضعَ يده على صَدْرِه عند ذِكرِه، نوَّر الله قلبهُ ورَزَقه الحِكْمَة.

الفائدة الثانية: فيما يُذْهب الفقر، ويوجب الغِنى، وهو أُمورٌ:

منها: ما رَوَاهُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كانَ رَسُول الله ﷺ يقول: «مَنْ قرأ سُورة الواقعة لَمْ تُصِبه فاقَةٌ أبداً». وقال بعض العلماء: مَنْ قرأها في مَجْلِسٍ واحد أربعين مرَّة قضيَتْ حاجَتُه كائنة ما كانَتْ، وخصوصاً في أُمُور الرِّزقِ.

ومنها: ما قاله بعض العلماء: مَن واظب على قراءَة الفاتحة مرَّة وألَم نَشرَح ثلاث مرات وإنَّا أنزَلْناه إحدى عشر مرَّة، فَتَحَ الله عليه مِنْ غير تَعَب.

ومنها: ما قاله المصنِّف في الخواصّ: مَنْ قرأ اسمَه تعالى، الرَّزَّاق، في زَوَايا بَيْتِهِ الأَربع عَشْرَ مرَّات قَبْلَ رِكْعَتي الفَجْرِ ويَبْدَأ باليمين وهو على طَهَارة مستقبل القِبْلَة إن أمكن، لَمْ يَمُسَّه فَقْرٌ ولا عُسْر ولا نَكَدٌ. وقال أيضاً: مَنْ ذَكَرَ اسْمَه تعالى: المَلِكُ، وقت الزَّوَال مائة مرَّة صفا قَلْبُهُ، ومن قرأه بعد صَلاَة الفجر مائة وإحدى وعشرين مرَّة أغْنَاهُ الله من فَضْلِهِ.

ومنها: أن يقول بين الفَجْرِ والصُّبْح مائة مرَّة: سبحان الله وبِحَمْدِه، سُبْحَان الله العظيم، أَسْتغفر الله العَظيم الذي لا إله إلاَّ هو الحيُّ القيُّوم وأتُوبُ إلَيْهِ. فقد قيل: إنه يورث الغِنَى، والله أعلمُ.

ومنها: كثرة الاستِغْفار. قال ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاستِغْفَارَ جَعَلَ الله لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فرجاً، ومِن كُلِّ ضِيْق مَخرجاً، ورَزَقَهُ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِبُ» رواه أبو داود والترمذي وغيرهما.

ومِنها: أن يقول كل يَوْم: لا إله إلاَّ الله المَلِك الحقّ المبينُ، مائة مرَّة، فإنَّه يستَغْني من فقره، ويحصل على تيسير أمره. قاله المصنّف في الخواصّ.

ومنها: كَثرة الصَّلاة على النبيّ ﷺ فإنها تكشف الهُمُوم والغُمُوم، وتكثر الأرزاق، حتى قال بعض الصالحين: مَنْ صلَّى على النبيّ خمس مائة مرَّة لم يفتقر أبداً.

ومنها: ما رواهُ الإمام أبُو عبد الله الدَّميري، عن شيخه العارف بالله أبي عبد الله بن أسَدٍ اليافعي، عن شيخه أبي عبد الله القرشي، عن الشيخ أبي الرَّبيع، قال له: ألا أَعلمك كنزاً تنفق منه. قال: نَعَمْ، قال: تقرأ هذا الدّعاء خلف كل صَلاَة، وخصوصاً بعد صلاة الجمعة فمن دَاوَمَ عليه حفظه من كل مخوف، ونَصَره على أعْدائِهِ ورَزَقه من حيْث لا يحتسب وقَضَى دَيْنه ولو كان أمْثال الجبال، وهو هذا: «يا ألله، يا

أَحَدُ يا وَاحِدُ يا مَوْجود يا جَوَّاد، يا بَاسِط يا كَرِيمُ، يا وَهَّابُ، يا ذا الطَّوْلِ، يا غَنِي يا مَغْنِيُّ، يا فتَّاح يا رَزَّاق، يا عَليمُ، يا حَيُّ يا قَيُّوم، يا رحمٰن يا رحيم، يا بديع السماوات والأرضِ، يا ذَا الجَلاَل والإكْرَام، يا حَنَّان يا مَنَّانُ، أنفِحْني منك بنفْحَة خَيْر، تغنني بها عمَّن سواك. ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: الآية 19]، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: الآية 1]، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: الآية 13] ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 223]. اللَّهُمَّ يا غَنِيّ يا حَمِيدُ يا مُبْدِيء يا مُعِيدُ يا رحيمُ يا وَدُودُ، يا ذا العَرْش المجيد، يا فعَّال لما يريد، أكْفِنِي بحَلالِكَ عن حَرَامِكَ، وبِطاعَتِك عَنْ مَعْصِيتك، وأغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ، واحْفَظْني بما حفظت به الذَّاكِرينَ، وانْصرني بما نَصَرْتَ به الرُّسُل إنك على كل شيء قَدِيرٌ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآلِهِ وصَحْبه وسلَّم تسْلِيماً عدد خَلْقك وزنة عرْشك ومِدَاد كَلماتِكَ. اهـ.

الفائدة الثالثة: فيما ينجّي من عذاب القَبْر وظُلْمَتِهِ، وهي أمُورٌ:

منها: قراءة سُورة المُلْك كل ليْلة. رُوِي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه قال: ضَرَب بعض أصحاب النبيّ ﷺ خباءه عَلَى قَبرٍ، وهو لا يحسب أنّه قَبْرٌ، فإذا قَبْر إنسان يقرأ سورة المُلك حتى خَتَمَها، فأتَى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ضَرَبت خبائي على قَبْر وأنا لا أشعر، فإذا قَبْر إنسان يقرأ سورة المُلْك حتى خَتَمها. فقال ﷺ: «هي المَانِعة، هي المنجيَة، تنجّيه من عذاب القَبْرِ». رواه الترمذي.

وعَنْ عَبْد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يُؤتى الرّجل في قبره، فيؤتى رجلاه فيقول: ليس لكم على ما قِبَلي سبيل، كان يقرأ سورة المُلْك. ثم يؤتى من قِبَل صَدْرِهِ أوْ قِبَل بطْنِهِ فيقول: ليس لكم على ما قِبلي سبيل، كان يقرأ سُورَة المُلْك. ثم يؤتى من قِبَل رأسِهِ فيقول: ليس لكم على ما قِبَلي سبيل، كان يقرأ سورة المُلك. فهي المانِع، تمْنع من عَذَاب القَبْر، وهي في التوراة سورة المُلكِ. مَن قرأها في ليْلة فقد أكثر وأطنَب. رواه الحاكم.

ومنها: الصَّلاة باللَّيْل. فقد قال عليه السَّلامُ: «صَلُّوا باللَّيْل لظلمَةِ القبُور، وصوموا بالنَّهَارِ لحَرّ يوم النُّشُور». وقال ﷺ: «وما مِن رَجُلٍ تَعَلَّم كتاب الله ثم صلّى ساعة من ليْلٍ، إلاَّ أوصَت تلك الليلة الماضية الليلة المقبلة أنْ تُنَبِّهَه لساعتِهِ، وأن تكون عليه خفيفة. وإذا مات وكان أهْله في جهازِهِ جاءَ القرآن في صُورَة حسَنَة فوقَفَ عند رَأْسِهِ حتى يُدْرج في أكْفَانِهِ، فيكون القرآن على صَدْرِهِ دون الكَفْن. وإذا وُضِعَ في قبره وسوي، وتفرّق عنه أصْحَابُهُ، أتاه منكر ونكير فيجلسانه في قَبْرِهِ فيجيء القرآن حتَّى

يكون بيْنه وبينهما فيقولان له: إليك حتَّى نَسْألَه؟ فيقول: لا، وربّ الكَعْبة، إنه لصاحبي وخليلي، ولست أخذُلُه على حالٍ، وإن كُنتما أُمِرْتُما بشيْءٍ فامْضِيا لما أُمِرْتُما ودَعوني مكَانِي فإني لست أُفَارِقه حتى أُدْخلَهُ الجنّة. ثم يَنْظر القرآن إلى صاحِبِه فيقول: أنا القرآن الذي كُنتَ تَجْهَر بي وتخفيني، فأنا أُحِبُّكَ ومَنْ أحْبَبْتُهُ أحَبَّه الله، وليس عليك بعد مسْألة مُنْكر ونكير هَمٌّ ولا حُزنٌ. فيسأله مُنكِرٌ ونكِيرٌ، ويَصْعَدان، ويَبْقى هو والقرآن فيقول: لأُفَرْشنَّكَ فِراشاً ليّناً، ولأُدْثِرنَّك دِثاراً حسَناً، جميلاً بما أسْهَرْت ليْلكَ، وأنْصَبتَ نهارَكَ. قال: فيصْعَد القرآن إلى السَّماءِ أسْرَع من الطَّرْفِ فيسأل الله ذلك كُلَّه، فيعطيه ذلك، فينزل به ألف ألف من المُقرَّبين في السَّماءِ السادسة فيجيءُ القرآن فيجيبه، فيقول: هَلِ اسْتوحشت، ما زدت مُذ فارقتك أن كلَّمت الله تَبَاركَ وتعالى حتى أخذتُ لك فِراشاً ودِثاراً ومفتاحاً، وقد جئتك بِه. فَقُم تُفرشك الملائكة. قال: فتنهضه الملائكة إنهاضاً لطيفاً ثم يفتح له في قَبْرِهِ مسيرة أربعمائة عام، ثم يُوضع له فِرَاش بطانته من حرير أخْضَر، حشوه المسك الأذفر، ويُوضع له مَرَافق عند رأْسِهِ وعند رِجْليهِ مِنَ السّندس والإسْتَبْرق، ويسرّج له سراجانِ من نور الجنة عند رأسِهِ ورجليه تزهوان إلى يوم القيامة ثم تضجعه الملائكة على شقه الأيمْن مسْتقبل القبْلة، ثم يؤتى بياسمين الجنّة وتصعد عنه ويَبْقَى هو والقرآن فيأخذ القرآن الياسمين فيضعه على أنفه غضّاً فيسْتنشقَهُ حتى يُبْعَث. ويرجع القرآن إلى أهلِهِ فيخبرهم كُلَّ يوم وليلة ويتَعاهده كما يتعاهد الوالِد الشفيق ولده بالخَيْر، فإن تعلم أحَد من وَلده القرآن بشرَّه بذلك، وإن كان عقبه عَقْب سُوءٍ دعاهم بالصلاحِ والإقبال، أو كما ذكر» رواه البزّارُ.

قال الحافظ المُنْذِري: ومعْنى مجيء القرآن: أي ثوابه... الخ. قوله: «اللَّهم عَافِني في بَدَنِي» العافية في البَدَنِ هي: حفظ صحته، مع سلامته من الآفاتِ، وسلامة أعضائه الظّاهرة والباطنة من المكدّراتِ، وقد ورَدَ التّرْغيب في الدُّعَاءِ بالعافية في أحاديث كثيرة، منها ما رواه الترمذي عن أنَسٍ رضي الله عنه قال: جاءَ رجل إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسُول الله أيُّ الدُّعاءِ أفْضَل؟ قال: «سَلْ رَبَّكَ العَافِيةَ والمعافية في الدّنيا والآخرة». ثم أتى في اليوم الثّاني فقال: يا رسول الله، أيُّ الدُّعاء أفْضَل؟ فقال له مِثْل ذلك. ثم أتاه في اليوم الثالث فقال له مثل ذلك، قال: «فإذا أُعطيت العافية في الدّنيا، وأُعطيتها في الآخرة فقد أفْلَحْتَ» اهـ.

ومنها: قوله ﷺ: «سَلُوا الله العَفْوَ والعَافِية، فإنَّ أحَداً لم يُعْط بعْد اليقينِ خَيْراً مِنَ العافِيَةِ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

ومنها: قوله ﷺ: «مَا مِنْ دَعْوَة يَدْعُو بها العَبْد أفضل من: اللهمَّ إنِّي أسْألك المعَافاةِ في الدّنْيا والآخِرَة». رواه ابن ماجه. وقال رجُلٌ: يا رسول الله، كيف أسْأل

رَبِّي؟ فقال: «قُلْ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي وَارْحَمْنِي وعَافِنِي وارزُقني، ويجمَع أصابِعه إلى الإبْهَامِ فإنَّ هَؤُلاءِ تَجْمَع لك دُنْيَاكَ وآخِرَتك» رواه مسلم.

ومَرَّ ﷺ بِقَوْم مُبْتَلِين، فقال: «ما كَان هؤُلاءِ يسْأَلُونَ الله العافية». رواه البَزارُ. وقال العبَّاس: يا رسُول الله، علّمْني شيئاً أدْعو الله به، فقال: «سَلْ رَبَّك العافية» قال: فمكثْتُ أيّاماً ثم جئت فقلت: يا رسول الله علّمني شيئاً أسْأل به رَبّي، فقال: «يا عَمّ، سَلِ الله العافية في الدّنيا والآخرة»، وفي رواية: «وكان يَقُول: يا عَمّ، أكثر الدّعاء بالعَافية» رواه الطبراني.

قال في الحِصْن: فلينظر العاقل مقدار هذه الكلمة التي اختارها رسول الله ﷺ لعَمِّهِ، من دُون الكلام، وليؤمِن بأنه ﷺ أُعْطِي جوامع الكِلم واخْتُصِرت له الحِكَم، فإنّ من أُعْطِي العافية فاز بما يَرْجوه ويحبُّهُ قلباً وقالباً وديناً وَدُنْيا، وَوُقِيَ ما يخافه في الدّارَيْنِ علماً يقيناً، فلقد تواتر عنه ﷺ دعاؤه بالعافية وورد هذا عنه لفظاً ومعْنًى من نحو الدّعاء خمسون طريقاً هذا، وقد غفر له ما تقدّم من ذَنبِهِ وما تأخّر، وهو المعصوم على الإطْلاق حقيقاً، فكيف ونحن عَرَض لسهام القدر، وعرض بين النَّفْس والهَوى والشيطان. كما ورد في الخَبَرِ. اهـ.

وقوله: «اللَّهُمّ عافِنِي في سَمْعِي» السمع هو قوّة مرتبة في العَصَبِ المفروش، على سطح باطن الصمّاخَيْن، يدرك بها الأصوات، والعافية فيه حفظه وسلامته مما يكدّره وإضراره من الصمم أو غيْره. وقوله: «اللَّهُمّ عَافني في بَصَرِي» البَصَر قوة منبثة في العصبتين المجوّفتين اللتين هُمَا مُتلاقيتان، فيفترقان إلى العيْنيْن. والعافية فيه: دوام حفظه وسلامته من الآفات، وفي هذا المعنى قال ﷺ: «اللَّهُمّ مَتِّعْنِي بِسَمْعِي وبَصَري، واجْعَلهما الوارث منّي... الخ»، وعَطَف السَّمْع والبَصَر على ما قبلهما مِنْ عَطْف الخاصّ على العامّ، اعتناءً بشأنِهِمَا، لأنّهما طريقانِ للعلوم والمعارف، وما يصل للقلبِ من العلوم جُلّه منهما، فهُمَا نعمتانِ عظيمتَانِ على العَبْد. وأمّا نعمة البَصَرِ فلا يُقام بشكرِه. وقد وَرَد في الخَبَر: أنّ نِعْمَة البصر تستغرق عمل العَبْدِ كُلِّهِ، ثم يَتَفَضَّلُ الله سبحانه على عَبْدِهِ. قال رسول الله ﷺ: «والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ الرَّجل ليجيء يوم القيامة بِعَمَلٍ لو وُضِعَ على جَبَلٍ لأثقلهُ، فتقوم النِّعمَة من نِعَمِ الله فتكاد تسْتفيد ذلك كلّه، لولا ما يتفضل الله مِن رحْمَته».

ثم نزلت: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ① إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ② إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ③﴾ [الإنسان: الآيات 1-3] . الحديث رواه الطبراني.

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: خرجَ علينا رسول الله ﷺ فقال: «خَرَجَ من عِنْدي خَليلي جبريل آنفاً فقال: يا محمَّد، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ إنَّ لله عبْداً من عِبَادِهِ عَبَدَ الله خَمْس مائة سنة، على رأس جَبل في البَحْرِ، عرضه وطوله ثلاثون ذِراعاً في ثلاثين ذِراعاً، والبَحْر محيط به أربعة آلاف فَرْسَخ من كُلّ ناحية، وأخرج له عَيْناً عَذْبة بِعَرْضِ الأُصبع تفيض بمَاءٍ عَذْبٍ، فتستنقع في أسْفل الجبل، وشجرة رُمَّان تخرج له كل ليلة رمانة. يتعبَّد يومه، فإذا أَمْسَى نَزَل فأصاب من الوُضُوءِ وأخذ تِلْكَ الرُّمَّانة فأكلها، ثم قام لصلاتِهِ، فسَألَ ربَّهُ عند وقت الأجل أنْ يَقبضه سَاجِداً، وأن لا يجعل الأرض ولا شيء يفسده سبيلاً حتى يَبْعثه وهو سَاجِدٌ. قال: فَفَعَلَ، فنَحْنُ نَمُرُّ عليه إذا هَبَطْنا وإذا عَرَجْنَا فنجد له في العِلْمِ أنه يُبْعَث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول الرَّبّ تعالى: ادْخُلِي عبْدِي الجنَّة بِرَحْمَتي، فيقول: رب، بل بِعَمَلِي، فيقول الله: قَايِسُوا عبدي بنعْمتي عليه، وبعملِهِ. فتوجد نعمة البَصَر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سَنَة، وبقيت نعمة الجسَد فَضْلاً. فيقول: أدْخِلُوا عبْدي النَّارَ. فَيُجَرّ إلى النَّارِ. فينادِي رَبّ برَحمتك أدْخِلْني الجنَّة. فيقول الله: ردوه بين يديَّ. فيقول: مَنْ خلقَك ولَمْ تَكُ شيئاً. فيقول: أنت يا ربّ. فيقول: مَنْ قَوَّاكَ لعبادة خمسمائة سنة. فيقول: أنت يا ربّ. فيقول: مَنْ أنْزَلك في جَبَل وسَط اللجَّة؟ وأخرج لكَ المَاءَ العَذْبَ مِنَ الماءِ المِلح وأخرج لك كل ليلة رُمَّانة، وإنما تخرج مرَّة في السَّنَة، وسألته أن يقبضك ساجداً ففعل، فيقول: أنْتَ يا ربّ، قال: فذلِكَ برحمَتي وبِرَحمتي أُدْخِلك الجنَّة. أدْخِلُوا عَبْدي الجنَّة، فنِعْمَ العَبْد كُنْت يا عَبْدي، فيُدْخِله الله الجنَّة. قال جبريل: إنما الأشياء برحمَة الله يا محمَّد». رواه الحاكم. وقال صحيح الإسناد.

قال سيدي أحمد بن المُبَارك رضي الله عنه: سألت شيْخنا سيدي عبد العزيز الدَّبّاغ: لِمَ قَدَّمَ الله تعالى السَّمْع على البَصَر في آيات كثيرة مِن القرآن، مع أنَّ البَصَر أعْظَم فائدة منه. إذ عجائب المصنوعات لا تُدْرك إلاَّ بالبَصَرِ. فقال: ما ذكرتم غير صحيح لأنَّ فائدة واحدة في السَّمْع تقوم مقام ذلك. وذلك أنه لو لَمْ يكن لبني آدَمَ سَمْع لتعطَّلت الشرائع إذ لا يتأتَّى أن يَسْمَعوا ما يقول لهم الرُّسُل ولا يَفْهَمُونَهُ ولتعطل الإيمان بالأمُور الغَيْبية، إذ لا طريق لها إلاَّ السَّمْع فانظره والله أعْلَمُ.

قَوْلُهُ: «لا إله إلاَّ أنْتَ» هي في المَوْضعيْن جُمْلة تعليلية لما تقدَّم كأنَّه قيل: اللَّهُمَّ إنَّا نَتَحَصَّنُ بك ونسألك؛ لأنك أنْتَ الغَنِيّ بِذَاتِكَ عمَّن سَوَاكَ وما سِوَاكَ قد عَمَّه العَجْزُ والافتقار إليك. فلا نَلْجأ إلاَّ إلَيْكَ، ولا رُغْبَة إلاَّ لكَ. وفي هذا إظهار الفاقة والافتقار والاعتراف بدَوَام العَجْز والاضطرار وهو مُوجب لسُرْعة الإجابة. قال تعالى: ﴿أَمَّن

يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النّمل: الآية 62] وبالله التوفيق. ولا حَوْل ولا قوّة إلاَّ بالله العليّ العَظِيم.

ثم أتى بصورة الاسْتِغفار فقال: «اللّهُمّ أنتَ رَبّي لا إلَهَ إلاَّ أنتَ خَلَقْتَنِي وأنَا عَبْدَكَ وأنا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما استَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ ما صَنَعْتُ وأبُوءُ لك بِنِعْمَتِكَ عَلَيّ، وأبُوء بِذَنْبِي فاغْفِر لي فإنّهُ لا يَغْفِرُ الذُنُوبَ إلاَّ أنْتَ».

(س) عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «سَيِّد الاسْتِغفار، اللّهُمّ أنتَ رَبّي لا إلَه إلاَّ أنتَ خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدَكَ وأنا على عهدك إلى آخره. مَنْ قالها مُوقناً بها حين يُمْسي فمات مِن ليلتِهِ دَخَلَ الجَنّة، ومَنْ قالها مُوقِناً بها حينَ يُصبِحُ فمَاتَ من يوْمِهِ دَخَلَ الجَنّة». رواه البخاري والنّسائي والترمذي، وغيرهُ: «لا يقولها أحد حين يُمْسي فيأتي عليه قَدَرٌ قَبْلَ أنْ يُصْبِحَ إلاَّ وَجَبَتْ له الجنّة». وليس لشدّاد في البخاري غير هذا الحديث. قاله الحافظ المُنْذري.

(ش): «اللّهُمّ: لفظه هنا: الطّلب. ومعناه: الإقرار بالمخبر به على جِهَةِ المُبالغة والتعْظيم. «أنتَ رَبّي» أيْ مالِكِي وسيّدي ومُدَبّر أمْرِي، فالرّبُّ في الأصْل، مصدر بمعنى التربية، وهو تبليغ الشيء إلى كمالِهِ شيئاً فشيئاً. سُمّي به المَالِك لحفظِهِ ما يَملكهُ. قال القرطبي: متى أدخلت الألف واللامُ على رَبّ، اختصّ بالله تعالى؛ لأنها لِلْعَهْدِ، وإنْ حُذِفَتْ صار مشتركاً بَيْنَهُ وبين عِبَادِهِ. وقوله: «لا إلَهَ إلاَّ أنتَ» تقرير وبيان لاسْتحقاقه بالرّبوبية، أي لا يستحق العبادة أحَد سواك. «خَلَقْتَنِي» أي أوْجَدْتني مِنَ العَدَمِ؛ وهو تقرير أيضاً لقولِهِ: أنتَ رَبّي. ولذلك تَرَكَ العطف فيهما. وقوله: «وأنا عَبْدُكَ» قال ابن حَجر: فهو حَال يجوز أن تكون مؤكدة، ويجوز أن تكون مقدرة، أي أنا عَابِدٌ لك، ووَعْدِك عَطْف قولُهُ: «وأنا على عَهْدِكَ» الخ... قلت: ويجُوز أن تكون جملة معطوفة على الجملة الأولى في أنت ربّي، وأنا عَبْدك. «وأنا على عَهْدِكَ ووَعدكَ» قال الخطّابي: مَعْنَاهُ: على عهدتك عليه، ووعدتك من الإيمان بِك، وإخلاص الطّاعة لك ما اسْتطعْت من ذلِكَ. ويحتمل أن يريد: إني مقيم على ما عهدتَ إليّ مِنْ أمْرِكَ ومتمسّك به، ومسْتنجزٌ وعدكَ في المثوبة والأجْرِ. واشتراط الاسْتِطاعة في ذلك معناه: الاعتراف بالعَجْزِ والقصور عن القدر الواجب في حقه تعالى.

وقال ابن بطال: قوله: «وأنا على عَهْدِكَ ووَعْدِكَ»: يريد الّذِي أخَذَه الله على عبادِهِ حيث أخرجهم مثل الذّرّ وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية 172] فأقرُّوا فيه بالرُّبُوبية وأذْعَنُوا بالوحدانية، وبالوَعْدِ. ما قال على لسَان نَبيّهِ إن مات لا يشرك بالله شيئاً وأدّى ما افْتَرَضَ الله عليه زيادة ليست بشرط في هذا المقام؛ لأنه

جعل المُرَاد بالعَهْدِ: الميثاق المأخُوذ في عَالَم الذَّرِّ؛ وهو توحيد الخاصَّة. فالوَعد هو إدخَال مَن مات على ذلِكَ الجنَّة. فقال: وفي قوله ما اسْتطعْت: إعلام لأمَّتِهِ بأن أحداً لا يَقْدِرُ على الإتيان بجميع ما يجب عليه لله، والوفاء بِكَمَالِ الطَّاعاتِ والشكر على النِّعَمِ، ولو حاول فلم يكلفهم إلاَّ وُسْعهم.

«أعُوذُ بِكَ» أتَحَصَّنُ بك «من شَرِّ ما صَنَعْتُ» أي ما ارْتكَبْتُ مِنَ الآثام، أي العَوْذ من المؤاخذة بها، وسوءِ عاقبتها. قال في شرح النَّصيحة: ولَمْ يتَكَلَّم ابنَ حجر على قوله: أعُوذ بك مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ وقد كان ورد سُؤال على شيخنا الوالد ومُضَمَّنُهُ: إنَّ بعضهم زَعَمَ أنَّ تاء صَنَعْتُ في أصْل الرواية مفتوحة، وإنَّ النَّاس يضمّونها تأدُّباً. فأجَابَ: المحفوظ الضمُّ. كما هو مضبوطٌ في صحيح البخاري في النسخ المُعْتمدة، وكذلك يقرؤها الناس في الوظيفة الزَّرُّوقية وغيرها. وما ادَّعاه ذلك المُدَّعِي غير صحيح إذ لا دليل عليه، وما عُلّل به لا يَتِمّ إذ هو كلام صَدَرَ مِنْ غير تأمُّلٍ لما يَلْزَمُ عليه من ادِّعاء أدَبٍ أكثر من أدبِهِ ﷺ، وكَيْفَ؛ وهو ﷺ سيد العارفين وسيد الأولين والآخرين، والقائل: «أدَّبَنِي ربّي فأحْسَنَ تأدِيبي». وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: أنا أعْلمكم بالله وأشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَة» فكيف يَخْطِر بالبَالِ أنْ يُوَازيه أحَدٌ في رُتَبِهِ أو يُدَانِيهِ في أدَبِهِ، فَلَو ثبت شيءٌ ما عَدَلَ إلى غَيْرِهِ.

ثم قال: فلو رُوِي بفتح التاءِ لصحّ ولكان من معنى الاخْتِراع والخَلْق، كما فُسِّرَ به الصّنع في حقه سبحانَهُ. والاستِعَاذة أيضاً على هذا المعنى واردة كتاباً وسُنَّة. أمَّا الكتاب فقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلَق: الآيتان 1، 2] . وأمَّا السُّنَّة فوارد: أعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شَرِّ ما خَلَق. وغيره من الأحاديث، لكن لم تَثْبُتْ رواية بفتح التَّاءِ فيتمسك بالمروي وهو الضَّمُّ... الخ.

وقوله: «أبُوءُ لَكَ» أي أعْتَرِفُ وأُقِرُّ. وأصله البَوَاء، ومعناه اللُّزُومُ. ومنه بَوَّأه الله منزلاً: أسكنه إيَّاهُ، فكأنّه ألْزَمَهُ به، ومن أقرَّ بشيءٍ فقد ألْزَمَ به نفسَهُ. وقوله: «بِنِعْمَتِكَ... الخ» أي بإنْعامِكَ عَلَيَّ. قولُهُ: «وأبُوءُ» أي أُقِرُّ بِذَنْبي. قال الطيبي: اعْتَرَف أوَّلاً بأنَّهُ أنْعَمَ عليه، ولم يقيدهُ ليشمل جميع أنواع الإنعَامِ. ثم اعْتَرف بالتقصير وأنه لم يقم بأداءِ شُكرها، ثم بالَغَ فَعَدَّهُ ذَنْباً، مُبالغةً في التقصير والهضم للنَّفسِ. اهـ. ويحتمل أن يكون قوله: «وأبُوءُ بِذَنْبِي» اعترافاً بوقوع الذَّنب مطلقاً، ليصحَّ الاسْتِغفار منه ويؤخذُ مِنْ قوله: «فاغْفِر لي... الخ» أنَّ مَنِ اعترفَ بِذَنْبِهِ غفر له. وقد وقع صَريحاً في حديث الإفك الطويل، وفيه: «فإنَّ العبد إذا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وتَابَ، تَابَ الله عليه». اهـ من شرح النَّصيحة.

«فاغْفِرْ لي فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنتَ» لا يَسْترها بعد العِلم بها إلاَّ أنْتَ. قال

ابن حَجَر: قال القرطبي: لما كان هذا الدُّعاء جامِعاً لمعاني التَّوْبة كُلِّها أُسْتعير له اسْمُ السَّيِّد؛ وهو في الأصْل: الرَّئيس الذي يُقصد في الحَوَائِج ويرجع إليه في الأُمُور.

قال العارف بالله أبي جمرة رضي الله عنه: جَمَعَ ﷺ في هذا الحديث: مِنْ بَديع المَعَاني وحُسْن الألْفاظ ما يحق لَهُ أن يُسَمَّى سَيِّد الاسْتِغْفَار: فيه الإقرار بالعَهْدِ الذي أخذه عليه، والرجاء لما وعده، والاستعاذة مِنْ شَرِّ ما جَنَى العَبْدُ على نَفْسِهِ، وإضافة النَّعماء إلى مُوجِدَها، وإضافة الذَّنب إلى نَفْسِهِ، ورغبته في المَغْفرة واعْترافه بأنه لا يَقدرُ أحد على ذلك إلاَّ هو سُبْحانه. وفي كُلِّ ذَلِكَ إشارة إلى الجمع بين الحقيقة والشَّريعة، فإنَّ تَكَاليف الشريعة لا تَحْصُل إلاَّ إذا كان في ذلك عَوْنٌ مِنَ الله سبحانه، وهو القَدَرُ الذي يُكَنَّى عنه بالحقيقة. فلو اتفق أنَّ العَبْد خالف حين يجري ما قَدِر عليه، وقامَت الحجَّة عليه، لَمْ يَبْق إلاَّ أَحَد أمْرَيْن: إمَّا العُقوبة بمقتضَى العَدْلِ أو العَفْوُ بِمُقْتضَى الفَضلِ. انتهى ملخَّصاً.

وقال أيضاً: مِن شروط الاسْتِغْفارِ صحَّة النِّية، والتوجه والأدَبِ، فلو أنَّ أحداً حصَّل الشروط واسْتغفَرَ بغير هذا اللفظ الوارد، وآخر أتى باللفظ الوارد لكان أَخَلَّ بالشروط، هل يتساويانِ؟ فالجَوَابُ: إن الذي يظهر أنَّ اللَّفظ المَذكور إنما يكون سيِّد الاسْتغفارِ، إذا أجمع الشروط المذكورة. اهـ.

وفي رسائل الشيخ ابن عبَّاد رضي الله عنه ما نصُّهُ: وأمَّا الذكر الذي طَلَبْتم مني لِتُدَاوِمُوا عليه، وتتخدوه وِرْداً فإنَّ ذلك ليس من شأني، هو مِنْ شأن الشيوخ المُرَبِّين. وقد تقدم مني على عدم أهْليتي لذلك، الحَلف واليمين، ولكن الذي أدلكم عليه من أنواع الأذكار، ما كان دعاء، أو من الدّعاءِ ما يتضمَّن حمداً وثناءً، ويقتضي من دَاءِ الرّعونة شفاء، ولم أجِدْ ذلك إلاَّ في المواظبة على سيِّد الاسْتِغفار، الذي جاءَتْ به صحاح الأخْبَار، لما تضمَّنَه من المناجاة والحُضور، والإقرار بربوبية الملك الغفور، ثم إخلاص الوَحْدَانية والاعتراف بفاقة الخلقة وذلة العبودية، ثم إظهار الحاجَة في تكاليف الخدمة إلى القوي المعين، والاستعاذة بالله تعالى مما يسوس به عدوه اللَّعين، ثم الرجوع إلى الله تعالى بالنِعَم، وتحمل الذَّنب المجترم، ثم سؤال الغفران والمتاب، والاختتام بالثناءِ الحَسَنِ على ربِّ الأرباب، فإذا فعلتم ذلك في أكثر أوقاتكم حَصَل لكم الخير الكثير، مع القيام بالأدبِ بين يدي المَلك القدير. اهـ.

فائدة: قال المصنف رحمه الله: إذا كتب سيِّد الاستغفار وجُرع لمن صَعُبَتْ عليه الموت انطلق لسانهُ، وسَهُلت عليه. ذكره البلالي في آخر اختصار الإحياء، وجُرب مِراراً. وبالله التوفيق. ذكره في الخواصِّ. ثم قال رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ إنِّي أَصْبَحْتُ مِنْكَ في نِعْمَةٍ وعافِيَةٍ وسِتْرٍ، فأتِمَّ نِعْمَتَكَ عَلَيَّ وعَافِيَتَكَ وسِتْرَكَ في الدُّنْيا والآخِرَة».

(س) عَنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال حِينَ يُصْبِحُ وحين يُمْسِي ثلاث مرّاتٍ: «اللّٰهُمّ إني أصْبَحْتُ مِنكَ في نِعْمَةٍ وعافية. . . الخ» الحديث، كان حقّاً على الله أن يُتِمّ نِعْمتَهُ عليه». أخرجه ابن السني، وقال النووي: صحيح الإسناد. قال: ويُقال في المساءِ: إني أمْسيْت. قاله المصنف في إسْنَادِهِ.

(ش): اللّٰهُمّ: معناها هنا للإقرار على وجه المبالغة والتعظيم «إني أصْبَحْت مِنكَ»، أي من أجْل حِفظك إياي وإحْسَانِكَ إليّ «في نِعْمَةٍ» عظيمة، بالتنكير للتعظيم، ومِن: تعليلية ويحتمل أن تتعلق بما بعدها، أي أصبَحْت في نِعمة منك لا من غيرك. والنعمة: كل آلاء تُحمد عاقبته، ومن ثم قالوا: لا نِعْمة لله على كَافِرٍ، وإنما مَلاذه استدراج فهي نعمة يزداد بها عَذابه. وقال البيضاوي: النِّعمَة في الأصل، هي الحالة التي يستلذها الإنسان، وقيل: هي مُلازمة الأفراح، ومُباعدة الأتراح، وإصابة الأغراض والسلامة من الأمراض، والنّزاهة من الأعراض. اهـ. ونِعَم الله وإن كانت لا تحصى، كما قال سُبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية 34] لكنها تَنْحَصِر في جِنسَيْن: دنيوي وأُخروي. فالدّنيوي قسمان: وهْبِي وكَسْبِي. والوَهبي قسمان: روحاني كنفخ الرُّوح، وإشراقه بالعقل، وما يتبعهُ من القوى كالفهم والفكر والنطق. وجسماني، كتخليق البَدنِ والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له مِنَ الصحّة وكمال الأعْضَاء.

والكَسْبي: كتزكية النفس من الرّذائِلِ وتحليتها بالفَضَائِلِ، وتخلقها بالأخلاق الحسنَة. والكمالات الفاضلة، وكتزيين البَدَن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة، وحصول الجاه والمال. والأخروي: أن يغفر ما فرط منه، ويرضى عنه، ويُبَوّءهُ في أعلى علّيين، مع الملائكة المقرَّبين أبَد الآبِدِينَ. اهـ. من البيضاوي. وبعضه بالمغْنَى، وقوله: «وعافيتهُ»: العافية: خُلُوّ القلب من الانزعاج والاضطراب والتقلب. ثم إن كان بالسكون إلى الله والرضَى عَنْهُ؛ فهي العاقبة العاديةَ. قاله المصنف. وقيل: هي دفاع الله عَنِ العَبْدِ ووقايته إيّاه من المكارِهِ والأسْوَاء. وقال محمد بن علي الترمذي الحكيم: العاقبة هي إذا حَلَّ به بلاَءٌ ألا يكله إلى نفسه ولا يخذلهُ، وأن يكْلأهُ ويرعاهُ.

وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: أجْمع العلماء أن تفسير العَاقبة ألاّ يَكِلَ الله العَبْد إلى نَفْسِه، وأن يَتولاّهُ.

وقوله: «وسِتْرِ» السَّتْرُ بفتح السّين: المَصْدر، وبالكَسْرِ: ما يستتر بِهِ. ويصحّانِ هنا أي أصبحت في وقاية وحفظٍ، ورعاية منك. فلا نخشى نزول الشدائد والباليات، ولا الوقوع في الذُّنُوب والمخالفات، أو في كَنَفٍ وحجابٍ يسْترنا عن المكاره والأسواءِ في البَدَنِ والدِّين والدّنيا.

وقوله: «فأتِمّ نِعْمَتَكَ عليَّ وعافيتكَ وسِتْرَك في الدّنيا والآخرة» أمَّا تمام النعمة في الدّنيا: فبالمغفِرَة والرّضوَان. والاجتماع بالأحبَّة في الفراديس والجِنان. وأمَّا إتمام العافية في الدُّنيا فبالسلامة من الوقُوع في الجَرَائم والمخالفات والحفظ من نزول الشدائد والبَلِيَّات. وأمَّا إتمامُهَا في الآخرة: فبالنجاة مِنْ أهْوَالها وشدائدها وبدخول الجنَّة ونعيمها. وأمَّا إتمام السّتْر في الدنيا، فبِالعصمَة من المخالفة والذنوب، أو بالستر لما فَرط من القبائِح والعيوب. فالأول مطلب الخاصَّة، أهْل العِنَاية والعرفان. والثاني مطلبُ العامَّة أهل الغفلة والخِذلان. يَعْني أنَّ الخواص أهل المعرفة واليقين يطلبون الستر من الذّنوب؛ بأن يُغيبها عن نَظَرِهم ولا يُخطِرها بِقُلُوبِهم، فتميل إليها أنفسهم فيعملون بها فيقعوا في مخالفة ربهم والتعرض لسخطه والسقوط من عَيْنه فطلبُوا مِنَ الله تعالى أنْ يستر عنهم الذّنوب. وأما العامَّة فقد غلب عليهم شهود الخلق والتصنع، والتزيّن لَهُمْ، ومحبَّة حمدهم، وكراهية ذَمِّهم، فهم يعملون المعصية ويَسْتَخفون بها، ويطلبون السّتْر من الله تعالى عليهم فيها لئلاً يراهم الخلق، فيَسْقطوا من أعْيُنهم، وفي أمثالهم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النّساء: الآية 108] .

قال في الحِكَم: السّتْر على قسمين: سِتر عن المعصية، وسِتْر فيها. فالعامَّة يطلبون السِتْر مِنَ الله فيها خشية سقوط مَرْتبتهم عند الخلق. والخاصة يطلبون السّتْر عنها خشية سقوطهم في نظر المَلِك الحقّ. اهـ. وأما تمام السّتر في الآخرة بأن يغفره الله له، ويضع عليه كَنفه، ويقول له: قد سترتها عنك في الدّنيا وأنا أغفرها لك اليوم. اللّهم اغفر ذنوبنا، واسْتر عُيُوبَنَا ولا تفضحنا بيْن عبادِك في دُنيانا وآخرتنا يا أرحم الراحمين. ويرحم القائل:

يَظنُّونَ بِي خَيْراً وما بي مِنْ خَيْرِ ... ولكِنَّني عَبْدُ ظَلُومٌ كَمَا تَدْرِي
سَتَرْتَ عُيُوبِي كُلَّها عَن عُيُونِهم ... وألْبَسْتَنِي ثوباً جَمِيلاً مِنَ السَّتْر
فَصارُوا يُحِبُّونِي ولستُ أنا الَّذِي ... أُحبُّ ولكِن شبَّهُوني بالغَيْرِ
فلا تَفْضَحْني في القيامَةِ بَيْنَهُمْ ... ولا تخْزِنِي يا ربّ في مَوْقِفِ الحَشْرِ
بِجَاهِ النَّبِيّ المُصطفَى وبِجَاهِ مَنْ ... أتى بَعْدَهُ مِن ذِي الجَلالَةِ والقَدْرِ

ثم قال: «اللّهُمَّ ما أصْبَحَ بي مِنْ نِعْمَةٍ أو بأحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لك، فَلَكَ الحَمْدُ ولك الشُّكْرُ».

(س): أخرجه أبو داود عن عبد الله بن غنّام البياضي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَن قاله صباحاً فقد أدّى شُكر ليلته» اهـ. أخرجه في الحِصْن عن ابن حبّان وأبي

داود. وقال في الترغيب: رواه أبو داود والنسائي واللفظ له. ورواه ابن حبَّان في صحيحه عن ابن عبَّاسٍ. انظر تمامه.

(ش): اللَّهُمَّ: هو كما تقدَّم قريباً. «مَا» شرطية مبتدأ. «أصبح» فعل الشرطِ، أي أيُّ فرْد من أفرادِ النِّعَمِ أصبح «بِيَ» أي متصلاً بِي «مِنْ نِعْمَة» بيَان لِمَا أو حال. «أو بأحدٍ من خَلْقِكَ» أيَ فهو منك «وحدكَ» حال «لا شريك لك» لأن أصول النِّعم وفُرُوعها وجليلها وحَقيرها، كلها منك خَلْقاً وإيجاداً: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية 53].

هذا ما يقتضيه التوحيد، وهو عَيْن الحقيقة. وأما ما تقتضيه الشريعة فلا بُدَّ مِن شُكْرِ الوسائِطِ. قال في الحِكَمْ: إن كانت عَيْن القَلْبِ تنظر إلى أن الله واحِد في مِنَّتِهِ والشريعة تقتضي لا بُدَّ من شكر خليقته. قال سيّدي ابن عبَّادٍ رضي الله عنه: إذا أوْصل الحقُّ تعالى إليك نِعْمَة على يَد إنسانٍ، سواء كانت دينية أو دنيوية، فعليك في ذلك وظيفَتَانِ:

إحداهما: أن تَشْهَدَ انفِرَاد الله تعالى بذلك فلا ترى النِّعمة إلاَّ مِنْهُ وحْده، وترى من سِوَاه ممَّن أجراها على يَدَيْه مقهوراً مجبوراً على ذلك، مسلطاً عليه الدَّواعي والبواعثُ حتى لم يجد انْفِكاكاً عنه، وهذا هو حق التوحيد.

الثانية: أن تشكر مَنْ وصَلَتْ إليك على يديه بأن تدْعُو له وتثني عليه، امتثالاً لأمْر الله تعالى وعملاً بما جاءت به الشريعة. قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: الآية 14] وفي حَدِيث النعمان بن بشير رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لم يشكر القليل لَمْ يشكر الكثير. ومن لَمْ يشكر النَّاس لم يشكر الله» اهـ. ثم قال: ومِنْ أسمائِهِ تعالى الشكور، فليتخَلَّق العَبْد بذلك وهذا هو حقّ الشرع اهـ. واعلم أنَّ النَّاس في التوحيد ورؤية الوسائط على ثلاث درجات: مقام العامَّة، والخاصَّة، وخاصَّة الخاصة.

أما مقام العامَّة: فهو الوقوف مع الرسوم والظواهر وقوة دائرة الحسّ وانْطِماس البَصَائر. فنظروا الأجسام من المخلوقين فتعَبَّدوا لهم وطمعوا إليهم، ولم يشهدوه من رب العالمين. ثم هم على ذلك على قِسْمَيْن:

أحدهما: أن يعتقدوا ذلك بقلوبهم، وهذا هو الشرك الجلي، الذي يخرج صاحبه عَن دائرة الإسلام، ويُوقعه في الكُفر والعياذ بالله.

والثاني: أن يحصُل ذلك مِنهم استناداً، أي اعْتِماداً على غَيْر الله، وسَكَنُوا إلى سواه مع سلامة اعتقادهم؛ وهذا هو الشِّرْكُ الخَفِي الذي يخرج صاحبه عن حقائق

الإيمان. ويدخله في أبواب النفاق، والعياذ بالله من الشرك كله جليه وخفيه.

وأما مقام الخاصَّة: فهو شهود النِّعم كلها مِنَ الملك الحقّ، من غير نظر للوسَائِطِ والأسباب اعتماداً على مُسَبّب الأسْبَابِ. فلم يَرَوا لها فِعْلاً ولا جهداً فهم مواجهون بالحقيقة غائبون عن الأغيار، مطموس عليهم الوسائط والآثار، قد غلب عليهم سكرهم على صَحْوهم، وجمعهم على فرقهم، وهم أصحاب الأحوال.

وأما مقام خاصَّة الخاصَّة: فهو المقام الأكمل، وهم قوم شربُوا أكواس التوحيد فازداد صحوهم، وغابوا عن الأغيار، فازداد حضورهم، قد ملكُوا الأحْوَال وتمكّنوا في مقام الرجال فوفُوا حقوق جميع المراتب، وأعْطوا ما لها من قسْط وواجِب. يعني جمعوا بين الحقيقة والشريعة، فأفردوا الحق بالإنعام والإحسان، وأثنوا على الوسائط باللسانِ، وإلى هذه المقامات أشار في الحِكَم بقوله: والنَّاس في ذلك على ثلاثة أقسام: غافل منهمكٌ في غَفْلَته، قويتْ دائرة حِسِّهِ وانطمَسَتْ حضيرة قدسِهِ فنظر الإحسان من المَخْلُوقين ولَمْ يشهده من رب العالمين. إما اعتقاداً فشركه جليّ، وإما استناداً فشركه خفي، وصاحب حقيقته غائب عن الخلق بشهود المَلِك الحقّ فَنَى عن الأسْبَاب، بشهودِ مسبب الأسْباب، وهذا عَبْد مُوَاجه بالحقيقة ظاهر عليه سَنَاها، سالِك للطريقة، قد استولى على مَدَاها غير أنه غريق الأنوار، ومطموس الآثار، قد غَلَب سكره على صحوِهِ وجمعه على فَرْقِهِ، وفناؤه على بقائِهِ، وغيبته على حضورِهِ، وأكمل منه عبد شرب فازْدَادَ صَحْواً وغاب فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عن فَرْقِهِ ولا فَرْقه يحجبه عن جَمْعِهِ، ولا فناؤه عن بقائِهِ، ولا بقاؤه يصده عن فَنَائِهِ، يُعطي كل ذي قسْط قسْطهُ ويوفي كل ذِي حق حقه... الخ كلامِهِ.

وقوله: «فَلَكَ الحَمْدُ ولكَ الشُّكْرُ» أي لك الثناء الجَمِيل على ما أوْليتَنَا من الفَضْل الجزيل، ولك الشُّكْر باستعمال الجنان والأركان، على ما أنعمت مِنَ الفضل والإحْسانِ. ابن جزي: واعلم أنَّ النِّعَم التي يجب الشُّكر عليها لا تُحْصَى، ولكنها تَنْحَصِر في ثلاثةِ أقسامٍ: نِعم دنيوية، كالعافية والمَالِ. ونِعَم دينية، كالعلم والتقوى. ونِعَم أُخروية، وهي جزَاؤه بالثوابِ الكثير، على العمل القليل، في العُمر القصير.

والنَّاس في الشكر على مقامَيْنِ، فمنهم من يشكر على النِعَم الواصلة إليه خاصَّة، ومنهم من يشكر الله على النِّعم الواصلة إلى جميعهم. والشكر على ثلاث دَرَجات، فدرجة العَوَام: الشكر على النِّعَم. ودرجة الخواص، الشكر على النعم والنِّقم وعلى كل حال. ودرجة خواصِّ الخواصِّ أن يغيب عن النِّعْمَة في مشاهدة المُنْعِم. قال رجل لإبراهيم بن أدهم: إنَّ الفقراءَ إذا أعطوا شكرُوا وإذا مُنِعوا صَبَرُوا. فقال: هذه أخلاق الكلاب، ولكن الفقراء إذا منعوا شكروا، وإذا أُعطوا آثروا. اهـ.

ثم قال رضي الله عنه: «يا ربِّ لَكَ الحَمْدُ كما يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِكَ وعَظِيم سُلْطَانِكَ».

(س) عن عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ حدَّثهم: «أنَّ عبْداً من عِبَادِ الله قال: يا رب لكَ الحَمْد كما يَنبَغِي لجَلالِ وَجْهِكَ، وعَظِيم سُلْطانِكَ، فَعَضَّلَتْ بالمَلكَيْن، فلم يَدريا كيف يَكْتبانِها، قال الله؛ وهو أعلم ما قال عَبْدُهُ: «ماذا قال عَبْدِي؟» قالا ربَّنَا: إنه قد قال: «يا ربِّ لك الحَمْدُ كما يَنْبَغِي لجَلالِ وجْهِكَ، وعظِيم سُلْطانِكَ» قال الله لهما: «اكْتُبَاها كما قال عَبْدي حتى يلقاني فأُجِيزه بها». رواه أحمد وابن ماجه وإسْناده مُتَّصِلٌ.

وقوله: «عَضَّلَتْ» بتشديد الضَّادِ المعجَمة، أي اشْتَدَّتْ عليهما وعَظُمَتْ، واسْتغلَق عليهما معناها: قاله في التَّرْغيب، ومثل هذا النوع ما رواه ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: الحَمْدُ لله رَبِّ العالمينَ، حمداً كثيراً طيباً مُبَاركاً على كُلِّ حالٍ، حَمْداً يُوَافِي نِعَمَهُ، ويُكافي مَزِيدهُ» ثلاث مرات فتقول الحفظة: ربَّنا لا نُحسِن كُنه ما قدَّسَكَ به عبْدك هذا وحَمَدَكَ، وما نَدْرِي كَيف نَكْتبُهُ، فيوحي الله إليهم أن اكتبوه كما قال» رواه البخاري في الضعفاء.

(ش): قوله: «يا ربّ» قال الزَّمخشري: فإن قلت: الله تعالى أقرب إليك مِنْ حَبْلِ الوَريد فكَيْفَ تُنَاديهِ بما يُنادى البعيد؟ فالجواب: أنَّ المُنَادِي نزّل نَفْسه مَنْزلة البعيد خشية ورَهْبَة منه تعالى. «لَكَ الحَمْدُ» لا يستحقه غيرك فالتقديم للاختصاص والحَصْرِ. وقولُهُ: «كَمَا» مَفعُول مُطْلَق، وعامِله محذوف، أي أحمدك حَمْداً عظيماً مثل ما «يَنبَغي» أي ما يَسْتحق ويُطْلب. «لجَلاَلِ وَجْهِكَ» أي لِعُلُوِّ قَدْرِكَ وارْتِفاع شأنِكَ. والجلال: هو الوصف الجامع لسَائر صفاتِ الكَمَالِ. وقال الشُشتري: ولا خِلاف عند أهل الحقِّ أنَّ جلاله: استحقاقُهُ لنُعُوتِ التَّعَالِي، وهو بمعنى رفعته وعلوّه. وقال أيضاً: مَنْ عَرَفَ جلاله تَذَلَّلَ وتَوَاضَعَ.

جاء في بعض الرِّوايات: «إنَّ لله مَلاَئِكة قد خَلَقَهُمْ لا يفترونَ عن البُكَاءِ ولا تَقْطر من دُمُوعهم قطرة إلاَّ وخَلَقَ الله تعالى منها مَلاَئكته لا يَرْفعون رؤوسهم إلى يوم القيامة مِنْ هيبته سُبْحانَهُ. فإذا كان يوم القيامة يَقولُون: سُبْحَانك ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادِتَك. وقيل: مِنْ جُمْلة حَمَلة العرش ملائكة صورهم كَصُورة العجل، ولما عَبَد بنو إسرائيل العجل وضَعُوا أيْديهم على وجُوهُهم حَيَاء من الله تعالى. اهـ.

وقوله: «وجهك» أي ذَاتِكَ كقوله سبحانه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية 27] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القَصَص: الآية 88]

ويحتمل أن يكون من إضافَتِهِ إلى المَوْصُوف، أي لوجهك الجليل. وقولُهُ: «وعَظِيم سلطانك» من إضافة الصِّفَة إلى الموصُوف، أي سلطانك العظيم، وسُلْطانه سُبْحَانه، هي حجّته البالغة على خَلْقِهِ، وهو ملكه لهم، المقتضي لعموم التصرف والتعرّف فالتصريف بالأمْرِ والتعرف بالقهْرِ. والأول يقتضي الامتثال، والثاني يقتضي الاسْتِسلام. وشاهده ذلك، أنَّ الخلق خَلْقَهُ، فلا شَيْءٍ لأحَدٍ مِنهُمْ معَهُ. والأمر أمره، فلا أَمْر لأحدٍ سِواهُ، وقد أشار ﷺ إلى هذا المعْنَى بقولِهِ: «الحَمْدُ لله الَّذي تواضَعَ كل شَيْءٍ لعَظَمَتِهِ، والحمد لله الذي ذلّ كل شيْءٍ لقدرتِهِ، والحمد لله الذي خَضَعَ كلّ شيءٍ لمُلكه، والحَمْدُ لله الذي اسْتَسْلم كل شَيْءٍ لقدرَتِهِ». وقال: من قالها يَطْلُبُ بها ما عند الله، كَتَبَ الله له بها أَلْف حسَنَة، ورفَعَ له بها أَلْفَ دَرَجة. ووكل بها سبعين ألف مَلك يَسْتَغفرون له إلى يوم القيامة». رواه الطبراني. انتهى من الترغيب.

ثم قال رضي الله عنه: «رَضِيتُ بِالله رَبّاً وبالإِسْلاَمُ دِيناً، وبِسَيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ نبيّاً رَسُولاً».

(س) عن أبي سلام، وهو معطور الحبشي: أنّه كان في مسجد حِمْصٍ، فمرَّ به رَجُلٌ فقالوا: هذا خادِم رسول الله ﷺ. فقام إليه فَقَال: حَدِّثْنِي بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يَتَداوَلْهُ بيْنكَ وبَيْنَه الرِّجَال. فقال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قال إذا أَمْسَى وإذا أصْبَح: رَضِيت بالله رَبّاً وبالإِسْلام دِيناً وبِمُحَمَّد ﷺ رسُولاً إلاَّ كان حقّاً على الله أن يغفر لَهُ». رواه أبو داود واللفظ للترمذي، وقال: حديث حسن غريب. وفي بعض نُسخ التِّرمذي: حسن صحيح، وهو بعيد، وعنده: وبمُحَمَّد نبيّاً، فينبغي أن يُجْمَع بينَهُما. فيُقال: وبمحمَّدٍ نبيّاً رسولاً. وعند أحمد: أنّه يقول ذلك ثلاث مرَّات حِينَ يُمْسي وحين يُصبح، وهو في مُسلمٍ من حديث أبي سعيد من غير ذِكر الصَّبَاح والمساءِ. وقال في آخره: وجَبَتْ له الجنَّة.

وعن المُنْذر صاحب رسول الله ﷺ قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ قالَ إذا أصْبَح: رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمَّدٍ نبيّاً، فأنا الزَّعيم لآخذنَّ بِيَدِهِ حتى أُدْخِلَهُ الجنَّة» رواه الطبراني بإسنادٍ حسن اهـ من التَّرْغيب مُخْتَصراً.

(ش): «رَضِيتُ بِالله» أي اخترته وقبلتِهُ. يُقال: رضي بكذا: أو عَنْ كذا، إذا قبله واختاره. وقوله: «رَبّاً» حال أو تمييزٌ. فمِنْ لازمِ مَنْ رضي بالله رَبّاً امتثال أوامرِهِ، واجْتِنَاب نواهيه، والاستسلام والانقياد لحُكْمِهِ، والرّضى بقَضَائِهِ وقدرهِ، خارجاً عن تدبيره واختياره إلى حسْن تدْبير الله واختياره. وفي بعض الآثار عن الله تعالى: «أنَا الله لا إله إلاَّ أنَا، محمَّد عَبْدِي وَرَسُولي، فَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي ولَمْ يَصْبِرْ على بَلاَئِي ولَمْ يَشْكُرْ نَعْمَائِي فَلْيَتَّخِذْ رَبّاً سِوَائِي»، وقوله: «وبالإِسْلامِ دِيناً» هو أيضاً حال أي مُتَدَيِّناً أو متميّزاً.

قال في التَّنْوِير: وإذا رَضِي بالإسلام ديناً فَمِن لازِم ذلِكَ، امتثال الأوامر، والانكفاف عن الزَّوَاجِر، والأمر بالمعروف، والنَّهْي عن الْمُنْكَر، والغيرة إذا رأى مُلْحِداً يحاول أن يُدْخل فيه ما ليس مِنْهُ فيدمغه ببُرهانِهِ ويُدْحِضُهُ بتبْيَانِهِ اهـ.

قوله: «وبسيّدنا محمد نَبِيّاً رَسُولاً» إعْرَابه كما تقدَّم فيما قَبْلَهُ. ولفظ السّيِّد، زيادة حَسَنَةٌ، والجمع بَيْنَ النَّبي والرَّسول هو اختيار الشيوخ كما تَقَدَّم.

قال في التَّنْوير: فَلاَزِمُ مَنْ رَضِي بمُحَمَّد ﷺ نبيّاً أن يكون لَهُ وَالِياً، وأنْ يَتَأَدَّب بآدَابِهِ، وأن يتخلق بأخلاقِهِ زُهداً في الدّنيا وخروجاً عنها، وصفحاً عن الجنَّات، وعفواً عن أسْماء الله إلى غَيْر ذلك من تحقيق المُتَابَعَة قَوْلاً وفِعْلاً وأخْذاً وتَرْكاً، وحبّاً وبغضاً، ظاهراً وباطِناً. ثم قال: ولا تكون واحدة منها إلاَّ بكلها، إذ محال أن يرضى بالله ربّاً ولا يَرْضَى بالإسْلام ديناً، أو يَرْضَى بالإسلام ديناً ولا يَرْضَى بمحمَّدٍ ﷺ نبيّاً. وتَلازُمُ ذلك بَيِّنٌ لا خفَاءَ فيه اهـ، فإذا حَصَّل العبد الرضى بهذه المطالب، وعَمِلَ بمقتضَى كل واحد منها، سَلِم قلْبُه من أمْرَاضِ الغَفْلَةِ، وذاقَ حَلاَوة الإيمانِ والمعرفة لقوله ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإيمان مَنْ رَضِيَ بالله رَبّاً، وبالإسْلام ديناً، وبِمحمَّدٍ نَبِيّاً». وفيه دليل على أنَّ مَنْ لَمْ يَكُن كذلك لم يجد حلاوة الإيمان، ولا يدرك مذاقهُ، وإنما يكون إيمانه صورة لا رُوح فيها، وظاهراً لا بَاطن لَهُ، ومُرْتسماً لا حقيقة، وفيه إشارة إلى أنَّ القلوب السليمة من أمراض الغفْلة والهَوَى تتنعَّم بمَلْذُوذاتِ المَعَاني، كما تتنعَّمُ النُّفُوس بِملْذوذاتِ الأَطْعِمَةِ، وإنَّما ذَاقَ طعم الإيمان مَنْ رضي بالله رَبّاً لأنَّ مَنْ رَضِيَ بالله رَبّاً اسْتَسْلَمَ لَهُ وانقَادَ لحُكْمِهِ، وألْقَى القياد إليه خارجاً عَنْ تَدْبيره واخْتِيَارِهِ إلى حُسْنِ تَدْبِير الله واخْتيارِهِ، فوَجَدَ لَذَاذة العَيْش وراحَة التفويضِ، ولمَّا رضي بِالله رَبّاً كَانَ لَهُ الرِّضَى مِنَ الله، كما قال سُبْحانه: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المَائدة: الآية 119] وإذا كان له الرِّضَى مِنَ الله، أوجد له الله حَلاَوَة ذلِكَ ليَعْلم ما مَنَّ به عَلَيْهِ وليَعْرِفْ إحْسان الله إلَيْهِ، ولا يَكُون الرّضى بالله إلاَّ مع الفَهْم ولا يكُون الفَهْم إلاَّ مع النُّورِ، ولا يكُونُ النُّورُ إلاَّ مع الدُّنُوِّ، ولا يكون الدّنوّ إلاَّ مع العِنَاية، فلمَّا سَبَقَتْ لهذا العَبْد العناية، خَرَجَت له العَطَايا مِن خَزَائِنِ المِنَنِ، فلما واصلته امْدَاد أنواره عوفِي قَلْبه من الأمْرَاض والأسْقام، فكان سقيم الإدراك، فأدرك لذاذة الإيمان وحلاوته بصحَّة إرادته، وسَلاَمة ذَوْقِهِ، ولو سَقم قلبه بالغَفْلة عَنِ الله لم يُدْرِك ذلك، لأن المحموم رُبَّما وجَد طعم الشكر مُرّاً ولَيْسَ هو في نَفْس الأمر كذلك، فإذا زَالَتْ أسْقام القلوب أدْرَكَتَ الأشياء على ما هي عَلَيْه، فتدرك حلاوة الإيمان ولذاذَة الطَّاعة، ومَرَارة القطيعة والمخالفة، فيُوجب إدْرَاكها لِحلاوة الإيمانِ اغتباطها به، وشهود المِنَّة من الله عليها فيه، وتطلب الأسباب المحافظة للإيمانِ، والجالية له، ويُوجِب إدْرَاكُ لذاذة الطَّاعة، المُدَاوِمَةَ عليها، وشهود المِنَّة له

فيها، ويُوجب إدراكها الكُفران والمخالفة، الترك لهما، والنُّفور عنهما، وعَدَمُ المَيْل إليهما، لأنَّ نُور البصيرة دالة على المخالفة لله، والغفلة سمٌّ مُهْلكٌ، فنَفرَتْ قلوبُ المؤمنين من مُخَالفَةِ الله نُفْرَتك عن الطَّعام المَسْمُوم. قالَهُ في التَّنوير.

ثم قال المُصنّف رضي الله عنه: «سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، ورِضَى نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، ومِدَاد كَلِمَاتِهِ».

(س) عن جَوْهرية رضي الله عنها قالت: إنَّ النَّبيّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدها ثم رَجَعَ بعد أن أضْحَى، وهي جالسَة، فقال: «ما زِلْتِ على الحَالةِ التي فارقتك عليها»، قالت: نعم، قال النَّبِيّ ﷺ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أربع كلماتٍ، ثلاث مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بما قُلْتِ مُنْذُ اليوم لوَزَنَتْهُنَّ. سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ورِضَى نَفْسِهِ، وَزِنَة عَرْشِهِ، ومِدَاد كَلِمَاتِهِ» رواه مُسلمٌ وأبو داود والنَّسائي وابن ماجه والتِّرمذي. وفي رواية لمُسْلِم: «سُبْحان الله عدد خَلْقِهِ سُبْحان الله رِضَى نَفْسِهِ، سُبْحان الله زِنَة عَرْشِه، سُبحان الله مِدَاد كَلماتِهِ»، زاد النَّسائي في آخِره: «الحمد لله» كذلك.

وفي رواية له: «سُبْحان الله وبِحَمْدِهِ ولا إلٰه إلاَّ الله والله أكْبَرُ عَدَدَ خَلْقِهِ ورِضَى نَفْسِهِ وَزِنَة عَرْشِهِ ومِدَاد كَلِماتِهِ». ولفْظُ التّرمذي، أنَّ النَّبِيّ ﷺ مَرَّ عليها وهِيَ في المسْجِدِ، ثم مرَّ بها بالمَسْجِدِ قريب نِصْف النَّهار، فقال لها: «ما زِلْت على حَالِكِ» فقَالَتْ: نعم، فقال: «ألا أُعَلِّمُكِ كَلمات تقولينها: لا إلٰه إلاَّ الله وحْدَه سُبْحان الله عدد خَلْقِهِ، ثلاثاً، سُبْحان الله رِضَى نَفْسِهِ، ثلاثاً، ثم ذكر زِنَة عَرْشِهِ ومِدَادَ كَلِماتِهِ كذلك ثلاثاً». وقال: حديث حَسَنٌ صحيح. اهـ من الترغيب.

(ش): «سُبْحَانَ الله»: تَنْزِيهاً لله عمَّا لا يليق بِجَلالِهِ. «وبِحَمْدِهِ»: أي واحْمَده بِحَمْدِهِ. وقال المصَنّف في شرح الرسالة: والواو في قولِهِ وبِحَمْدِهِ، قيل: وبِحَمْدِهِ سبَّحته، أي وسبب تسْبيحنا له حمده. فالتقدير: وإنما سَبَّحناه بِحَمْدِهِ، أي بما اقتضاه حمده، أي ثناؤه الجميل، لا لدَفع النَّقص عنه، إذ لا يليق به سُبْحانه حتَّى يحتاج إلى التنزيه عنه، ولذلك قال بعضهم في اسمِهِ القدّوس: هُوَ المُنَزَّه عن كل كمال لغَيْره، لأنَّ قولك: المنزَّهِ عن النَّقَائص بمثابَةِ قولك: المَلك ليْس بجَزَّارٍ، فافهم. وقيل: الواو بمعنى مَعَ، أي حمده. اهـ منه.

قوله: «عدد خَلْقِهِ» تَعَالى مِنْ جَمَادٍ وحَيَوان، وجَوَاهر، وعَرَائض، وأعيَان، ومعاني أجْناساً وأفراداً، ما تقدم من ذلك وما تأخّر وما وُجِد وما عُدِم، بكل وَجْهٍ يمكن عدها، وهو مصْدر معمول بعامل الأول، أي أُسَبِّحه تَسْبيحاً عدد خلقه «وَرِضَى نَفْسِهِ» أي ذَاتِهِ. يُقال ذات الشيء ونفسه وعيْنه، وماهيته وكُنْهه وحقيقته، كلها بمعنى

واحد ورضَى معطوف على عدد، أي ما يرضيه سُبحانه، من التَّسبيح والتَّنزيه: «وَزِنَة» بِكَسر الزَّاي، قال الخَطَّابي: هي ثقل الشيء ورزانته، أي هذا التسبيح يوازن ثوابه، أو يُوَازن هُوَ لو قدِّر جِسْماً يقبل الوَزْنَ ما ذكر. «عَرْشِهِ» سُبْحانَهُ. قال الخطابي: هو خَلْقٌ عظيم لله سُبْحانه، لا يعلم قَدْر عِظمه، ورزانة ثقله أحَد غيرُ الله سُبْحانه. «ومِدَاد كلماتِهِ» بِكَسْر الميم، هو ما يَكْثرُ به ويزاد.

وقال في المشارق، أي قَدْرها، وقال السُّيُوطي في الدّرّ النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير: أي مثل عددها. وقيل: قدْر ما يوازيها في الكثرة بمِعيار كَيْلٍ أو وزنٍ، أو عدد أو ما أشبهه من وُجُوه الحَصْرِ والتقدير، وهذا تمثيل يراد به الترغيب؛ لأنَّ الكلام لا يَدْخل في الكَيْل والوَزنِ، بل في العدد والمداد، مصدر كالمَدَد، وهو ما يَكْثرُ به ويُزَاد اهـ، وقال الخطَّابي: هو مَصْدرٌ كالمَدَد. يُقالُ: مددت الشيْء، أمده مدداً ومداداً. ورَوَى سَلَمة عن الفَرّاء قال: قال الحارث: يجمعون المُدَّ مداداً. فعلى هذا يكون معناه المكيال والمعيار. وقال: وكلمات الله تعالى لا تنتهي إلى أمَدٍ ولا تُحَدّد ولا تُحصَرُ بعَدَدٍ، ولكنه ضَرَب به المَثَل ليدلّ على الكَثْرة والوُفُور.

وقال في المشارق: وقيل: يحتمل أن يراد به الأجر على ذلِكَ اهـ. وكلمات الله تعالى، قال الإمام الفَخْر: المراد بها عند أصحابنا: الألفاظ الدَّالَّة على متعلقات علم الله تعالى اهـ. وقيل: هي الدَّالَّة على حُكْمه وعَجَائبه، ومِدَادَ كَلِماته منصوب على المَصْدرية. ثم قال رحمه الله: «أعُوذُ بكَلِماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ».

(س) عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: جَاء رَجُل إلى النَّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لقيت من عَقْربٍ لدغتني البَارحة، فقال: «أما لَوْ قُلْتَ حين أمْسَيْت: أعُوذُ بِكلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ من شَرِّ ما خَلَقَ، لم يضرّك». رواه مالك ومُسْلم والتِّرمذي، ولفظه: «مَنْ قال حين يُمْسِي ثلاث مرَّاتٍ: أعُوذُ بكلماتِ الله التَّامَّات من شَرِّ ما خَلَق لَمْ تضره حمة تلك اللَّيْلَة». قال سُهَيْل: فكأنَّ أهْلنا تَعَلَّموها، فكانوا يقولونها كُلَّ ليْلة. فلدغت منهم جارية، فلم تجد لها وجع الحُمَة بضَمِّ الحاء المُهْمَلَةِ، وتخفيف المِيم، وهو السّمّ. وقيل: لدْغة كل سمّ، وقيل غير ذلك، قاله في التّرْغيب.

وقال المؤلف في شرح الرسالة وفي التِّرمذي وغيره: إن قالها مُسَافر عند نزوله ثلاثاً، لم يَزَلْ مَحْفُوظاً حتَّى يَرْتحل من مَنْزِلِهِ. قال ابن العَرَبِي: جَرَّبْتها أكْثَر من عشرين سنَة. قال بعض شيوخنا كذلك. قُلْتُ: وأنا كذلِكَ، حتَّى أني مَرَّة ذكرتها فلم تتِمّ على لِسَاني، فما أصابني في لَيْلتي بلية، وكذلك نهاراً فيما أظُنُّ والله أعلَمُ.

(ش): «أعُوذُ بكلماتِ الله التَّامَّات» قيل: التي لا عَيْبَ فيها ولا نَقْص. قال

الترمذي الحكيم: هو قولُهُ للشيْءِ كُنْ فَيَكُون، لأنَّها كانت على حَرْفَينِ لم يلحقها نَقص في المَعْنَى ولا غضّ في التَّرْكِيب لحسنها ونفوذها. عَيَّاض. وقيل: التَّامَّات: النَّافعة الشَّافية، وقيل: الفَاضِلة، وقيل: المراد بها القُرْآن. الترمذي الحكيم: وقد جَاء في القرآن والسنّة الاستعاذة بالذَّاتِ مِنَ الذَّاتِ. وقيل: بالصفاتِ مِنَ الصفاتِ. والكل اسْتعاذة به تعالى، فيُقال: أعُوذ بالله مِنَ الشَّيْطان، وأعُوذُ بكلماتِ الله من الشيطانِ. فانظر ذلك، قاله المؤلف في الشرح المذكور. وقَوْله: «من شَرِّ ما خَلَقَ» عامٌّ في جميع ما يُخاف شره.

ثم قال رحِمَهُ الله: «بِسْمِ الله الَّذِي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ في الأَرْضِ ولا في السَّمَاءِ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم».

(ش): عن أبان بن عثمان قال: سمعت عثمان بن عفّان رضي الله عنه يَقُولُ: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ في صَبَاحِ كل يوم ومَسَاء كل ليلة: بِسْم الله الذي لا يَضُرُّ مع اسْمِه شَيْءٌ في الأرضِ ولا في السَّمَاءِ وهُوَ السَّميع العليم ثلاث مرات فلا يَضرّه شَيْءٌ». وكان أبان قد أصابه طرف فالج، فجعل الرّجل ينظر إليه، فقال أبان ما تنظر؟ أما إنَّ الحديث كما حدَّثتك ولكنّي لم أَقُلْهُ يَوْمئذ ليَمْضِي قَدَرُهُ. رواه أبو داود والنَّسائي وابن ماجه والترمذي. وقال: حديث حسن غريب صحيح. وقال: صحيح الإسناد.

قال فخر الدين عثمان بن محمد التوزري، قال: كُنْتُ أقرأ بِمكَّة على الشيخ تقي الدِّين الجوراني، وإذا بِعَقْرب تَمْشِي، فأخذها الشيخ في يَدِهِ وجعل يُقلّبها في يَدِهِ، فوضَعْت الكتاب مِنْ يَدِي، فقال: اقرأ. قلت: حتَّى أعْلَم هذه الفائدة. فقال: هي عِنْدَكَ. قلت: ما هِيَ؟ قال: ثَبَتَ عنِ النَّبِي ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبح وحِينَ يُمْسي: بِسْم الله الَّذي لا يَضُرُّ مع اسْمِه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّمَاءِ وهوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ فَلاَ يَضُرّهُ شَيْءٌ» فقلته. اهـ.

(ش): «بِسْم الله» أي الحفظ والحِصْن باسم الله. «الَّذي» مِنْ صِفَتِهِ «لا يَضُرُّ مع اسْمِهِ» سُبْحانَهُ «شَيْءٌ» مُسْتَقِرّ «في السَّمَاءِ» مِنْ إنْسٍ وجَانٍّ، وجامِدٍ وحيوانٍ. «ولا» يَضُرّ معَهُ شيء هُو «في السَّماءِ» مِنْ رياحٍ وصَوَاعق وغيرهما «وهو السَّميع العليم» لِمَنْ دَعَاهُ وتَحَصَّنَ به «العَلِيمُ» بِسَرائر خَلْقِهِ محيط بخيرِهِ وشَرّهِ فيَكلُ كل من لاذَ وتَحَصَّن به بِمَحْضِ جُودِهِ وفَضْلِهِ، وقولُهُ الذي، صفة لله، والضَّمير في اسْمِه عائد عليه؛ وهذا الاسم يَحْتمِل العموم والخصوص، وهو أظهر، ويكون هذا الاسم هو اسْمُ الله الأعْظم وما فيه معْنى الحفظ والدَّفع والله تعالى أعلمُ. ثم قال رضي الله عَنْهُ:

«أَعُوذُ باللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ـ ثلاثاً ـ هُوَ اللهُ الَّذي لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ، عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ، هو الله الذي لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَلاَمُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّر، سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ الله الخَالِقُ البَارِيءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى، يُسَبِّحُ لَهُ ما في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ».

(س): عَنْ مَعْقَل بن يَسَار رضي الله عنه عَنِ النَّبي ﷺ قال: «مَنْ قال حِينَ يُصْبِحُ ثلاث مرَّات: أَعُوذُ بالله السَّمِيع العَلِيم من الشيطان الرَّجيم، وقرأ ثلاث آياتٍ من آخر سورة الحَشْرِ، وكَّلَ الله بِهِ سَبْعين أَلْفَ مَلَك يُصَلّون عليه حتَّى يُمْسِي فَإِذَا مات في ذلِكَ اليوم مات شهيداً. أو مَنْ قالها حين يُمْسي كان بِتلك المَنْزِلة»، رواه الترمذي من رواية خالِدِ بن طهمان، وقال: حديث غريبٌ. وفي بَعْضِ النُّسَخِ: حسَن غريب. اهـ من الترغيب.

(ش): تقدَّم مَعْنى الاستعاذة مستوفياً في أوَّل الكتاب قوله: «هو الله الذي لا إِله إلاَّ هُوَ» قال المُصَنِّف في شرح أسْمَاء الله: اسْمٌ جامِع لمعانِي الأسْمَاء وحقائقها، وقد اختلف في كَوْنِهِ مشتقاً أو مُرْتَجلاً، وعلى كل فهو للذَّاتِ الكريمة جار مجْرى الأعلام لاختصاصِه بها. ومعناهُ: الموصوف بصفات الكَمَال المنزَّه عن النَّقْص والمِثال. إلى هذا، ترجع تفاسير المشايخ وإنما تختلف العبارات اهـ.

«عَالِمُ الغَيْبِ والشهادة»: ما غَابَ عن الحسِّ من الجَوَاهر القدسية وأحْوَالها، وما حضَر له، والأجرام وأعراضها، أو المعدوم والموجود، أو السِّرّ والعلانية أو الآخرة والدّنيا والتَّعميم أوْلَى. وتقديم الغَيْب لتقدّمه في الوجودِ وتعلق العلم القديم به.

«هُوَ الرَّحْمٰن الرَّحيمُ»: اسْمَانِ بُنِيَا للمُبَالغة من الرَّحْمَةِ، بمعنى التفضّل بالإنعام، أو إرادة الخَيْر، فهي صفة فعل على الأول، أو صفة ذَاتٍ على الثَّاني. والرَّحمٰن أبلغ من الرَّحيم لأنَّ زِيَادة المَبْنَى تَدُلُّ على زيادة المَعْنَى. «المَلِكُ» قال المُصَنِّف: مَن له المُلك وهو التَّصرف في المخلوقاتِ بالقضايا والتدبيرات، دون احتياج ولا حجر ولا مشاركة غَيْر مَعَ وصْف العظمة والإجلال. قال بعض المشايخ: هو اسم جَامِع لمعاني صِفات العلي، وإحاطة العلم والاقتداء، أي بحيث لا يغيب عنهُ علم شيْءٍ مما هو ملكه، ولا يَعْجز عن إنفاذ ما يَقْتَضِيهِ حُكْمُهُ، من إمضاء ثواب أو عقاب. فمن فسَّره بالخَلْق أَخَذَ طرفاً من معناه، ومَن فَسَّرهُ بالقُدْرة كذلك.

«القُدُّوسُ» قال المُصنِّف: فقدْر مِنَ القُدْسِ، وهو صِفَة مبالغة فيه. قال بعض المشايخ: وحقيقة القدس: الاعتلاء عن قبول التغيير فالقُدّوس هو الذي لا يجُوز عليه

التَّغَيّر في ذَاتٍ ولا وَصْفٍ، ولا فِعْل ولا اسْم، وبذلك يتصف الملك على الإطلاق، وجيء به بعد المَلك، لما يَعْرف للملوك من تَغَيُّر أحوالهم، بالجُور والظُّلم والاعتداد في الأحْكَام، وفيما يترَتَّبُ عليها، فإنه تعالى مَلِك الملوك لا يعرض له ذلك لاستحالة ذلك في وَصْفِهِ.

بل قال بعضهم: قولنا في تفسيره: المنزَّه عن النقائص، كقولنا: المَلِك لَيْسَ بجزَّار. وإنما قال: هو المنزَّه عن كَمَالٍ لغيره. قلتُ: وأحْسَن منه عن كل كَمَالٍ لا يليق بذاتِهِ لما في الأول من الإبهامِ. قاله شارح النصيحة.

«السَّلامُ» قال القشيري: قيل معناه ذُو السَّلاَمِ، والسَّلام بمعنى السَّلاَمَة، فيعود إلى التَّنزُّه عن الآفَاتِ، والتَّقدّس عن صفات المخلوقات، فهو بمعنى القُدّوس. وقيل معناه: ذُو السَّلام بمعنى السلامة لعبادِهِ، ولهذا قيل: إنَّ مَعْنَى السلام أنَّه سَلاَمُ المُسْلِمِينَ من عَذَابِهِ، وقيل معناه: ذُو السَّلام على أوليائِهِ. قال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النَّمل: الآية 59] فعلى الأول هو من صفاتِ الذَّاتِ، وعلى الثَّاني هو من صفات الفِعْل.

«المُؤمِنُ» قال المُنصف: المُصَدّق لحقٍّ أخبر عنه بأمْرِهِ لإظهار دلائل صدقه من المعجزات والآياتِ. قال بعض المشايخ وهو مُفعل، مِن آمَنَهُ يؤمنه من متخوّف، فحيث يتخوف التكذيب يكون موقع الإيمان، فلذلك يُفسره بعض أهل اللُّغَةِ بالتَّصْدِيق؛ وإن كان مَعْنَاه أعَمّ لشمولِهِ الأمْن من كل متخوف. قال: فَرَجَع التَّأمينُ بمَجْموع القول والفِعْل، فما عُدّد فيه مِنَ الأقْوال يجتمع إلى قول واحدٍ، لأنَّها غير متقابِلة. قال: ونسق بالإسلام لمزيد معنى التَّأمين على السَّلام، لما فيه مِنَ الإقبال والقبول.

«المُهَيْمِنُ» الشاهد المحيط بداخله ما شَهِد فيه، فلذلك يقل وقوعه في شهَداء الخَلْق، ويحق اختصاصه بالشاهِدِ الحقّ لعلمه بإحَاطَةِ ما هو الشاهد فيه، وكما إنبائِهِ عنه فهو اسم جامع لمعنى، والكلام قاله شارح النَّصيحة.

وقال البَيْضاوي: هو الرَّقيب الحَافِظ لكل شيْءٍ مفعول من الأمق. قلبَت هَمْزته هَاءً. «العزيز» هو الممتنع عن الإدراك الغالب على أمْره المرتفع عن أوصافِ المَخْلُوقين. وقيل: هو القاهر لجميع الممكنات فِعْلاً وتركاً. وقيل: العديم المِثْلِ. «الجَبَّار» من الجَبْر الَّذي هو تَلافي الأمر عِنْد اختلالِهِ. وقيل مِنَ الإجْبَار الذي هو إنفاذ الحُكْم قَهْراً على العِبَادِ. «المُتَكبِّر» هو المُظْهِر كبرياءه لعباده بظهور أمْرِهِ حتى لا يَبْقى كبرياء لغَيْره أو الذي تكبَّر عن كل ما يُوجب حاجَةً أو نُقصاناً. «سُبْحانَ الله عَمَّا يُشْرِكُون» أي لا شريك له في شيءٍ من ذلك. «هُوَ الله الخَالِق» المُقَدِّر للأشياء على

مقتضى حِكْمَتِهِ أو المُبْدع المُوجِد للأشياء من غير أصْلٍ. «البَارِيءُ» المُهَيِيءُ كل ممكِن لقبُول صورته في خلقه فهو مِن معاني الإرادة إذ متعلقه التخصيص. «المُصَوِّرِ» المعطي كل مَخْلُوق ما يُهَيِيءُ له من صورة وجوده بحكمتِهِ، فهو من معاني اسمه الحَكيم. «لَهُ الأسْمَاء الحُسْنَى» لأنَّها دَالَّة على محاسن المعاني.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحَشر: الآية 24] لتَنَزُّهِهِ عَنِ النَّقَائِص كُلِّها. «وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ» الجامع للكمالات كلها، فإنها راجعة إلى الكَمَال في القدرة. قالَهُ البَيْضاوي.

والحكيم: هو المُحكم للأشيَاء، حتَّى صَدرتْ مُتْقنة على وفْقِ عِلْمه وإرَادَتِهِ ومشيئته بِقَضَائِهِ وقَدَرِهِ.

قال ابن جُزَي: قرأتُ القرآن على الأستاذ الصَّالح، أبي عبد الله بن الكمال، فلمَّا بَلَغْت إلى آخِر الحَشْر، قال: «ضَعْ يَدَكَ على رَأْسِكَ. فقلْتُ له: ولِمَ ذلِكَ؟ قال: لأني قَرَأتُ على القَاضِي أبي عليّ بن الأحوط، فلمَّا بَلَغْت إلى خاتِمَة الحَشْرِ، قال: ضَعْ يَدَكَ على رَأْسِكَ». وأسْنَد الحديث إلى عبْد الله بن مَسْعود. قال: قرأتُ على النَّبِيّ ﷺ، فَلمَّا انتهيْت إلى خَاتِمَة الحَشْرِ قال: ضَعْ يَدَك على رَأسكَ. فقُلْتُ: ولِمَ ذلك يا رسُول الله فِدَاك أبي وأُمِّي. قال: أقرأني جبريل القرآن فلمَّا انتهيْتُ إلى خَاتِمَة الحَشْرِ قال لي: ضَعْ يَدَكَ على رأسِكَ يا محمد، قُلْت: ولِمَ ذلك؟ قال: إنَّ الله تَبَارَكَ وتعالى افتتح القرآن فضَرَب فيه، فلما انتهى إلى خَاتِمَة الحَشْرِ أمرَ الملائكة أن تَضَعَ أيْديها على رَأْسِها. فقالَتْ: يا ربَّنا ولِمَ ذلِكَ؟ فقال: لأنَّه شفاء مِنْ كُلِّ دَاءٍ، إلاَّ السَّام». والسَّام: الموتُ. ثم قال رضِي الله عَنْهُ:

«سُبْحانَ الله العَظِيم وبِحَمْدِهِ».

(س): عَنْ قُبيصة بن أبي المخارق رضِيَ الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذَا صَلَّيْتَ الصُّبْحَ والعَصْرَ فَقُلْ ثلاث مرَّاتٍ: سُبْحَان الله العَظيم وبِحَمْدِه، تعافى من الجذام والعمى والفالج» أخرجه أحمد. وعبارة الشيخ الخروبي: هي إمَّا مِنَ الجنون والجذام والبرص والفالج. اهـ.

(ش) إيراد هذا التسبيح بعد الآية حَسَنٌ، لقوله: «يُسَبِّح له ما في السَّمَاوات والأرْض» أي فأتى من جُملة من يُسبِّح. وقد وَرَد التَّرغيبُ في التَّسْبيح في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «كَلِمتَانِ خَفِيفَتَانِ على اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ في الميزَانِ حبيبتَانِ إلى الرَّحمْنِ: سُبْحَان الله وبِحَمْدِهِ، سُبْحَانِ الله العَظِيم» رواه البخاري ومسلم.

ومنها: قوله ﷺ: «يا أبا ذَرٍّ، ألا أُخْبِرك بأحَبِّ الكلام إلى الله: سُبْحَان الله

وبِحَمْدِهِ» رواه مسلم وغَيْرهُ.

ومنها: قوله ﷺ: «مَنْ قال سُبْحَان الله وبِحَمْدِهِ كُتبت له مائة ألف حَسَنَة وأربعة وعشرون ألْف حَسَنَة. ومن قال لا إلٰه إلاَّ الله كان له بها عَهْدٌ عندَ الله يوم القيامة» رواه الطبراني. وفي رواية: فقال رجُلٌ: كيْف نهلك بَعْد ذلِكَ يا رسول الله، قال: «إنَّ الرَّجُلَ ليأتي يَوْمَ القيامة بالعملِ لَوْ وُضع على جَبَلٍ لأثْقَلَهُ فتقوم نِعْمَة مِنْ نِعَمِ الله فتكاد تسْتفيد ذلك كُلّه إلاَّ أن يَتَطاول الله برَحْمَتِهِ».

وقال ﷺ: «مَنْ قال سُبْحان الله العَظِيم وبِحَمْدِهِ غرِسَتْ له نخلة في الجَنَّة» رواه التِّرمذي. وقال ﷺ: «مَنْ هَالَه الليل أن يكابِده وبَخل بالمَال أنْ يُنْفِقهُ وجبَن عن العَدُوِّ أن يُقاتِلَهُ، فلْيُكْثِر مِنْ سبحان الله وبِحَمْدِهِ فإنَّها أحبُّ إلى الله مِنْ جَبَل ذَهَبٍ تُنْفِقه في سبيل الله عزَّ وجلَّ» رواه القرياني وغيره.

وقال ﷺ: «مَنْ قالَ سُبْحان الله وبِحَمْدِهِ في يوم مائة مرَّة غفرتْ ذنوبه وإن كانت مِثْلَ زبد البَحْرِ» رواهُ مُسْلِمٌ. وقال ﷺ: «سُبْحَانَ الله وبِحَمْده، سُبْحَان الله العظيم، أسْتَغفِر الله العظيم وأتوب إليه، مَن قالها كُتِبَتْ له كما قالها ثم عُلِّقَتْ تَحت العرش لا يَمحوها ذنوب عَمَلِهِ حتى يَلْقى الله يوم القيامة، وهي مختومة كما قالها» رواه البزَّار. وقال ﷺ: «أيَعْجِب أحدُكُم أنْ يَكْسِبَ كُلَّ يوم ألف حسَنَة، فقيل: كيْف يكْسب أحدنا ألْفَ حَسَنَة؟ قال: يُسَبِّح مائة تَسْبيحة فتكتب له ألف حَسَنَة، أو تُحَط عنه ألْف خطيئة» رواه مُسلمٌ. هكذا بأوْ. والترمذي والنسائي بغَيْر ألفٍ أو تحط. قاله في التَّرغيب.

وقال ﷺ: «أحَبّ الكلام إلى الله: سُبْحان الله والحَمْد لله ولا إلٰهَ إلاَّ الله والله أكبَرُ. لا يَضُرُّك بأيِّهِنَّ بَدَأت». وقال ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أُسْري بي فقال: يا محمَّد أقرىء أُمَّتك منِّي السَّلام وأخْبِرهم أنَّ الجنَّة طيِّبَة التُّرْبة، عَذْبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سُبْحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلاَّ الله والله أكبَرُ» رواه التِّرمذي وغَيْره.

وقالت أُمّ هانِيء: يا رسول الله، قَدْ كَبِرت وضعفت، أو كما قالت: فَمُرنِي بِعَمَلٍ أعْمَله وأنا جالسة. قال: «سَبِّحي الله مائة تَسْبيحة، فإنها تَعْدل لك مائة رقبة تَعْتقينها مِن وَلَد إسْمَاعيل، واحْمَدِي الله مائة تَحْمِيدة فإنها تَعْدِلَ لك مائة فَرَس مسرَّجَة، تحملين عليها في سبيل الله، وكَبِّري الله مائة تكبيرة فإنها تَعِدلُ لكِ مائة صَدَقة، مقلدة متقبلة وهَلِّلِي مائة تَهْليلة تملأ ما بيْنَ السَّمَاء والأرْضِ، ولا يُرْفَعُ يَوْمئذ لأحَدٍ عمل أفْضَل ممَّا يرفع لك، إلاَّ أن يأتي بِمِثْلِ ما أتَيْت» رواه أحمد وغيره.

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله اصطفَى من الكَلام أرْبعاً: سُبْحَان الله والحمدُ لله ولا إلٰهَ إلاَّ الله والله أكْبَر. فَمَنْ قال سُبْحان الله كُتبت له عشرون حَسَنَة وحُطَّتْ عنه

عشرون سيئَة، ومَن قال: الله أكبر، فمثل ذلك، ومَن قال: لا إله إلاَّ الله فمثل ذلك، ومَن قال: الحَمْد لله رب العَالمينَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ كتبتْ له ثلاثون حسَنَة، وحُطّت عنه ثلاثُونَ سيئَة» رواه أحمد.

وقال ﷺ: «مَن قالَ دُبُر الصَّلاةِ: سُبْحَان الله العَظِيم وبِحَمْدِهِ ولا حَوْلَ ولا قُوَّة إلاَّ بالله العَلِّي العَظِيم قَامَ مَغْفُوراً له». رواه البزار. وقلْتُ: وتَقَدَّم معنى التَسْبيح قَبْل. قال القُشَيري في تفسير العظيم: هو استحقاقه صفات العلو والمجْد ورفْعة القدْر، فهو عَظِيمُ القدر، رفيع النَّعْتِ، جَليل الوَصْفِ. اهـ.

ثم قَالَ: وحُكي عن بَعْضِ المشايخ: أنَّه سُئِل عن عَظمَتِهِ سُبْحانِهِ، فقال: ما تَقول فيمَن لَهُ واحد يُسَمَّى جِبْرِيل له ستمائة جَنَاح لو نُشِرَ منها جَنَاحَيْن لسَتَرَ ما بين الخَافِقَين. وهذا وإن كان صحيحاً فإنْ عَلِمَ أنَّ مَقْدوراتِهِ لا تتناهى علم أنَّه لو أراد أن يَخْلُق في لَحظةٍ ألف ألْفِ عالم لم يكن ذلك عليه بأيْسَرَ مِنْ خَلْقِ بَقَّةٍ، ولا خَلْق بقَّةٍ أهْوَن عليه من خَلْقِ ألفِ ألْفِ عَالِم، لأنَّه سُبْحانه وتعالى مُنَزَّه عن لحُوقِ المشقَّةِ والرَّاحة، والمشقة من وَصْفِ المخلوقَاتِ. اهـ.

ثم قال رضِيَ الله عَنْهُ: «تَحَصَّنْتُ بِذِي العِزَّةِ والجَبَرُوتِ، واعْتَصَمْتُ بِرَبِّ المَلَكوتِ، وتَوَكَّلْتُ على الحيِّ الَّذي لا يَمُوتُ، اصْرِفْ عنِّي الأذى إنَّك على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(س): قال الشيخ الخرّوبي رضي الله عنه: هُوَ للأمْن مِنَ الوَبَاءِ، وصَرْفه، والأمْن من المضرّات كذا أخَذْناها عن بعض من صحت عندنا ولايته، وظَهرت كرامته، وعلمنا بحاله اهـ. ولم يذكر لها المصنف سند أسند ولعلّها من زيادة الخروبي والله أعلَمُ. وأيضاً لمّا تقدم في الآية اسْم العزيز الجبَّار حَسُن التحصيل به.

(ش) قوله: «بِذِي العِزَّةِ» أي الغلبة والقهر. «والجبروت» هو فعلوت من الجبر، فهو غير مَهْمُوز. قال في المصباح: باتفاقٍ، وهو خلاف ما يَجْري على الألسنة وهو القَهْر والتجبّر الذي هو التكبّر. أو مِن جَبَرت الفقير: أغْنَيْتهُ. فمعنى ذي العِزّة والجبَروت أي ذي الغَلَبَة والقهر، أو الملك والغنى. «واعتصمت» أي اسْتمسَكْتُ «بِرَبِّ المَلَكوت» فَعَلوت من الملك، وهو العِزّ والسلطانُ والمملكة.

واعْلَمْ أنَّ العوالم أرْبَعة، عَالَم المُلْك، وعَالَم الملكوت، وعالَم الجبروت، وعالَم العِزّة. فعالَم المُلك ما شأنه أن يُدْرك بالحسِّ والوَهْم، وعالَم المَلكوتِ ما شأنُهُ أن يُدْركَ بالحِسّ وما مَعَهُ، ولكنه في ثان حَالٍ، كما في الدنيا ممّا لم نَصِلْ إليه فَهْماً ولا وَهْماً، كتعلّق الجِسمِ بالرُّوحِ، والروح بالجَسَدِ. وكما في الجَنَّة إذ فيها ما لا عَيْنٌ

رأَتْ ولا أُذن سَمِعَتْ ولا خَطَر على قلب بَشَرٍ. وستراه العُيُون وتسمعه الأذن، وتَفِرّ منه القُلُوب، ومن ثمَّ قيل: المُلْك ما ظَهَرَ والملكوتُ ما بطن، والجبَرُوت جامع بينهما. فالرّوح ملكوتية، والأجْسَام مَلكية، والإنسان ظاهره مُلكٌ وباطنه ملكوتٌ. وحَيْث جَمَع بينهما كان جَبرُوتياً فَيُدرك بالبَصر والبصيرة. وأما عَالَم العِزّة فهو ما امْتَنَعَ إدْرَاكهُ بِكُلِّ وَجْهٍ بحيث تعزيز الله تعالى، وانفردَ بِعِلْمه فلم يظهره لأحَدٍ من خلقِهِ كَتَعلّق أسْمَائِهِ وصِفاتِهِ من حيث تَعَلُّقها به. وقيل: عَالَمُ المُلْكِ: ما يُدْرَكُ بالبَصَرِ والوَهْم. والمَلَكُوتُ ما يُدرَكُ بالبصيرة والفَهْم. والجبروت ما يُدرك بالمواهِبِ، ولذا سُمّي جَبَروتاً مأخوذاً مِنَ الجَبْرِ، وهو القَهْر أي العباد مجْبُورون على إدْراك كُنْهِهِ كعلم الذات. والملكوت كَعِلْم الأسْمَاءِ والصفات الدَّالَّة على الذَّات، والملك علم فعله الظاهر على ما سَبَقَ. ويُقال: الإنسَان رُوح ثم نَفسٌ ثم جِسْمٌ، فالرّوح عَالَم الجبروت، والنفس عَالَم الملكوتِ، والجسم عَالَم المُلكِ. فالرّوح الجبروتي مَظْهَرُ الذَّاتِ، والنَّفس الملكوتي مَظْهر الصّفات، والجِسْمُ المُلْكي مَظْهر الأفْعَال، وعلى القول الأوَّل المُلْكَ راجع إلى الأثرِ، والملكوتُ راجع إلى الذَّاتِ، والجَبَروت راجِع إلى الأسماءِ، والصّفات وهو متوسط بينهما. وقال بعض العُلَمَاءِ: المُلْكُ حضرة الإسلام، وهو مَظْهر الأفعَال، من إيجاد وإغناءٍ، وتقوية وتقريب، وتعليم وتَسْهيل وأضْدادها إلى غير ذلك من التَّصرُّفات الإلٰهية. فمظهر جميعها الأجسام. وعَالَمُ الملكوتِ: حَضرَة الأرواحِ وهو مظهر الصّفاتِ. وعَالَمُ الجَبَرُوتِ: حَضْرة الأسْرَار، وهو مَظْهَرُ أسْرار الذَّاتِ. اهـ.

فائدةٌ: أخْرَج أبو نُعَيم في الحِلْيَة، عن سعيد بن جُبَيْرٍ مُرْسلاً أنَّ أهل السَّمَاءِ الدُّنيا سجود إلى يوم القيامة، يقولون: سُبْحان ذِي المُلْكِ والملكوتِ، وأهل السَّماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون: سبْحان ذِي العِزَّةِ والجَبَرُوتِ. وأهل السماءِ الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون: سُبْحان الحيّ الذي لا يَمُوتُ. اهـ.

قولهُ: «تَوَكَّلْتُ على الحيِّ الَّذي لا يَمُوتُ» التَّوكُّل هو الاعْتماد على الله في تحصيل المنافِعِ أو حفظها بَعْدَ حُصُولها، وفي دَفْع المضرات، أو رفعها بعد وقُوعِها، وهو من أعْلَى المقاماتِ لوجْهَيْنِ: أحدهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية 159] والآخر: الضَّمان الذي في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: الآية 3] وقد يكون واجبا كقولهِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: الآية 23] فجَعله شرطاً في الإيمَانِ. والظَّاهر قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية 122] فإنَّ الأمر محمول على الوجُوبِ.

واعلم أنَّ النَّاس في التوكُّلِ على ثلاثة مَرَاتب:

الأولى: أنْ يَعْتَمِد العَبْدُ على ربِّهِ اعتماد الإنسَانِ على وَكِيلِهِ المأمُون عنده، الذي لا يشُكُّ في نَصِيحَة له قياماً بمصالِحِهِ.

والثانية: أن يكون العَبْد مع ربِّهِ كالطِّفْل مع أُمِّهِ، فإنَّه لا يعرف سِوَاها ولا يَلْجأ إلاَّ إليها.

والثالثة: أن يكون العبد مع ربِّهِ كالمَيِّتِ بين يَدَي الغَاسِلِ، قد أَسْلَمَ إليه نَفْسَه بالكلِّيَة.

فصاحِبُ الرُّتْبَة الأولى عندَه حَظٌّ مِنَ النَّظَر بَنَفْسِهِ بخلاف صَاحِب الثَّانية، وهذه الدَّرَجات مبْنيَة على التَّوْحِيد الخاصّ، الذي تَكَلَّمنا عليه في قوله: «وَإِلَٰهُكُمْ» إلهٌ واحِدٌ؛ فهِيَ تَقْوَى بِقُوَّتِهِ وتَضْعُفُ بِضُعْفِهِ. فإنْ قيل: هل يُشْتَرَط في التَّوكُّلِ تَرْكُ الأسْباب أم لا؟ فالجوابُ: أن الأسْباب على ثلاثَةِ أقْسَامٍ:

أحَدها: سَبَب مَعْلومٌ قطْعاً قد أجراه الله فهذا لا يجوز تَرْكُهُ كالأكْلِ لدَفْع الجوعِ، واللّباسِ لدفْع البَرْدِ.

والثاني: سَبَبٌ مظنون في التجارة وطلب المَعَاشِ. وشِبْهُ ذلك، فهذا لا يَقْدَح فعله في التوكُّلِ من أعمال القَلْب لا مِنْ أعْمالِ البَدَنِ. ويجوز تَرْكه لمن قوي على ذَلِكَ.

والثالث: سبَب مَوْهوم بعيدٌ. فهذا يَقْدح فِعله في التوكُّلِ، ثم إنَّ فَوْقَ التَّوَكُّل التَّفْويضُ وهو الاسْتِسلامُ لأمْرِ الله بالكُلِّيَة، فإنَّ التَّوَكُّل له مُرَاد واخْتِيارٌ، وهو يَطْلبُ مُرَاده بالاعتِمادِ على ربِّهِ، وأمَّا المُفَوِّضُ فليس له مُراد ولا اختيار بل أسند الاختيار إلى الله، فهو أكْمل أدباً مع الله. انتهى ما قالَهُ ابن جُزَي.

«إصْرِفْ عَنَّا الأذَى... الخ» جُمْلة طَلَبِيّة جِيءَ بها لبَيَانِ المُتَحَصَّن منه، كأنَّه قيل: تَحَصَّنْتُ بك من صَرفِ الأذَى. والأذَى: كلُّ ما تتوقَّع إذايته في الدِّين والبَدَنِ والمالِ. قال فيه للجِنْسِ. ثمَّ قال رَضِيَ الله عنه: «بِسْم الله الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قُرَيش: الآيات 1-4] مرَّة. اللَّهُمَّ كما أطْعَمْتَهُمْ فَأطْعِمْنَا، وكما أمَّنْتَهُمْ فآمِنَّا، واجْعَلْنَا مِنَ الشَّاكِرِينَ، مرَّة».

(س) قال الإمام الخَرُوبي: قد تَضَمَّنَتِ الأمْنَ والإطْعَام ولها سِرٌّ عَجِيبٌ في الأسْفَارِ، وجاءَتْ في الأحاديث ولَمْ أقِف على ذِكره هو قوله: «اللَّهُمَّ كما أطْعَمتهم... الخ» اهـ. وقال المؤلف رحمه الله في شرح الرسالة بعد كَلاَم في آدَابِ السَّفَرِ: وليُلازِم لإيلافِ قُرَيْشٍ مسَاءً وصَبَاحاً فإنَّها أمَانٌ من وَحْشَةِ السَّفرِ وخَوْفِهِ. وقُل

يا أيّها الكافِرون، وإذا جَاءَ نَصْرُ الله والإخلاص والمعوّذتين مَسَاءً وصباحاً ثلاثاً فإنها بَرَكة عظيمة مجرّبة في السّعة والوجاهة، ثم قال: وإذا وضَعَ يدَه على سُور البَلَدِ الدَّاخل إليه وقَرَأَ لإيلافِ قُرَيْشٍ يُكرّر آخِرها ثلاثاً لَمْ يَزَلْ بها آمِناً طَاعِماً بفَضْلِ الله اهـ المُراد منه.

(ش) قولُهُ تَعَالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾ [قُريش: الآية 1] مُتَعلّق بقوله: فَلْيَعْبُدوا، أي فَلْيَعْبُدوا الله مِنْ أجلِ إيلافِهِم الرّحْلَتَين. فإنَّ ذلك نِعْمَة من الله عليهم، أو بمَحْذوفٍ أي أعجبُوا لإيلاف قُرَيْشٍ أو بما قَبْلهُ، فيكون كالتَّضْمِين في السَّفر، أي فجَعَلهم كَعَصْفٍ مأكولٍ، لإيلاف قُرَيشٍ ويُؤيده أنّهما في مِصْحَف أُبَيّ سُورة واحدة، وقُرَيْش وَلَد النَّضر بن كنانَة، منقول من تَصْغِير قُرَيْش وهي دَابّة عَظِيمة في البَحْرِ تَعْبَثُ بالسُّفُن، فلا تطاقُ إلاَّ بالنَّارِ. شُبّهوا بها لأنَّها تأكل ولا تُوكَلُ وتَعْلُو ولا يُعْلى عليها. وصُغِّرَ الاسم للتَّعْظيم. وقيل: إنَّما سُمِّيَتْ قُريشاً لتقَرُّشِهِمْ. والتَّقَرُّشُ: التَكَسُّبُ. لأنهم كانوا تجاراً. ثم أبدل منه.

قولُهُ: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ②﴾ [قُريش: الآية 2] وإنما أطلق الإيلاف أولاً ثم قيّدهُ للتَّفْخِيم. واختلف في هاتين الرِّحْلَتَين، فقيل: رحْلة الشتاء إلى اليَمَنِ، ورِحْلَة الصَّيف إلى الشَّامِ. وقيل: الرِّحلتانِ معاً إلى الشّام. وقيل: كانوا يَرْحَلُون في الصيف إلى الطَّائف حيثُ المَاء والظّلّ وفي الشتاء إلى مكّة حيث سُكْنَاهم. والإيلاف مصْدر ألَفَ المكان إذا ألفهُ. وقيل: هو منقول منه بالهَمْزَة. يُقال: ألِفَ الرَّجل الشَّيْء وآلفه إيَّاهُ. فالمعنى على الأوّلِ: أنَّ قُرَيشاً ألِفُوا الرّحْلَتَيْنِ، وعلى الثَّانِي، أن الله ألِفهم ذلك. ورحلة منصوب بإيلافهم وأفرد وهو من إقامَة الحجَّة واستدعاؤهم بملاطفة وتَذْكير بالنِّعَم. ودخلت الفاء لما في الكلام مِنْ معنى الشَّرْطِ إذ المعنى أنَّ نِعَمَ الله عليهم لا تُحْصَى، فإنْ لم يَعْبُدوه لسائِرِ نِعَمِهِ فليعبدُوه لأجْلِ إيلافهم الرّحْلَتين: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قُريش: الآية 4] أي بالرّحلتين. فقد كانوا قبل ذلك في شِدَّة وضَيْقٍ حتَّى أكلوا الجيفة. ويحتمل أن يريد إطعامهم على الإطلاق. فقد كان أهْل مكَّة ساكنين بوادٍ غير ذي زَرْعٍ، ولكنَّ الله أطْعَمَهُمْ مما يَجْلِب إليهم من البلاء بِدَعْوَة أبيهم إبراهيم عليه السلام وهو قوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: الآية 37] ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قُرَيش: الآية 4] أي خوف أصحاب الفيل، أو التخطف في بَلَدِهم ومسايِرهم، فإنَّهم كانوا في رِحْلتهم آمنين لا يتعرضُ لهم أحد بِسُوءٍ.

الزَّمخشري: الشكر في جُوعٍ وخوف لشدتهما. «اللّهُمَّ كما أطْعَمْتَهُمْ» بجلب الطَّعَام وجَنْي الثّمَارِ «فأطْعِمْنا» مِن غير تَعَبٍ ولا مشقَّةٍ «وكما آمَنْتَهُمْ» بالتَّخْفِيف والتَّشْديد «فآمِنَّا» كذلك «واجْعَلنا من الشَّاكرين» لك على ما رزقْتَنا ليدوم لدينا.

ثم قال رضِيَ الله عنه ونَفَعَنا به: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ أشْهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ أنْتَ أسْتَغْفِرُكَ وأتُوبُ إلَيْكَ».

(س) عن عَبْد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمات لا يقولُهُنَّ أحَدٌ ثلاث مرَّاتٍ في آخِرِ مَجْلس خير وذكر إلاَّ خُتِم بهنَّ كما يختم الخاتَم على الصحيفة ولا مجلس لَغْوٍ وبَاطِلٍ إلاَّ كَفَّرَ بهنَّ سُبْحانك اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ». أخرجه أبو داود. وأصله مُسْلم والموطَّأ وابن حبَّان والحاكم. وذكره في التَّرغيب هكذا. وزاد الإمام الخَرُوبي: «وكفَّر سَبْعين مَجْلساً مِنْ مجالس السُّوءِ».

(ش) «سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ» تَنْزِيهاً عن كل ما لا يليق بجلالكَ. قال القشيري: قال بعض أهْل التحقيق: التسبيح تفعيل مِن السَّبْح وهو العَوْم، فكأنَّ المسبّح يُسَبّح بقوله في بِحار ملكوتِهِ. فعلى هذا أصْحاب التَّسْبيح مختلفُونَ. فالطَّالب يُسَبّح بقَلْبِهِ في بحار الفكْرَة فإن تلاطمَت به أمواج الشُّبْهة وقع في الإنكَارِ والبِدْعة، وأرسلت سباحته عن الآفاتِ ولم يقطع عليه الطريق دواعِي الفشل والكَسَل وخاطر الفَجر والكَلل. ولم يسْبق إلى قَلْبِهِ سَابق تقليد، وأيَّده الله بخصائص التوفيق والتَّسْديد يُدَارك بِسَباحته جواهر العلومِ ولطائف الفُهُوم. والعَالِمُ يُسَبّح برُوحِهِ في بِحَارِ التعظيم، وطلب أوصاف التشريف والتقديم. فإن هبَّت عليه أرياح الفتنة غرق في أوشال الحظوظ وبقي في أوحال النُّفُوس، وإن ساعدته السَّعادة عَبَرَ قناطير الشهوات الخفية وجاوز سوراً. . . نية، فإذا كان كذلك وَصَل إلى جَوَاهِر المعرفة. والواصِلُ منهم يُسَبّح بسرِّهِ في بِحَار ملكوتِهِ فإنَّ ملكوته جبرتُه البديهة، وصمدته دهشَة الفتنة، قُطِعَ عليه الطريقُ فَحِيل بينه وبين المَقْصُود وإن أيَّد الله هذا السَّابح عند منازل الملكوتِ وجاوَزَ قناطير المرسومات، فأدرك جَوَاهر التَّوْحِيد، وتحقق بخصائص التَّفريد، فهذا يسلم له أن يقول: سبحان الله هـ، باختصار. وأحمَدك «بِحَمْدِكَ أشْهَد» أتيقَّن وأتَحقق «أنْ» مُخفَّفة أي أنهُ «لا إلٰهَ إلاَّ أنْتَ» لا معبودَ بالحَق غيرك. «أسْتغفركَ» أي أطلب مغفرتك لما فَرَط من الذّنوب وسترك مِنْ تخَفِّيه مِنَ الذنوب، «وأتوبُ إلَيْكَ» أي أرجع إليك بعد بعدنا عَنْكَ، بسبب الذّنوب، والتَّوْبة واجبَة بالكتاب والسّنة والإجماع، وفرائضها ثلاثة: النَّدَمُ من الذّنوب، مما عَصَى به ذا الجلال والإكرام لا من حيْث كونُهُ أضرّ به في بَدَنٍ أو مالٍ، والإقلاعُ عن الذَّنب في أول أوْقاتِ الإمكان من غير تأخير ولا تَوَانٍ، والعَزْمُ ألاَّ يَعود إليه أبداً، ومهما قَضَى عليه بالعَوْد أحد عُرْفاً فجدَّد.

وآدابها ثلاثة: الاعتراف بالذَّنْبِ مقروناً بالانكسار، والإكثار من التَّضرّع، والاسْتغفار والإكثار من الحسَنَات بمحو ما تقدَّم من السيِّئات. ومَراتبها سبعةٌ: الكفارة من الكُفر، وتوبة المخلصين من الذُّنُوبِ الكَبَائِرِ، وتوبة العدول من الصغار، وتوبة

العابدينِ مِنَ الفترات، وتوبَة السَّالكين من عِلل القلوبِ والآفاتِ، وتوبة أهْلِ الوَرعِ من الشُبهات، وتوبة أهْلِ المشاهدة من الغفلاتِ. فعلى هذا، التَّوبة سَبْعَةٌ: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخجل من الحسناتِ، وصحبة الحبيب، ومُراقبة الرقيب، وتَعْظيم المقام، وشُكر الإنعام.

قاله ابن جزي. ثم قال رحمه الله: «أسْتَغْفِرُ الله العَظِيمُ الذي لا إلٰهَ إلاَّ هوَ الحيُّ القيُّوم وأتُوبُ إليه».

(س) عن معاذ رضِيَ الله عنه قال: قال عليه السلام: «مَنْ قال بعْد الفجر ثلاث مرَّات: أسْتغفر الله العَظِيم الذي لا إلٰه إلاَّ هو الحيّ القيوم وأتوب إليه» كَفَّرت ذنوبَه، وإن كانت مثل زبَدَ البحر» رواه ابن السنّي. قاله المصنّف وأخرجه في الحصْن عن الترمذي من غير قَيْد الفَجْر. وقال: «غُفِرت ذنوبه، وإن كانت كزَبَد البَحْرِ أو عَدد ورق الشَّجر أو عدد رمل عالج، أو عدد أيام السنة» اهـ. وفي التَّرغيب: وإن كان فرَّ مِنَ الزَّحْفِ.

فَضْلُ الاسْتِغفار: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاسْتِغفار جَعَلَ الله له من كُلِّ هَمٍّ فَرجاً ومن كل ضيق مَخْرَجاً ورزقه من حيث لا يَحْتَسِب» وقال ﷺ: «طُوبَى لمن وجد في صحيفته اسْتغفاراً كثيراً». وقال ﷺ: «مَن أحبَّ أنْ تسترہ صحيفته فليكثر فيها من الاسْتغفار». وقال عليه الصلاة والسَّلام: «قال الله: يا ابْن آدَمَ، لو بَلَغَتْ ذُنُوبك عَنَانَ السَّمَاءِ ثم اسْتغفرتَني غَفَرْتُ لك ولا أُبَالي، يا ابْنَ آدَمَ إنك لو أتَيْتَني بِقِرَابِ الأرْضِ خَطايا ثم لقيتني لا تُشْرك بي شيئاً لأتَيْتُكَ بِقِرابها مغْفرة». وقال ﷺ: «ما مِنْ مُسْلم يعْمَل ذَنْباً إلاَّ وقف المَلَك ثلاث ساعات، فإن اسْتغفر مِنْ ذَنْبِهِ لَمْ يُوقِفْهُ ولَمْ يُعَذِّبْهُ يوم القيامَة». وقال ﷺ: «إنَّ العَبْد إذا أخْطأ خطيئة نكِتتْ في قَلْبِهِ نكتة، فإن هو نَزَعَ واستغفَرَ صُقلَتْ، فإن عاد زيد فيها حتى تغلق قَلْبه، فذلك الرّانُ الذي ذكرَ الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: الآية 14]. وقال ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْباً فيُحسن الطهور ثم يَقوم فيُصلّي رِكْعَتَين ثم يَسْتغفر الله إلاَّ غفر له». ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمران: الآية 135]. وقال ﷺ: «إن للقلوب صَدَاءً كَصَدَاءِ النحاسِ، وجلاوتها الاستِغْفار». وقال ﷺ: «ما مِنْ عبدٍ ولا أمةٍ يَسْتَغفر الله في اليوم سبعين مرَّة إلاَّ غفر الله له سبعمائة ذَنْب. وقد خاب عبداً أو أمة عَمِل في يوم أو ليلة أكثر من سَبْعمائة ذَنْب».

وجاء رَجُل إلى النَّبيّ ﷺ وقال: واذنباه مرَّتين أو ثلاثاً، فقال لَهُ رسول الله ﷺ: «قُلْ اللَّهُمَّ مَغْفرتك أوْسَعُ من ذُنُوبي ورَحْمَتك أرْجَى عِنْدِي مِنْ عَمَلي». فقالها ثم قال:

عُذْ. فعاد. ثم قال: عد، فعاد. ثم قال: قُمْ قَدْ غَفَرَ الله لكَ». وقال ﷺ: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ ولَجَاء بِقَوْمٍ يُذْنِبُون فيَسْتَغْفِرونَ الله، فيَغْفِرَ لهم، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لو أخْطأْتُمْ حتى تَمْلأَ خطاياكم ما بين السَّماءِ والأرض، ثم استغفرتم الله لغَفَر الله لَكُمْ. والذي نَفْسِي بيدِهِ لو لَمْ تُخطِئوا لَذَهَبَ الله بكُمْ ولجَاءَ بِقَوْم يُخْطِئُونَ فيَسْتَغْفِرون فيغفر الله لهم». وقال ﷺ: «إنَّ إبليس لَعنَه الله قال لِرَبِّهِ: وعِزَّتِكَ لا أبْرَح أغْوِي بني آدم ما دَامَتِ الأرواح فيهم. فقال الله لَهُ: فَبِعِزَّتِي وجَلاَلي لا أبْرَح أغفر لهم ما اسْتَغْفَرُوني». وقال ﷺ: «مَا مِنْ حَافِظَيْنِ يَرْفعَانِ إلى الله صحيفة فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها اسْتغفَاراً إلاَّ قال الله تبارك وتعالى: قَدْغَفَرْتُ لِعَبْدِي ما بين طَرَفَي الصَّحيفة».

وقال ﷺ: «مَنِ اسْتَغْفَر للمؤمنين والمُؤمِنات كلَّ يوم سَبْعاً وعشرين مرَّة أو خمساً وعشرين مرَّة أحَد العددَيْن كانَ من الذينَ يُسْتَجابُ دعاؤهم، يرزق سلم أهل الأرض» اهـ. وقال ﷺ: «مَنِ اسْتَغفر للمؤمنين والمُؤمِنات كَتَبَ الله له بِكُلِّ مُؤمن ومُؤمِنة حَسَنَة».

وكَيْفيتُه: أن يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ولِوَالِديَّ وللمؤمنين والمُؤمنات ـ أو: أسْتغفر الله العَظِيم لي ولوالديَّ وللمؤمنين ـ».

وقال حذيفة رضي الله عنه: شَكَوْتُ إلى رسول الله ﷺ ذرب لساني إلى حدته فقال: «أيْن أنت مِنَ الاسْتِغفار؟ إنِّي لأَسْتَغْفر الله في كلّ يوم مائة مرة».

وجاء رَجُل فقال: يا رسول الله، أحدنا يُذْنب ذَنْباً، قالَ: يُكْتَبُ عليه، قال: ثم يستغفر الله منه ويتوبُ. قال: «يُغْفَر له ويُتاب عليه، ولا يَملّ الله حتى تَمَلُّوا».

وقال ﷺ: «إنَّه ليُغَانَ على قَلْبي وإني لأَسْتَغْفِرُ الله في اليوم مائة مرَّةٍ».

قال أبو الحسن الشَّاذلي رضي الله عنه: رأيْتُ رسول الله ﷺ في النَّوم، فقلتُ: يا رسول الله ما مَعْنَى قَوْلكَ: «إنَّه ليُغانَ على قَلْبِي»، فقال: «يا أبا الحسَن: غَيْن أنوار لا غَيْن أَغْيَار. والغَيْنُ هو السَّتْرُ والتَّغطية». ومعنى الحديث: أنَّ مقام النبيّ ﷺ دائماً في التَّرقي في الأحْوَال فإذا ارْتفع من مقام لآخر رأى المقام الذي ارتَفَعَ منه نقصاً فيستغفر منه، وهكذا. وإذا كان بعض الأولياء الوارثون عنه يَبْلغُون إلى مَقَام الشُّهُودِ الدَّائم فما بالك بِسيّد المرسلين ﷺ. يا رَبِّ بِجَاهِ نبيّك المصطفى، ورَسولك المُرْتَضَى، طَهِّرْ قلوبنا من كلِّ وَصْفٍ يُباعِدنا عن مُشاهدتِكَ ومحبّتِك وأمِتْنَا على السُّنَّة والجماعَةَ والشَّوْقِ إلى لِقَائِكَ يا ذا الجَلالِ والإكْرَامِ.

(ش) قوله: «أسْتغفِر الله العَظِيم» أي أطلب مغفرته. وطَلب المَغْفرة من الله

سبحانه لا بُدّ أن يكون مع التّوبة بِشُروطها، وإلاّ فقَدْ وَرَدَ أنّ المُسْتَغفر مِنْ ذَنْبِهِ وهو مُقيم عليه كالمُسْتَهزيء بِربّه جَهْلاً وأن يكون قلب وانكسار، وإلاّ كان قليل الجَدْوَى يحتاج إلى اسْتغفار آخَرَ. ولذا قالت ربيعَة العدوية رضي الله عنها: اسْتغفارنا هذا يحتاج إلى اسْتغفار.

وقوله: «الذي لا إلٰه إلاّ هُوَ» أي فلا نطلبُ المغفرة إلاّ مِنْهُ.

وقوله: «الحيّ القَيُّوم» أي الذي لم يَزَلْ ولا يَزَال حيّاً قيّماً بتدبير خَلْقِهِ.

القشيري: ومعنى القَيّوم: أنه المُدبّر والمتولي لجميع الأمور التي تَجْري في العالم. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرّعد: الآية 33]. وإذا عَلِمَ العبد أنّه سُبْحانه حيٌّ لا يَمُوتُ وقديم لا يجوز عليه العَدَم صحّ توكُله ولذلك قال تعالى في ذِكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: الآية 58] أي أنّ مَنِ اعْتَمَد على مخلوقٍ واتّكل عليه ليوم حاجَتِهِ اخْتَلّت حالته وقت حاجته إليه فيضيع رجاؤه وأَمَلُه لدَيْهِ، ومَن علم أنّه حيّ أبداً علم أنه لا بدّ من فَنَائِهِ وهلكه، وإن طالَت مدَّة بقائِهِ وملكه، بل مَنْ عَلِمَ أنه الباقي لا يزال علم أن فيه خَلَفاً من كل تلفٍ، بل مَنْ عَلِم أنه لا يَصِل إلى مَوْلاهُ إلاّ بعد موتِهِ اشتاق إلى وفاتِهِ.

وقيل لبَعْضِهِم: إنّ الدّنيا لا تُساوي مع المَوْت شيئاً، فقال: بل الدّنيا لَوْ لَمْ يكن فيها الموت لم يكن فيها شيء يساوي شيئاً. وقيل: الدنيا حَبْس والموت جِسْرٌ يُوَصّل الحبيب إلى الحبيب. وأنشدوا:

أَلَسْتَ لِي خَالِقاً كفى بي شَرَفاً ... فَمَا وَرَاءَكَ مَطْلُوب ومقصود

وقيل: مِنْ علاماتِ الاشتياق إلى الله تعالى الاشتياق إلى الموت على بسَاطِ العافية.

وأمّا مَن عَرَفَ أنه القيوم بالأمور استراح من كل التّدْبير وتعَب الاشغَال، وعاش براحة التفويض فلم يضن بكريمة ولم يجعل في قلبه للدّنيا كبير قيمة.

ثم قال: حكي عن بعضهم أنه قال: مَنِ اهْتَمَّ للخبزِ فليسَ له عند الله قدر؛ لأنه إذا عَلِم أنه القائم بتدبير الأمور لا ينبغي له أن يَهْتَمَّ للخُبْز ولا لغَيْرِهِ. ولهذا قيل: مَنْ صحَّ تَوَكّله في نَفْسِهِ صحَّ توكله في غيره هـ. من محل الحاجة باختصار.

وقوله: «أتُوب إليه» القشيري: يقُول: تاب وآب وأناب، إذا رَجَعَ، وكذا أثاب. يُقال: ثَابَ اللّبَن في الضّرْع إذا رجعَ إليه هـ. وقد تقدم الكلام على التّوْبة.

قال القشيري: وفي خبر مُسند، أن رسول الله ﷺ دعا لأُمَّتِهِ في عشية عَرَفَة، واسْتغفر الله لهُم، فأوحى الله إليه: أنّي قد غَفَرتُ لهم ما بَيْني وبينهم ولَمْ أغْفِرَ لهم ظُلْم بَعْضهم لبَعْضٍ. فزاد في الاستغفارِ، وقال: إنك قادر أن تُرْضِي خُصَمَاءهُم. فَلَمْ

يُجِبه تِلْكَ الليلة. فلمَّا كان بالمُزْدَلِفة أوْحى الله تعالى إليه بالإجَابَةِ فَتَبَسَّم ﷺ وقال: «ضَحِكْت من فِعل عَدوّ الله إبْليس، لمَّا أجاب الله تعالى الدّعاء، صاح بالوَيْل والثُّبور، ووَضَعَ التراب على رأسِهِ» هـ، ثم ختم وظيفته بالصَّلاة على النَّبيّ ﷺ، والرضى عن الصحابة فقال: اللهم صلِّ على سيِّدنا محمد عبدك ونبيّك ورسولك النبيّ الأميّ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلّمْ تَسْليماً».

(س) عن أبي كاهِلٍ رَضِي الله عنه قال: قال عليه السلام: «مَنْ صَلَّى عليّ كل يَوْم ثلاث مرَّات وفي ليلة ثلاث مرَّات حُبّاً وشوقاً إليّ كان حقّاً على الله أن يَغْفِر ذنوبه تلك الليلة وذلك اليوم». رواه ابن أبي عاصِم والطبراني، إلاَّ أنه قال: لكان حَقّاً على الله أن يَغفر له بكلِّ مرّة ذنوب حَوْلٍ وهو بهذا اللفْظِ مُنْكَرٌ. وأبو كاهل أحمسي، وقيل نجلي. يُقال: اسْمُه عبد الله بن مالك. قاله في الترغيب.

فَصْلٌ
في فَضْلِ الصَّلاةِ على النَّبيّ ﷺ
وما وَرَد فيها من الأحاديث والأخْبار، وذِكْر ثمرَاتِها، وما يكسِبه العبد بها مِنَ المواهب والأسْرار

قَالَ رسُول الله ﷺ: «مَنْ صلَّى عليَّ مرَّةً واحِدة صلَّى الله عليه عَشْراً»، وفي بعض ألْفاظِ التِّرمذي: «مَنْ صلَّى عليَّ مرَّة واحدة كتب الله له بها عشرَ حسناتٍ» وفي بعض الرِّوايات: «مَنْ صلَّى عليَّ مرَّة واحدةً صلَّى الله عليه عشر صلواتٍ وحَطَّ عنه عَشْر سيِّئاتٍ، ورفعه بها عشرَ درجات».

وروى الطَّبراني عنه ﷺ: «مَنْ صلَّى عليَّ صلاة واحدة صلَّى الله عليه عَشْراً. ومَن صلَّى عليَّ عشراً صلى الله عليه مائة، ومَن صلَّى عليَّ مائة كتَبَ الله له بيْنَ عَيْنَيه: بَرَاءة من النِّفَاقِ وبَرَاءة من النَّار وأسكنه الله يوم القيامة مع الشُّهَدَاءِ».

وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَنْ صلَّى عليَّ عشراً صلَّى الله عليه مائة، ومَن صلَّى عليَّ مائة صلَّى الله عليه ألفاً، ومَن زاد صبَابة وشوقاً كنت شفيعاً له وشهيداً يوم القيامة».

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه، عَن أكابِرِ أصْحابِ رَسُول الله ﷺ قال: «مَنْ صلَّى عليَّ واحِدة صلَّى الله عليه عَشْراً، ومَنْ صلَّى عليّ عشراً صلَّى الله عليه مائة، ومَن صلَّى عليَّ مائة صلَّى الله عليه ألفاً، ومَنْ صلَّى عَلَيَّ ألفاً زاحَمَتْ كَتِفُهُ كَتِفِي على بَابِ الجنَّةِ».

وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عليَّ صَلَّتْ عليه الملائكة ما دَامَ يُصَلِّي عَلَيَّ، فَلْيُقلل عند ذلك أو ليُكْثِرْ».

وعِنْدَ عبد الله بن عَمرو بن العاص: «مَنْ صَلَّى على رسُول الله ﷺ صَلاَة صلَّى الله عليه وملائكته بها سبْعين صَلاَة» هـ.

قال القاضي أبو عبْد الله السكاك: اعْلَمْ أنَّ الصَّلاة مِنَ الله رحْمَة، ومَن رَحِمَهُ الله رحْمَة واحِدة فهي خَيْرٌ من الدّنْيا بما فيها، فما ظنّك بعشر رحَمَات. كما يَدْفَعُ الله بها مِنَ البَلايا والمِحَن ويستجلب بِبَركاتِها مِنَ اللّطائِف والمِنَن.

قال الشيخ ابن عطاءِ الله: من صلَّى عليه صلاة واحدة، كفاه الله هَمَّ الدُّنيا والآخرة، فما بالك بِمَن صلَّى عليه عشراً.

وقال ابن شافع: انبَسط جاهه ﷺ حتَّى بلَغَ المُصَلِّي عليه لهذا الأمر العظيم، وإلاَّ فمتَى كان يحل لك أن يُصلّي الله عَلَيْكَ فلو عَمِلْتَ في عُمْرِكَ كلَّ طاقة ثم صلَّى الله عليك مرّة واحدة رجَحَتْ تلك الصَّلاة الواحدة على ما فَعَلْت في عمركَ كله من جميع الطَّاقات لأنَّك تُصَلِّي على حَسَبِ وُسْعِكَ، وهو يُصَلِّي على حسَبِ رُبُوبيته، هذا إذا كانَتِ الصَّلاة واحدة، فكيف إذا صلَّى عليك عشراً بِكُلِّ صَلاةٍ.

ونقل القاضي عيَّاض في الأعمال عن بعض المحققين أنه كان يقول في قوله ﷺ: «مَنْ صلَّى عليَّ صَلاةً صلَّى الله عليه عشراً: إنَّ ذلك إنَّما هو مَنْ صلَّى عليه محتسباً مُخلصاً قاضياً حقَّه في ذلك وإجْلالاً له وحبّاً فيه لا مَنْ يقصد بذلك حظ نفسه من الثوابِ ورجاء الإجابة لدعائِهِ. قال: وهذا عندي فيه نظر.

وعن أبي طلحة رضِيَ الله عنه قال: دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ وأسارير وجهه تبرق، فقلت: يا رسول الله ما رأيتك أطيب نفساً ولا أظهر بِشراً مِنْ يَوْمك هذا. قال: «وما لِي لا تطيب نَفْسي وتظهر بشري وأنا فَارَقني جبريل عليه السلام السَّاعة فقال: يا محمد مَنْ صلَّى عليك مِنْ أُمَّتك صلاة كَتَبَ الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفعه بها عشر درجات. وقال له ـ أي للمصلّي المَلَكُ مثل ما قال ـ أي المصلّي لك. قلت: يا جبريل، وما ذاك المَلك؟ قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ وكَّلَ مَلَكاً مِنْ لَدُنْ خَلْقَكَ إلى أن يَبْعَثَك الله لا يَصلِّي عليك أحَد مِنْ أُمَّتك إلاَّ قال له، وأنْتَ صلَّى الله عليك».

وقال ﷺ: «مَنْ صلَّى عَلَيَّ بَلَغَتْنِي صَلاتُهُ وصلَّيْت عليه وكتب له سوى ذلك عشر حسنات».

وقال ﷺ: «مَنْ من أحَدٍ يُسَلِّم عليَّ إلاَّ ردَّ الله إليَّ روحي حتى أرُدَّ عليهِ السَّلام».

وقال ﷺ: «إنَّ الله وكَّل بِقَبْري مَلَكاً أعطاه الله أسماع الخلائق فلا يُصلّي عليَّ أحَدٌ إلى يوم القيامة إلاَّ أبْلَغني باسمه وباسم أبيه، هذا فُلان بن فُلان قد صلَّى عليك».

وقال ﷺ: «إنَّ أولى النّاس بي أكثرهم عليَّ صَلاَةً» هـ.

قال في شرح الدّليل: وإنما كان المُكْثر من الصَّلاة عليه ﷺ أوْلى الناس به والله أعلم، لتقرّبه إليه، واتخاذه يداً عنده بذلك، كما قال العَلِيّ في الموقف لما حجّ عنه حججاً فرآه في المَنَام فقال: هذه بذلك عندنا أُكافيك بها يوم القيامة. آخذ بيدك في الموقف فأُدخلك الجَنَّة والنَّاس في كَرْب الحسابِ، لأنَّ كثرة الصَّلاة عليه تدل على حُبّك له لأنَّ مَن أحَبّ شيئاً أكثر مِنْ ذِكْرِهِ. والمرء مَعَ مَنْ أحَبَّ وشدة محبّته له تدلّ على قوَّة مُتابعته له، لأنَّ المحبَّ لِمَن يحبّ مُطِيعٌ، ومن كان بهذه المثابة من كثرة الصَّلاة والمحبَّة والمتابعة قربت روحه من روحه ﷺ وحصل بينهما التوافق والائتلاف والارتباط والمناسبة، فكان مِنْ أوْلى النَّاس به ﷺ لا سيما ونوره من نُورِهِ، وطابعه فيه.

ثم اطلعت على قول الشيخ أبي عبد الله السَّاحلي في بُغْيَة السَّالك: إن من أعْظم الثمرات وأجمل الفوائِدِ المكتسبات بالصَّلاة عليه ﷺ انطباع صورته الكريمة في النَّفْسِ انْطباعاً ثابتاً متّصِلاً وذلك بالمُداومة على الصَّلاة على النَّبيّ ﷺ بإخلاص القَصْدِ وتخْصِيل الشروط والآداب، وتدبّر المعاني حتى يتمكَّن حبُّهُ في الباطِنِ تمكّناً صادقاً خالصاً تَصِل به نفس الذَّاكر لنفس النبيّ ﷺ ويُؤلّف بينهما في محَلّ القُرْبِ والصَّفاء، تأليفاً بحَسَبِ تمكّن حبّه من النَّفس فالمَرْء مع مَن أحَبَّ والحبّ يوجب الامتناع للمَحْبُوب، والاتباع يؤذن بالوصالِ. قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: الآية 69] . والأرواح جنود مُجَنَّدة ما تعارف منها ائْتَلَف وما تَناكَرَ مِنْها اخْتَلف هـ. الغَرَض منه.

وعن أُبَي بن كَعْبٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذَهَب ربع الليل قام فقال: «يا أيُّها الناس اذكروا الله، اذكروا إذا جاءَت الرَّاجفة تَتْبَعها الرَّادفَة، جاءت الموت بما فيه. فقلت: يا رسول الله إنّي أكْثر الصَّلاة عَلَيْكَ فكَمْ أجعل لك من صلاتي؟ قال: ما شئت، قال: قُلْتُ: الرّبع، قال: ما شئت، وإن زدتَ فهو خيرٌ لك. قلت: النّصف، قال: ما شئت وإن زدت فهو خَيْر لك. قال: أجعل لك صلاتي كُلّها؟ قال: إذَن تُكْفَى همّك ويُغفر لك ذنبك» رواه الترمذي وغيره.

قال الحافظ المنذري، معناه: أكثر الدعاء فكم أجعل لك من دُعائي صلاة عليك هـ.

وقال الشيخ أبو المواهب الشاذلي رضي الله عنه: رأيت النبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله ما مَعْنَى قول أُبَي بن كَعْب: كم أجعل لك من صَلاَتِي؟ قال: «أن تُصلّي عليَّ وتهدي ثواب ذلك إليَّ لا إلى نَفْسِكَ» هـ. ومثله للشيخ أبي المواهب التُونسي رضي الله عنه قال: قال لي رَسُول الله ﷺ في رؤية: «أنتَ تَشْفَع في مائة أَلْفٍ، فقلت: بِمَ اسْتوجَبْت ذلك يا رسول الله؟ فقال: «بإعْطَائِكَ لي ثواب صَلاَتِكَ عليَّ» هـ. وهذا كله مع نيته بل ثواب العمل له ﷺ في معنى إهداءِ القُرْبة له، وإلاَّ فالصَّلاة عليه ﷺ هدِية له بكل حالٍ، وإن لم يَنْوِ المُصَلّي جعل ثوابها له. والقصد من الإهْدَاءِ للعُظَماء إجْلالهم وإعظامهم لأنهم محتاجون إلى تلك الهدايا، ومن ثَمَّ كانوا يخوّلون المثوبات على أدْنَى شيءٍ، وهذا كله إذا احْتقر العامل نَفْسَهُ واعتقد قُصُوره وعدم أهْليته لذلك. وأمّا إذا رأى عمله شيئاً مُعْتمداً به في نفسه فسُوءُ الأدبِ لازِمٌ له وعليه يُحْمل ما للشَّيخ زرّوق فإنّه بَحَثَ في هذه المسألة وقال: إنّه من سُوءِ الأدَبِ.

وقال ﷺ: «أكْثِروا من الصلاة عليَّ يَوْمَ الجمعة، فإنَّه مشهود تَشْهَدهُ الملائكة وإنَّ أحداً لَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ إلاَّ عُرِضَتْ عليَّ صَلاَته حتى يفرغ منها». قال الرّاوي قلت: وبعد المَوتِ؟ قال: «وبَعْدَ المَوْت. فإن الله حَرَّم على الأرْض أن تأكُل أجْساد الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلامُ».

وقال ﷺ: «أكْثِرُوا من الصَّلاَة عليَّ في كل يوم جُمُعَة فإنَّ صَلاَة أُمَّتي تُعْرَض عليّ في كل جُمُعَة فَمَنْ كان أكثرُهم عليّ صلاة كان أقربهم منّي مَنْزِلَة» رواه البيهقي.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلَّى صَلاَةَ العَصْرِ يوم الجُمُعة فقال قَبْل أن يَقُوم مِنْ مكانه: صلَّى الله على محمَّد النَّبيّ الأميّ وعلى آلِهِ وسلَّم تَسْليماً ثمانين مرَّة غُفِرت له ذنوب ثمانين عاماً، وكتب له عبادة ثمانين سنَة» أخرجه الحافظ أبو القاسم بن شكوال.

وقال ﷺ: «مَنْ صلَّى عليَّ في يَوْم الجُمُعة ثمانين مرَّة غَفَر الله له ذُنُوب ثمانين سَنَة. قيل: يا رسول الله، كيف الصلاة عليْكَ؟ قال: تقول: اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ عبْدكَ ونبيّكَ ورَسُولك النَّبِيّ الأُميّ وتعقد واحدة» رواه الدّارقطني.

وقال ﷺ: «من صلَّى وسَلَّم في كتابٍ لم تزل المَلاَئكة تُصَلّي عليه، ما دام اسْمِي في ذلِكَ الكتاب» رواه الطبراني في الأوسط. وفي بعض الأثَرِ: «ليردن عَلَيَّ أقوام ما أعرفهم إلاَّ بكثرة صلاتِهِم عليَّ»، وفي آخر: «إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم عليَّ صَلاَةً».

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: الصَّلاة على النَّبِيّ ﷺ أمْحَق للذُّنُوب مِنَ

الماءِ البارِدِ للنَّارِ، والسَّلام عليه أفْضَل من عِتْقِ الرِّقابِ. هـ، من الشفاءِ.

وفي النَّصيحة الكافية: ثم الإكْثار من الصلاة على النبيّ ﷺ حتى يتنوّر قلبه، وإذا تنوَّر صار له حكم أهل الغاية. هـ. قال الشارح في الحديث عنه ﷺ: الصَّلاة عليّ نورٌ في القَلْب ونُورٌ على الصِّراطِ. ثم قال: ولأنه يكتسبُ بكثْرَةِ صلاتِهِ التي نَوَّرتْ قلبه شدَّة القربِ من سيِّدنا رسول الله ﷺ ويكون منسُوباً له ومحسوباً عليه، وإدْخالاً في جُمْلة عبيده وخُدَّامِهِ الذين عرفوا به فيعَظِّم ويكرَّم ويبجَّل من أجلِهِ ويحاشى عن المكارِهِ والأسْوَاء، وتخلع عليه سَنَاء المواهب، ويوضح لك الحال غلام السلطان الذي عرف بقربه عنده فإنه يكون له من العِنَايَة ما لا يَخْفَى فلا يعترض له ولا يعامل إلاَّ بالتبجيل والإكرام، ولا يُشك أنَّ أقرب الخلق إلى حبِيب الله هو أقربهم إلى الله، فهي تقرّب العبد من ربِّهِ وتجمعه عليه بكلّيته وقَلْبه وقُرْب العبد من مَلِك الملوكِ جلَّ جلالُهُ بِدَوَام شهود ذلك العبد لقربِهِ حتى يصيرَ كأنّه يَراهُ محقق لأعظم العناية، ومثبّت لأكْمَل الولاية.

قال الإمام القشيري في رسالته بالسَّند عن أشياخه إلى ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: «أوحى الله تعالى إلى مُوسَى عليه السلام: أنّي جَعَلْت فيك عشرة آلاف سَمْع حتى سَمِعْتَ كلامِي، وعشرة آلاف لِسَانٍ حتى أجَبْتني، وأحب ما يكُونُ إليَّ من القرب إذا أكْثرت الصَّلاة على محمَّد ﷺ» هـ.

قال الشيخ زكرياء: وقد رُوي أن أحَبَّ ما يتقرّب به إلى الله الصَّلاة على محمَّد ﷺ. هـ.

ومن هذا يظهر لك وجه ما ذَكَرَه المشايخ رضي الله عنهم من الصَّلاة على النَّبِيّ ﷺ تقوم مقام الشيخ في الهِدَاية وفضلية الباطِنِ.

قال المصنّف نفعنا الله به في قواعده: قال شيخنا أبو العبَّاس الحَضْرَمي رضِي الله عنه: وعَلَيْكَ بدَوَام الذِّكر، وكثرة الصَّلاة على النَّبيّ ﷺ فهي سُلَّم ومِعْراج وسلوك إلى الله تعالى إذا لَمْ يَلْق الطالب شَيْخاً مُرْشِداً وقد سَمِعْتُ سَنَة ستّ وأربعين وثمانمائة بالحَرَم الشريف رجُلاً مِنَ الصالحين روى ذلك عن بعض أهل الصدق مع الله وكلاهما معروفان ورأيتهما، والله أعلم.

ويُبيّن هذا قوله ﷺ لِمَنْ قال له: أجْعل لكَ صلاتي كلها إذاً تكفى همّك ويُغفر ذنبك وهو ظاهرٌ. ويبيّن لك ذلك ما في العُهُودِ مِنْ أنَّ المُكْثِر من الصَّلاةِ على النَّبيّ ﷺ يصير يشاهده نَوْماً ويقظَة، ومتى شاء، ويسأله عما يعرض له، وعن الأحاديث التي ضَعَّفها الحفاظ عنده. هـ.

وقال الشيخ الخَرُّوبي نَفَعَنا الله به في دلائِلِ الخيرات، وهو من أهمّ المُهِمَّات لمن يُريد القُرْبَى من ربِّ الأرْبابِ. قال في الشَّرْح: وجْه أهميَّة الصلاة على النبي ﷺ في حق من يريد القربَى من مَوْلاَهُ من وجوه: ما فيها مِنَ التَّوَسُّل إلى الله سُبْحانه بِحَبيبه ومصطفاهُ ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المَائدة: الآية 35] ولا وسيلة إليه أقرب ولا أعْظَمُ مِن رسولِهِ الأكْرَم ﷺ.

ومنها: أنَّ الله تعالى أمَرَنَا بها وحَضَّنَا عليها تشريفاً له، وتفضيلاً لجلاله وتعْظيماً. ووعد مِن استعملها حُسْن المآب بجزيل الثواب فهي من أعظَم الأعْمال، وأرجح الأقوال وأزكى الأحْوَالِ وأحظى القربات وأعْظَم البركات، وبها يَتوصل إلى رضى الرَّحمٰن وتناول السَّعادة والرِّضوان وبها تظهر البركات وتجاب الدَّعوات ويرتقَى بها إلى أرفع الدّرجات وتُجْبر صَدْع القلوب ويُصفى عن عَظيم الذُّنُوب.

وأوْحَى الله تعالى إلى مُوسَى عليه السَّلام: «يا موسَى أتريد أن أكونَ أقرب إليك مِن كلامِكَ إلى لسانِكَ ومن وِسْواس قلبِك إلى قَلْبِكَ، ومِن روحِكَ إلى بَدنِكَ، ومن نُورِ بَصَرِكَ إلى عَيْنك. قال: نَعَمْ يا ربّ. قال: فأكْثر مِنَ الصَّلاة على محمَّدٍ ﷺ».

ومنها: أنَّه ﷺ محبُوبٌ لله عزَّ وجلَّ، عظيم القَدْرِ عنده، وقد صلَّى عليه هو وملائكتُهُ فوجبَتْ محبَّة المحبوب والتقرّب إلى الله تعالى بمحبَّتِهِ وتعظيمه، والاشتغال بحقِّهِ، والصلاة عليه، والاقتداء بصلاتِهِ وصلاة مَلاَئكته عليْه.

ومنها: ما ورد في فَضْلِها ووعد عليها من جزيل الأجر وعظيم الذِّكر، وفوْز مستعملها برضاءِ الله، وقضاءِ حوائج آخرته ودُنْيَاهُ.

ومنها: ما فيها مِنْ شُكْر الواسطة في نِعَم الله علينا المأمور بشكرِهِ، وما مِنْ نِعْمَةٍ لله علينا سابِقة ولا لاحقة من نِعْمة الإيجاد والإمداد في الدّنيا والآخرة إلاَّ وهو السَّبَب في وصولها إلينا، وإجرائها علينا، فَنِعَمُه علينا تابِعَة لنِعَمِ الله ونِعَم الله لا يحصرها عدد، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية 34] فوجب حقه علينا، ووَجَب علينا في شُكْر نِعْمَتِهِ ألاَّ نَفْتُر عن الصَّلاة عليه، مع دخول كل نَفَسٍ وخُرُوجِهِ.

ومنها: ما فيها من القيام بِرَسْم العُبُودية بالرّجوع كما يقتضي الأصل نفيه. فهو أبْلغ في الامتثال ومن أجل ذلك كانت قضية الصَّلاة على النبيّ ﷺ مفضلة على كل عَمَلٍ. والذي يقتضي الأصل نفيه هو كوْن العَبْد يتقرَّب إلى الله تعالى بالاشتغال بحقِّ غَيْرِهِ، لأنَّ قولنا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ هو اشْتِغالٌ بحقِّ محمَّد ﷺ، وأصل التَّعبدات ألاَّ يتقرَّبَ إلى الله تعالى إلاَّ بالاشْتِغال بِحَقِّهِ ولكن لما كان الاشتغال بالصَّلاة على

محمد ﷺ بإذن من الله تعالى كأنَّ الاشتغال بها أبْلَغَ مِن امْتِثال الأمر بها، فهي بمثابة أمْر الله سبحانه للملائكة بالسُّجُودِ لآدَمَ عليه وعليهم السَّلامُ، فكان شَرَفهم في امتثال أمْر الله وكانت إهانَةَ إبليس لعَنَهُ الله في مُخَالفَة أمْرِهِ سُبْحانه.

ومنها: ما جرب من تأثيرها والنفع بها في التنوير ورفع الهِمَّة حتَّى قيل: إنها تكفي عن الشيخ في الطريق، وتقوم مقامَهُ، حسبما حكاه الشيخ السنوسي في شرح صُغْرى صُغْراهُ والشيخ زروق وأشار إليه الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى المشرع اليَمنِي في جوابٍ له.

ومنها: ما فيها من سِرِّ الاعتِدال الجامع لكمال العَبْد وتكميلِهِ، ففي الصلاة على رسُول الله ﷺ ذِكْرُ الله ورسوله ولا كذلك عكْسهُ. فلذلك كانت المثابرة على الأذكَار، والدَّوام عليها يحصل به الإغراض وتكسب نورانيته، تخرق الأوصاف، وتثير وَهَجاً وحرارة في الطباع، والصلاة على رسول الله ﷺ تذهب وَهَج الطباع، وتقوم النّفوس لأنها كالماءِ فكانت تقوم مقام شيخ التَّربية أيضاً من هذا الوجه.

وفي كتاب ابن فرحُون القرطوبي: واعْلَم أنَّ في الصَّلاةِ على رسول الله ﷺ عشر كَرَامات:

إحداها: صلاة المَلِك الجبَّار.

والثانية: شفاعة النَّبِيّ المُخْتَار.

والثالثة: الاقتداء بالملائكة الأبْرار.

والرَّابعة: مخالفة المُنَافقين والكُفَّار.

والخامسة: محو الخطايا والأوْزَار.

والسَّادِسة: عوْن على قضاء الحوائج والأوْطار.

والسَّابعة: تنوير الظواهر والأسْرَار.

والثامنة: النجاة مِنْ دَارِ البَوَار.

والتَّاسعة: دخول دَار القرار.

والعاشرة: سلام الرَّحيم الغفَّار. هـ.

وأمَّا الثمرات التي يجتنيها العبد بالصَّلاة على النبيّ ﷺ فقال في حقائق الأنوار: الحقيقة الخامسَة في الثَّمرات والفوائِدِ التي يجتنيها العَبْدُ ويقتنيها:

الأولى: امتثال أمْر الله بالصَّلاة على رسُول الله ﷺ.

والثانية: موافقته سبحانه وتعالى في الصلاة عليه ﷺ.

الثالثة: موافقة الملائكة في الصَّلاة عليه ﷺ.

الرَّابعة: حصول عشر صلوات من الله تعالى على المصلّي على النبيّ ﷺ واحدة.

الخامسة: أنّه يرفَع له عشر درجات.

السّادِسة: يكتب له عَشْر حَسَنات.

السابعة: تُمْحَى عنه عشر سيِّئات.

الثامِنة: تُرْجَى له إجابة دَعْوتِهِ.

التّاسعة: أنها سبب لشفاعَتِهِ ﷺ.

العاشرة: أنها سبب لغُفْران الذّنوب وسَتْر العيوب.

الحادية عشرَ: أنها سَبَبٌ لكِفَايَة العبد ما أهَمَّه.

الثّانية عشرَ: أنها سبب لقرب العَبْدِ منه ﷺ.

الثّالثة عشر: أنها تقوم مقام الصَّدقة.

الرَّابعة عشر: أنها سبب لقضاءِ الحوائِج.

الخامسة عَشَر: أنها سببٌ لصلاة الله وملائكته على المصلّي.

السّادسة عشر: أنها سبب زكاة المصلّي والطَّهارة لَهُ.

السَّابعة عشر: أنها سبب لتبشير العبد بالجنَّة قبل مَوْتِهِ.

الثّامنة عشر: أنها سبب للنَّجاة من أهوالِ يوم القيامة.

التاسعة عشر: أنها سبب لرَدّه ﷺ على المصلّي عليه.

المُوفيَة العشرين: أنها سبب لتذكر ما نسِيَه المصلي عليه ﷺ.

الحادي والعشرون: أنها سبب لطيب المَجْلس وألا يعود على أهله حَسْرَة يوم القيامة.

الثانية والعِشْرون: أنها سبب نَفْي الفَقْر عن المصلي عليه ﷺ.

الثالثة والعشرون: أنها تنفي عن العبد اسم البُخْل إذا صلّى عليه عند ذِكره ﷺ.

قلت: لقوله ﷺ: «بِحَسْبِ امريءٍ مِنَ البُخْلِ أن أُذكرَ عنده فَلَمْ يُصَلِّ عليَّ».

الرابعة والعشرون: نجاته من دُعَائِهِ عليه برغم أنفه إذا تركها عند ذِكْرِهِ ﷺ.

قلت: لقوله ﷺ: «رَغِمَ أنْفِ رَجل ذُكِرْت عنده فَلَمْ يُصَلِّ عليّ».

الخامسة والعشرون: إنها تأتي بصاحبها إلى طريق الجنَّة، وتخطي بتاركها عن طريقها.

السادسة والعشرون: أنّها تُنَجِي من نَتْنِ المَجْلِس الذي لا يُذْكَر فيه اسْمُ الله ولا رسُوله ﷺ.

السَّابعة والعشرون: إنَّها سبَب لتمام الكلام الذي ابتديء بحَمْد الله والصَّلاة على رسوله.

الثامِنَة والعشرون: إنَّها سَبَبٌ لفَوْز العَبْدِ بالجواز على الصِّرَاطِ.

التَّاسِعة والعشرون: إنها تخرج العبد عن الخفا بالصَّلاة على رسول الله ﷺ.

المُوَفية الثلاثين: إنها سبب لإلقَاءِ الله تعالى الثَّنَاءَ الحَسَنَ على المصلّي عليه ﷺ بين السَّماء والأرْضِ.

الإحدى والثلاثون: أنها سَبَب رحمة الله عزَّ وجلَّ.

الثانية والثلاثون: أنها سبَبٌ للبركة.

الثالثة والثلاثون: أنها سبب لدَوَام صحبَته ﷺ وزيادتها وتضاعفها وذلك عقد من عقود الإيمان لا يَتِمّ إلاَّ به.

الرابعة والثلاثون: أنَّها سببٌ لمحبَّة الرسول ﷺ للمصلّي عليه ﷺ.

الخامسة والثلاثون: أنها سبب لهداية العَبْد وحياة قَلْبِهِ.

السادسة والثلاثون: أنها سببٌ لِعَرْضِ المصلي عليه وذِكْره عنده ﷺ.

السَّابعة والثلاثون: أنها تثبت القدم.

الثَّامِنة والثلاثون: تأْدِية الصَّلاة عليه لأقَلِّ القليل مِنْ حَقِّه ﷺ وشكر نِعْمة الله التي أنعم بها علينا.

التاسعة والثلاثون: أنها متضمِّنَة لذكر الله وشكره ومعرفة إنْعَامِهِ.

الموفية الأربعين: إنَّ الصَّلاة عليه من العَبْد دُعاءٌ وسؤال من ربه عَزَّ وجلَّ. فتارة يَدْعُو لنبيه ﷺ وتارة لنَفْسِهِ، ولا يخْفَى ما في هذا من المزية للعبدِ.

الإحدى والأربعون: من أعظم الثمرات وأجَلِّ المُكْتَسبات بالصَّلاة على النبيّ ﷺ انطباع صورته الكريمة في النَّفس. هـ.

قلت: وقد أوْضَح في بُغْيَة السَّالك الإمام الساحلي رضي الله عنه وقسَّمه على مراتب الرِّجَال، وترَقي الأحْوَال، فقال بعد كلام: ثم النَّاس في انطباع صورته ﷺ الكريمة على طبقات بحسَب مشارِبِهم وأذْوَاقهم في الصِّدْق والحُضُور. فمنهم من لا تثبت الصورة الكريمة في نَفْسِهِ إلاَّ بعد تأمُّل وتثبّت وأعْمال وفِكْر وهذا أضعف للقوم لتعلق بعض البقايا الخاصَّة بهذا المنزلِ بالنَّفْسِ، وهذا قليل لرؤيته إيَّاه في النَّوْم، وإن

رآه فإنما يراهُ على غير عمل الرّؤية. ومنهم مَنْ تثبت الصورة الكريمة في نَفسِهِ أحيان ذِكره إيّاهُ لا سيما في الخَلَوَات عندما يتمخّض الفِكْر في مَعْنَى التصْفِية، فإذا فَتَر غابَتْ عنه، وهذا أنهَضُ من الأوّلِ، لكن مع بقيّة فيه مما تقتضيه مَنْزلته. وهذا يَرَاه في النَّوْم على صورته الكامِلَة. ومنهم مَنْ إذا سدَّ عيْنيه يقظة ونوماً رآه بعين بصيرته على كُلِّ حالٍ، وهم أهل النّهايات الذين اطمأنَّتْ قُلُوبهم بِذِكْر الله حتى رقّتْ نُفُوسُهم إلى فَرَادِس التقريب وظفروا بمجاورة الذين أنْعَم الله عليهم من النَّبِيئِينَ والصّدّيقين والشهداء والصّالحينَ وحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً. ومنهم من هو أعْلَى درَجَة من هذا، وهو أن يراهُ بعيني رأسِهِ عِياناً ومباشرة صورته الكريمة في عالم الحسّ لا سيما في أوقاتِ الذِّكْر وذلك أنَّ الأرواح إذا ائتلفت ائتلافاً بليغاً بكثرة الصلاة عليه ﷺ فإنَّ روحَه الكَرِيمة تتشكَّل بِجَسَدِهِ الطَّاهر حتى ينظر إليه المُصَلِّي عليه تارة عِيَاناً وتارة إدراكاً بالباطِنِ بحسب قوّة ائتِلافِ الرُّوحِ وضعفه مع أن رؤية البَصيرة أقوى من رُؤْية البَصَرِ. هـ.

وفي العهود للشّعراني قال: فكان وِرْد الشيخ نور الدّين الشّوني كل يوم عشرة آلافٍ. وكان وِرْد الشيخ أحمد الزّواوي أربعين ألف صلاة. وقال لي مرّة: طريقنا أن نُكْثِر من الصلاة على رسول الله ﷺ حتى يصير يجالسنا يقظة، ونصحبه مثل الصحابة، ونسأله عن أُمور الدّنيا، وعن الأحاديث التي ضعفها الحفاظ عندنا، ونعمل بقولِهِ ﷺ فيها، وما لم يَقَعْ لنا ذلك فَلَسْنَا مِنَ المُكْثِرِينَ للصّلاة عليه ﷺ.

قال: واعْلَمْ يا أخي أنَّ طريق الوصول إلى حَضْرَة الله تعالى مِنْ طريق الصَّلاة على النَّبي ﷺ أقرب الطريق، فمن لم يَخْدُمْهُ ﷺ الخِدْمَة الخاصّة به وطلَبَ دُخُول حَضْرَة الله تعالى فَقَدْ رَامَ المحال ولا يُمَكّنه حُجّاب الحَضْرَةِ أن يَدْخُلَ وذلك لِجَهْلِهِ بالأدَبِ مع الله تعالى، فحُكْمُهُ حُكْمُ الفَلاَّحِ إذا طَلَبَ الاجتماع بالسُّلْطانِ بِغَيْر واسِطَة، فافهم. انتهى محلّ الحاجة وقد عَدّ في العُهود ثمرات أُخْرى تركتها اخْتِصاراً فانظرها. ومن أجَل الثمرات التي تثمرها كثرة الصلاة عليه ﷺ والدّوام عليها تَطْيِيب فَم المصلّي حتى يفوح منه ريح المِسْكِ ويقوى بقوّتها أو يَضعف بضعفها.

قال الشّيخ أبو عَبْد الله السّاحلي في بُغية السّالِك: حدَّثني أبي رضي الله عنه قال: حدّثني الشيخ أبو القاسم المريد رَحِمَه الله تعالى قال: لمّا قدم الشيخ أبو عمران البرْدعي مالقًا، وجد بها الشيخ أبا عليّ، يعني الخرار، فاجْتَمَعْنَا الثلاثة يوماً في داري لِطَعَام صنعته لهما، قال أبو القاسم: وكان بالحَضْرة والدي، وكانت الزّكام لا تُفارِقه حتى أنّها تحرمه حاسّة الشّمّ. فقال الشيخ أبو عمران للشيخ أبي علي: لك ثمانية أعوام فما أثمرتْ فيك التّصْلية. فقال: يا سيدي زاد عِنْدي كذا وكذا. فقال له الشيخ أبُو عمران: هذا الّذي يَظْهَر للأولاد ما هكذا يُذكَر النَّبي ﷺ، ثم قال: تنفَّس والد الشيخ

أبي القاسِم. فتنفَّس أبو علي في كفّ والدي فهَبَّتْ من نَفْسِهِ رائحة طيبة كالمِسْكِ إلاَّ أنها ضعيفة، ثم تنفَّس الشيخ أبو عِمْران في كفِّ والدي، قال الشيخ أبُو القاسم: فوالله لقد شَقَّتْ رائِحة المِسْكِ خياشِمَ والدي حتى أرْعَفَتْهُ من فوْرِهِ وسال الدَّم من أنفه وعَمَّتِ الرائحة منزلي حتى بلغ الجيران روائح المسك. قال: ثم قال الشيخ أبو عمران: أيظن أصحاب محمَّد ﷺ أنهم فازوا به دوننا؟ فوالله لَوْ ردت[1] لهم الحياة ونظروا إلينا لَعَلِموا أنهم خلقوا بعدهم رِجالٌ تنعَّموا بالرّسول ﷺ مَناماً ويَقظة. هـ.

ومثل هذه الحكاية، ما حكاه الأستاذ أبو محمد جابر عن محمَّد بن سعيد، عن مطرف الخياط؛ الرَّجُل الصالح، قال: كنت جَعَلْت على نفسي كل ليلة عند النوم إذا أويْت إلى مَضْجَعِي عدداً معلوماً أُصَليه على النَّبي ﷺ، فإنّي بعض الليالي قد أكْمَلت العدد فأخَذتني عَيْنَايَ وكنت ساكناً في غُرْفة، فإذا أنا بالنَّبي ﷺ قد دَخَلَ عليَّ من بابِ الغُرفةِ فأضاءَتْ به نُوراً ثم نَهَضَ نَحْوِي وقال: هات هذا الفمَّ الذي يُكْثر الصَّلاة عليَّ أُقَبِّله. فكنت أسْتحِيي منه أن أُقبّله في فِيهِ، فاسْتَدَرْت بوجهي فقبَّل في خدِّي فانْتَبَهتُ فَزعاً في الحين وأنبهت صاحبي إلى جَنْبِي، وإذا البَيْت يفُوح مِسْكاً من رائحته ﷺ. وبقيَتْ رائحة المِسْكِ في خَدِّي ثمانية أيام تجِدها زَوْجَتي في كلِّ يومٍ ولَيْلَةٍ. هـ.

قال ابن وداعة: وإذا أردتَ أن تعلم حقيقة هذا القول، فانْظُر إلى قوله ﷺ: «ما جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً ثم تفرَّقوا على غير الصَّلاةِ على النَّبي ﷺ إلاَّ تفرَّقُوا على أنْتَنِ مِن جيفة حِمارٍ». يَظْهر لك أن المجالس التي يُذكر فيها النَّبي ﷺ أو يُصلى عليه فيها توجد فيها روائح عطرية، وتشم منها روائح مسكيَّة. ولما كان هو ﷺ أطيب الطيّبينَ وأطْهر الطَّاهرين وكان من خصائِصِه الشريفة التي عجِّلت له، من صفات أهل الجنَّة أنَّه كان لا يَمُرُّ بمَوْضِعٍ ولا يجلس فيه، ولا يَمُسّ بِيَده، أو بجارِحَةٍ من جَوَارِحِه الطَّاهرة شيئاً إلاَّ وبقي فيها رائِحة كرائِحَة المِسْكِ. حتَّى لقد كان أصحابه يَعْرِفون الطَّريق التي يمُر عليها ﷺ بذلك، أبْقى الله له هذه الكرامة. فكان ﷺ إذا ذُكِرَ في مَوْضِعٍ وصلِّي عليه فيه طاب ذلك الموضع بذِكْرِهِ وشمت منه روائح طيبة. فصلَّى الله عليه وعلى آله صلاة تطيب بها مجالس الذِّكر ويُغفر بها عَظِيم الوِزر. هـ.

ويُذْكَر أنَّ رائحة المسك تخرج من قَبْر الشيخ الجَزُولي، نفعنا الله به، لكثرة صلاته على النَّبِي ﷺ. وفَضَائلها لا تُحصى ولو تَتَبَّعناها لاستقلَّت منها أسْفارٌ. وفيما

(1) الكلام مِنْ: فوالله إلى يقظة، بالمعنى من عند الناسخ العمراني الخالدي عبد السلام، لحذف بعض الكلام في النسخة التي نسخت منها. هـ.

ذَكَرْناه كفايةٌ لمن سَبَقت له العِنَاية. وبالله التَّوفيق ولا حَوْل ولا قوَّة إلاَّ بالله العليّ العظيم. هـ.

وها أنا أمْنَحك صلوات وَرَدَتْ عن أكابِرِ الصَّالحين فيها خير عظيم، وثواب جسيم.

فمنها: الصَّلَوات العَشر، ذوات الخَيْرات والبركات، للإمام محيي الدين، المعروف بِجُنَيد اليَمَن، وهي مأثورة تستعمل وتُرَتَّب. فمن صلَّى بها استوجَبَ رِضوان الله الأكْبَر، والأمان من سَخطِهِ، وتتواتر عليه الرَّحْمَة والحفظ والأمان من الأسواء والآفات وتسهّل عليه الأمور، وهي كذلك بلا شَكٍّ ولا رَيْبٍ.

الأولى: اللّهُمّ يا ربَّ محمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ، صَلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، واجْزِ محمداً ﷺ ما هو أهْلَهُ.

الثَّانية: اللّهُمّ صلِّ على محمد النَّبِيّ الأمِّي وأزواجه أُمَّهات المُؤمنين وذُرِّياته وأهل بيته كما صلَّيت على إبْرَاهيم إنَّك حميد مجيد.

الثَّالِثة: اللّهُمّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّد وبَارِكْ على مُحَمَّد وعلى آلِ محمَّدٍ وارْحَم محمداً وآل محمد كما صلَّيْت وبارَكْت وتَرَحَّمْتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم إنَّك حَميدٌ مجيدٌ.

الرَّابعة: اللّهُمّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّد في الأوَّلين والآخرين وفي المَلإِ الأعلى إلى يَوْم الدِّينِ.

الخامِسَةُ: اللّهُمّ صلِّ على محمَّدٍ كما أمَرْتنا أن نُصَلِّي عليه، وصلِّ على محمَّدٍ كما يَنْبَغي أن يصلَّى عليه.

السَّادِسَة: اللهمَّ صلِّ على رُوح سيدنا محمَّدٍ في الأرواح وعلى جَسَده في الأجساد، وعلى قَبْرِهِ في القُبُور.

السَّابِعَة: اللّهُمّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وسَلِّم.

الثامِنَة: اللهمّ صلِّ على محمَّد الذي مَلأْتَ قَلْبَهُ من جلالِكَ، وعَيْنَهُ من جمالِكَ، فأصْبح فَرِحاً مَسْروراً مُؤيّداً مَنصُوراً.

التَّاسِعَة: اللهُمَّ صلِّ على محمَّد وعلى آل محمَّد صَلاَة مَنْ في السماوات والأرض عليه، وأجْر يا ربّ لطفك الخفي في أمْرِي.

العَاشِرَة: اللّهُمّ صلِّ على سيّدنا محمد السَّابِقِ للخَلْقِ نُورُهُ ورَحمة للعالمينَ ظُهُوره، عدد من مَضَى مِنْ خَلقك ومَن بَقِي، ومَنْ سَعِدَ منهم ومن شقي، صلاة

تستغرق العَدّ وتحيط بالحَدّ صلاةً لا غاية لها ولا مُنْتَهى لها دون عِلْمِكَ وعلى آلِهِ وأصْحَابِهِ وأزْوَاجِهِ وذُرّياته وأهْل بيته وأصهاره وأنصارِه وأشياعِه وأتباعِهِ مثل ذلك وسَلّم تسليماً مثل ذلك. والحمد لله على ذلك مثل ذلِكَ. وأجر يا مَوْلاي خَفِي لُطْفِكَ في أُمُور المسلمين آمِينَ.

قال رضي الله عنه: تُرَتّب عَشْراً، صَبَاحاً ومساءً، يَجْعل للمصلّي بها ما ذُكِرَ. قلت: وينبغي أن يُضاف إليها هذه الصّلاة العظيمة، وهي: اللّهُمّ صلِّ على سيّدنا محمَّدٍ بَحْرِ أنْوارِك، ومَعْدِن أسْرارك، ولِسان حُجَّتِك، وعَرُوس مَمْلكتك، وإمام حَضْرَتِك، وطِرَاز مُلْكِكَ، وخَزائِن رَحْمَتِك، وطريقِ شريعتكَ المُتلذّذ بتوحيدِكَ. إنْسانِ عين الوجُودِ، والسَّبَبِ في كلّ موجودٍ عَيْن أعْيَانِ خَلْقِكَ، المُتَقدّم مِنْ نُورِ ضِيائِكَ صلاةً تَدُومُ بدَوَامِكَ وتَبْقَى بِبَقَائِكَ لا مُنْتَهى لها دون عِلْمِكَ، صلاة تُرْضِيكَ وتُرْضِيهِ، وتَرْضَى بها عنّا يا ربَّ العالمين. قال بعضُ الأولياء الكبار: إنها بأربعة عشر ألْفاً. هـ.

ومِنْهَا: اللهمّ صلِّ على سيِّدنا محمد وعلى آلِ سيِّدنا محمد صلاة تُنجينا بها من جميع الأهْوالِ والآفَاتِ، وتَقْضِي لنا بها جميع الحاجات، وتُطَهِّرُنا بها من جميع السّيئات، وتَرْفعنا بها أعْلَى الدّرجاتِ، وتبلغُنا بها أقْصَى الغايات في الحياةِ وبَعْدَ المَمَاتِ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَم الرَّاحمين.

قال الإمامُ ابنُ حَجَر: مَنْ صلَّى بها ألْفاً على أي حاجَته، كانت دُنْياوية أو أُخرَوية تُقْضَى بإذْنِ الله أسْرَع من البَرْق الخاطف.

ومِنْها: اللّهُمّ صلِّ على سيّدنا محمد صلاة تحل بها العُقد، وتفرج بها الكرب، وتشرح بها الصّدور، وتيسّر بها الأمور وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلِّم. اللّهُمّ صلِّ على سيّدنا محمد بن عبد الله، القائم بحقّ الله، عدد ما في عِلْم الله صَلاةً وسلاماً دَائِمَيْن يَدُومان بدَوامِ مُلْكِ الله وعلى أخِيهِ جِبريل المطوّق بالنّورِ، وآلِهِ وصَحْبِهِ، وفرّج عنّي ما أهَمَّني إنّكَ على كلّ شيءٍ قديرٌ.

قالَ الإمامُ السّيُوطي: مَنْ صلّى بها سَبْعَ مرّات، حوائجه كلها تُقْضى، ويُرفع عنه كل هم وغمّ، وتَجْلُب كل خَيْرٍ ونَفْعٍ، وفيها أجْرٌ عَظِيمٌ.

ومِنْهَا: اللهُمّ صلِّ وسلِّم وبارك على عَبْدِكَ المصطفى، ورسولك المُرْتَضَى، وشفيعك المُبْتغَى، وحَبِيبك المُنْتَقى، سيّد أهل الأرْضِ والسَّماء سيّدنا ومولانا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ ملء الميزان، ومنتهى العِلْم، ومبلغ الرِّضى، وَزِنة العَرْش الواحد منها بمائة. عن سيدي عبد الرَّحمٰن بن أحمد المِسْنَاوي.

ومِنْهَا: اللهُمّ صلِّ على سيّدنا محمد الجامِعِ لأسْرارِكَ والدَّالِ بك عليك، وعلى

آلِهِ وصحبه وسلّم عَدَدَ ما أحاط بِهِ عِلمُكَ، وجَرَى به قَلَمُكَ، ونَفَذ به حكمك، واجْمَعني اللهُمَّ عليه حالاً ومآلاً إنّك على كلّ شيءٍ قديرٌ. المرَّة الواحدة منها بمائة ألفٍ، عَنِ الشيخ داود رضِيَ الله عنه.

ومِنْهَا: اللهُمَّ صلّ على سيّدنا محمَّدٍ عَبْدِكَ ونبيّك ورسُولِك النَّبِي الأُمّي وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسلّم تَسْليماً بقَدْر عَظمَة ذاتِكَ وفي كلّ وقتٍ وحينٍ. الواحِدة منها بمائة ألف ألفٍ. ومن قالها عشراً وهو مُصَافح يد أخِيه المُسلم لم يتفرّقا حتى يغفر لهما صَحّ. . .

ومِنها: اللهُمَّ صلّ على سيّدنا محمد وعلى آل سيّدنا محمد، الذي ما وُلِد مثله في الوجُودِ ولم يُوجَد مثله قطّ. قال الإمام البجوري رضي الله عنه: من قرأ هذه الصَّلاة مرّة واحدة في عُمُرِهِ ودخَلَ النَّارَ فليقبضْنِي بين يَدَي الله عزَّ وجلَّ.

ومِنْهَا: اللهُمَّ صلّ وسلّم وبَارِكْ على سيّدنا محمَّد وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وأزواجه وذُرِّيَّاتِهِ عَدَدَ ما في عِلْمِكَ صَلاة دَائِمَة بِدَوام مُلْكِكَ، اللّهُمَّ صلّ وسَلّم وبارِكْ على سيّدنا محمد وعلى آلِ سيّدنا محمد صلاة لَمْ يُصَلّ عليه بها أحَدٌ من خَلْقِكَ سِوَاك. صَلاةً أنالُ بها غايَة الأمَلِ ورِضَاكَ آمِين. من قرأ هذه الصَّلاة مرّة واحدة فكأنّما قرأ دَليل الخَيْرات سَبْع مرّات.

ومِنْهَا: اللهُمَّ صلّ وسلّم وبَارِك على سيّدنا ونبينا ومولانا محمَّد وعلى آلِهِ وأصْحابِهِ وأزْوَاجِهِ وذرِّيَّاتِهِ عَدَدَ ما في عِلْمِكَ صَلاة تَدُوم بِدوام مِلْكِكَ. قال سيّدي رضوان: مَنْ قرأ هذه الصَّلاة مرّة فكأنّما قرأ دليل الخَيْرات أرْبَعين مرّة.

ومِنْهَا: اللهُمَّ صلّ وسلّم على سيّدنا محمَّد وبَارِك على سيِّدنا محمدٍ، مُظْهر أسْرارِكَ، ومَنْبع أنوارك، الدالّ على حَضْرَة ذاتِكَ، صلاة تَرْضاها منَّا له، ما دام مُوسَى نَجِيّاً، وإبْرَاهيم خليلاً، ومحمد ﷺ وعلى آلِهِ حَبِيباً، مَنْ صلَّى بهذه الصَّلاة أرْبَعين ليلة مُتوالية فإنه يَرَى النَّبِيّ ﷺ وتكثر رؤيَاهُ له. صحيحة مجرَّبَة. والله المُوَفق للعمَلِ.

ومِنْهَا: اللهُمَّ صلّ وسلّم على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وأوْلادِهِ وأزْوَاجِهِ وذُرّيّاتِهِ وأهْل بَيْتِهِ، وأصْهَارِهِ وأنْصَاره وأشياعِهِ، ومحبِّيهِ وأُمَّتِهِ، وعلينا معهم أجْمَعين يا أرْحَمَ الرَّاحمين، يا ربّ العالمين. عَنْ مولانا محمد بن عبد الله الشريف، من قرأها مرَّة واحدة في عُمُره غفر الله له ولِوَالديه ولوَالدي والديه وإن عَلاَ. ثلاثاً. وكتب له عَمَل ثمانين سنَة.

ومنها: اللّهُمَّ صلّ على سيِّدنا محمد الذي شَرَّفْتَهُ على سائِرِ الأنَام، ورَفَعْتَه إلى أشْرَفِ محَلّ ومقام، وجَعَلْتَهُ هادِياً إلى دِينِ الإسلام، اللّهُمَّ فكما أمَرْتنا بالصَّلاةِ عليه بَلِّغ اللّهُمَّ صلاتنا مِنَّا إليه يا ربّ العالمين. قال الإمام ابن حجر: مَنْ صلَّى بهذه الصلاة

ألف مرّة على أي حاجته كانت دنياوية أو أُخروية، فإنّها تقضى في الحِينِ بإذن الله. صحيحة.

ومنها: اللّهُمّ صلِّ وسلِّم على سيّدنا محمد وعلى آلِ سيّدنا محمد ما اتعبت العيون بالنَّظر، وتَزَخْرفت الأرض بالمطرِ، وحجّ حاج واعْتَمَر، ولبّى وحَلَّق ونَحر وطاف بالبيتِ العتيق، وقبّل الحَجَرَ. هـ. قال أبو العباس الحَضْرَمي: خَمس من هذه الصلاة هي الفداء. هـ.

ومِنْها: اللهُمّ صلِّ على سيّدنا محمّد النبيّ الكامل، وعلى آلِهِ صلاةً لا نهاية لها، كما لا نِهَاية لكمالِكَ وعدِّ كمالِهِ. عن الإمام القسطنطني قال: واحدة منها تفديه.

ومِنْهَا: اللهمّ يا ربّ محمّد، وآل محمد، أجْز مُحمَّداً ما هو أهْله. روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال عليه السَّلام: «من قَالَها صباحاً أو مساءً، أتْعَب سَبْعين كاتباً ألف صَبَاح ولَمْ يَبْق للنَّبيّ ﷺ حق إلاً أدّاه وغفر له ولوالديه». وفي رواية ذكرها صاحب الشفاءِ لأبْن سَبْع: اللّهُمّ يا ربُّ محمَّدٍ وآلِ محمَّد صلِّ على محمَّد وعلى آلِ محمَّدٍ، واجْزِ محمّداً ﷺ وعلى آلِهِ ما هو أهْله. فذكر الثواب المذكور وزاد: وحُشِر يوم القيامة مع محمَّد وآلِ محمَّدٍ. هـ.

ومِنْهَا: اللهُمّ صلِّ وسلِّم على سيّدنا محمَّد وعلى آلِهِ صلاة تكون لنا رِضاءً وله جَزَاء وبِحَقِّهِ أدَاءً. قال الشيخ صالح بن عبد الرزَّاق اليَمَني رضي الله عنه: مَنْ طهَّر بدنَهُ ومكانَهُ وثَوْبه وصلَّى بهذه الصلاة إلى أن يَنَام رأى النَّبِيّ ﷺ مِنْ لَيْلتِهِ. وجُرّبت فصَحّتْ والحمد لله. هـ.

ولنرجِعْ إلى التَّصْلية المذكورة في الوظيفة، فنقول بِعَوْنِ الله واعْتنائِهِ:

(ش): «اللّهُمَّ» قَدْ تَقدم الكلام عليه «صَلِّ» أي اثْنِ عند ملائكتِكَ أو شَرِّفْ وكرِّم أو عَظِّم أو أغدق وزِدِ الخَيْر، أو اجْعَل الرّحْمَة المقترنة بالتعظيم المُنْبعثة عن العطف والحنان «على سيّدنا» الإضافة لتعريف العهد الخارجي، أي السيّد المعين المَعْلوم عند أهل المِلَّةِ، أي سيّد خير الأُمَم أو البَشَرِ أو المخلوقاتِ، وعلى كلِّ تقديرٍ يفيد سيادتَهُ لجميع المخلُوقات. وزيادة السيد والمَوْلى في الصَّلاة المتعبّد بها حَسَنَة بخلاف الرواية. والله تعالى أعْلَمُ.

«محمَّد» عَلَمٌ عليه ﷺ. وهذا الاسْمُ الكريم الشَّريفُ هو أشْهَر أسْمائِهِ ﷺ وأخصّها وأعرفها، وبه يُنَاديه الله تعالى في الدّنيا والآخرة، والمختصّ بكلمة التوحيد. وبه كنى آدم عليه السلام، وبه تشفع، وعليه صلّى في مَهْر حواء، به كان يسمِّي نفسه ﷺ، فيقُول: «أنا محمَد بن عبد الله، والَّذي نفس محمَّد بيده. وفاطمة بنت محمَّد.

ويكتب من محمّد رسول الله»، وهو الثَّابِتُ في تعليم كيفية الصلاة عليه ﷺ، وبه يصلي عليه المصلّون، وبه يُسَمّيه عِيسى عليه السلام في الآخرة، حين يَدُل عليه النّاس للشفاعة، وبه كان يُسَمّيه جبريل عليه السلام في حديث المعراج وغيره، وبه سمّاه إبراهيم عليه السلام في حديث المعراج أيضاً، وبه سمّاه جدّه عبد المُطّلب حين وُلِد، وبه كان يَدْعُوه قَوْمه، وبه ناداه مَلك الجِبَال، وبه صَعَدَ مَلَكُ الموت إلى السَّمَاء باكياً لما قَبضَ روحه يُنادي: وامحمَّداهُ، وبه يُسمّي نفسه لخازنِ الجنان حين يستفتح ليفتح، إلى غير ذلك. وهو من صِيغَ المبالغة معنًى. إذ الثلاثي تضعف عَيْنه لقصد المُبالغة فكان الأصل محمود، من حُمِد مبنياً للمفعول. ثم ضعف، فصار الفعل حمّد بالتَّضْعيف، والمفعول محمَّد كذلك، وذلك لتكرار الحمد لله، المرّة له بعد المرّة، فهو اسْم مطابق لذاتِهِ ومعناه ـ ﷺ ـ أن ذاته محمُودة على ألْسِنَة العوالِم، مِنْ كل الوجوه حقيقة وأوصافاً وخُلُقاً وخَلْقاً وأعْمالاً وأحْوَالاً وعُلُوماً وأحْكَاماً، فهو محمود في الأرض والسَّماء، وهو أيضاً محمود في الدنيا والآخِرة، ففي الدّنيا بما هدى إليه ونفع به من العِلْم والحِكمَةِ. وفي الآخرة بالشفاعة. فقد تكرّر معنى الحَمْد كما يقتضي اللّفظ.

وقوله: «عَبْدكَ» أي المتَحقّق بالعُبُودية لَكَ. «ونَبِيّكَ» أي المُخْبر عنك بالغيُوبِ أو المُخْبر بها مِنْكَ، أو رفيع القَدْرِ عنك، وهو إنسان أُوحي إليه بِشَرْعٍ، فإن أُمِرَ بتبليغه فرسول أيضاً، وإلاّ فَنَبيٌّ فقط. «ورَسُولِكَ» أي المختصُّ بالرسالة الجامعَة العامَّة، للأحْمَر والأسْوَدِ. «النَّبِيّ الأُمّيّ» مَنْسُوب إلى الأم، إذ الغالب من أحوالهن أنهنَّ لا يَكْتُبْنَ ولا يَقْرأن مكتوباً، فلمّا كان الابْن بصفتها نسب إليها كأنّه مِثْلَها، ولأنه باق على أصْل ولادتها، لم يقرأ ولم يكتب. وقيل: منسوب إلى أُمّة العَرب لأنَّ القراءة والكتابة لم تكُن معروفة فيهم، فكُنيّ به عن ذلك. وقيل: منسوب إلى الأمّة، لأنه أُمّة بنَفْسِهِ وأُمّته ﷺ وصف كمال في حقّهِ، بل صفة معجزة له دالّة على نُبُوّتِهِ، كفَاك بالعلم في الأمّي معجزة، لأنه مع كونه لا يقرأ ولا يَكْتب ولم يدرس ولم يتلق ممّن قرأ وكَتَبَ ظهر منه مِنَ العلوم والمعارف اللّدُنية ومعرفته بأخبار الأمم السّالفة وشرائعهم واطّلاعِهِ على علوم الأوّلين والآخِرين، وأحكامه لسياسة الخلق على تنويعهم، وإحاطة لجميع مصالح الدّين والدّنيا وتخلقه بكل خلق، واتّصافه بكل كَمَال للخلق على الإطلاق، وإماميته في كل علم وحكم وحكمته ما أعجز به جميع الخلق، وظهر اختصاصه به لكلفتهم، فكان ذلك آية ظاهرة، وحُجَّة باهِرَة، ودليلاً واضحاً من دلائل نبوّته ﷺ وكانت أمّيته كمالاً بيّناً لا خَفَاءَ فيه.

والمقصُود مِنَ القرَاءة والكتابة، هو ما يُنتج عنهما من العِلْمِ، لأنّهما حالةٌ له،

فإذا حَصَلَتِ الثَّمْرة المطلوبة بهما، اسْتُغني عنهما مع في ذلك لو كان يُحْسنه من الريضة بالاستغناء بكتابته عن مُلاقاته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿48﴾﴾ [العنكبوت: الآية 48] ولـمَّا كانت كمالية الأمِّية مُرْتبطة بالنبوءَة لم يرد لفظ الأمي في حقّه ﷺ إلاَّ مع لفظ النَّبي، فلا يُفْرد لفظ الأمّي عنه.

«وعلى آلِهِ» أقاربِهِ المؤمنُون من بَنِي هاشِم. وقيل: والمُطَّلب. «وصَحْبه» مَنِ اجتمع مؤمِناً بالنَّبي ﷺ سواء رآه أو لم يره. «وَسَلِّمْ» أي زِدْهُ إيماناً وطيباً، وتحية وإكراماً. وفي المرَّةِ الثالثة يزيد: «تَسْليماً» مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ. «عَدَدَ ما أَحَاطَ به عِلْمُكَ، وخطَّ به قَلَمُكَ، وأَحْصَاهُ كِتَابُكَ».

(س) هذا تكثير وتضعيف للصَّلاة عليه ﷺ، واخْتُلِف فيمن صلَّى على النَّبِيّ ﷺ هكذا بأن يقول: اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّد عَدَدَ كذا. هل يَحْصل له ثواب من صلَّى ذلك العدد أم لا؟.

فقال ابن عَرَفَة: يَحْصل له ثواب أكثر ممَّن صلَّى مرَّة واحدة لا ثواب مَنْ صَلَّى ذلك العدد. وقيل: له ثواب من صلَّى ذلك حقيقة. وقيل: بلغوا العدد وعدم اعتباره. واحتج الأبي لكل من القوْلين. وقال المصنف في قواعده: وفي تحصيل ذكر جامع لعدد كقول: سُبْحانه الله عدد خَلْقِهِ على ما هو به مع تضعيفه أو دونه، أو لقوة أقوال. وصحح بلا تضعيف. وقال في بعض شروحه على الحِكَم: في القول الأول، هو الأولى بالكرم. وفي الثاني؛ هو الظَّاهر في الاعتبار. ثم قال: وقد يُقال: إنَّ ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فالذي يمنعه العَجْز والضرّ، ليس الذي يَمْنعه الشغل والعمل، والذي يمْنعه ذلك ليس كالمؤثر لذلك. على نَعْت القَلْعَة المجرَّدة. فاعرف ذلك وتأمَّله. هـ.

قلتُ: والَّذي يظهر من حديث جوهرية المتقدّم، حيث قال لها ﷺ: «لقد قلت كلمات لوْ وُزِنت بما قلت اليوم لوزنتها حصول ثواب العدد» والله تعالى أعلم.

(ش) قوله: «عَدَدَ ما أَحَاطَ به عِلْمُكَ» العدد: الكمية المنفصلة، وهو منصوب على النيابة عن المَصْدر النَّوْعي. أي صَلِّ صلاة عددها مُسَاو لعدد ما يُذكر. وقوله: «ما أَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ» أي مِمَّا خلقته وأبْرزته للوجودِ، أو يكون على طريق المُبالغة في الطلب، وإلاَّ فما أحاط به عِلْمُهُ سُبْحانه لا يمكنه العدد فلا بدَّ فيه من التخصيص ليجري على قاعدة الإمكان العقلي. والمخصص في مثل هذا هو العقل، كما في قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية 102] فإنَّ العَقْل يخصصه للنَّاس، فندرك به

ضرورة أنّه تعالى ليس خالق لذاته ولا لصفاتِهِ فالمراد ما عداهما. وقد اختلف العُلماء في جَوَازِ إطلاق الموهم، عند مَنْ لا يتوهَّم به، أو كان سَهْل التأويل، واضح المحمل، أو تخصص بعرف الاستعمال في معنى صحيح. وقد اختارت جماعة من العُلَماء كيْفيات في الصَّلاة على النَّبي ﷺ وقد احْتَوَتْ على مِثْلِ ما للمؤلِّف مِنْ قولِهِ: عَدَدَ عِلْمِكَ. وعدد ما أحاط به عِلْمُكَ. وقالوا: إنَّها أفضل الكيفيات، منهم الشيخ عفيف الدّين اليافِعِي، والشريف البارزلي، والبَهاء بن القطان، ونقله عنه تلميذهُ المَقْدِسي رحمهم الله ورضي عنهم. هـ. من شرح الدَّليل.

قوله: «وخَطّ به قَلَمك» أي بيَّنَ ما مضى في اللَّوْح المحفوظ. وللفروع المُنْتَسخة منه بعد ذلك إلى حين هذه الصلاة. وفيما يأتي في الفُروع المُنْتَسِخة. وأما اللوح المحفوظ، فظاهر الأخبار أنه فرغ من كتابه قبل خَلْق السماوات والأرض. وقد كتب فيه مقادير كل شَيْءٍ وما هو كائن إلى يوم القيامة. وإنما المكتوب بعد ذلك الفروع المنتسِخة كالفُرُوع المنتسِخَة مِن الأصل. وفيها يقع المَحْو والإثبات على ما ذكر في الآية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرّعد: الآية 39].

وقوله: «وأحْصَاهُ» أي جميع عدده، وأحاط به، «كتابك» هو اللَّوْح المحفوظ. وقد قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: الآية 12] أي كتاب وهو اللوح المحفوظ.

ثم قال رضي الله عنه: «والرّضَى عن أبي بَكْرٍ وعُمَر وعن الصحابةِ أجْمَعِينَ، وعن التَّابِعِينَ وتابع التابعين لهم بإحْسانٍ إلى يَوْم الدِّين» مرة. لمَّا كان الصحابة رضي الله عنهم قد بلغ بذلك مُهَجهم وأموالهم في نَصْر الدِّين وإظهاره، مع المصطفى ﷺ وجَبَ علينا شُكْر نعمتهم بالتَّرضي عنهم والتَّرحُم والاستغفار لهم. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ﴾ [الحَشر: الآية 10] وقال بعض العلماء: الصَّلاة مختصَّة بالنبيّ ﷺ والرِّضوان بأصحابه، والرَّحمة لسائر المؤمنين.

قال ابن العربي: هي حُظظ مخصوصة بمراتب مخصوصة. وقال النَّوَوي: ويُسْتحب التَّرَضِّي والترحُم على الصَّحابة والتَّابعين، فمن بعدهم من العلماء والعُبَّاد وسائر الأخيار. وأما قول بعض العلماء: إنَّ التَّرضِّي خاص بالصحابة، ويُقال في غَيْرهم: رحمهم الله فقط. فليس كما قال: بل الصحيح الذي عليه الجُمْهور استحبابه. ودلائله أكثر من أن تُحْصى. هـ.

«وأبو بكر» هو عَبْد الله بن أبي قُحَافة عثمان بن عامر بن عَمْرو بن كَعْب بن

سَعْد بن تميم بن مُرّة بن كَعْب بن غالب بن فَهْرٍ، يتلقّى مع رسُول الله ﷺ في مُرّة. ولقب بِعَتيق، إمَّا لجمالِهِ وعتاقة وجهه ولأنَّ النّبي ﷺ قال: «مَنْ سَرَّه أن يَنْظرُ إلى عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ فلْيَنْظر إلى هذا». وسُمّي الصّدّيق لمبادَرَته إلى تَصْدِيق رسول الله ﷺ وهو أوَّل من آمَنَ به ﷺ، وهو صاحبه في الغَار، ومُلازمه في هذه الدار، وفي تلك الدَّارِ. والإجماع على أفْضَلِيته على سائر الصحابة، ولا يُعتدّ بخلاف الرّوافض ومن قال بقولهم، وهذا مذهب الأكثر. وقد سُئِل رسول الله ﷺ عن أحَبِّ النَّاسِ إليه فقال: «عائشة، قيل: ومِنَ الرجال؟ قال: أبُوها». رواه البخاري وغيره. وقال: «فَهَلْ أنْتُمْ تارِكُوا لي صاحِبي» إلى غير ذلك. وتُوفي رضِيَ الله عنه يوم الجمعة، وقيل: عشية يوم الإثنين، وقيل: ليلة الثلاثاء، وقيل: ليلة الأربعاء، لثلاث ليالٍ أو سَبْع أو لِثَمان بقين من جمادى الأخيرة لسنة ثلاثة عشر من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة وغسَّلته زوجته أسْماء بنت عميس، وصلّى عليه عمر بن الخطّاب رضِيَ الله عنه في مسْجِد رسول الله ﷺ ودُفِنَ ليلاً. وقيل: مات مَسْمُوماً. وقيل: إنه كان به طرف مُرْسل. وقيل: إنه اغْتَسَل بمَاءٍ بارِدٍ فاعْتلَّ عِلّة اتصلَتْ بها وفاتُهُ.

وعُمَرُ رَضِيَ الله عنه هو: أبو حَفْصٍ عُمَر بن الخطّاب بن نَوْفَل بن عَبْد العُزّى بن رباح بن عبْد الله بن قرط بن رزاح بن عُدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فَهْر. يلتقي مع رسول الله ﷺ في كَعْبٍ. وأسْلم بعد رابع وأربعين رجُلاً، وقيل: بعد بضعة وأربعين رجُلاً. وإحدى عشرة امرأة. وهو أوّل من تسمّى بأمير المؤمنين، وهو أول من فرّق جَمْع المشركين. وأقام عماد الدين بسيفه بعد سيد المُرْسلين، ولا خلاف أن رتبته بعد أبي بكر عند الموافق والمُخالف.

وسُئل مالِكٌ رحمه الله في المُدَوَّنة: مَنْ خَيْر النَّاس بعد النَّبيّ ﷺ، فقال: أبو بكر ثم عُمَر. ثم قال: أفي ذلك شك؟ واستشهد رضي الله عنه في آخِرِ ذِي الحجَّة، سنة ثلاث وعشرين من الهجرة وعمره ثلاث وستّون سنة على خِلاف فيه، قتله غلام المغيرة بن شعبة، وهو عِلْج كافِرٌ. وأحاديث فضل الشيخين كثيرة شهيرة، فلا نطيل بها. وإنما اقتصر الشيخ على تعيينهما لأن مذهبه الوقف عن تفضيل الباقي وهو أسْلَمُ. وكل من اجتمع بالنبيّ ﷺ ولو ساعة في حياتِهِ ﷺ فهو صحابي. قيل: عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألْفاً. وقال أبو زرعة الرازي رضي الله عنه: تُوفي رسول الله ﷺ عن مائة ألْف وأربَعَة عشر ألْفاً، كُلّهم رأوهُ ورووا عنه. ذكره ابن القطان في مَرَاتب الصحابة، وابن الأثير في جوامع الأصُولِ، قاله في شرح الوغليسية.

«والتَّابعون» كلّ من أدْرك صحابياً فما فَوْق. وتَابع التَّابعين: هم أهل القَرْنِ الثالث. والله تعالى أعلم.

ثم ختم وظيفته بخَاتِمَةِ والصَّافَّاتِ فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿182﴾﴾ [الصَّافات: الآيات 180-182].

لِمَا رَوَى البغوي عن عليّ رضي الله عنه: «مَنْ أراد أن يَكْتال بالمكْيَالِ الأوْفَى مِنَ الأجْرِ يوم القيامة، فليَكُنْ آخِر كلامه مِنْ مَجْلِسهِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿182﴾﴾ [الصَّافات: الآيات 180-182] أي تَنْوِيهاً لِرَبك المُحْسِن إليك بإرْسالِكَ وإقامَةِ الدَّليل الواضح على صِدْقك وتأييدك بكلّ قوَّةٍ، وإلبَاسِك كلَّ هَيْبَة.

وقولُهُ: «رَبِّ العِزَّةِ» أي الغَلبة التي هو مختصّ بها، حسبما أفْهَمَتْه الإخافَة. وأفادَهُ شاهد الوجود، وحاكم العقل، وهي تغلب كل شيءٍ ولا يغلبُها شيءٌ. وفي إضافة الرَّبِّ إليه وإلى العِزَّة إشارة إلى اختصاصه ﷺ وكل مَن وافقه في أمْرِهِ من جميع الخَلْقِ بالعِزَّة.

وقولُهُ: «عَمَّا يَصِفُون» أي ممَّا يقتضي النَّقائص، من أن له جلَّ وعلا ولد وصاحِبَة. أُنَزِّهُ سبحانه عمَّا وصَفَهُ به الكُفَّار، ممَّا لا يَلِيق به، لما ثبَتَ مِنْ بُعْدِهِم وضلالِهِم عَنِ الحقّ ولمَّا قدَّم السَّلام على مَن شاء تخصيصُهُ في هذه السورة عَمَّمَ فقال: عاطفاً على سُبْحانه. «وسَلاَمٌ» أي تَنَزّهٌ وسلامة وفَخْر وشرف وعَلاء على المُرْسلين المُبَلِّغين عن الله الشَّرائع الواصفين له بما هو أهْلُهُ، الذين اصْطَفَاهم الصَّافين صفَّاً، الزَّاجرين زَجْراً، التَّالِين ذِكْراً، مِنَ البشر والملائكة المذكورين في هذه السّورة وغيرهم، لأجل ما حَكَم لهم به سُبْحانه في أزَلِهِ مِنَ العزَّة والنَّصْر.

«والحَمْدُ» أي الإحَاطة بأوصافِ الكمَالِ «لِلَّهِ» أي الجامِع لمعاني جميع الأسْمَاءِ التي دَلَّ عليها مجموع خَلْقه، إذ هو عَلَمٌ على الذَّاتِ، والذَّاتُ مُسْتجمعة لِصِفاتِها فهو قُطْبُ الوجود كما أشار له بقولِهِ: «ربّ العالمين» فهو حينئذٍ الواحِد المُتعَال الذي تنزَّه عن الأكْفاءِ والأمْثَال والنظراء والأشكال في كل شيءٍ من الأقوالِ والأفعالِ والشّؤون والأحْوَالِ، فالحَمْد لله تعالى على نَصْرِ هذا الدِّين وهلاك الكافرين، وعلى أن هَدَانا لهذا وما كُنَّا لنَهْتدي لولا أن هدانا الله، والصَّلاة والسلام على مَنْ جاءَتِ الهِدايَة على يَدِهِ وتَمَّتِ النِّعْمَة علينا بِظُهُوره وبَعْثِهِ وسلامٌ على المُرسلين، والحمد لله ربِّ العالمينَ.

وهذا ختام الوظيفة الزّرّوقية، وأما الباقي فهو من زيادة تلميذه، ووَارث حالِهِ، الشيخ الفقيه، العَالِم الرَّباني، سيّدي محمَّد بن علي الخَرُّوبي، رضِيَ الله عنه ونفَعَنَا به آمين. وهذا أوّلُهَا:

«لا إلَهَ إلاَّ الله» مائة. قُلْتُ: ينبغي الكلام على هذه الكلمة المشرفة في أرْبعة فُصُول:

الفصل الأول: في فَضْلِهَا.

الثاني: في مَعْنَاها.

الثالث: في كَيْفية ذِكرهَا.

الرَّابعُ: في الثَّمرات والعَوائِدِ التي يجتنيها العَبْد مِنْ ذِكْرهَا.

الفصل الأول
في بَيَانِ فَضْلِها

قال الشيخ السّنُوسي رضي الله عنه: اعلَمْ أنّه لَوْ لَمْ يكُنْ في بيان فَضلها إلاّ كونها عَلَماً على الإيمان في الشرع لا تعصم الدّماء والأموال إلاّ بِحَقّها وكَوْنُ إيمان الكافِرِ مُوَقَفاً على النُّطقِ بها، لكان كافياً للعُقَلاءِ. كيف وقد وَرَد في فَضْلها أحاديث كثيرة، فمنها قول رسول الله ﷺ: «أفْضَل ما قُلْتُهُ أنا والنَّبِيئُونَ مِنْ قَبْلي: لا إلٰه إلاّ الله وَحْدَهُ لا شَريك لَهُ». رواه مالك في المُوطأ. زاد الترمذي في روايتِهِ: «لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْد وهو على كلّ شيءٍ قَدِيرٌ».

وروى هو والنّسائي أنّه ﷺ قال: أفْضَل الذّكر لا إلٰه إلاّ الله، وأفْضل الدُّعاء الحَمْد لله. وروى النّسائي أنّه ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا ربّ، علِّمْني ما أذْكُركَ بِهِ وأدْعُوكَ به. فقال: يا مُوسى، قُلْ: لا إلٰه إلاّ الله. قال موسى عليه السلام: يا ربّ كل عبَادك يقول هذا. قال: قل: لا إلٰهَ إلاّ الله. لا إلٰهَ إلاّ أنْتَ، إنّما أُريد شيئاً تَخُصّني به. قال: يا مُوسَى، لو أنّ السماوات السّبْع والأرْضين السّبع في كفَّة ولا إلٰهَ إلاّ الله في كفّة، لمالَتْ بِهِنّ لا إلٰهَ إلاّ الله».

وقال ﷺ: «يؤتى برجل إلى الميزان، ويُؤتى بتسعة وتسعين سِجلاً، كل سجلّ منها مدَّ البَصَرِ فيها خطاياه وذُنُوبِهِ فتوضع في كفَّة المِيزانِ ثم تخرج بطاقَة مقدار الأنملة فيها شهادة لا إلٰهَ إلاّ الله محمَّد رسول الله فتُوضَع في الكَفَّة الأُخرى، فترجع بخطاياه وذُنُوبَهُ».

وروى الترمذي، أن النَّبيّ ﷺ قال: «التَّسْبيح نِصْفُ الإيمان. والحمد لله تَمْلأُ الميزان. ولا إلٰه إلاّ الله ليس لها دونَ الله حجاب حتى تخلص إليه». وقال ﷺ: «ما قال أحَدٌ لا إلٰهَ إلاّ الله مخلصاً مِنْ قَلْبِهِ إلاّ فُتِحَتْ له أبواب السَّماءِ حتّى تَفْضِي إلى العرْشِ ما اجْتُنِبَتِ الكبائِر».

وقال ﷺ: «مَنْ دَخَلَ القَبْرَ بلا إلٰهَ إلا الله خلَّصهُ الله مِنَ النَّارِ».

وقال ﷺ: «أسْعَد النَّاس بِشَفَاعتي يوم القيامة مَنْ قال لا إلٰه إلاَّ الله خالِصاً من قَلْبِهِ».

وقال ﷺ: «مَنْ مات وهو يعلم أن لا إلٰهَ إلاَّ الله دَخَلَ الجنَّة».

وروى أنس أنَّ لا إلٰهَ إلاَّ الله ثَمَن الجنَّة. وقال ﷺ: «لَقِنُوا أمْوَاتَكُمْ لا إلٰهَ إلاَّ الله فإنَّها تَهْدِمُ الذُّنُوبَ هَدْماً. قالوا: يا رسول الله، فإن قالها في حياتِهِ، قال: هِيَ أهْدَم وأهْدَمُ». وفي الإحياءِ: وقال عليه السَّلامُ: «لو جَاء قائل لا إلٰهَ إلاَّ الله بتراب الأرضِ ذنوباً غُفِرَ له ذلك». وفيه أيضاً: «لَيْسَ على أهلِ لا إلٰهَ إلاَّ الله وحْشَة في قُبُورِهِم ولا في النُّشورِ كأنِّي أنْظُرُ إليهم عِنْدَ الصَّيْحَة يَنْفَضُونَ رُؤوسهم منَ التُّراب ويقولون: «الحَمْدُ لله الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الحزنَ إنَّ ربَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ». وفيه أيضاً: وقال لأبِي هُرَيرة رضِيَ الله عنه: «يا أبا هُرَيْرة كلّ حسنة تَعْمَلها توزن يوم القيامة، إلاَّ شهادة لا إلٰهَ إلاَّ الله فإنها لا تُوضَع في ميزانٍ، لأنَّها لو وُضِعَتْ في ميزان مَنْ قالها صَادِقاً وَوُضِعَت السماوات السَّبْع والأرضون السبع وما فيهنَّ كان لا إلٰهَ إلاَّ الله أرجَحَ من ذلِكَ». وفيه أيضاً: وقال: «مَنْ قال لا إلٰهَ إلاَّ الله مُخْلِصاً من قَلْبِهِ دَخَلَ الجنَّة». وقال: «لَيَدخلن الجنَّة كلكم إلاَّ مِنْ يأبى، وشَرَدَ عَنِ الله شرود البعيد عن أهْلِهِ. فقيل: يا رسول الله ﷺ من يأبَى؟ قال: مَنْ لم يَقُلْ لا إلٰهَ إلاَّ الله. فأكْثِرُوا مِنْ قول لا إلٰهَ إلاَّ الله قَبْلَ أن يُحَال بينكم وبينها فإنَّها كلمة التَّوحِيد وهي كلمة الإخْلاصِ، وهي كلمة التَّقْوَى، وهي الكلمة الطَّيبَة، وهي دَعْوة الحقّ، وهي العُرْوة الوُثْقى، وهي ثمن الجَنَّة، وفيها قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾ [الرَّحمٰن: الآية 60] قيل: الإحْسَان في الدّنيا قَوْل لا إلٰه إلاَّ الله، وفي الآخِرَة الجنَّة لِمَنْ قالها. وكذلك قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: الآية 26] وفيه: ويروى أن العَبْد إذا قال: لا إلٰه إلاَّ الله أتت صحيفة فلا تَمُرّ على خَطيئة إلاَّ مَحَتْها حتى تجد حسَنة مثلها، فتجلس إلى جَنْبها. وفي كتاب عبد الغَفُور عن أبي هريرة رضي الله عنه: إنَّ لله عموداً مِن بين يدي العَرْش، فإذا قال العَبْد: لا إلٰه إلاَّ الله اهْتَزَّ ذلك العَمُود، فيقول الله تبارك وتعالى: أُسكُن، فيقول: كَيْف أسْكُن ولم تَغْفِر لقائِلها، فيقول: قد غَفَرْت له. فيَسْكُن عند ذلك.

وفيه: عن أبي ذَرٍّ قلت: يا رسول الله، أوصِني. قال: «أُوصيك بِتَقْوى الله، فإذا عملت سيئة فأتبعها بِحَسَنَة تمحها»، قلت: يا رسول الله أمِنَ الحَسَنات لا إلٰه إلاَّ الله؟ قال: «مِنْ أفْضَل الحسناتِ».

وفيه: عن كعب: أوْحى الله تعالى إلى مُوسَى في التَّوراة: «لَوْلا مَنْ يقول: لا إلٰه إلاَّ الله لسُلطت جهنم على أهل الدّنيا». وفيه: وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال لا إلٰه إلاَّ الله ثلاث مرَّات في يَوْمِهِ، كانت كفَّارة لكل ذَنْبٍ أصابهُ في ذلك». وفيه: وذكر عن أبي

الفَضْل الجوهري قال: إذا دَخَلَ أهْلُ الجنَّة الجنَّة، سَمِعوا أشجارها وأنهارها وجميع ما فيها يقولون: لا إلٰه إلاَّ الله، فيقولون لبَعْضٍ: كلمة كنَّا نغفل عنها في دَارِ الدّنيا.

وروي عن ابن عبَّاسٍ عن النَّبي ﷺ قال: يَفْتح الله أبْواب الجنَّة، وينادِ مُنادٍ من تحت العَرْش: أيَتها الجنَّة وما فيك مِنَ النّعَم، لِمَنْ أنْت؟ فتنَادِ الجنَّة وما فيها: نَحْنُ لأَهْلِ لا إلٰه إلاَّ الله ونَشْتاق لأَهْلِ لا إلٰه إلاَّ الله، ونحن محرَّمون على مَنْ لَمْ يَقُلْ لا إلٰه إلاَّ الله، ولم يأمُر بِلا إلٰه إلاَّ الله. وعند هذا تقول النَّار وكُلّ ما فيها مِنَ العذابِ: لا يَدْخلني إلاَّ مَنْ أنكر لا إلٰه إلاَّ الله، ولا أمتليء إلاَّ بمن جَحَدَ لا إلٰه إلاَّ الله، وليْسَ غَضَبي إلاَّ على من أنْكَرَ لا إلٰه إلاَّ الله. قال: فتجِيء رَحْمَة الله ومَغفِرته وتقولانِ: نحنُ لأَهْلِ لا إلٰه إلاَّ الله، وناصِرانِ لمن قال لا إلٰه إلاَّ الله، ومُحبَّانِ لمن قال لا إلٰه إلاَّ الله، ومُتفضّلانِ على مَن قال: لا إلٰه إلاَّ الله. ويقول الله عزَّ وجلَّ: الجنَّة لِمَن قال: لا إلٰه إلاَّ الله فلا أحْجب مغفرة ولا رَحْمَة على مَن قال: لا إلٰه إلاَّ الله، وما خَلَقْتُ الجَنَّة إلاَّ لأَهْلِ لا إلٰه إلاَّ الله، ولا تخالطوا أهْل لا إلٰه إلاَّ الله إلاَّ بما يُوافق لا إلٰه إلاَّ الله». وهذا حديث عظيم ذكره ابن عطاء الله في مفتاح الجنَّة، ولَمْ أرَ مَنْ خرَّجه من أهل السنَّة. قاله المأمون.

وعَنْ بعض الصَّحابة رضِيَ الله عنهم: من قال: لا إلٰه إلاَّ الله مُخْلصاً من قَلْبِهِ ومدَّها بالتَّعظيم، غَفَرَ الله له أرْبعة آلاف ذَنْب مِنَ الكَبائِرِ. قيل: فإنْ لم تكن له هذه الذّنوب؟ قال: غفَرَ الله له مِنْ ذُنُوب أبَوَيْهِ وأهْلِهِ وجيرانِهِ.

وذكر عيَّاض في المدارك، عن يونس بن عبد الأعْلَى، أنَّه أصابَهُ شيءٌ فَرَأى في المنامِ أنَّ قائلاً يقولُ: اسْم الله الأكْبَر: لا إلٰه إلاَّ الله. فقالها. فَمَسَحَ ما وجَعَه فأصبح مُعافىً. وذكر الفاكهني: أنَّ مُلازَمَة ذِكرها عند دُخُول المَنْزِل يُنْفي الفَقْر.

وفضائل هذه الكلمة كثيرة لا يُمكن استقصاؤها. ولهذا اختار الأئِمَّة مُلازمة هذا الذِّكر في كلِّ حالٍ، حتَّى أنَّ منهم من لا يفتر عنه ليلاً ولا نَهَاراً، ومنهم من يَذْكُرُهُ بينَ اليوم واللَّيلة سَبْعين ألف مرَّة، وأهل التَّسبّب والمُشْتغلين بالخِدْمَة والصَّنائع اثني عَشَر ألفاً. ورُوي أنَّ مَنْ قالها سبعين ألف مرَّة كانت فداؤه من النَّارِ. فقد ذكر الشيخ أبو محمَّد بن عبد الله بن سعد اليافعي اليمني في كتاب الإرْشَادِ عن الشيخ أبي زَيْد القرطبي أنَّه قال: سَمِعْتُ في بعض الآثار، أنَّ من قال: لا إلٰه إلاَّ الله سبعين ألفاً كانت فداؤه من النار. فَعَمِلت على ذلك رَجَاء الوَعْدِ أعْمالاً ادَّخَرْتها لنَفْسِي، وعملت منها لأَهْلِي، وكان إذ ذاك يبيت معنا شابّ كان يُقال: إنه يكاشف في بَعْض الأوقاتِ بالجنَّة والنَّار، وكان في قلبي منه شَيْء. فاتَّفق أن اسْتدعانا بعض الإخوان إلى منزِلِهِ فَنَحن نتناول الطَّعام والشَّابّ مَعَنَا، إذ صَاحَ صَيْحَة مُنْكَرة، واجتمع في نَفْسِهِ وهو يقول: يا عَمّ،

هذه أُمّي في النّارِ، وهو يَصِيحُ بصياح عَظيم لا يشك مَنْ سَمِعَه أنه من أمْر عَظِيم. فلمّا رأيْتُ ما به قلتُ في نَفْسِي: الأثر حقٌّ. والذين رَووه لنا صادِقُونَ. اللّهم بحق السبعين ألفاً فأرى هذه المرأة أو هذا الشابّ. فما استَمَمْتُ الخاطِر في نفسي إلى أن قال: يا عَمّ ها هي أُخْرِجَتْ والحَمْدُ لله. فحَصَلَتْ لي فائِدتانِ: إيماني بصدق الأثر، وسَلامتي من الشّاب وعِلْمِي بصِدقِهِ.

فائدة: روى الشيخ سيدي محمّد بن سليمان الجَزُولي، نَفَعنا الله به، أنّه قال: مَنْ قال: لا إلٰه إلاّ الله سيّدنا محمّد رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم وعلى آلِهِ عَدَدَ ما خَلَقْتَ يا ربّنَا وما أنْتَ له خالِقٌ مِنْ يوم خَلَقْتَ الدُّنيا إلى يوم القيامةِ، في كل يوم وليلة سَبْعين ألْفَ مرّة، مَنْ قالها مرّة واحدة بِفِدْيَة، ومرّتين بفِدْية والِديْه، وثلاث مرات بفدية لكل مؤمن ومؤمنة. هـ. من بعض التقايدِ.

الفصل الثّاني
في بَيَانِ معْنَاها

ومعاني هذه الكلمة المُشرّفة بَحْر لا ساحل له. وقد اشتملتْ على عقائِد التّوحيد كلها، كما هو مقرَّرٌ في موْضِعِه. وقد اشتملت هذه الكلمة على نَفْي وإثبات.

فالمُنْفِي: كُلّ فَرْدٍ من أفراد حقيقة الإلٰه غير مَوْلانا جلّ وعزَّ.

والمثبَت من تِلْكَ الحقيقة فَرْد واحِد، وهو مولانا جَلّ وعزَّ.

وحقيقة الإلٰه: هو الواجب الوجود، المستحق للعبادة، وإن شئت قلت: هو الغنيّ بذاته عن كل ما سِوَاهُ. والمُفتقر إليه كلّ ما عَدَاه، فمعنى لا إلٰه إلاّ الله لا مسْتحقّ للعبادة إلاّ الله الواجب الوجود أو المُسْتغني عن كل ما سِوَاه. والمُفتقر إليه كل ما عداه، هو الله تعالى.

قال الشيخ السّنُوسي رضي الله عنه: وهذا التفسير الثاني أظهر من التفسير الأول وأقرب منه. وهو أيضاً أصْل له، لأنّه لا يستَحِقُّ أي يُعْبَد أي يُذلّ كُلّ شيءٍ، إلا إن كان مُسْتغنياً عن كلّ ما سِوَاه، ومفتقراً إليه كلّ ما عَدَاهُ، فظهر أن العبارة الثانية أحسن من الأولى. وبهذا يَنْدرج في جميع عقائد الإيمان، تحت هذه الكلمة المشرفة ويتسع لها صدر المؤمن لفيضان أنوار المَعَارف ويكون على ساحِلِ النّجَاة والأمْنِ مِنْ كل خَبْطٍ وقَعَ في معنى هذه الكلمة. ويدْخل الضعيفُ والقوي في روْضَة هذه الكلمة الشريفة، يَسْرَح في أنهارها ويَتَنزّهُ في سَلسَبِيل أنهارها، ويجتني من ثمار معارفها، ويَسْمَع من تغريد أطيارِ هدايتها ما كتب له. هـ.

وقال ابن عطاء الله رضي الله عنه في مفتاحِ الفلاح: إنَّما قدم النَّفْي في الكَلِمَة المشرفة على الإثْباتِ لوجوه:

الأول: أنَّ نَفْيَ الرّبوبية عن غيره تعالى، ثم إثباتها له آكد من إثباتها له من غير نَفْيِهَا عن غَيْرِهِ، فقولنا: ليس في البَلَدِ عالِمٌ غير زيْدٍ، أمْدح من قولِكَ: زَيْد عالِمُ البَلَدِ.

الثَّاني: أنَّ لكلّ إنسانٍ قَلْباً واحِداً. والقلْبُ الواحِدُ لا يسع الاشتغال بشيئين في وقْت واحِدٍ، فإذا اشْتَغَلَ بأحَدِ الشيئين بقي محروماً من الآخرِ، بقدر اشتغاله بالشيءِ الآخَرِ. فينبغي لقائل لا إلٰه إلاَّ الله أن ينويَ بلا إلٰه: إخراج ما سوى الله مِنْ قَلْبِهِ. فإذا صار القلب خالياً مما سِوَى الله ثم حَضَر سلطان الله أشرق نوره إشراقاً تامّاً، وكَمُل استيلاؤه عليه، قُلتُ: ولذلك ينبغي أن يشير برأسه إلى ناحية كَتِفِهِ مع النَّفْي معتمداً نَفْي السِّوَى، ثم يضع رأسه مع الإثبات إلى ناحية القَلْب فإنها أقوى في التَّنْوِير وهذه طريقة الشَّاذلية، كما قال بعض المحققين منهم.

ثم قال ابن عطاء الله: **الثَّالث**: أن النَّفي جَرى مجرى الطهارة، فكما أنَّ الطهارة مقدّمة على الصَّلاة فكذلك لا إلٰه مقدَّمة على إلاَّ الله، ويَجْرِي مَجْرى تقديم الاستعاذة على القراءة.

قال المحققون: النّصف الأول من هذه الكلمة، تنظيف الأسرار. والثاني حلول الأنوار من حضرة الجبَّار. أو النصف الأول انفِصَال، والثاني اتّصال. أو النّصف الأول إشارة إلى ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريَات: الآية 50] والنصف الثاني إلى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91] هـ.

وقال بعضهم: إنَّما قدَّم النَّفْيَ على الإثبات ليُعلم أنَّ الإثبات لا يتكامل إلاَّ بصيانتِهِ عن كل ما يتضمَّنُ مخالفته. هـ.

الفَصْلُ الثَّالِثُ
في كَيْفية ذِكْرِها على الوَجْهِ الأكْمَلِ

قال في شرح الصُّغرى: اعلمْ أنَّ ذاكر هذه الكلمة على كلّ حالٍ يحصد القربة، يَحْصل له الثواب. لكن الأكمل الذي ترد به على القَلْبِ المواهِب الإلٰهية، والفتوحاتِ الرّبانية، وأمطار الرَّحمة الغَيْبِية اللّدنية، التي يَقْصُر عنها الوَصْف أنْ يُعظم الذَّاكر ما عَظَّمَ الله سبحانَهُ، وأن يحسن أدبه، ما شرف مَوْلانا جلَّ وعَزَّ. وقد عَلِمْت أنَّ هذه الكلمة من أفضل الأذكار، وأشرفها عند مولانا جلَّ وعزَّ. فينبغي للمؤمن أنْ يعتني

بشأنِهَا فَيَتَوضَّأ لها ويَلْبَس ثياباً طاهرة، ويقصد موضعاً طاهراً، كما يقصده للصَّلاة، وليتحرَّ الخلوة والانفراد عن الخَلْقِ ما استطاع. ويقصد الأزمنة المشرفة كما بعد الفَجْر إلى طُلوعِ الشمس وبعد العَصْر إلى غروبها. أو ما يتمكن منه من بعض ذلك، وما بين العشاءيْن والسَّحَر، ثم يستقبل القِبْلَة، ويستفتحُ وِردَه بالاستغفار ولو مائة، ليَغْسِل باطنه مِن أدران المعاصِي ليتهيّأ لما يَرِدُ عليه بعد ذلك من أنْوار بقية أوْرَادِهِ، ثم ليتبع إثْر ذلك الصَّلاة على النبيّ ﷺ ولو خمسمائة مرَّة ليستنير بها باطنه، ويتهيّأ لِحَمْل ما يَرِدُ عليه من سِرّ التَّهْليل، وليَقْصِد بذلك كلِّهُ امتثال أمْرِ الله سُبْحَانه وطلب رِضَاهُ، والذي يعينُهُ على إحْضَار قَلْبِهِ وقصد القربة في هذه الأذكار أن يذكر على قَلْبِهِ أمر مَوْلانا جلَّ وعَزَّ بِكُلِّ واحدٍ منهما ليستشعر قلبه هَيْبة الأمْرِ بمعرفة مَنْ صدَرَ منه.

وكيفية ذكر ذلك على القَلْب، أن يتعوَّذ بالله من الشَّيطانِ الرَّجِيم، قاصداً التِّلاوة لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النَّحل: الآية 98] ثم يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المُزمّل: الآية 20] فإذا فَرَغَ من تِلاوة الآيَة، اسْتشعَر قلبه خطاب المَوْلَى الكريم جلَّ جلاله، وطلب بفضله الضَّعيف الفقير الحقير الاستغفار والملجأ إلى مَوْلاهُ الرَّحيم الرَّحْمٰن العزيز الغفَّار. فذاق عند ذلك من شِدَّة الحَيَاءِ مِنَ المَوْلى واحْتَقَرَ نَفْسَهُ إذا لم يَرَها أهلاً لخطابِ من أوْجَد الكائنات كلِّها، وافتقر جَمِيعُها إليه، وهو الغنيّ بالإطلاق، ذُو الفضل العَظيم. فعنذ ذلك يُبَادِر بلسَانِهِ وهو يَرْعَد مِنْ شِدَّة الهَيْبَة والخَجَل والتَّعْظِيم، قائِلاً: لبَّيْكَ يا مَوْلاي وسَعْدَيْكَ، والخَيْرُ كلّه بِيَدَيْكَ، وهذا عبدك الذَّليل الضعيف الحَقيرُ عليك معوّله في طهارة باطنه وظاهرِهِ، يقول بتَوْفيقك، امْتِثالاً لأمْرِك مُسْتَعِيناً بِكَ. اللَّهُمَّ إني أسْتغْفِرُكَ يا مولايَ، وأتُوبُ إليكَ مِنْ جميع الكبَائِرِ والصَّغائِرِ وهَفَوات الخَوَاطِرِ، ونحو ذلك من عِبارات الاستغفار. وليَخْتَرْ منها ما هو قويّ التأثير في باطِنِهِ ثم يتمادى حتى يتمَّ وِرْده من الاسْتِغْفار ثم يحمد الله تعالى ثلاثاً أوْ سبعاً على نِعْمة غَسْل باطنه من أدْرَانِ الذّنُوبِ. يقول في كيْفيتِهِ: الحَمْد لله الذي أنْعَمَ علينا بنعمة الإيمان والإسْلاَم وهدانا بسيّدنا محمَّد عليه من الله أفْضَل الصَّلاة والسَّلام، والحمد لله الذي هَدَانا لهذا وما كُنَّا لنَهْتَدِي لولا أن هَدَانا الله. ثم ليَشرع في الصَّلاة على النَّبي ﷺ بعد تَقديم الاسْتعاذة، وتلاوة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية 56] فعند ذلك يَسْتحضر في القَلْبِ عظيم شرف سيدنا ومولانا محمَّد ﷺ عند الله تعالى وإنَّه حازَ عنده منزلة لا يُمْكن أن تُلْحَقَ إذْ هو مولانا جلَّ وعَزَّ على ما هو عليه من الجلال يخبر أنَّه يصلي بنفسه على سيّدنا محمد ﷺ وكذلك مَلاَئكته الكِرَام عليهم الصلاة

والسلام على ما هُمْ عليه من الكثرة والشرف فيفرح عند ذلك العبد الضَّعيف، إذ تَفَضَّل عليه مولاه بأن أدخله بهذا الخطاب الجسيم، وما احتوى عليه مِنَ الأمر العظيم في روضة التقرّب إلى حبيبه وأفضل الخلق عنده عليه مولانا جلّ وعزّ عليه أفضل الصَّلاة وأزكى التسليم. فحينئذ يُبَادر بلسانِهِ وهو يَبْتهج فرحاً بعظيم فَضْل مولاه جلّ وعَزَّ عَلَيْهِ. إذ فَتَحَ له الباب إلى التّوصّل منه إلى أعْظم الوسائل عنده، بسيدنا ومولانا محمد ﷺ. فقال مجيباً لهذا الأمر الجليل: لبَّيْكَ مولاي وسَعْديْكَ، والخيْر كله بيَدَيْكَ، هذا عَبْدك الحقير رَاكن إلى مَنِيع جنابِكَ، متوسل إليك بأفْضَل أحِبَّائِكَ يقول بتوفيقك وممتثلاً لأمْرِكَ، ومستعيناً بِكَ في جميع أُمورِهِ.

اللّهُمَّ صلّ على سيّدنا محمد رسُولَك ونبيّك، صلاةً أرْقَى بها مَرَاقي الإخْلاص، وأنال بها غاية الاختصاص وعلى آلِهِ وصحبه وسلم تسليماً عدد ما أحاط به عِلمك وأحْصاه كتابكَ، إلى غير ذلك من كيفيات التَّصْليات التي تليق بحاله، ثم يتمادَى على ذلك مستحضراً صورته ﷺ التي ليْس في المخلوقات مثلها في الجمالِ، مستشعراً عظيم حرمته عند العليّ ذي الجلال، ذَاكِراً عظيم شفقته ورأْفَتِهِ بالمؤمنين وشدَّة اهتباله بهم في حياتِهِ وبعد مماتِهِ، والسعي في إرشادهم وإنقاذهم من كل هَوْل دُنْيا وأخرى. ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمُرْسلين، ليتربَّى بذلك عظيم محبَّته في قَلْبِهِ ويتشعْشَعَ أنوار حسْن الاتباع في ظاهره ولبّه، فإذا فرَغَ من وِرْدِهِ في الصَّلاة عليه ﷺ حَمد الله تعالى أيضاً على التوفيق لبَدْءِ ذلك وتمامِهِ ليُقَيّد بالشكر هذه النعمة العظيمة خشية السَّلْب. وأقلّ ذلك، ثلاث أو سَبْع ثم يشرع إثر ذلك أيضاً في التعوّذ قاصداً التّلاوة ثم ليَتْلُ قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمّد: الآية 19] ثم ليُجِبْ أمر مولانا العزيز بقوله: لبّيْكَ مَوْلاي وسَعْديْكَ، والخَيْر كله بِيَدَيْكَ. ها هو عبدكَ الفقير الحقير يُوحِّدك بالتهليل مُنْخَلِعاً مِنْ كلّ شرك وتَبْديلٍ وتغيير، يقُول مخلصاً من قَلْبِهِ ذاكراً لرَبّه مُتَبَرئاً من حَوْلِهِ، طالباً لفَضْلِهِ وطَوْلِهِ: «لا إلٰه إلاَّ الله محمّد رسول الله» ﷺ، إلى آخر دور سبحته من التهليل ولتُعِد التَعَوّذ والتلاوة أول كلّ دَوْر منها، وإن أجزت في المرَّة الأولى فلا بأس، وليحافظ الذَّاكر على إحضار قلبه لمعنى التَّهليل ليفُوزَ بثمراتِهِ حتى يَسْتضيء قَلْبُه بعظيم أنْوَارِهِ، ويَسْتعدّ لنزول الغَيْب الإلٰهي وَوَلُوج شريف أسراره، وتحصل له الحرية العُظْمى من رقه، لشيْءٍ من الكائنات. وذلك باستنادِه علماً وحالاً وظاهراً وباطناً إلى مولاه المنفرد بالملك والتَّدبير، الذي لا نافِع ولا ضارّ سِوَاهُ.

قلت: فينبغي للذَّاكر أن لا يحبّ شيئاً من الكائِنَات لأنَّه مهما أحبَّ شيئاً كان عَبْداً له، وهو إلٰهه، فيكذب حالُهُ لسانَهُ وإذا أحْبَبْتَ الله وحده ورَفضت ما سواه كنت مُخْلِصاً في قولِكَ: «لا إلٰه إلاَّ الله» وصادِقاً فيها قَوْلاً وفِعْلاً، عملاً وحالاً، ظاهِراً

وباطِناً، وهو معنى الإخلاص فيها. وافهمْ قوله ﷺ: «أسْعد الناس بشفاعَتِي يوم القيامة من قال لا إِلٰه إلاَّ الله مخلصاً مِنْ قَلْبِهِ».

وراجع كلام ابن عَطاءِ الله المتقدّم في فضل المعْنى في النَّفِي والإثبات وما فيه من التخلية والتحلية، واعمل بمقتضَاهُ. فإنه يحصل لك مقام الإخلاص الكامِل إن شاء الله في أقرب حال، ويَبْتَهج قلبك بأنوار الحقيقة. ولمَّا كان الانتفاع بها أمراً مَوْقوفاً على القيام بِرَسْم الشريعة، احتاج الذَّاكِر بعد كلمة التوحيد الدَّالَّة على الحقيقة أن يشفعها بإثبات رسالة سيّدنا محمَّد ﷺ ليحفظ نور توحيده بإدخالِهِ في مَنِيع حِرز الشريعة. فلهذا يقول الذَّاكر: لا إِلٰه إلاَّ الله، سيّدنا محمد رسول الله ﷺ. وهكذا ينبغي في كُلِّ ذِكر من ذكر الله تعالى أن لا يَغفل فيه المؤمن عن ذِكر سيّدنا ومولانا محمد ﷺ، إما بأن يُصَلِّي عليه إثره، أو يقرُّ برسالته مع الصلاة عليه ﷺ. ونحو ذلك مما يُوجبُ تعظيمهُ والتمسك بأذياله إذ هو ﷺ باب الله الأعْظم، الذي لا ينال كل خير دنيا وأُخرى إلاَّ بالتعلق به، ومن غَفَل عن ذكره والتمسك بشريعته ﷺ لمْ يَنَل مقصده وكان مَرْمياً به في سجْن القطيعة محروماً من كل خَيْر دُنْيا وأُخْرى. وسيدنا وموْلانا محمد ﷺ دَليل الخَيْر إلى الله تعالى، فكيف يَصل إلى الله تعالى من غَفَلَ عدد ليله. قاله في شرح الصُغرى. هـ. فضل الكيفية.

الفَصْلُ الرَّابع

في الفَوَائِد التي تَحْصُل لذَاكِرِ هذه الكلمة المشرفة على الوجه الأكمل

قال الشيخ السنوسي رضي الله عنه: اعلم أنَّ المواظبة على ذِكر الكلمَة المشَرَّفة على الوجه الذي ذكرناه أولاً تَحصل فوائد كثيرة، منها ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدِّينية، ومنها ما يرجع إلى الكرَامات التي هي خوارق العادات.

أما الأولى: فمنها اتصافه بالزّهد، ونعْني به خلوّ الباطن من المَيْل إلى فَانٍ، وفراغ القلب من الثقة بزائل، وإن كانت اليَد معمورة بمتاع حلال، فعلى سبيل العارية المحضة وتصرفه فيه بالإذن الشرعي تصرّف الوكالة الخاصَّة ينتظر العزل عن ذلك التصرف بالموتِ أو غيره مع كل نَفس. وذلك ينفي عن النّفس التعلق بما لا بُدَّ من زوالِهِ.

ومنها: التوكل، وهو ثقة القَلْب بالوَكيل بحيث يسْكن الاضطراب، عند تعدد الأسباب، ثقة بِمُسبب الأسباب. ولا يقدَح في توكله تلبس ظاهره بالأسباب، إذا قلبه فارغاً منها يستوي عنده وجودها وعدمها.

ومنها: الحياء، بتعظيم الله عزَّ وجلَّ، بدوام ذِكر، والتزام امتثال نَهْيه وأمْره، والإمساك عن الشكوى به إلى العجَزة والفقراء غيره.

ومنها: الغِنَاءُ، وهو غناء القلب بسلامته من فتن الأسباب، فلا يَعْترض عن الأحكام بِلَو ولا بِلَعَلَّ. لعلمه بما صدرت منه جلَّ وعزَّ، المنفرد بالخلق والتأييد، الملك الوهاب.

ومنها: الفقر، وهو نقص يد القلب من الدنيا حرصاً، وإكثار القطعة بأن حاجته ليست عند شيء منها، وسكون الإنسان عنها بالكلية، مَدْحاً وذماً.

ومنها: الإيثار على نفسه بما لا يَذُمّه الشرع.

ومنها: الفتوة، وهي التجافي عن مطالبة الخلق بالإحسان إليه. ولو أحْسَن إليهم لِعِلْمِهِ بأنَّ إحسانه إليهم وإساءتهم إليه كل ذلك مخلوق لله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿96﴾﴾ [الصَّافات: الآية 96] فَلَمْ يَرَ لنَفسه إحْساناً حتى يطلب عليه جزاء. ولم ير لهم إساءة حتى يَذُمهم عليها. اللَّهُمَّ إلاَّ أن يكون الشرع هو الذي أمَر بِذمهم أو معاقبتهم، فيفعل حينئذ ما أمره به الشرع ليقوم بوَظيفة التَّعبّد فقط، وهذه الفُتُوَّة فَوْق المسالمة.

ومنها: الشكر، وهو إفراد القَلْب بالثناءِ على الله تعالى ورُؤيته النِّعم منه في طيّ النِّقَمِ. والفوائد كثيرة، ومن أرادها فليجتهد في أسبابها، فسَيعرفها بالذَّوقِ.

وأمَّا النوع الثاني من الفوائِدِ، وهو ما يرجع إلى الكراماتِ، فمنها وَضع البَركَة في الطعام وغيره، حتى يكثر القليل ويكفي اليَسير، وهذا مُشاهد لأولياء الله تعالى كثيراً.

ومنها: تيسّر دراهم أو دنانير أو كليهما أو غير ذلك ممَّا تدعو إليه الحاجة. وقد كان بعض المشايخ في أوَّل أمْره جزّاراً فتعذَّر عليه شغل الجزارة تَعَذّراً شرعياً، فكان إذا قَضَى وظيفته ذكَره برفع رأسِهِ فيجد في حجره درهماً يشتري به قوت ذلك اليوم.

ونقل عن الشيخ أبي عبد الله التَّاودي، أنَّه احتاج كِسْوَة لأولادِهِ وزوجته، وكان كثير الأولاد. فاشترى شقة، وذهب بها إلى الخياط فأعطاه طرفها الواحد، وأمسك تحته الطرف الآخر، فجعل الخياط يَجرّها ويُفصل منها، شيئاً بعد شيء، حتى صَنَع أثواباً عدَّة. تشهد العادة بأنَّ ذلك لا يكون من شقة واحدة، فطال ذلك على الخياط، فقال له: يا سيدي هذه الشقة ما تتم أبداً. فقال الشيخ خوْف الفتنة: قد تمت، ورَمَى بباقيها من تحتِهِ.

وقد كان بعض المشايخ لا يَنْصب لذكر ولا لصلاة على سجادته في خلوتِهِ إلاَّ

ويخلق الله تعالى على سجادته أو تحتها دراهم جدد، وكان له عائلة وأولاد، فكان مشعر أولادِه، إذا رأوه يأخذ في التوجّه للصَّلاة أو الذِّكر يحدقون به، يرقبون انفصاله، فإذا انفصَلَ التقطوا تلك الدَّراهم. فمنهم المُقِلّ ومنهم الكثير. وداموا على ذلك حتى تحدثوا به، وشاع الحديث، فانقطع ذلك.

ومنها: أن يُكشف له عن حقيقة ما يريد استعماله من الطعام، فيعرف حرامه من حَلاَله ومشابهه بإمارة يجدها إمَّا من باطنِهِ أو ظاهره أو غيره، وحرامات هذا الباب لا تنحصر، إلاَّ أن المؤمن لا ينبغي له أن يقصدها بشيءٍ من طاعتِهِ وإلاَّ دخل عليه الشرك الخفِي ومَكَر به والعياذ بالله، إذ هو من جُمْلَة ما يجب أن يَصْفَى منها باطنه، عند ذكر كَلمة التوحيد فَلْيقطع التفاته إليها بالكلية. وليكن مقصده رِضَى مولاه الذي لا خَلَف له عنه، ولا غِنَى لمخلوق عنه، وكشف الحجاب عن عَيْن قلبه حتى يتنزَّه في ذلك الجلال العَديم المثال، ويُوَاجهه مَوْلاه بعجائب وأسْرار، لا يُمكن أن يعبر عنها بمقال. اللَّهم افْتَحْ لنا في ذلك وَزِدْنا من فَضْلِك دُنْيا وأُخْرى يا أرْحم الرَّاحمين بِجَاه سيّد الأوّلين والآخرين، سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى إخوانِهِ مِنَ النبيئين والمرسلين، وعلى جميع الملائكة المُقَرّبين هـ.

ثم قال رضِيَ الله عنه: «أشْهَدُ أن لا إلٰه إلاَّ الله، أشْهَدُ أنَّ سيدنا محمَّداً رسول الله» ثلاثاً، كأنه لما ابتهج الباطن بأنوار الحقيقة أفْصَح بالشهادة لذلك.

ومعنى أشهد: أي أقِرّ وأعترف، أو أجْزِم وأتحقق، وأنْ مخففة، أي أنه لا إلٰه، أي لا مَعْبُود بحقّ إلاَّ الله، والإقرار بالرسالة، شرط في صحّة الشهادة بالوحدانية. فلا يصح الدخول في الإسلام إلاَّ بهما في فور واحد، وهما واجبتَانِ مرَّة في العُمُرِ مع اعتقادِ الاستمرار. وقيل: يجب تجديدها عند المَوْتِ مع الإمكان. فمن أمْكَنه ذلك ولم يَقُلْ مات عَاصِياً. وفيه نظر، قاله المصنف في شرح الوغليسية.

فائدة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال حِين يُصبح أو حِينَ يُمْسي: اللَّهُمَّ إنِّي أصْبَحْت أشهدك وأشْهَد حمالة عَرْشِكَ وملائكتك، وجميع خلْقِكَ، أنك أنت الله لا إلٰه إلاَّ أنت، وأن محمّدا عَبْدك ورسولك، أعتق الله رُبُعَه من النار، ومن قالها مرَّتين أعتق الله نِصْفَه، أو ثلاثاً، أعْتق الله ثلاثة أرباعِهِ، وإن قالها أرْبعاً أعْتقه الله من النَّار». رواه الترمذي وغيره. زاد النسائي: وغَفَر الله له ذنوب ذلك اليوم أو تلك الليلة.

ثم قال رضِيَ الله عنه: «ثَبِّتْنَا يا ربُّ بِقَوْلِهَا» ثلاثاً، أي ثَبّتْنا على ذِكرها ومكّنها من قلوبنا عند هيجان الفِتَنِ ومُصَادمَة الأهوال، فلا نفتتن عنها ولا نتوقف عند السؤال عنها، وهي القوْل الثابت، المعني بقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: الآية 27] قيل: في الحياة الدّنيا: عند الخاتمة، وفي الآخرة: عند السؤال.

وقال البيضاوي: يُثبت الله الذين آمَنُوا بالقول الثّابت، الذي ثبت بالحجّة عندهم، وتمكّن في قلوبهم في الحياة الدنيا فلا يزالون إذا افتتنُوا في دينهم كزكرياء ويحيى، وجريج وشمعون، والذين فتنهم أصحاب الأخدود، وفي الآخرة فلا يتلعثمون إن سُئِلُوا عن معْتقدهم في المَوقف ولا تدهشهم أهْوال القيامة. ورُوي أنه عليه الصّلاة والسّلام ذكر قبض روح المؤمنين فقال: «تعاد رُوحه في جَسَدِهِ فيأتيه ملكان، فيجلسانهِ في قَبْره ويقولان: مَن ربّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟ فيقول: ربّي الله، وديني الإسلام، ونبيّي محمد عليه السلام. فيُنَادي مُنَاد من السّماء: أن صَدَق عبدي، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: الآية 27] هـ.

ثم قال: «وانفَعْنَا يا رَبِّ بِفَضْلِهَا» النَّفع بها يكون في الدّنْيَا بالحرز من الشيطان وجنوده وبعصمة الدِّماء والأموال، وبتثبّتِ القَدَم في مواطن الفِتَن والأهوال، وفي الآخرة عند السُّؤال وعند اللقاء بجزيل الأجْر والنَّوَال. ثم قال: «واجْعَلْنَا مِنْ أخيار أهْلِهَا» أي من أفْضل مَنِ التزمها وتحقق بها. فكان أحق بها وأهلها. وقوله: أخيار، جَمْع خُيِّر بتشديد الياءِ: وهو الكثير الخَيْر، ويجمع أيضاً على خيار. قاله في القاموس.

ثم قال: «آمِين آمِين آمِين آمين رَبِّ العالمينَ» ثلاثاً. عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما حَسَدَتكُم اليهود على شيْءٍ إنما حسدتكم على الإسلام والتأمين»، رواه ابن ماجه بإسناد صحيح.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كُنَّا عند النَّبِيّ ﷺ جُلُوساً فقال: «إنَّ الله أعْطاني خِصَالاً ثلاثاً، أعْطاني صَلاَة في الصفوف، وأعْطاني التحية، وإنَّها لتحيَّة أهل الجنَّة، وأعْطاني التَّأمينَ، ولَمْ يُعطها أحدٌ من النبيئين قبلي، إلاَّ أن يكون الله أعْطاه هارون، يَدْعو مُوسَى، ويُؤمّن هارون» رواه ابن خزيمة في صحيحه.

وقال ﷺ: «ما حَسَدَتْكُمُ اليَهُودُ على شيْءٍ ما حسدتكم على آمين. فأكثروا من قول آمين».

وعن أبي مصباح المقرائي، قال: كُنَّا نجلس إلى أبي زُهَير النّصَيْري، وكان من الصَّحابة، يحدّث أحْسَن الحديث، فإذا دعا الرَّجل منَّا قال: اخْتِمَن بآمين. فإنَّ آمين مثل الطَّابع على الصحيفة.

قال أبو هريرة: أُخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة يَمْشي،

فأتيْنَا على رَجُل قد ألحّ في المسألة، فوقف النبي ﷺ يَسْمع منه فقال النبيّ ﷺ: «وجب إن ختم» فقال رجُلٌ من القَوْمِ: بأي شيءٍ يَخْتم؟ فقال: «بِآمِين. فإنَّهُ إن خَتَم بآمين فقد أوْجَب». فانصرف الرجلُ الذي سأل النبيّ ﷺ فأتى الرجل فقال: أخْتم يا فُلان بآمين، وأبْشِرْ. رواه أبو داود.

وقال النبيّ ﷺ: «لا يجتمع مَلأ فَيَدْعو بعضهم ويُؤمّن بعضهم إلاَّ أحبّهم الله» رواه الحاكِمُ.

«آمين» بمَدٍّ وتقصير، وتشديد الميم، لغة، قيل: هو اسمُ الله تعالى. وقيل معناه: اللّهُمَّ اسْتَجِبْ، أو كذلك فاعل، أو كذلك فليَكُنْ. قاله في التّرغيب، ثم قال رضِيَ الله عنه: «أَصْبَحْنَا في حِمَاكَ يا مولانَا، مَسّنَا في رِضاكَ يا مولانا»... الخ. أوّل الجملة إقرار واعتراف بالنِّعم على جملة المُبَالغة والتعظيم؛ فهو من أنواع الشكر الموجب للمزيد. وآخِر الجملة دُعاء وتوسّل، بعد الاعتراف بالحاصل فهو أرْجَى للقبولِ، أو بلوغ المأمول. ويصحّ أن يَضبط بِكَسْرٍ فيكون دُعَاء أيضاً.

قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ داعٍ يَدْعُو إلاَّ اسْتَجابَ الله له دَعْوَتَهُ أو صَرَفَ عنه مِثلها سُوء، أو حَطّ من ذُنُوبه بِقدرها، ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رَحِم» هـ. وحِمَى الله سُبْحانه: هو مكان حفظه وكلاءَته ورِعايته. فلا يقدرُ أحَد على هَتْكه وحقارته، فإذا أصْبَحَ العَبْد معافى في جسمه، آمناً في سربِهِ، فقد بات في حِفْظِ الله وحماه، فيجبُ عليه الشكر والاعتراف. وأما رضى الله تعالى للعبد، فهو توفيقه في الدّنيا لطاعته، مع عصْمَته من مخالفتهِ وإسكانِهِ في الآخرة دار النّعيم، وإتمامه بالنظر إلى وجهه الكريم، مع المنعم عَلَيْهم من النبيئين والصدّيقين والشهداء والصّالحين. لا حَرمنا الله من ذلك آمين، بجاه سيّدنا ومولانا محمد ﷺ سيّد الأوّلين والآخرين. وقوله: «مَسّنَا» هكذا في النُّسخ بتشديد السين مُضعّفة وهو لغة، ويقال في السماءِ أمسينا بالأخبار، وصحبنا بالطلبِ.

ثم قال رضِيَ الله عنه: «لا إلَهَ إلاَّ أَنْت واحِد، ربَّنَا يا مجمّعنا اغفِرْ ذنبنا آمين... الخ» أي لا معيد لنا سواك، ولا مطلوب لنا إلاَّ حماك. وقوله «واحد»، قال في شرح الوَغْليسية: يعني واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، فهو واحد لا من واحد، ولا إلى واحد، ولا على واحد في ذاتِهِ، لا ينقسم ولا يتجزّأ، ولا يَحُلّ في محلٍّ واحد في صفاته، لا يشَبَّه ولا يُمثّلُ ولا يُنَاظرُ، واحِد في أفعاله لا يُعاند، ولا يُضَاهى ولا يُضادَدُ. هـ.

وقوله: «واحد» خَبَر عن مبتدأ مضمر، وربُّنا خبر بعد خَبَر. وقوله: «يا مجمّعنا،

مُبَالغة في الجمع. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: الآية 9] وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ⁽٩⁾﴾ [آل عِمرَان: الآية 9] .

ثم قال رضِيَ الله عنه: «اغْفِرْ لنا ما مَضَى، وأصْلِحْ لنا ما بَقِيَ بحُرمَة الأبرار، يا عالِمَ الأسْرار» قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أحْسَنَ فيما بقي غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بَقِي أُخِذَ بما مَضَى وبما بَقِيَ» رواه الطبراني.

وقوله: «ما بَقِي»، الكَسْر هو الأصل، ويصح فتح القافِ، وإبْدال الياء ألفاً، كما هو منصوص عند أئمّة التّصريف، وهو هنا أولى. والأبرار: جمع بر وبَارّ كأرباب وأصحاب، والبَرّ: هو المُحْسِن، وهو في الخَلق مَنْ تُنَال منه أعمال البِّر. ويُقال: البر من لا يؤذي الجار، وإن شئت قلت: البَر من كان سبحانه به باراً، فعَصَم من المُخَالفات نفسه، وأتاه بفنون اللطائف أنسه طيب فؤاده، وحصل مراده، ووفق في طريق اجتهاده. جعل التوفيق زاده، وجعل قصده سداده، ومُبْتغاه رشَادَه، وأغْنَاهُ عن أشْكَالِهِ بإفضالِهِ، وحماه عن مخالفته بيُمْن إقباله، فهو غَنِيّ بلا مَالٍ، وحدد تشهده في زي مسكين وهو بربّه عزيز مكين. قاله في التحبير.

ثم قال رضِيَ الله عنه: «يا عَالِمَ السِّرِّ مِنّا لا تَكْشِفِ السِّتْرَ عنّا. . . الخ»، قال في الإحياء في صفة العِلم: وإنه عالم بجميع المعلوماتِ، محيط بما يجري في تخوم الأرض إلى أعلى السماوات ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ⁽٣⁾﴾ [سَبَإ: الآية 3] يعلم ذبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويدرك حَرَكة الطَّير في جوّ السّماء، ويعلم السّر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وخفيات السّرائر، بعلم قديم أزلي، لم يزل موصوفاً به في الأزل الأول، لا بعلم متجدد حاصل في ذاتِهِ بالحولِ والانتقال. هـ.

ثم قال رضِيَ الله عنه: «يا مَولاَنَا يا مُجِيبُ، مَنْ يَرْجوكَ ما يخيب. اقْضِ حاجَتَنَا قريباً يا حَاضِراً لا يَغيبُ. . . الخ» ليس هذا في النُسَخ المعتمدة ولم يذكرها في مِرْآة المحاسِن. قولُهُ: اقْضِ حاجَتَنَا قريباً، منصوب على الظرفية، ومَن سكّنه فعلى لغة ربيعة. وقوله: يا حاضراً، يصحّ فيه البناء والنَّصْبُ. ورجَّح ابن مالك الأول ورجَّح غيره الثاني. قال في التَّسهيل: ويجُوز نَصْب ما وصف من معرف بقصد وإقبال. قال الدماميني: كقوله عليه الصلاة والسلام في سجوده: يا عظيماً يُرْجَى لكل عَظِيم. وقال الشاعر:

أَدَاراً بِجَزْوَى هيَّجتْ للعَيْن عِبْرَة   فماء الهوَى يرفضُ ويترقرقُ

ثم قال بعد كلام: ومعتمد المصنف في هذه المسألة، حِكاية الفراء في النكرة المقْصُودة، المناداة المَوصوفة، أن العربَ يؤثرون نَصْبَها على رَفْعها، وأنهم إذا أفردوا رفَعُوا أكثر مما يَنْصِبُونَ، ولم يُوافقه المصنف على إيثار النَّصْبِ على الرَّفْعِ ولا على النَّصْبِ بدون الصِّفَةِ. هـ. المُحتاج منه.

وقال في التصريح: وأما يا عَظيماً يُرْجى لكل عَظيم، ويا حَليماً لأن يُعَجِّل، ويا لطيفاً لَمْ يَزَلْ، فقالَ المُوَضِّحُ: ليست الجملة نَعْتاً لما قَبْلها، وإنما هي في موضع الحال مِنَ الضَّمير المُسْتتر في الوَصْف. وهو المخاطبُ بالنداءِ. وعامل الحال هو عامِل صاحبها والمنادى مَنصُوب كما في: يا طَالِعاً جَبَلاً، ولك في حَرْف المُضَارعة اليَاء والتَّاء. هـ.

قلتُ: والذي يَظْهَر من الوجْهَيْنِ: النَّصْبُ. وأما ما يُزاد من قولهم: أسْلُك يا سلام المَوْتِ على الإسلام، فمحضُ زيادة أيضاً.

ثم قال رضي الله عنه: «اللّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ على سَيِّدنا مُحمَّدٍ وبَارِكْ على سيِّدِنا محمَّد وعلى آلِ سيّدنا مُحَمَّدٍ» ثلاث أو خَمْس إلى عَشْر. قد تقدم في فضلها ما فيه كفاية.

وقوله: «اللَّهُمَّ صَلِّ» أيْ زِدْه تشريفاً وتكريماً. وقوله: «وسَلِّم» أي زِدْه تأميناً وطيب تحية وإكرام. وقولُه: «وبَارِك» أي أفض بركات الدِّين والدُّنيا، أي أدِم ما أعْطيْت مِنَ التشريف والكرامة والبركة كثيرة الخَيْر والكرامة، ونماؤهما والزِّيادة منهما، أو غير الثبات على ذلك، أو هي التَّطهير والتزكية من المَعَايب، أو هي الزِّيادة في الدِّين والذرية.

ثم قال رضِيَ الله عنه: «وسَلامٌ على المُرْسلينَ والحمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين» مرّة. قد تقدَّم في خَتْمِ الوظيفة شرحها.

ثم قال رضِيَ الله عنه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ① ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ⑦﴾ [الفاتحة: الآيات 1-7] ثلاثاً.

(س) عَنْ أبي هُريرةَ رضِيَ الله عنه: أنَّ رَسُول الله ﷺ خَرجَ على أُبَي بن كَعْب، فقال: «يا أُبَي، وهو يُصَلِّي، فتابع أُبَيْ ولَمْ يُجِبْهُ. فخَفَّفَ ثُمَّ انْصَرَفَ إلى رسول الله ﷺ فقال: السلامُ عليك يا رسُولَ الله. فقال الرَّسول ﷺ: وعليك السَّلاَمُ. ما مَنَعَك يا أُبَيْ أنْ تُجِيبَنِي إذ دَعَوْتُكَ؟ فقال: يا رسُول الله إني كُنتُ في الصَّلاة. قال: أفلم تجد فيما

أُوحِيَ إليَّ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: الآية 24] قال: بَلَى. ولا أعُود إن شاء الله. قال: أتُحِبّ أن أُعَلِّمكَ سُورَة لَمْ تَنْزِل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزَّبُورِ ولا في الفُرْقانِ مِثْلَها، قال: نعم يا رسُول الله. فقال رسول الله ﷺ: كَيْف تَقرأ في الصَّلاة؟ قال: فأقرأ أُمّ القرآن. فقال رسول الله ﷺ: والَّذي نَفْسي بِيَدِهِ ما أَنْزَلَ الله في التَّوراة ولا في الإنجيل ولا في الزّبور ولا في الفُرقان مثلها، وإنها سَبْع مِن المَثَاني في القرآن العَظيم الذي أُعطيته» رواه الترمذي وغيره.

وعن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال تعالى: «قسَمْت الصَّلاة بَيْني وبَيْنَ عَبْدِي، نِصْفَها لي ونِصْفُهَا لعَبْدي، فإذا قال العَبْد: الحمْد لله رب العالمين، قال الله: حَمَدَنِي عَبْدِي. فإذا قال: الرَّحمٰن الرَّحيم، قال: أثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. فإذا قال: مَالِكِ يومِ الدِّين. قال: مَجَّدَني عبدي، وإذا قال: إيَّاك نَعْبُدُ وإيَّاك نَسْتَعِينُ، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. وإذا قال: اهْدِنا الصِّراط المُسْتقيم صِراط الذين أنْعَمْتَ عليهم غير المَغْضِوبِ عَلَيْهِم ولا الضَّالِّين، قال: هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سأل».

قولُهُ: قَسَمْتُ الصلاة، يعني القراءة، بدليل تفسيره بها. وقد تُسَمَّى القراءة صلاة لكَوْنها جزءًا من أجزائها. قاله في التَّرْغيب. البيضاوي: تسمَّى الفاتحة وأُمّ القُرْآن لأنها مفتتحه ومبدأه، فكأنها أصْله ومنشأه، ولذلك تسمَّى أساساً أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثنَاءِ على الله والتعبّد بأمره ونَهْيِهِ، وبيان وعده ووعِيدِهِ، أو على جُمْلة معانيه من الحِكَم النظرية والأحْكَام العملية التي هي سلُوك الطريق المُسْتقيم، والاطّلاع على مَرَاتِب السعداء، ومنازل الأشقياء. وتُسمَّى سورة الكَنْز، والوافية، والكافية لذلك. وسورة الحمد والشُّكْر والدّعاء وتعليم المسْألة لاشتمالها عليها. وتسمَّى الصَّلاة لوُجُوب قراءَتِها. والشافية والشّفاء لقوله ﷺ: «هِيَ شِفَاء لكل دَاءٍ». والسَّبْع المَثَانِي لأنها سَبْع آيات بالاتفاق، إلاَّ أنَّ منهم من عَدَّ السَّبْعية دون أنْعَمْتَ عليهم، ومنهم من عَكَسَ وثنى في الصَّلاة أو الإنزال إنْ صحَّت أنها نزلت بمَكَّة حين فرضت الصَّلاة. وبالمدينة حين حُوِّلت القبْلة، وقد صحّ أنها مكية، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: الآية 87] وهي مكية بالنص. هـ.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة: الآية 1]، اخْتَلف في كونها من الفاتِحة، فذهب قُرَّاء مكَّة والكوفة وفقهاؤهما وابن المُبارك والشَّافعي إلى أنها منها، أي من الفاتحة. وذهَبَ قرَّاء المَدينة والبُصْرة والشَّام وفقهاؤهما ومالك والأوزاعي وأبو حنيفة إلى أنَّها ليست منها، ولكُلِّ واحدٍ مِنَ القولين دليل يُنْظَرُ في المُطوَّلات. وقد تقدَّم الكلام عليها أوَّل الكتابِ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 2] الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري من نِعْمَة أو غيرها، وإن شئت قلت هو الثناء بالجميل سواء تعلّق بالفضائل أم بالفواضِلِ، والفواضِلِ جَمْع فضيلة، وهي الصفات. والفواضِلِ جمع فاضِلَة، وهي الأفعال والشكر مقابله النِّعْمَة، قولاً وعملاً واعْتِقاداً، والحمد مبْتدأ، وأصْله النّصْبُ، وقريء به لأنه من المصادر التي تُنْصَب بأفعال مُضْمَرة لا تكاد تُسْتعمل معها. وإنما عدل إلى الرَّفع ليدلّ على عُمُوم الحَمْد وثباته دون تجدّده وحدُوثه، والخبَر لله، وألْ فيه للجِنْسِ أو الاسْتِغراق، أي الحمد كُلّه لله، أو جميع المحامد كُلُّها مُخْتَصَّة به سُبْحانه، إذ ما مِنْ خَيْر إلاّ وهو مُلِيه بواسطة أو بغير واسطة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية 53].

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 2] الرّب في الأصل بمعنى التربيَة، وهو تبليغ الشَّيْء إلى كمالِهِ شَيْئاً فشيئاً، ثم وُصف للمُبَالغة، كالصَّوْم والعَدْل، وقيل: هو نَعْت من ربَّه يَرُبُّه فهو ربّ. كقولك: نَمّ يَنُمُّ فهو نَمّ. سُمّي به المالك لأنّه يحفظ ما يَمْلكه ويُرَبِّيه، ولا يُطلق على غيره تعالى إلاّ مقيداً كقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسُف: الآية 50] والعَالم اسم لِمَا يُعْلم به، كالخاتم والقالب، غلب فيما يعلم به الصَّانع، وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لا مكان لها لافتقارها إلى مؤثر واجب لذاتِهِ تدل على وُجوده وإنما جَمَعَه ليشمل ما تحته من الأجْنَاس المختلفة وغلّب العُقَلاء منهم من جمعه بالياءِ والنُّونِ كسائر أوصافهم. قاله البيضاوي.

وفي هذا الجمع إرْشاد وتنبيهٌ على باهِرِ قُدْرته حيث أوْجَد هذه العوالِم المتكاثرة الخارجة عن الحَصْرِ التي إن تأمّل المُتأمّل في أجناسِهَا وأنواعها وأصنافها وآحادها، لم يسعْه لذلك عمره.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿رب العالمين﴾ قال: الإنْسُ عَالَمٌ، والجِنّ عالَمٌ وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عَالَم من المَلائكة والأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف وخمسمائة عَالَم، خلقهم لِعبادتِهِ.

وعن وهب بن مَنَبّه قال: إنَّ لله عزَّ وجلَّ ثمانية عشر ألْف عَالَم، الدّنيا منها عَالَم واحِدٌ. هـ.

وقُرِيء «رَبَّ العَالمين» بالنصب على المَدْح أو النّداء، وفيه دليل على أن المُمْكِنات كما هي مفتقرة إلى المحدث حال حُدُوثها هي مفتقرة إلى المُبْقِي حال بقائها.

﴿الرَّحمٰن الرَّحيم﴾ قيل: الرَّحْمٰن بِنِعْمَةِ الإيجاد. الرَّحيم بِنِعْمَةِ الإمْدَادِ. ولذلك

لا يُسَمَّى بهما إلاَّ الحقُّ سُبْحانَهُ. ومن تَسَمَّى بهما هُلِكَ، وإنما جاز تسمية الخَلْقِ بالثاني مجازاً لأن مجاز الإمداد يَصِحُّ منهم. وقيل: الرَّحمٰن بجلائل النِّعَم. والرَّحِيم بما دقّ منها، فهو كالتَّتِمَّة والرَّدِيف. وانظر بقية الكلام عليهما في أوَّل الكتاب في البَسْمَلة. قال بعض المُحَقّقين: الأصل في الصّفة للشيء الواحِدِ، ألاَّ يُعْطف بعضها على بعضٍ كما هنا، وكما في قوله: «المَلِكُ القدوسُ... الخ» لاتحادِ مَحَلِّها وإنَّما خُولف في ذلك في قوله: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن» لأنَّ كلَّ اثنين منهما ثقيلان بحَسَبِ أصْلِ الوَضْعِ، فَرُفِعَ تَوَهُّم احْتِمَال اجتماعِهما بالعَطف ولذلك عظمت الثامنة في ثيبات وأبْكاراً، وفي الآمِرُونَ بالمَعْروفِ والنَّاهُونَ عن المُنْكَرِ، لأنَّ مطلوبَ الأمْر إيجاد، والنَّهي عدمٌ، وخُولف في غافِرِ الذَّنْبِ وقابِلِ التَّوْبِ، إشارة إلى أن محلَّ الأول غير الثاني. إذ المعنى أنّه يَغفرُ الذّنُوب لمن تابَ مصراً ولم يتب، وأما من قُبِلت توبته فمغفور له بلا إشكال. هـ.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: الآية 4] أي يوم الجَزَاء والحِسَابِ، وهو يوم القيامة. ومنه: كما تَدِينُ تُدانُ. وإنما خُصَّ بالذِّكْرِ إمَّا لتَعْظِيمِهِ أو لتَفَرُّدِهِ تعالى نفوذ الأمر فيه. فلا مُلْكٌ ظاهِرٌ فيه لأحَدٍ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية 16] قال سيدي ابن عبَّاد رضي الله عنه في رسائِلِهِ الكُبْرى في أثناءِ الكلام بظواهِرِ الأشيَاء، وإنَّما العِبْرَة بالسِّرّ المَكْنُونِ وليس ذلك إلاَّ بظُهُور الحقّ وارْتِفاع غطائِهِ وزوال إستتاره وخَفَائِهِ، فإذا تحقق ذلك التَّجلِّي والظهور واستولى على الأشياء العناء والدّثور، وانقشعت الظلمات بإشْرَاق النُّور فهناك يَبْدُو عَيْنُ اليقين، ويحق الحق المبينُ، وعند ذلك تَبْطل دعوة المُدَّعين كما يفهم العامَّة بُطلان ذلك في يوم الدِّين، حتى يكونُ المُلْك لله ربِّ العالمين، وليْتَ شِعْري أيُّ وقتٍ كان المُلْكُ لسوَاهُ حتى يقع التقييد بقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحَجّ: الآية 56] وقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفِطار: الآية 19] لولا الدَّعاوى العريضة مِنَ القُلُوب المريضة. هـ.

وقرىء مَالِك بالألِفِ مِن المِلك بالكَسْر، وهو كما قال بعض المحققين: القدرة على الإبداع والإنشاء، فتكون الأشياء كلها على هذا، فلا مالك على الحقيقة إلاَّ الله، وإن كان العَبْد يُوصف بأنه مالك حقيقة شرعاً فذلك مَجَازٌ لُغَوِي، وقُرِىءَ مَلِكِ بالحذف وهو المختار لأنه قراءة أهل المدينة، ولأنَّه أبلغُ: لأنَّه مِنَ المُلْكِ بالضَّمِّ، وهو كون الشخص مَلكاً أي سيّداً رئيساً مُتصرّفاً بالأمْرِ والنَّهي، وليس ذلك أيضاً على الحقيقة إلاَّ الله، وما لغَيْره بتمليكه وجعله ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 26] ولأنَّها لا تقتضي حَذْفاً، والأُخرى تقتضيه. إذ التقدير: مالك الأمْرِ، أو مالكِ مجيء يوم الدِّين.

البيضاوي: وإجْراءُ هذه الأوصاف على الله تعالى مِن كونه موْجِد العالمين، وبأنه مُنْعم عليهم بالنِّعَم كلها، ظاهرها وباطنها، عاجِلها وآجِلها، مالكاً لأُمورهم يوم الثواب والعقاب، للدَّلالَة على أنه الحقيق بالحَمْدِ، لا أحد أحقّ به منه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، فإنْ ترتُّب الحكم على الوَصْف يشعر بعليته وله الإشعار بطريق المَفْهُوم على أنَّ مَن لم يتَّصِف بتلك الصفة، لا يستأهل لأن يُحْمَد، فضلاً عن أن يُعْبَد، ليكون دليلاً على ما بعده. فالوصف الأول لبيانِ ما هو المُوجب للحَمْدِ، وهو الإيجاد والتَّرْبية. والثاني والثالث للدِلالة على أنّه متفضّل بذلك، مختار فيه ليس يَصْدُرُ منه الإيجاب بالذَّاتِ، أو وجوب عليه قضية لسوابق الأعمال حتى يستحقّ به الحمد. والرابع: لتحقيق الاختصاص، فإنه ممَّا لا يقبل الشركة فيه بوجْهٍ ما، وتضمين الوعد للحامدين والوعيد للمُعْرِضين. هـ.

وإن شئت قلت: أشار برَبِّ العالمين إلى نِعْمة الإيجاد، وبالرَّحمٰن الرَّحيم إلى نِعْمَة الإمدادِ، وبمَلِك يوم الدِّين إلى أنه المتولِّي العاقبة. ذلك الإيجاد والإمداد من فضل وَعْدِهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نخصّك بالعبادة وحْدَكَ. ﴿وإيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ أي لا نَطْلُب العَوْنَ إلاَّ منك. ثم إنّه لما ذكر الحقيقة بالحمْد، ووصف بصفات عظام، تميَّز بها عن سائر الذَّواتِ، وتعلم العلم بعلوم، خُوطب بذلك أي يا مَنْ هذا شأنُهُ، نخصُّكَ بالعبادة والاستعانة ليكون أدل على الاختصاص والتَّرقي من البُرْهان إلى العِيان، والانتقال بذلك من الغَيْبَة إلى الشُّهُود، وكان من المعلوم صار عياناً، والمعقول مشاهداً، والغيبة حُضوراً.

بَنى أول الكلام على ما هو مبَاديء، حال العارف مِنَ الذِّكر والفِكْر، والتأمّل في أسمائِهِ والنظر في الآية، والاستدلال بصَنَائِعِه على عظيم شأنِهِ وباهر سُلْطانه، ثم قفّى بما هو منتهى أمْره، وهو أن يخوض لجّة الوصول، ويصير من أهل المُشَاهدة، فيراهُ عِيَاناً ويُنَاجيه شفاهاً. اللَّهُمَّ اجْعَلنا من الواصلين إلى العَيْنِ دُونَ السَّامعين للأثر، ومِن عادة العَرب التَّفَنّن في الكلام والعُدُول عن أُسلوب إلى آخِرِ نظرية، وتنشيطاً للسَّامع فيعدل مِنَ الخطاب إلى الغَيْبَة ومِن الغيبة إلى التَّكلُّم كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: الآية 22]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: 9]. انظر البيضاوي.

وعنه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُد﴾ والأصل إيَّاه. ثم التفت إلى الخطاب، لأنَّ الموصوف تعيَّن وصار حاضِراً. وقُدّم المفعُول للتَّعْظيم والاهتمام به، والدلالة على الحَمْدِ. ولذلك قال

ابن عباسٍ: نَعْبُدُ ولا نَعْبُد غَيْرِكَ. ولتقديم ما هو مُقَدّم في الوجود، وهو المعبود، ولا تنبيه على أنَّ العابِد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً، وبالذات ومنه إلى العبادة، مِن حيث أنَّها عِبادة صَدَرت عنه، بل من حيث أنَّها نسْبة شريفة إليه ووصلة بينه وبين الحق، فإنَّ العارف إنما يحقّ وصوله إذا اسْتغرق في مُلاحظةِ القدس وعزب عمَّا عَدَاهُ حتى أنّه لا يُلاحظ نَفْسَه ولا حالاً من أحوالها إلاَّ من حيث أنَّها ملاحظة له ومنسوبة إليه، ولذلك فضَّل بما حكى الله عن حبيبه حين قال: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبَة: الآية 40] على ما حكَاهُ عن كَليمه حيث قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشُعَراء: الآية 62] أي حيث طرح بمطلوبه. وكرَّرَ الضمير في قوله: ﴿وإيَّاك نَسْتَعِين﴾ لأنه أبْلغ في إظهار الاعتماد على الله وأقطع في إخْضار التعلق به والإقبال عليه وأمْدح. ألا ترى أن قولك: بِكَ أنْتَصِر، وبِكَ أخْتَمِي، وبِكَ أنال مَطالبي، أبْلَغ وأمْدَح من قولك: بِكَ أنْتَصِرُ وأخْتَمِي وأنال... الخ. وقدَّم العبادة على الاسْتِعانة ليوافق رؤوس الآي، وليُعْلم منه أنَّ تقديم الوسيلة على طَلَب الحاجة أدْعى إلى الإجابة، فإنَّ مَنْ تَلَبّس بخدْمَة المَلك وشرَع فيها بحسب وُسْعِهِ ثم طلب منه الإعانة عليها، أُجيب إلى مطلبه بخلاف من كلَّفه الملك بخدمته. فقال: أعْطيني ما يعينني عليها، فهو سوء أدب.

وأيضاً: مَنْ اسْتحضر تلك الأوصاف العِظام، ما أمْكنه إلاَّ المُسَارعة إلى الخضوع والعبادة.

وأيضاً: لمَّا نَسَب المتكلّم العبادة إلى نَفْسِهِ أوْهَم ذلك تَبْجِيحاً واعتداداً منه بما يصدر عنه فعَقَّبهُ بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتِحَة: الآية 5].

وقال الشيخ أبو العبَّاس المِرْسي رضي الله عنه: «إيَّاك نَعْبُدُ شريعة، وإيَّاكَ نَسْتَعين حقيقة». إيَّاكَ نعبد إسْلامٌ، وإياك نَسْتَعين إحْسانٌ. إيَّاك نَعْبُد عِبادَة، وإيَّاك نستعين عُبُودية، إيَّاك نَعْبُدُ فَرْقٌ، وإيَّاك نَسْتَعين جَمْعٌ. والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل منه طريق معَبَّد، أي مُذَلل، ولذلك لا يُسْتعمل إلاَّ في الخُضُوع لله تعالى، والاسْتِعاذة: طَلَبُ المَعونَة. وانظر البيضاوي. والمُراد: طَلَبُ المَعونَة في المهمات كلها لا في أداءِ العبادات فقط. والضَّمير المُسْتتر في الفِعْلَيْنِ للقاريء ومن معه من الحفظة. وحاضري صلاة الجماعة، أوْلَه ولسائر الموحِّدِين، أدْرج عبادته في تضاعيف عبَادَتهم وخلط حاجته بحاجَتِهِم. لعلها تُقْبَل ببرَكَتِها ويُجابُ إليها. ولهذا شرعت الجماعة. قاله البيضاوي.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتِحَة: الآية 6] هذا بيانٌ للمعونة المطلوبة كأنّه قال: كيف أُعِينُكُمْ؟ قالوا: إهْدِنا الصراط المستقيم، أو إفراد لما هو المقصود الأعْظَمُ.

والهداية: الدّلالة بلطف، ولذلك تستعمل في الخَيْر. وقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ [الصّافات: الآية 23] إلى صِرَاطِ الجحيم، على التّهَكّم. والفعل منه هدى. وأصله أن يُهْدى باللاّم أو إلى، فَعُومِل معاً معاملة اختيار في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: الآية 155] وهداية الله تعالى تتنوّع أنواعاً لا يُحْصيها عَدٌّ، لكنها تنحصر في أجْنَاس مرَتّبة.

الأول: إضافة القوى التي بها يتمكّنُ المَرْء من الاهْتِداء إلى مَصَالِحِه كالقوة العقلية، والحواسّ الباطنية، والمشاعر الظاهرة.

والثاني: نَصْب الدّلائل الفارقة بين الحقّ والباطل، والصّلاح والفاسد، وإليه أشار حيث قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: الآية 10] وقال: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصّلت: الآية 17].

والثالث: الهداية بإرسال الرُسُلِ، وإنزال الكتب، وإيّاها عَنَى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: الآية 73] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: الآية 9].

والرّابع: أن يكشف عن قلوبهم السّرائر، ويُرِيهم الأشياء كما هي بالوَحي والإلهام والمنامات الصادقة، وهذا القسم يختصّ بنَيْلِهِ الأنبياء والأولياء، وإيّاه عَنَى بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام: الآية 90] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العَنكبوت: الآية 69]. فالمطلوب إما زيادة ما مُنِحُوه من الهُدى والثبات عليها، أو حصول المراتب المترتبة عليه، فإذا قاله العارف الواصل عَنَى به: إرْشِدْنا طريق السّير فيك لتَمْحُو عنا ظلمات أحوالنا، وتميط غواشِي أبداننا، لنسْتضيء بنورِ قُدْسك فنراك بِنُورِكَ» هـ قاله البيضاوي.

وقال الشيخ أبو العبّاس المرسي رضي الله عنه: اهْدِنا الصّراط المُسْتقيم، بالتّثَبْت فيما هو حاصِلٌ والاسْترشاد بما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين. والصالحون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم، معناه: نسألك التثبّت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصِلٍ. فإنه حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء، والشهداء يقولون: إهدنا الصراط المستقيم، أي بالتثبت فيما هو حاصل، والاسْترشاد إلى ما ليس بحاصِلٍ، فإنه حصل لهم درجات الصّديقية، وفاتهم درجات القطب. والقُطب يقولون: إهْدِنا الصّرَاط المُسْتقيم، أي بالتّثَبّت فيما هو حاصل، والاسْترشاد إلى ما ليس بحاصلٍ، فإنه حصل لهم عِلْم رُتْبة القطبانية وفاتهم

علم ما إذا شاء الله أن يُطْلِعَهُمْ عليه أطْلَعَهم عليه هـ، من لطائف المِنَنِ.

والصّراط لغة: الطَّريقُ، مُشتق من سَرْطِ الطَّعَامِ: إذا ابْتَلَعَهُ كأنه يبتلع السَّبِيلة. وقلبت السين صاداً ليُطابق الطَّاءَ في الإطْبَاق. والمستقيم: المسْتوي الذي لا عِوَجَ فيه. والمراد به طريق الحقّ. وقيل: صلة الإسلام. وقيل: القرآن العَظيم، لأنه مشتمل على شرائع الإسلام.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: الآية 7] هذا تقييد وبيانٌ للصّراط المستقيم، أي ارْشدنا صراط الذين أنْعَمت عليهم من النَّبِيئين والصِّدّيقين والشُّهَداء والصَّالحين. البيضاوي: هو بَدلٌ من الأوَّلِ، بدل الكُلّ من الكلّ. وفي حكم تكرير العامل، من حيث أنه المقصود بالنسبة.

وفائدته: التوكيد، والتنصيص على أنَّ طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه، لأنَّه جُعِل كالتَّفسير والبيان فكأنه من البيان الذي لا خفاءَ فيه. إن الطريق المستقيم هو ما يكون طريق المؤمنين. وقيل: الذين أنْعَمْتَ عليهم: الأنبياءُ. وقيل: أصْحاب موسى وعيسى عليهما السلام قبل التَّحْريف والنَّسْخ.

وقُرِيء: صِرَاط مَنْ أنعَمت عليهم. والإنعامُ: إيصالُ النِّعْمَة، وهي في الأصل: الحالة التي يستلذّها الإنسان فأُطلقَتْ لما يستلذّهُ من نِعْمَة الإسلام، من النَّعْمَة، وهي التي بقوله تعالى: ﴿بَدَّلُوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرࣰا﴾ [إبراهيم: الآية 28]. ونِعَمُ الله وإن كانت لا تُحْصَى كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَاۤ﴾ [إبراهيم: الآية 34] تَنْحَصِرُ في جِنْسين: دُنْيوي وأُخْرَوي. والأول قسمان: موهبي وكَسْبِي. والموهبي قسمان: روحاني كَنَفخ الرّوح فيه وإشراقه بالعقل، وما يقويه من القوى كالفَهْم والفكر والنُّطق. وجسماني كتخليق البَدَن والقوى الحالّة فيه. والهَيْئات العارضة له مِنَ الصِّحة وكَمَال الأعْضَاء. والكَسْبي: تزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والكمالات الفاضلة. وتزيين البَدَن بالهيئات المطبوعة، والحلي المستحسنة، وحصُول الجاه والمال. والثَّاني: أن يغفر ما فرط منه ويرضى عنه، ويبوئهُ في أعلى علّيّينَ مع المَلائكة المُقرَّبين أبَد الآبدينَ. والمراد: هو القسم الأخير. فإنَّ ما عدا ذلك، يشترك المُؤمِن والكافر.

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: الآية 7] أي ارشدْنَا صراط غير من غضبْتَ عليهم؛ وهم اليهود، لقوله تعالى فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: الآية 60]. ﴿ولا الضَّالين﴾ أي ولا طَريق الضَّالين، وهم النَّصَارى، لقوله: ﴿قَدۡ ضَلُّوا۟ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرࣰا﴾ [المائدة: الآية 77] وقد رُوي مَرْفوعاً. وقيل المغضوب عليهم:

العُصَاة. والضَّالّون: الجاهلونَ بالله تعالى. فقوله: غير المغضوب عليهم، بدل مِنَ الَّذِين، على معنى أنَّ المُنعم عليهم هم الذين سلموا من الغَضَب والضَّلال، وذلك إنَّما يصحُّ بأحد تأوِيلَين، إجْراء الموصول مَجْرَى النَّكِرة، إذ لم يقصد به معهود، كالمحكي في قوله: ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني أو جعل غير معرفة؛ لأنه أُضِيفَ إلى ما له ضِدّ واحِدٌ وهو المُنعم عليه. فيتعين تعيين الحركة غير السُّكُون. قاله البيضاوي.

والغَضَبُ: ثَوْرانُ النَّفسِ إرادة الانتقام، فإذا أُسْنِد إلى الله تعالى، أُريد به المنتهى والغاية، وعليهم نائب الفاعل ولا مزيدة لتأكيد ما في غير من مَعْنَى النَّفيْ فكأنه قال: لا المغْضوب عليهم ولا الضَّالينَ. وقُرِيء شاذاً، وغير الضَّالين، والضَّلال: العُدُول عن الطَّريق السَّوي، عمداً أو خطأ، وله عَرْض عَرِيض. والتفاوت بين أدناهُ وأقصاه كثيراً. قاله البيضاوي. وإنما أسْنَد النِّعْمَة إلى الله والغَضَب إلى المَجْهول تَعْليماً للأدَبِ ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: الآية 79] الآية. ابنُ جُزَيْ: هذه السورة جَمَعَتْ معاني القرآن كلها، فكأنها نُسْخَة مُخْتَصرة منه، فالإلٰهيات حاصلة من قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتِحَة: الآيات 1-3] . والدَّار الآخرة من قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتِحَة: الآية 4] ، والعبادات كلها من الاعتقاد والأحكام التي تقتضيها الأوامر والنواهي من قوله: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والشريعة من قوله: ﴿الصِّرَاط المُسْتَقِيم﴾ والأنبياء وغيرهم من قوله: ﴿أنْعَمْتَ عليهم﴾ وذِكر طوائف الكُفَّار في قوله: ﴿غَيْرُ المَغْضُوبِ عليهم ولا الضَّالين﴾ هـ.

قُلْتُ: وعِلْمُ الحقيقة من قوله: ﴿وإيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ وقال الشيخ بن جمرة رضي الله عنه في بيان تَضَمُّنها لكتاب الله: إنَّ لفْظَ ﴿الحمد﴾ يتضمَّن كل ما في كتاب الله مِنَ الحَمْدِ والشُّكْرِ، لأنَّ الحمد أعَمّ مِنَ الشكر، وأتى بالعام ليدلّ على الصِّفتين. ولفظة الله يدل على ما في الكتاب العزيز من أسماءِ الترفيع والتَّعظيم لأنه قيل: إنَّه اسم الله الأعْظَم، ولفْظُ ﴿رب العالمين﴾ يدُلّ على ما فيه من أسمائه سبحانه، وعلى العوالم على اختلافها، وخلافها والتَّصرف فيها. ولفظ ﴿الرحمٰن الرحيم﴾ يتضمَّن كل ما في الكتاب من المغفرة والرَّحمة والإنْعَام والعَفْو والإفضال. ولفظ: ﴿مٰلك يوم الدِّين﴾، يدلّ على ما فيه من ذكر الآخرة وما فيه من الأهْوَال. ولفظ: ﴿إيَّاك نَعْبد﴾ تتضمَّن ما فيه من التعبّدات وإفرادِهِ تعالى بالألوهية، ولفظ ﴿وإيَّاك نستعين﴾ تتضمَّن ما فيه من طَلَبِ الاستعاذة. وذكر الاضطراب، ولفظ ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾، تتضمَّن ما فيه من طلب الهِدَاية إلى سبيل الخَيْر. ولفظ ﴿صراط الَّذِينَ أنْعَمْتَ عليهم﴾ تتضمَّنُ ما فيه من ذِكْر الخُصُوصِ والرِّضى عليهم، والعفو عنهم، وأهل السعادة. ولفظ ﴿غَيْر

المغضوب عليهم﴾ تتضمَّنُ ما فيه من أنواع المخالفات ومساوئهم وما لهم. فاستحقَّت أن تسمَّى أمّاً. هـ.

وفي الإحياء للغزّالي: وتفصيل ترجمة المعاني: أنك إذا قُلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة: الآية 1] فانوِ التَّبرُّك لابتِداءِ القراءة لكلام الله عزَّ وجلَّ. وافهم أنَّ معناهُ أنَّ الأمُور كلها بالله، وأنَّ المراد بالاسم ها هنا هو المُسَمَّى وإذا كانت الأمور كلها بالله سبحانه فلا جَرَم، كان الحمد لله، ومعناه أنَّ الشكر لله. إذ النّعم من الله، ومن يَرَى من غير الله نِعْمة أو يَقْصد غير الله لا مِن حيث كونه مسخَّراً ففي تَسْميته وتَحْميده نقصان بقدْرِ التفاتِهِ إلى غير الله عزَّ وجلَّ. فإذا قلت: ﴿الرَّحْمٰن الرَّحيم﴾، فأحْضِرْ في قَلْبِكَ أنواع لُطْفِ الله ليتَّضحَ لك رحمتُهُ فينبعث به رجاؤكَ. ثم أسِّس في قلبكَ التعظيم والخوف بقولك: ﴿مَالِكِ يوم الدِّين﴾. أمَّا العظمَة فلأنّه مُلْك الإله. أمّا الخوف فلِهَوْلِ يوم الجزَاءِ والحِسَابِ الذي هو مالِكُهُ. ثم جدِّدِ الإخْلاص بقولك: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاك نَسْتَعِينُ﴾ وتحقَّق أنّه ما تَيَسَّرتْ طاعَتك إلاَّ بإعانته وأن المِنّة له إذ وفَّقَكَ لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لِمُناجاته، ولو حَرَمَكَ التوفيق لكُنتَ من المطرودين فإذا فَرَغْتَ من التفويض بقولك: بسم الله، وعن التَّحميد، وعن إظهار الحاجة، إلى الإعانة، فلا تطلبْ إلاَّ أهمَّ حاجتك وقل: إهدنا الصراط المستقيم الذي يسُوقنا إلى جوَارك ويَفْضي بنا إلى مَرْضاتِكَ. وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً أو استشهاداً بالذين أفاضَ عليهم نِعْمَة الهِداية من النّبِيئين والصّدّيقين والشهداء والصالحين. دون الذين غَضِبَ عليهم من الكُفّار والزّائغينَ، من اليهود والنصارى والصابئين، ثم التمِسِ الإجابة بقول آمين. هـ. وقد تقدّم الكلام على آمين.

ثم قال رضي الله عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ⑤⑥﴾ [الأحزاب: الآية 56] أتى الشيخ رضي الله عنه بالآيَةِ الكريمة في خَتْم الوظيفة تيمُّناً وتَبرُّكاً وإظهاراً لامتثالِ أمْرِها، وإحْضاراً لصورة الأمرِ ليكون العمل أرْجَى قَبُولاً لكونه على وفْقِ أمْرِهِ، وملاحظاً هو فيه، وتحقيقاً لحصول معنى الصلاة بإيراد الأمر وامتثاله.

قوله: ﴿إن الله﴾ هو اسمٌ جامِعٌ للكبرَاءِ والعظمة والعِزّة. ﴿وملائكته﴾ هم أهل النّزاهة والقرْب والعِصْمة. ﴿يُصَلُّون﴾ أي يَعطفونَ. فالله يَعْطِفُ بِرَحْمته وملائكته، يعطفون باستغفارهم ﴿عَلَى النّبِيّ﴾ محمد بن عبد الله؛ المختصّ بالنُّبُوءة الكُلّية المُطْلقة. فلا يشاركه فيها أحد بشهادة قول مولانا تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: الآية 158] فأل في النّبيّ للعَهْدِ الذّهبي أو الحُضُوري، أي النّبي الحاضر بين أظْهُر المخاطبينَ.

وعن أبي عثمان الواعظ قال: سَمِعْت سهل بن محمد يقول: هذا التشريف الذي شرّف الله به تعالى محمداً ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: الآية 56] أتمّ وأجمع من تشريف آدَم عليه السلام، بأمر الملائكة بالسجود له، لأنّه لا يَجُوزُ أن يكون الله مع الملائكة فيه، فتشريفٌ يقدر فيه أبْلغ من تشريف تختصُّ الملائكة به عنه، وهو مَنْقَبة لم توجد لغَيْره، فهو أعظم من سُجُودِ الملائكة لآدَمَ، الذي وقَعَ وانقطع.

وقال أبو اللَّيث السَّمرقندي: إذا أردت أن تَعْرِف كَوْن الصَّلاة عليه ﷺ أفضل العبادات فانظر هذه الآية، فإن الله سبحانه أمر عباده بسائر العباداتِ، وصلّى عليه بنفسه أوّلاً، وأمر الملائكة بالصلاة عليه، ثم أمر المؤمنين إشارة إلى ما ذَكَرناه من الاقتداء والتخلّق، أي إذا كان ربكم سبحانه يُصَلّي عليه، فتخلّقُوا أنتم بذلك فصلُّوا عليه. وفيه إيذانٌ بعزازة قَدْر نبيه ﷺ وفخامة أمْرِه واستغنائه بصلاة الله وملائكتِهِ عليه عن صلاة غيرهم. ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: الآية 40].

ثم اختُلِف في معنى الصلاة، فقيل: الرّحمة والرّضوان مِنَ الله، والدّعاء والاستغفار من الملائكة والناس. وقيل: صلاة الله مغفرتُهُ، وصلاة الملائكة استغفار. وقيل: مِنَ الله رحمة مقرونة بالتعظيم ومن الملائكة استغفار ومِن الآدميين دُعاء، وكذا من الجِنّ.

وذهب جماعة إلى أنّ معنى الصلاة واحد، وهو العَطف، ثم هي من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين دعاء. واختاره في المغني. وورد قول الجماعة بأمور:

منها: اقتضاؤه الاشتِغفار والأصل عدمهُ.

ومنها: أنه لا يُعرف في العربية فعل واحد يختلف معناه باختلاف المُسْنَد إليه، إذا كان الإسناد حقيقياً.

ومنها: أنّ الرّحمة فعلها مُتعدّ والصّلاة فِعْلها قاصِرٌ. ولا يحسبن تفسير القاصِر بالمتعدي.

ومنها: أنه لو قال مكان ﷺ دعا عليه، انعكَسَ المعنى، وحق المترادفين صحّة حلول كل منهما محلّ الآخر.

ومنها: أنه يلزَمُ عليه جواز رحمة الله عليه هـ. وبُحِثَ معه في البَعْضِ.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: الآية 104] خِطَاب تشريف وتكريم هذه الأمّة بكرامة نَبِيّنا ﷺ من حيث نودُوا باسم الإيمان ونُسب فعله إليهم، وأُثبت لهم،

وقد نوديت الأمم الماضية في كتبها: بيا أيها المسكين. وشتان بين المخاطبين. والمراد بهذا الخطاب، لسائر المؤمنين به، المُكلَّفين بالدّخولِ في مِلَّتِهِ من الإنْس وغيرهم.

وقوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: الآية 56] هذا الأمر فيه تشريف لهذه الأمَّةِ أيضاً حيث أخبرهُم أنه يُصَلِّي هو وملائكته على نبيِّه ثم أمرهم بالمشاركة في ذلك والمُساهمة فيصلون معهم عليه ﷺ والأمْرُ في الآية حَمَلَهُ العلماء على الوجوب، وشذَّ ابن جرير الطبري فحمله على الاسْتِحباب. عيَّاض: ولعله أراد ما زاد على الواحِدَة، وإلاَّ فقد خالف الإجماع لانعقاده على وجُوبها في الجملة هـ. ثم اخْتُلِفَ في ذلك الوجوب على تسعة أقوالٍ:

أحدها: أنها تجِب في الجُمْلة وأقلّ ما يحصل به الجزاء مرَّة. وشهره القاضي أبو الحسن.

الثاني: أنَّه يجب الإكثار منها غير تقييد بعدَدٍ. وهو لابن كثير.

الثالث: تجب. للطحاوي وجماعة من الحَنَفية والشافعية. وحُكِي عن اللّخْمي من الملائكة. وقال ابن العربي: إنَّه الأحوط.

الرابع: في كلِّ مَجْلس مرَّة ولو تكرَّر ذِكْرهُ. حكاه الترمذي عن بعضهم.

الخامس: في كل دُعَاء.

السادس: أنها تَجِبُ في العُمر مرَّة في الصلاة أو غيرها. وهو للرَّازي من الحنفية.

السابع: تَجِبُ في الصَّلاةِ من غير تعيين المحَلّ. وهو من أبي جعفر.

الثامِنُ: تَجِبُ في التَّشَهُّد. للشَّعْبي.

التاسع: في التشهد الأخير، بين قول التَّشهد، وسلام التَّحليل. للشافعي. وقال به ابن المواز من المالكية وصححه ابن العربي في أحكامه.

وقولُهُ: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية 56] حكم السلام في الوجوب والاستحباب حُكْمُ الصلاة لاستوائهما في الأمْرِ بهما في الآية، أو المراد في التشهُّد. ومعنى السَّلام: السَّلامَة من النَّقائِص والآفاتِ. أو اسْمُ الله تعالى، أي الله حافظ عليك ومُتَوَلّ لك. والسَّلام بمعنى المُسَالمة والانقياد، وإنما أكَّد السَّلام دُونَ الصلاة لأنَّ الإخْبار بأن الله وملائكته يُصلُّون، أغْنَى عنه لدلالته على أنه من الشَّرَفِ بمكانٍ.

ثم امتثل أمر الله تعالى بقوله: «صَلَواتُ الله وسَلاَمُهُ وتحِيَّتُهُ ورَحْمَتُهُ وبَرَكاته على سيّدنا محمَّدٍ عَبْدك ونبيّك ورَسولِكَ النَّبِيّ الأُمّيّ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ عَدَدَ الشَّفْعِ والوَتْرِ، وكَلماتِ ربّنَا التَّامَّاتِ المُبَارَكاتِ».

قوله: «صلوات الله» جمع صلاة. قال سيدي العربي الفاسي يُستعمل اسم جِنْسٍ بمعنى نَفْس الرّحمة الخاصّة. وبمعنى المَصْدر الذي هو صُدُورها. والجِنْسُ والمَصْدَر حقيقة واحدة، لا تعَدّد فيها في الوجود، فلا تجمْع إلاّ باعتبار الأنواع والأحوال المتعددة، كالحلوم والأشغال، والرَّحمة الخاصة المفسر بها الصلاة أنواع وأحوال لا تنحصر. فجُمِعَتْ الصلاة هنا باعتبار ذلك، لتكون دالّة على تَحْصِيل تلك الأنواع والأحوال. ثم هو جمع أُضيف إلى الله سبحانه والإضافة أصل وُضع تعريفها على اعتبار العَبْدِ، فيكون المعهود ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: الآية 56] الآية، على إرادة الجِنْسِ أي المطلوب هنا هو جِنْسِ تلك الصَّلاة المُخْبَر عنها لا عَيْنَها، فلا تحتاج إلى طَلَبٍ لحصولها، وإنما يطلب زائد من جِنسها، فإنَّ الدُّعاء إنما يَسْتدعي ما ليس بحاصِلٍ مما لا يُعلم أنه سَيَحْصل حِرْصاً. انتهى مختصراً.

«وسَلاَمُهُ» أي وأمانَهُ وحفظهُ. «وتحيته» هو في المِرْآة بلفظ الإفْرَادِ، ويصحّ الجمع أيضاً، وقد اختلف في الدُّعاء بالرَّحمة له ﷺ، فمَنَع ذلك ابن العربي، وبالغ في الإنكار عَلِيّ ابن أبي زَيْد في تشهّده حيث قال: وارْحَم محمداً. وقال: وهَمَّ هَمّاً قَبِيحاً. وقال النَّوَوِي: زِيادَتهما بِدْعَةٌ. قال ابن حَجَر: إن كان إنْكاره لكونِهِ لم يَصِحّ فَمُسَلَّمٌ. وإلاَّ فدعوى مَنِ ادَّعَى أنه لا يُقالُ: وارْحَم محمَّداً مَرْدود، لثبوت ذلك في عدَّة أحاديث أصَحّها التَّشَهُّد. السلام عليك أيُها النبيءُ ورَحْمَة الله وبركاته، ثم وُجدت لابن أبي زَيْد مُسْتنداً فأخْرجَ الطَّبري في تَهْذيبه عن حنظلة بن علي عن أبي هريرة يرفعه من قال: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّد وعلى آل محمَّد كما صلَّيْتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم، وتَرَحَّم على محمَّد وعلى آلِ محمَّدٍ كما ترحَّمْتَ على إبْراهيم وعلى آل إبراهيم شَهِدَتْ له يوم القيامة وشفعتَ له. ورجال سنده رجال الصحيح. إلاَّ سعيد بن سليمان الرَّاوي عن حنظلة، فإنه مجهول. هـ. ولا يرد على الشيخ هذا الاعتراض لوروده في التشهد.

«وبَرَكاتهُ» هو بلَفْظِ الجمع أي وخيراته وكراماتهُ المتكاثرة المتزائدة «على سيدنا محمَّدٍ» الذي له السّؤدد علينا، وهو الشَّرَف الكامِلُ بحيث لو قلنا أنَّه سيّدنا فهو سيّد ولد آدَمَ ولا فَخْر بُعِث فيهم. وقد قال عليه السلام: «لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حتى أكُون أحَبّ إليه مِنْ والدِه ووَلَدِهِ والنَّاس أجمعين». «عَبْدك» ذكره بأشرف أسمائِه، لأنَّ أشرف المقامات العبودية والنِّسْبة إلى المحبوبية بما أتَمَّ. وفي وصفه بذلك نفي لمقاماتِ النَّصَارى ومن نَحَى نَحْوَهُم. وقد قال عليه السَّلامُ: «لا تَطْرُوني كما أطْرَتِ النَّصارى عيسى ابن مَرْيم، ولكن قولوا: عَبْد الله ورَسُوله». «ونَبيك» أي المُرفع على خَلْقِكَ

النبي لهم بأحكامك، والمنبّأ في نفسه بالغُيُوبِ، لأنَّ النَّبيّ مأخوذ من النَّبْوَة، وهو المرتفع من الأرض أو من النَّبإِ وهو الخَبَرُ، وكان في وصفه صحيح. «ورسولك» أي المختصّ برسالتك الجامعة، المحيطة، للجِنّ والإِنْس والأحمر والأسْوَد. واختُلِف في بَعْثِهِ للملائكة فقال البيهقي والحليمي: إنه لم يرسل إليهم، ورجَّح تقي الدين بن السبكي بعْثه إليهم مُحتجاً بقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية 1] والعالم هو ما سوى الله تعالى، فيتناول جميع الملائكة. وقال ابن حجر الهَيْثمي: هو الأصح عند جميع المحققين. وقال صاحب المَوَاهب: نَقَلَ بعضهم الإجماع على ذلك. قال الهيثمي: ومعْنَى إرساله إليهم وهم مَعْصُومُونَ؛ أنّهم كُلِّفُوا بتعظيمه والإيمان به وإشاد ذِكره. هـ.

زاد البَرْزلي: وإلى الحيوانات والجمادات، والحجر والشجر، والكلام السابق منطبق عليها، لأنها عوالم، بحيث يركب فيها إدراكات، لتؤمن به، وتخضع له.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: الآية 44] حقيقة، لا بلسان الحالِ فقط. خِلافاً لمن زَعَمَه. وقال بإرساله إلى الجماداتِ جماعة. واختاره بعض المحققين لقوله ﷺ: «وأُرسلتُ إلى الخَلْقِ كافَّة» أخرجه مسلم وغيره. هـ.

«النَّبِيّ الأُميّ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ» تقدَّمَ. «عَدَدَ الشَّفع والوَتْرِ» أي عدد كل شَفْع ووتْرٍ كلّ ما خَلَقَهُ الله تعالى من الجمادات والحيوانات وجميع الكائنات التي عَلِمَ الله سبحانه، أن عددها شَفْعٌ. ومثل ذلك أيضاً ما عَلِمَ الله أنها وِتْر. «وكلمات ربّنا التَّامات المُبارَكَات» أي الألفاظ الدَّالأت على متعلقات عِلْم الله تعالى، وقيل: هي الدَّالَّة على حِكَمِهِ وعجائبه. وتمامُها: تَنَزُّهُهَا عن سِمَة الحدوث والتَّغيّر، ونفوذها مِن غير عَجْز ولا قُصُور، وحيث وُصِفَت بالتَّمام كانت مُباركة ويحتمل أن يُراد بها القرآن العظيم، ولا إشكال في تمامِهِ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلَت: الآية 42] وبَرَكاتُهُ.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: الآية 50]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: الآية 82] ثم خَتَم بما خَتَم الشيخ أوّلاً فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصّافات: الآيات 180-182] قد تقدَّم الكلام عليه في خاتِمَة الشيخ، نَفَعَنا الله بِهِ وبِوَظيفته.

خَاتِمَةٌ

ينبغي للعبد إن كانت له بصيرة، ألاّ يُضيِّع من أوقاته شيئاً، فيُعيّن لكل وقت عملاً يخصُّه، مما يعود عليه نفعه ديناً ودُنيا، فعُمر العبد لا خلاف له إذا ذَهَبَ ولا قيمة له إذا حصل. قال في الحِكَم: ما فات من عُمرِكَ لا عِوَض له وما حصل لك منه لا قيمة له. هـ.

ابن عبّاد: عُمُر العبد ميدان لأعماله الصالحة المُقربة له من الله تعالى، والمُوجبة له جزيل الثواب في الدّار الآخرة، وهذه هي السعادة التي يكدح العبد ويَسْعى من أجلها، وليس له منها إلاّ ما سعى. فكل جُزء يفوته من العمر خالياً من عملٍ صالحٍ يفُوته من السعادة بقدره ولا عِوَض له منه. هـ.

قال الجُنيد رضي الله عنه: الوقت إذا فات لا يستدرك وليس شيء أعزّ من الوقت، وكل جزء يحصل غير خالٍ من ذلك يتوصل به إلى ضنك كبير لا يَفْنَى، ولا قيمة لما يوصِّل إلى ذلك لأنّه في غاية الشرف والنّفاسة، ولهذا عظمت مراعاة السّلف الصالح لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعتهم وأوقاتهم ولم يضيّعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلاّ بالجدّ والتشمير. وقد قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «بقية عمر المُؤمن ما لها ثمن يدرك فيها ما فات، ويحيي ما أمات» هـ.

وقال رجل لعامِر بن عبد الله بن قَيْس رضي الله عنه: قِفْ حتى أُكلمك. فقال: لولا أنّي أُبادر لوقَفْت عليك. قال: وما تُبَادِر، قال: خروج روحي.

وقال السّراقسطي رضي الله عنه: خرجتُ من بغداد أريد الرِّباط إلى عبادان، لأصوم بها رجباً وشعباناً، فاتفق في طريقي علي الجرجاني، وكان من الزُّهاد الكبار، فَدَنَا وقت إفطاري، وكان معي ملح مدقوق وأقراص، فقال: ملحك مدقوق، ومعك ألوان من الطعام لن تُفْلح ولن تدخل سُنن المحبِّين. فنظرتُ إلى مزْوَد من الشعير كان معه فيه سويق الشّعير، فسفّ منه، فقلت: ما دعاك إلى هذا؟ فقال: إني حسبت ما بين المَضْغ والسّفّ سبعين تسبيحة، فما مضغت الخُبز منذ أربعين سنة.

وفي الخبر: ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله فيها إلاّ كانت عليه حَسْرَة.

ويُقال: إنّ العبد تُعرض عليه ساعته في اليوم والليلة، فيراها خزائن مصفوفة: أربعاً وعشرين خزانة فيرى في كل خزانة نعيماً ولذّة وعطاءً وجَزاءً لما كان أوْدَع خزائنه من ساعته في الدنيا من الحسنات فيسُرّه ذلك ويغتبط به فإذا مرّت به في الدنيا ساعة لم يذكر الله تعالى فيها رآها في الآخرة خزائن فارغة لا عطاء فيها ولا جزاء، فيسُوءُه

ذلك، ويتحسَّر كيف فاته حيث لم يدَّخر فيها شيئاً، فيُرى جزاؤه مدخوراً، ثم يلقي في نفسه الرِّضى والسكون.

وجاء في الخبر: «أنَّ أهْل الجنَّة بينما هم في نَعِيمهم إذ سطع لهم نُورٌ من فوق، أضاءت منازلهم، كما تضيء الشمس لأهلِ الدّنيا، فنظروا إلى رِجال من فوقهم أهل علّيينَ، يرونهم كما يرى الكوكب الدّري فوق السماء، وقد فضلوا عليهم في الأنوار والنَّعيم، كما فَضُل القمر على سائر الكواكب، فينظرون إليهم يطيرونَ على نجب تسرح بهم في الهوا، يزورون ذلك الجلال والإكرام، فينادون هؤلاء: يا إخواننا ما أنْصَفْتمونا، كنا نُصَلّي كما تُصلُّون، ونصوم كما تصومون فما هذا الذي فضلتمونا به. فإذا النِّداء مِنْ قِبَل الله تعالى: كانوا يجوعون حيث تشبعون ويعطشون حيث تَرْوون. ويعرون حين تكسون، ويذكرون حين تسكتون، ويبكون حين تَضْحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فُضِلوا عليكم اليوم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السَّجدَة: الآية 17]

وقال أبو علي الدّقاق رضي الله عنه: رئي بعضهم مجتهداً، فقيل له في ذلك، فقال: ومن أولى مني بالجهد، وأنا أطمع أن ألحق الأبْرار والكبار من السلف. قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفّفين: الآية 26] وفي هذا المعنى أنشدوا:

السُّبَاقَ السُّبَاقَ قَوْلاً وفِعْلاً ... حذِّر النَّفس حَسْرَة المسبوق

فيجبُ على العبدِ أن يُقسّم أوقاته في الليل والنهار، فيُعيّن لكل وقتٍ عملاً وإلاَّ ضاع عليه عمره في البطالة فيتحسَّر عليه يوم القيامة.

وقد جعل الشيوخ في النَّهار سبعة أورادٍ، وفي الليل خَمْسة.

الأول: من طلوع الفجر إلى حلِّ النَّافِلةِ.

الثاني: من حَلِّ النافلة إلى ضحوة النَّهار.

الثالث: من ضَحْوة النهار إلى الزوال.

الرابع: من الزَّوالِ إلى الفراغ من صَلاَة الظُّهْرِ.

الخامس: من صلاة الظهر إلى العَصْرِ.

السادس: من العصر إلى الاصْفِرار.

السابع: من الاصْفِرار إلى الغُرُوبِ.

الوِرْد الأوَّلُ: من طلوع الفَجْر إلى حلِّ النَّافِلَةِ:

وهو وقت شريف ويَدُلُّ على شَرَفِهِ، إقسام الله تعالى به إذ قال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا

نَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: الآية 18] . وتمدُّحُه به إذ قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: الآية 96] وفي إظهار القُدرة الأزلية بقبض الليل وبسط نور الشمس وقد أرشد الله تعالى إلى التسبيح فيه بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الرُّوم: الآية 17] ، وبقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: الآية 130] وقوله: ﴿وَمِنْ ءَانَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: الآية 130] وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان: الآية 25] .

وترتيب العمل فيه: أنه ينبغي إذا انتبه من النَّوم أن يستفتح ما يقال عند القيام من النوم، يذكر الله فيقول: «الحمد لله الذي أحْيانا بعدما أماتَنا وإليه النُّشُور، وأصْبَحْنا وأصبح المُلك لله ربّ العالمين. اللَّهُمَّ إنِّي أسألك خير هذا اليوم فَتْحه ونَصره، وبركته وهُداه، وأعُوذُ بِكَ من شرّه وشرّ ما فيه، وشرّ ما بعده، اللهُمَّ بك أصبحنا وبك أمْسَيْنا وبك نَحيا وبك نموتُ، وإليك النُّشور. اللَّهُمَّ إني أسألك أن تَبْعَثنا في هذا اليوم إلى كُلِّ خيرٍ، ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءاً أو نجده إلى مُسْلم، فإنك قُلت: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: الآية 60] والأدعية في هذا كثيرة، وليلبَسْ ثوبه، وينوي به ستر عورتِهِ امتثالاً لأمر الله تعالى، واستعانة على عبادتِهِ من غير قَصْد رِيَاءٍ ورعونة، ثم يتوجَّه إلى قضاءِ حاجته فيقدّم اليُسْرى بعد التَّسمية والتَّعوّذ وهو: اللهُمَّ إني أعُوذُ بِكَ من الخُبْث والخبائِثِ، النّجس الرِّجْس الشيطان الرَّجيم. فإذا فَرَغَ قدَّم رِجْله اليُمْنى ثم يقول بعد الخروج: الحمد لله الذي رزقني لذَّتَهُ وأخْرَج عني مشقَّتَهُ، وأبقى في جسمي قوَّته. ثم يقصد الوضوء، فيُسَمّ الله تعالى ثم يَغْسل يديه ثلاثاً بنِيَّة قبل دُخُولها في الإناء إن كان، ثم يتمضمض ثلاثاً، ثم يَسْتنشق ثلاثاً، ثم يغسل وجهه: يأخُذ الماء بيده، ويجعله على سطح جبهته، ثم ينحدر معه بالغسل، فيغسل الوترة وأسارير جبهته، وظاهر شفتيه، ويتبع ما غار من أجفانه ومحلّ العمش من عينيه، ويُخلل شعر حاجبه وأهدابه، وخفيف لِحْيته إن كان يظهر الجلد تحتها، وإلاَّ فلا. ثم يغسل يديه ثلاثاً إلى المَرْفقين، أي معه، ثم يَمْسح رأسه كله، ثم يُجدّد الماء لأذنَيْه يمسحهما مرة ظاهرهما وباطنهما، ثم يغسل رجليه إلى الكعبين، يُبالغ في ذلك، لقوله ﷺ: «ويلٌ للأعقابِ مِنَ النَّارِ». فإذا فرغ رفع طرفه إلى السَّماء وقال: أشْهَد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشْهَد أنَّ محمداً عبده ورسُوله سبحانك وبحمدك، لا إله إلاَّ أنت، عملتُ سُوءاً، ظلمتُ نفسي، أسْتغفرك وأتوب إليك، فاغفر لي وتُبْ عليّ إنَّك أنت التوَّاب الرَّحيمُ. اللهُمَّ اجْعَلني مِنَ التَّوابين واجعلني من المُتطَهرين واجعلني من عِبَادِكَ الصالحين، واجعلني شكوراً، واجعلني أذْكُرك بُكْرَة وأصِيلاً، يُقال: من قال

هذا بعد وضوئه ختم على وضوءٍ بخاتم ورُفع له تحت العرش فلا يزالُ يسبح الله تعالى ويُقدس، ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة، فإذا فرغ من الوضوء قصد المسجد فيقدّم رِجْلَهُ اليمنى في الدخول ويقول: بِسْم الله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ اللّهم اغْفِر لي ذَنْبي، وافتح لي أبواب رَحْمَتِك. وإذا خرج قَدَّم اليُسرى وقال: ما تقدَّم. وأبْدل مكان رحمتك فضلك، فإذا دخل صلّى الفجر، ثم يقول: اللهُمَّ إني أسألك باسْمِك يا قَيُوم يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلاّ أنت سُبْحانك أنْ تحيي قلبي بمعرفَتِكَ أبداً سَرْمداً، يا ألله يا ألله يا ألله أربعين مرّة. ثم يقول: لا إلَهَ إلاّ أنت سُبْحانك إني كنت من الظالمين أربعين مرة. ثم يُصلّي الصُبح بغَلَس، فإذا فرغ من المُعَقبات قرأ حِزْب الفلاح للشيخ الإمام الولي الكبير سيدي محمد بن سليمان الجَزُولي نفعنا الله به مع الزيادة التي زيدت فيه، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله. ثم يقرأ حزبهُ مِنَ القرآن.

قال سيدي ابن عبّاد: ينبغي له أن يُرَتّب حِزباً من القُرآن صباحاً ومساءً، فإذا فرغ منه قرأ وظيفة الشيخ المُصنف نفعنا الله به، ثم يقرأ المُستحبات العشر لتكون قبَيْل الطلوع، ثم يقرأ الحزب الكبير للشيخ أبي الحسن نفعنا الله به، ثم يشتغل بالتسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير والاستغفار، والصلاة على النبيّ ﷺ إلى أن ترتفع الشمس قدْر رُمْحٍ أو أكثر. ثم يصلي صلاة الضُحى، وهي صلاة الأوّابِينَ.

والأوّاب: هو كثير الرُجوع إلى الله تعالى. وقيل: المطيع. وقيل: الفقيه. قال ﷺ: «مَنْ صلّى الصبح في جماعة وجلس يَذْكر الله حتى طلعت الشمس انقَلَب بأجْر حَجّة وعُمْرة تامّتين تامّتين». وقال ﷺ: «مَنْ حافظ على شُفْعَتي الضُحى، غُفرت ذنوبه وإن كانت مِثْل زَبَد البَحْر». والشُفْعَة بالضمّ: هي ركعتا الضُحَى. وقال ﷺ: «مَنْ قام إذا اسْتقبلته الشمس فتوضّأ فأحسن الوُضُوء ثم قام فصلى ركعتين غُفِرَت له خطاياه وكان كيوم ولدتْه أُمُهُ». وقال ﷺ: «مَنْ صلّى الضحى ركعتين لم يُكتب من الغافلين، ومن صلى أربعاً كُتِبَ من العابدين، ومن صلى سِتّاً كُفِي ذلك اليوم، ومَن صلّى ثمانياً كتبه الله مِنَ القانتين، ومن صلّى اثنتي عشرة بنى الله له في الجنة وما من يوم وليلةٍ إلا ولله مَنٌ يخُصّ من يشاء من عباده، وما منَّ الله على أحدٍ من عباده أفضل أن يلهِمَهُ ذِكْرهُ». وقال ﷺ: إذا طَلَعَتِ الشّمس من مَطْلعها لصلاة العَصْر، حتى تغرب، فصلى رجُل ركعتين وأربع سجدات فإنّ له أجر ذلك اليوم، وكُفّر عنه خطيئته وإثمه. وأحْسِبُهُ قال: وإن مات من يومه دخل الجنّة». وفي الخبر: «سألْتُ ربّي خمساً فأعطانيها في خَمْسٍ. سعة الرِّزق في صلاة الضُحى، ورضاء الله في إطعام الطّعام، وصَفَاء القلب في الصِّيام والنّجاة في الصمت، وخير الدنيا والآخرة في قيام اللّيل».

وقال المُصنّف في شرح الوغليسية: وصحّ، تقومُ مقام ثلاثمائة صدقة، التي تصبح على الإنسان وفضلها كثيرٌ. هذا ترتيباً للورد الأول.

الوِردُ الثّاني: من وقت الضُحى إلى حلّ النافلةِ:

إلى ضحوة النّهَار. أعني منتصف ما بين طلوع الشّمس إلى الزّوال. وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار، وهذا الوِرد من أمْتع الأوراد وأوسعها وهو وقت أشغال النّهار، فينبغي للعبد أن يجتهد فيه بقَدْر الإمكان، وهذا الوِرد يختلف أحوال الناس فيه فصاحب التجريد يعمره بالعبادة من صلاة أو ذِكْر أو تِلاوة، أو صلاة على النبيّ ﷺ، وإن خرج لعيادة مريض، أو تشييع جنازة أو قضاء حاجة لمسلم فذلك خير كله. وصاحب طلب العلم يعمره بقراءة العلم النّافع، ويجب عليه إصلاح نيّته، فيتعلّمه بنية العمل وخروجه من ظُلمة الجهل وكيف يتعبّد الله تعالى ونَفْع عباد الله إن احتاجوا إليه لا بقصد الرّياسة ونَيْل الجاه، والتوصل إلى الدّنيا، وإلا بطل عمله، وضلّ سعيُهُ، وكان عِلْمُه وبالاً عليه.

قال سيدي محمد بن عبّاد رضي الله عنه: والغالب على طلبة العِلم في هذه الأعصار هذا الوصف المذموم، حُبّ الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم، والحِرْصُ على التقدُّم والترؤُس قد مَلَكَهُمْ، فأصمّهم وأعماهُم. ولذلك أمارات وعلامات لا تُخْفى ولا تخفى. ثم أطال في ذلك الكلام بحسب المقام، فيجبُ على المبتدىء المُشْفِق على نفسه، مطالعة ذِكره عند قولِ الحكم العِلمُ إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك، وإن كان من قراءة القرآن فقراءته عبادة إن كانت نيّته صالحة، وما جرى في طلب العلم يجري فيه حَرْفاً حرفاً، وربما يجري فيهم الفساد لاشتغالهم به مع عدم اعتنائهم بشأنِ الصّلاة. فلو كانت القراءة لله لقدّموا الواجِبَ على كل حالٍ، وما فَضُل عنه يشغلونه بذلك. ولكن غلب عليهم الهَوَى، فتكاسلوا عن الواجبات، وتسارعوا إلى فِعْلِ المُسْتحبات وإذا اجتمعوا هدّموا بالغيبة ما شيّدوا، وفسَدُوا ما كانوا أصلحوا. عصمنا الله بتوفيقه آمين.

وإن كان من أهل التّذرير، فتعليمه للصّبيان من أفضل العبادة، إن قارنتها نيّة صالحة كنيّة إيصال النّفع لهم، وتدريبهم على عبادة الله ليَنْبق الخير إلى قلوبهم مع بذل نصيحته لهم، وتعليمهم ما يجب عليهم بعد البلوغ من قواعد الإسلام وأحكام الوُضوء والصّلاة. وإن كان من أرباب الحِرَف والخِدْمة على العيال، فهي عبادة عظيمة، إن كانت نيّته صالحة كقوت نفسه وعيَالِهِ والقيام بالنفقة الواجبة عليه. فكل ما يطعمهم به أو يكسوهم فهو صدقة.

وبالجملة: فإنما الأعمال بالنّيَات، وإنما لكل امْرِيءٍ ما نوى. فالنِّيَة إكسير الأعمال تقلّب أعيانها من السُّوءِ إلى الحَسَنِ. وهي خيرها يكثر بها القليل ويعزّ بها الذّليل، وإنما الشأن النيّة فهي معد وغرور الجهال. وقوله: «أقدام أقدام الرِّجال».

وقال الشيخ أبو العباس الحَضْرَمي رضي الله عنه: النِّيَة نَفْحَةٌ من نَفَحَات الله يخصّ بها من يشاء من عباده. والله ذو الفضل العظيم، منَّ الله علينا بها بمنِّهِ وجُودِهِ بجاه سيّدنا محمد نَبِّيهِ آمين.

الوِرْدُ الثالث: مِنْ ضَحْوَة النَّهار إلى الزَّوال:

قال الغزَّالي رضي الله عنه: الوظيفة في هذا الوقت من الأقسام الأربعة، يعني: مِنَ الأَدعية والذِّكر، والقراءة والفِكْر، ويُريد أمْرَيْن، أحدهما الاشتغال بالكَسْب وحضور السوق، فإن كان تاجراً فينبغي أن يتجَّر بصدقٍ وأمانةٍ، وإن كان صاحِب مُنَاجة فبِنُصْح وشفقة ولا يَنْسَى ذكر الله في جميع أشغاله. ويقتصر من الكَسْبِ على قَدْر حاجته ليومه فإذا حصلت كفاية يومه، فليرجع إلى بيت ربِّه، وليتزوَّد لآخرتِهِ، فإن الحاجة إلى دار الآخرة أشدُّ، والتمتّع بها أدْوَمُ، فالاشتغال بكَسْبِهِ أَهَمُّ من طلبِ الزيادة عليه.

وقد قيل: لا يوجد المؤمِنُ إلاَّ في ثلاث مواطِن: مَسْجد يعمره، أو بيت يسترهُ، أو حاجة لا بد منها. ثم قال: الأمر الثاني: القيلولة: وهي سنَّة يستعين بها على قيام اللَّيل كما أن السحر سنة يستعين بها على صيام النهار، فإن كان لا يقُوم بالليل لكونه لَوْ لَمْ يَنَمْ لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغَفلة، وتحدَّث معهم، فالنَّوم أَحَبُّ وكذلك إن كان لا ينبعث نشاطُهُ للرُّجوع إلى الأذكار والوظائف المذكورة، إذاً ففي النوم الصَّمْت والسَّلامة..

وقال بعضهم: يُؤتَى على النَّاس زمان الصَّمتُ فيه أفضل أعمالهم، وكم من عابِدٍ أحْسَن أحواله النَّومُ. وكذلك إذا كان يُرائِي ولا يُخْلِص فيها، فكيف الغافِل الفاسق.

وقال سُفيان الثوري رحمه الله: كان يُعْجبهم إذا تفرَّغُوا أن يناموا طلب السَّلامة، فإذا نومه على قدر السلامة ونية قيام الليل قربة. ولكن ينبغي أن يَنْتَبه قبل الزَّوَالِ بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل وقت الصَّلاة، فإنَّ ذلك من فضائِلِ الأعمال وإن لم يَنَمْ ولم يشتغل بالكَسْبِ، واشتغل بالصلاة والذِّكر فهو أفضل أعمال النَّهار، لأنه وقت غفلة الناس على الله عزَّ وجل. والقَلْبُ المتفرِّغ لعبادة ربِّه عزَّ وجلَّ عند إعراضِ العبيد عن بابِهِ جدير بأن يُزَكيه الله تعالى ويصطفيه لقرْبِهِ ومَعْرِفَتِهِ. وفضل ذلك كفضل إحياء الليل وقت الغفلة بالنَّومِ، وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهُمُوم الدّنيا.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفُرقان: الآية 62] أي يَخْلُف أحدهما الآخر في الفَضْلِ. وقيل: يَخلفه فيتدارك فيه ما فاته في أحدِهما هـ. والله تعالى يوفقنا لما يَرْضاهُ ويُحِبُّهُ.

الوِرْدُ الرّابع: ما بَيْنَ الزّوال إلى الفراغ من صلاة الظُّهرِ:

وهو أقْصَى أوْرَاد النهار وأفضلها. فإذا كان قد توضَّأ قبل الزَّوال وحضر المسجد فمهما زالتِ الشمس وأذَّن المؤذنُون، فليعبر إلى الفراغ من جوابه ثم ليقم إلى إحياء ما بين الأذانِ والإقامة، فهوَ وقت الإظهار، الذي أراد الله تعالى بقوله: ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ [الرُّوم: الآية 18]. وليصلِّ في هذا الوقت أربع ركعات لا يَفْصل بينهما بسلام. وهذه الصلاة وحدها يصلِّيها بتسليمة واحدة. ولكن طعن في تلك الرواية. قاله الْغزالي. قلتُ: وفي الترمذي: أنّه سُئِل ﷺ: هل بَيْنَها سلام؟ قَالَ: «لا، ولا يُطَوَّل هذه الركعات، إذ فيها تُفْتَح أبواب السَّمَاء، ويُستجاب فيه الدّعاء». وأحب رسول الله ﷺ أن يُرْفع له فيها عمل، ثم يُصلي الظهر بجماعة بعد أربع ركعات طويلة أو قصيرة. ولا ينبغي أن يَدَعها، ثم يُصلّي بعد الظُّهرين ركْعَتَين. وكره ابن مَسْعود أن تتبع الظُّهْر بمثلها، ويُستحب أن يُقرأ فيها بآية الكُرْسي وآخر سورة البقرة. ليكون جامعاً بين الدعاء والذِّكر، والقراءة والصلاة، والتحميد والتقديس، مع شرف الوقت. قاله الغزالي. وقال الشيخ زرُوق: بالكافرون والإخلاص والسلام. وبالله التوفيق ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

الوِرْدُ الخامس: ما بَيْن ذلك إلى العَصْر:

ويُستحب فيه العُكُوف في المَسْجِدِ مشتغلاً فيه بالذِّكر والصلاة أو فنون الخَيْر ويكون في انتظار الصلاة معتكفاً. فمن فضائل الأعمال انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة، وكان ذلك سُنن السَّلَف. كان الرجل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دَوِيّاً كَدَوِيّ النحل من التلاوة، فإن كان بيته أسلم لِدِينِهِ وأجمع لهِمَّتهِ فالبيت أفضل لحقه. وإحياء هذا الوِرْدِ، وهو وقت غَفْلة النَّاس أيضاً، كإحياء الوِرْد الثالث في الفَضْلِ. وفي هذا الوقت يُكْره النَّوم لمن نام قبل ذلك، إذ يُكْره نَوْمتان في النَّهارِ.

قال بعضُ العلماء: ثلاث يَمْقت الله عليها: الضحك بغير عجب، والأكل من غَيْر جُوعٍ، ونوم النَّهار من غير سهر باللَّيْلِ. والحدّ في النوم أن الليلِ والنهار أربع وعشرونَ ساعة، فالاعتدال في النَّوم ثمان ساعات في الليل والنهار جميعاً، فإن نام هذا القَدْرَ بالليل فلا معنى للنّوم في النهار، وإن نقص من هذا القدر اسْتوفاه بالنَّهار، فَحَسْبُ ابن آدَمَ إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرين سنة، وإذا نام ثمان

ساعات فقد نقص الثلث، ولكن لمّا كان النوم غذاء الأرواح، كما أنّ الطعام غذاء البَدَن، وكما أنّ الذّكر والعلم غِذاء للقلُوب، لم يكن بُدٌ من قطعة منه، وقَدْر الاعتدال ما تقدّم، والنُقصان منه ربما يؤدي إلى اضطرابِ البَدَنِ. وهذا الوِرْد من أطول الأوراد، وأمتعها للعُبّاد، وهو أحد الآمال التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ⦗15⦘﴾ [الرعد: الآية 15] فإذا سجدت لله الجَمَادات فكيف يَغْفل العبد العاقل عن التّعَبُد.

الوِرْدُ السّادِس: إذا دَخلَ وقت العَصْر:

وهو الذي أقْسَم الله تعالى به، إذ قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ⦗1⦘ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ⦗2⦘﴾ [العَصر: الآيتان 1، 2] وهو المُراد بالأصل في أحد التفسيرين، وهي العَشيّ المذكور في قوله: ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: الآية 18] وليس في هذا الوِرْد صلاة إلاّ أربع ركعات بين الأذَانَينِ، كما سبق على الظُهْر. ثم يُصلّي العصر، ويشتغل بالذّكر والدّعاءِ والاستغفار والتّفكر إلى أن تَصفّر الشمس، والأفضل في هذا الوِرْد قراءة القرآن، بتدبُرٍ وتَفَهُم، إذ يجمع ذلك معنى الذّكر والدّعاء والفِكر، مُندرج في هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة، والله المُسْتعان.

الوِرْدُ السّابع: إذا اصفّرت الشمس:

بأن تغرب على الأرض، وترى سفرة في ضَوْئِها، وهو مثل الوِرْد الأول، لأنه قبل الغروب كما أن الأول قبل الطُلوع كما تقدّم ثم من الأذكار، يقال هنا: فيقرأ الوظيفة والمُسبّعات وحِزْب البحر ثم يشتغل بالتسبيح والاستغفار إلى الغُرُوب.

قال الحسن: كانوا أشدّ تعظيماً للعَشِيّ، منهم لأوّل النّهار. وقال بعض السّلف: كانوا يجعلون أول النهار للدُّنيا، وآخره للآخرة. ويُسْتحب أن يقرأ قبل غروب الشمس ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ⦗1⦘﴾ [الشمس: الآية 1]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ⦗1⦘﴾ [الليل: الآية 1] والمعوّذتين، ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار، فإذا سمع الأذان قال: «اللّهُمّ هذا استقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دُعاتِكَ وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي. ثم يقول: اللّهُمّ بِكَ أمْسينا، وبك أصْبَحْنا، وبك نَحْيَا، وبِكَ نَمُوت، وإليك المصير. أمسينا وأمسى المُلْك لله ربّ العالمين. اللّهُمّ إني أسألك خير هذه الليلة فتحها ونصرها، وبركتها وهَدْيها، وأعوذُ بك من شرّها وشرّ ما فيها وشَرّ ما بعدها». ثم يشتغل بصلاة المغرب وبالغروب. انتهت أوْراد النّهار، فينبغي أن يُلاحِظَ ويحاسب نفسه وأنّه قد انْقَضَى من عمره مرحلة، وهل يساوي يومه أمسه؟! فيكون مغبوناً أو يكون بشر من أمسه، فيكون محروماً، فقد قال ﷺ: «لا بُورِكَ لِي في يوم لا أزْداد فيه

خيراً»، فإن رأى نفسه قد حصّلت في يومه خيراً ولم تأت شراً، فليشكُر الله على ذلك ليزيده من فضله، وإن رأى نَفْسهُ قد قصّرَتْ عن فِعْل الخَيْر أو فعلت شرّاً فليُجَدّد التّوبة، وليَعْزم على تلافي ما فات في ليلته فإنّ الحسنات يُذْهبن السيئات، ويشكر الله على صِحّة جسمه، وبقاء بقيّة عمره، وليُحضر في قلبه أن نهار عُمُره إذا غابت شمسه لا تطلع أبداً. فليس العمر إلاّ أياماً معدودة. اللهم وفقنا لما تحبُه وترضاه آمين.

بيان أوْرادِ الليل، وهي خمسة:

الأول: إذا غربت الشمس صلّى المغرب، واشتغل بإحْيَاءِ ما بين العشَاءيْنِ، وآخر هذا الوِرْد غيوبة الشفق، والصّلاة فيه ناشئة اللّيل: لأنه أول ساعات؛ وهي آناً مِنَ الآناء المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: الآية 130] وهي صلاة الأوّابين، وهي المراد بقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السّجدَة: الآية 16] روي ذلك عن الحسن. وأسنده إلى ابن أبي الزّياد إلى النّبي ﷺ فقال: «عَلَيكم بالصّلاة بين العِشاءَيْنِ فإنها تَذْهب بمُلاغاة النّهار». جمع مَلغاة من اللّغْوِ. وسئل عن ابن عبّاس، عمّن ينام بين العشاءين، فقال: لا تفعل فإنها السّاعة المعنية بقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السّجدَة: الآية 16].

وعن عائشة رضي الله عنها، عَنِ النبيّ ﷺ: «إنّ أفضل الصّلاة صلاة المَغْرِب، لن يَحُطّها عن مسافر ولا مُقيم، فتح بها صلاة اللّيل، وخَتَمَ بها صلاة النّهار، فَمَن صلّى بعدها ركْعَتَيْن بَنَى الله له قَصْرَين في الجنّةِ». قال الراوي: لا أدري أمِنْ ذَهَبٍ أو فِضّةٍ. ومن صَلّى بعدها أربع ركعات، غفر الله له ذَنْبَ عشرينَ سنة. أو قال: أربعين سنة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: مَنْ صلّى ستّ ركعات عَدَلَتْ له عِبادة سنة. وفي رواية: عبادة اثنتي عشرة سنة. وعن سعيد بن جُبَير، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَكَفَ نَفْسَه ما بين المغرب والعشاء في مَسجِدِ جماعة، لم يتكلم إلاّ بصلاةٍ أو قرآن، كان حقّاً على الله أن يَبْني له قَصْرين في الجنّة مَسيرة كل قصر منهما مائة عام، يُغرس له بينهما غروساً لو طافه أهل الدّنيا لَوَسِعَهُمْ».

وقال ﷺ: «مَنْ صلّى عَشْرَ ركعات ما بين المغرب والعِشاء بَنَى له قصراً في الجنّةِ». وقال عمَر: إذاً تكثر قصُورنا يا رسول الله، فقال رسُول الله ﷺ: «الله أكبَر وأفضَل»، أو قال: أطيب.

وبالجملة: فالصّلاة في هذا الوقت تعدل قيام الليل. وكان الشيخ يوسف ابن عمر لا يزال قائماً فيه حتّى يُصَلّي العشاء، وكان شيخاً كبيراً. وقال الأسود: ما أتيت ابن مسعود في هذا الوقت إلاّ ووجدته يُصَلّي فسألته فقال: نَعَمْ هي ساعة الغَفْلةِ. وكان

أنس يُواظب عليها، ويقولُ: هي نَاشِئَة اللَّيل. ويقول: فيه نَزَل قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السّجدَة: الآية 16].

وقال أحمد بن أبي الحواري: قُلتُ لأبي سليمان الداراني: أصُوم النَّهَارَ وأتعشَّى بين المَغْرب والعشاء أحَبّ إليك أو أفْطر بالنهار وأحْي ما بينهما؟ قال: اجْمَعْ بينهما. قلت: إنْ لم يتيسَّر لي. قال: افطر. وصَلّ ما بينهما. وبالله التَّوفيق، ولا حول ولا قوَّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

الوِرْد الثَّاني: من دخول وقت العِشاء إلى مذمونة النَّاس:

وهو أوّل استحكام الظَّلام. وقد أقْسَم الله تعالى به إذ قال: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ⑰﴾ [الانشقاق: الآية 17] أي جَمَعَ. وقال: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسرَاء: الآية 78] وترتيب هذا الوِرْد بمُراعاة ثلاثة أمور:

الأول: أن يُصَلّي بين الأذانين أرْبع ركعات وبعد الفَرْضِ ركعتان ثم أربع يقرأ فيها من القرآن الآية المخصوصة كآخِر البقرة وآية الكُرْسي وسورة السجدة، وسورة الملك.

الثَّاني: أن يُصلّي ثلاث عشرة ركعة. إحداهن الوَتْرُ، فهو أكثر ما روي عن قيام النَّبِيّ ﷺ، فإن كان ينتبه آخر الليل أخَّرَهُ، وإلاَّ قَدَّمهُ. والجَزْم: التَّقديم.

الثالث: الوتْر. وليوتر قبل النَّوم، إن لم تكن عادته القيامُ. قال أبو هريرة: أوصاني خليلي بثلاثة: ألاَّ أنام إلاَّ على وتْر... الحديث. والآخر: قال ﷺ: «صَلاَة اللَّيل مَثْنى مَثْنَى، فإذا خفت الصبح، فأوْتِر بواحِدَةٍ» انتهى. وتْر رسول الله ﷺ إلى السحر. قال الغزالي: وكان ﷺ يُصَلّي ركعتين في فِرَاشِهِ يقرأ فيهما: إذا زلزلت، وألهاكُمُ التَّكاثر، لما فيهما من التحْذِير. وبالله التَّوفيق.

الوِرْد الثَّالث: النَّوْمُ:

وإنَّما عُدَّ من الأوْرادِ لأنه عِبَادة، إذا روعيت آدابُهُ فقد نُقل أنه إذا نامَ العَبْد على طهارة ذاكِرَ الله يُكتب مُصَلّياً حتى يَسْتيقظ. ويدخل شعاره ملك. فإذا تحرَّك في نوْمِهِ فذكر الله تعالى دعا له المَلَكُ ويسْتغفر له.

وفي الخَبَرِ: «إذا نَامَ العَبْد على الطَّهَارة رُفِع بروحِهِ إلى العَرْشِ»، هذا في العوام. فكيف بالعُلماء وأرْباب القلوب الصَّافية، فإنَّهم يُكاشفون بالأسرار في النَّوم ولذلك قال ﷺ: «نَوْمُ العالم عِبَادةٌ ونَفَسه تسبيح».

وقال معاذ لأبي مُوسَى: كيف تَصْنَع في قيام الليل؟ فقال: لا أنامُ فيه، وأتفَوَّق بالقرآن فيه تفوقاً». قال مُعَاذ: لكني أنامُ وأقُومُ وأحْتَسِبُ نَوْمتِي كما أحْتَسِبُ قَوْمَتي. فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «مُعَاذ أفقه منك».

وآدَابُ النَّومِ عَشَرَةٌ:

الأول: الطَّهارة ظاهراً وباطِناً لتكون رؤياه صادِقَة.

الثَّاني: ولتعرج روحه إلى السماء أن يجدد طهوره وسواكهُ، وينوي القيام للعبادة، فقد قال ﷺ: «مَنْ أتى فِراشه، وهو يَنْوِي أن يقوم يُصلّي فغَلَبَتْهُ عيناه كُتِبَ له ما نَوَى».

الثَّالث: ألاَّ يبيت إلا ووصيته عند رأسِهِ فإنه لا يأمن مِن القَبْضِ. وقد ورد: مَنْ مات من غير وصيَّة لم يؤذن في الكلام في البَرْزخ، يتزاور الأموات ويتحدثون ولا يتكلم، فيقول بعضهم لبعض: هاتَ المسكين ماتَ من غير وصِيَّة.

الرَّابع: أن ينام تائباً من كل ذنبٍ، سليم القلب لجميع المسلمين. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أوى إلى فراشه لا يَنوي ظلْم أحَد، ولا يَحْقِد على أحَدٍ، غفِر له ما اجْتَرَم».

الخامس: ألاَّ يتعمد بتشهيه، بل يترك ذلك أو يقتصد فيه.

السَّادس: ألاَّ ينام حتى يَغلبه النَّوم، ولا يسْتجلبه، إلاَّ إذا قصد به الاستعانة على القيام آخِراً. فقد كان السَّلف نومهم غلبَة، وأكلهم فاقَة، وكلامهم ضرورة، ولذلك وُصفوا بأنهم كانوا: ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: الآية 17] وإن غَلَبَهُ النَّوم على الصلاة والذِّكْر فلينَمْ، حتى يَعْقِل ما يقول وليصِل نشاطه.

السَّابع: أن ينام مُسْتَقبِل القبلة، أو استقبال القبلة على جنبه الأيمن.

الثَّامِن: الدّعاء عند النوم، يقول: باسمك ربِّي وضَعْتُ جَنْبِي، وبك أرْفعه. اللهمَّ إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحْفَظها بما تحفظ الصَّالحين من عِبادِكَ. اللَّهُمَّ إنِّي أسلمت نفسي إليك وفوَّضت أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، ووجَّهْت وجهي إليك رغبة ورهبة إليك، اللَّهُمَّ لا مَلْجأ ولا مَنجَى منك إلاَّ إليك، آمَنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرْسلت، فاغْفِر لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنت، لا إله إلاَّ أنْتَ، رَبِّ قِنِي عذابك يوم تَبْعث عِبادك. وكَبِّر أرْبعاً وثلاثين وسبِّح ثلاثاً وثلاثين، وحَمِّدْ ثلاثاً وثلاثين، ويقرأ آية الكرسي وآخر البقرة، ويقرأ من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: الآيات 54-56] . و ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ

﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: الآية 110] فإنه يدخل في شعاره مَلَكٌ مُوَكّلٌ بحفظه يستغفر له ويقرأ المُعَوّذتين وينفث بهما في يده، ويمسح بهما وجهه، وما استطاع من جسده، كما فعل ﷺ.

وعن معروف الكرخي رضي الله عنه، عن عمر بن دينار، عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه أنّه قال: مَن قال عند منامِهِ: اللهمّ لا تؤمِنّا مَكْرَكَ ولا تُنْسِنا ذِكْرَكَ، ولا تكشف عنّا سِتْرَك ولا تجعلنا من الغافلين، اللهمّ ربّ أيقظنا في أحبّ السّاعات إليك، حتى نَذْكُرَكَ فتَذْكُرنا أو نسألك فتعطينا، وندعوك فتستجيب لنا، ونستغفرك فتغفِر لنا، بعث الله ملكاً في أحبّ الساعات إليه، فيوقظه، فإن قام وإلاّ صَعَد ذلك المَلَك، ويعث ملكاً آخر فيوقظه، فإن قام، وإلاّ صعد ذلك الملك، فقام مع صاحبه فإن قام بعد ذلك ردعا استُجيب له وإن لم يَقُمْ كتب الله له ثواب أولئك الملائكة. انتهى.

وقال الثعالبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ [الكهف: الآية 107] من قرأها عند النّوم إلى تمام السّورة بعثه الله في ساعة الإجابة، وقد جُرّب ذلك فصحّ. والحمد لله رب العالمين.

التّاسع: أن يتذكر عند النّوم، أن النوم نوع وفاة والتيقظ نوع بَعْثٍ. قال لُقمان لابْنِهِ: يا بُنَي، إن كنت تشكُّ في الموت فلا تَنَمْ، فكما أنّك تنام كذلك تموتُ. وإن كنت تشكُّ في البعث فلا تنتبِهْ، فكما أنّك تنتبه بعد نومك كذلك تبعث بعد موتِكَ. فَحَقٌ على العبد أن يفتش على قلبه عند نومِهِ على ماذا ينام، وما الغالبُ عليه؟ هل حبّ الله وحبّ لقائِهِ أو حبّ الدنيا وليتحقق أنه يتوفّى على ما هو الغالب عليه، فإنْ المَرْء مع مَنْ أحبّ، ومع ما أَحَبّ.

العاشِرُ: الدّعاءُ عند التّنبه فليَقل في تيقظاته وتقلّباته ما كان رسول الله ﷺ يقولُ: «لا إله إلاّ الله الواحد القهّار، ربّ السماوات والأرض وما بينهما العَزيز الغفار». وفي صحيح البخاري: «مَن تعار من الليل، أي استيقظ، فقال: «لا إله إلاّ الله وحْدَه لا شريك له له المُلك وله الحَمد وهو على كل شيء قديرٌ. سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبرُ ولا حَوْل ولا قوّة إلاّ بالله، ثم قال: اللّهُمّ اغْفِرْ لي، أو دعا استُجِيبَ لَهُ».

قال الشيخ زروق: هذا من الغَنائم الباردة. وحديث الترمذي: من قال عند نَوْمه: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم، ثلاثاً، غفرت ذُنوبهُ، وإن كانت مِثْلَ زَبَدِ البحرِ، وإن كانت مثل رمل عالج، وعدد أيّام الدّنيا وورق الشجر» هـ. وليكن آخر ما يخطر على قلبك عند النّوم، ذكر الله، وأوّل ما يرد عليه عند التيقظ ذِكر الله،

فهو علامة الحبّ ولا يُلازم القَلْب في هاتين الحالتَيْن إلاّ ما هو الغالب، وليجرب قلبه بها، فإنها علامة تتكشف عن باطن القلْب، فإذا نَهَضَ للقيام ذكر ما تقدّم وغيره. والسّلام.

الوِرْد الرّابعُ: يدخل بِمُضيِّ النّصف من الليل، إلى أن يبقى مِنَ اللّيل سُدُسه:

فإذا مضى النّصف قام للتّهجُد، فأقسم التّهجد قِسْم يختصّ بما بعد الهجود والهُجُوع، وهو النّوم، وهذا أوسط اللّيل، ويُشْبهه الوِرْد الذي بعد الزّوال، وهو وسط النّهار، وهو الذي أقسم الله به، فقال: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: الآية 2] أي سَكَنَ، وسكونه هُدُوؤهُ في هذا الوقت، فلا تبقى عين إلاّ نامَتْ سوى الحيّ القيّوم الذي لا ينامُ.

وسُئِل رسول الله ﷺ: أي الليل أسْمع. فقال: «جَوْف اللّيْلِ». وقال داود: إلٰهي، إني أحِبّ أن أتعَبّد لك فأيّ وقت أفضل؟ فأوحى الله إليه: يا داود، لا تَقُمْ أوّل الليل ولا آخِرهُ، فإنه من قام أوّله نام آخره، ومن قام آخره لم يقم أوّله، ولكن قُمْ وسط الليل حتى تخلوَ بِي، وارْفع إليّ حوائِجَك. وسُئل رسول الله ﷺ: أي اللّيل أفضل؟ قال: «نِصْف اللّيل الغابِر»، أي الباقي، وفي آخر الليل، وردَتِ الأخْبَار باهْتِزاز العَرْشِ وانتشار الرّياح من جنّاتِ عَدْنٍ وغير ذلك.

وترتيب العمل في هذا الوِرد، أنه إذا فَرَغ من دُعاءِ التيقظ، توضأ وتوجّه إلى مُصَلاّهُ. ثم يستقبل ويقول ما في الصحيح عنه ﷺ: «اللّهُمّ لك الحَمْدُ، أنت قيّم السماوات والأرض ومَن فيهنّ، ولك الحمدُ أنت مَلِك السماوات والأرض ومن فيهنّ. ولك الحَمْد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمدُ أنت وَعْدكَ الحق، ولقاؤك حقّ والجنّة حق، والنار حقّ، والنبيؤن حقّ، ومحمّد حقّ، اللّهُمّ لك أسْلَمت وبك آمَنْتُ، وعليك توكّلْتُ، وإليك أنَبْتُ، وبك خاصَمْتُ، وإليك حاكَمْت، فاغفِر لي ما قدّمْتُ وما أخْرْت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخّرُ، لا إله إلاّ أنت». انتهى بلفظ البخاري. وأدْعية هذا الباب كثيرة. ثم يصلي وِرْده من القرآن أو من السور المخصوصة ما خفّ عليه، وبالله التّوفيق.

الوِرْد الخامس: السُدُس الخامس من آخِرِ الليل، وهو وقت السّحَر:

قال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات: الآية 18] قيل: يصلون، لِمَا فيها من الاستغفارِ، وهو قريب من الفَجْرِ، الذي هو وقت انصراف مَلائكة الليل، وإقبال ملائكة النّهار. ووقت السحر للصّائِم. ويشتغل بالاسْتغفار والدّعاء إلى طلوعِ

الفجر، وإن منَّ الله بالعلم، فالمطالعَة أفضل الأعمال، ليُعَلِّم عِبَاد الله فإذا طلع الفجر انقضت أورادُ الليل، ودخَلت أوْرَاد النَّهار. فهذا ترتيب أوْرَاد العُبَّاد، وقد كانوا يحبّون أن يَجْمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعةٍ: صوم، وصدقة، وإن قلت، ولو للهر لقمة، وعيادة مريض، وشهود جنَازة.

ورُوي: مَن جَمَعَ بين هذه الأمور دخل الجنَّة. فإن اتفق بعضها وعجز عن الباقي كان له أجْر الجميع بحسب نيّته. وكانوا يكرهُونَ أن ينقضي اليوم ولم يتصدَّقوا، ولو بتمرَة أو بصلة، أو كسْرة خُبْزٍ لقوله ﷺ: «الرَّجُلُ في ظِلِّ صدقَتِهِ حتى يقضى ما بين النَّاس»، ولقوله: «اتَّقوا النَّار ولو بشق تَمْرَة». وكانوا يكرهُونَ ردَّ السائل تخلقاً بأخلاقِ رسول الله ﷺ إذا ما سأله أحدٌ شيئاً، لا يقول: لا، ولكنه إذا لم يقدر عليه أسْلَفَ. وفي الخبر «يُصْبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جَسِدِهِ صدقة» يعني المفْصل، وفي جَسَدِهِ ثلاث مائة وستون مَفْصلاً، فأمر بالمعروف صَدَقة، ونَهي عن المُنكَر صدقة، وحملك الضعيف صدقة». حتى ذكر التَّسبيح والتهليل، وركْعتي الضُّحى، تأتي على ذلك كُلِّهُ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواءِ الطريق.

هذا تمامُ أوْرَاد المتجردينَ مِنَ العُبَّادِ. وسنُبَيِّن ما تَضَمَّنَهُ الورد الأول من الأذكار الواردة في الأحزاب، أوَّلها حِزْبُ الفلاحِ، للفقيه الإمام العارف بالله شيخ الصدقة، الجامع بين الشريعة والحقيقة، أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكرٍ بن سُليمان الجَزُولي، نفعنا الله به. قال في مرآة المحاسن:

أوله: أعُوذُ بالله مِنَ الشيطان الرجيم. بِسْم الله الرَّحمٰن الرَّحيم. الحمْدُ لله الذي لم يتَخِذْ ولداً[1] ولَمْ يكُنْ له شَرُيك في المُلْكِ ولَم يكن له وليٌّ من الذُّلِّ وكَبِّرْه تَكْبيراً» والذي استقرَّ عليه العملِ زيادتها. وقد زيد في هذا الحزب زيادة كثيرة في أوله ووسطه، فأوله: «لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له له المُلْك وله الحَمْد يُحيي ويميتُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ»، إلى آخر ما هو معلومٌ.

فأمَّا: لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريكَ له، لَهُ المُلْك وله الحَمْدُ الخ.. فعن أبي أيُوب الأنصاري، يرفعه إلى رسُول الله ﷺ. قال: «مَنْ قال غُدْوة لا إلٰه إلاّ الله وَحْده لا شريك لهُ، لهُ المُلْك ولَهُ الحَمْدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ»، كتب الله له عشر حسنات ومَحَا عنه عشر سيِّئات، وكُنّ له عدْل عشر رقابٍ، وأجارَهُ الله مِنَ الشيطان. ومن قالها عَشية مثل ذلك». رواه أحمد والنسائي وغيرهُ.

(1) قيل: إلى هنا فقط كان للجزولي، والباقي زيادة.

وأمَّا: حَسْبِيَ الله ونِعَمْ الوَكِيل. . فقال أبو الدَّرداء رضِيَ الله عنه: مَنْ قال إذا أصْبَحَ وإذا أمْسَى: حَسْبِي الله لا إلٰه إلاَّ هُوَ، عليه توكَّلْتُ وهو ربّ العَرْشِ العَظِيم، سبع مرَّات، كفَاه الله ما أهَمَّهُ، صادقاً كان أو كاذِباً». رواه أبو داود مرفوعاً، ورفعه ابن السني وغيره.

قُلْتُ: ومعنى صِدقه فيه، اكتفاؤه بالله واستغناؤه به عن غيره. ومعنى كَذِبُهُ، عَدَم تحققه بذلك. وأما اللَّهُمَّ صَلِّ على سيّدنا محمَّدِ النَّبِيّ الأُمِّيّ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسلّم، فقال أبو الدّرداء أيضاً رضي الله عنه: قال رسُول الله ﷺ: «مَنْ صلَّى عليَّ حين يُصْبح عشراً، وحين يُمْسِي عشراً، أدْرَكَتْهُ شفاعتي يوم القيامَةِ» رواه الطبراني بإسنادَيْنِ، أحدهما جيّد.

وأمَّا: «اللَّهُمَّ أجِرْنَا مِنَ النَّار بِعَفْوِكَ. . الخ، ففي الحديث: إذا قال العبد: اللَّهُمَّ أجِرْني مِنَ النَّار، تقول النار: اللهمَّ أجِرْهُ منِّي. وإذا قال العَبْد: اللَّهُمَّ أدخِلْني الجنَّة. تقول الجنَّة: اللَّهُمَّ أدْخِلْهُ إيَّاي. أخرجه الترمذي وابن حبان، ولفظه: «مَنْ سأل الله الجنَّة ثلاث مرَّات، قالت الجنَّة: اللَّهُمَّ أدْخِله الجنَّة. ومَنِ اسْتَجَارَ مِنَ النَّار قالت النَّار: اللهمَّ أجِرْهُ مِنَ النَّار» هـ.

وفي الجامع الصَّغير: إذا صليْت الصُّبح، فَقُلْ قبل أن تكلم أحداً مِنَ النَّاس: اللَّهُمَّ أجِرْني من النَّارسَبْعَ مرَّات. . . فإنك إن مت مِنْ يومك كتَبَ الله لك جواراً من النَّار. وإذا صلَّيْتَ المغرب، فقل قبل أن تكلم أحداً من النَّاسِ: اللَّهُمَّ أجِرْنِي من النَّارِ، سبع مرَّات، فإنك إن متَّ من ليلتِك كتب الله لك جِوَاراً من النَّار». أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبَّان. هـ.

وأمَّا سُورة القَدْر، فقال في النَّصيحة الكافية: «ومن أراد السلامة مِنْ لسانِهِ فليكثر من قراءة سورة النَّاس وسورة القَدْر. وقد اشتملَتْ على الإعلام بإنْزَالِ القُرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ومن ثُمَّ كثرت خواصُها حتى قيل فيها: كَنْز الفقراء. والله أعلم.

وأمَّا قوله: «وقُلِ الحَمْد لله الذي لم يتَّخِذْ ولداً. . إلى تكبيراً». فقال الشيخ زَيْنُ الدِّين القرافي حديث فَضْلٍ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: الآية 111] رواه أحمد والطبراني عن أنسٍ: آيَةُ العِزّ: الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في المُلْكِ ولم يكُنْ له وليٌّ من الذُّلِّ وكَبِّره تكْبيراً» وإسناده ضعيف.

وأمَّا قوله: «جزى الله عنَّا سيِّدنا ونبيَّنا محمداً أفضل ما هو أهْلُهُ» فقال في

التّرغيب: رُوِي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال: جَزَى الله عنّا محمّداً أفضل ما هو أهْلُهُ، أتعب سبعين كاتباً ألف صباح». رواه الطبراني في الكبير وفي الأوسط. هـ. والحديث عنده ضعيف لتحديده برُوي، وأما قوله: أفضل ما هو أهله، فهو الثابت في الحزب. وكذلك تلقته الطّائفة الجَزُولية. ورأيناه كذلك بخطِّ الشيخ أبي عثمان سعيد الدّكّالي، وهو من أصحاب الشيخ الجزولي، وأنكره بعض الناس لوجهَيْن:

أحدهما: أن هذا الحديث، لم يُثبت فيه زيادة لفظة أفضل.

وثانيهما: أن معناه أفْضل مما هو أهْلُهُ. وقد نادَى النّاس بالنّكير عليه. وكتب في ذلك غير واحدٍ من العلماء، منهم أبو عبد الله القصّار، ونصُّ ما كَتَبَ: ذلك، أنكر بعضهم لفظ أفْضَل، في حِزْبِ الفَلاَحِ، وعلى فَرْضِ أنه لم يَرِدْ لا يقدم الدّاعي والذّاكر والمصلون ما وَرَد، إلاّ يزيد، وقد زاد غير واحِدٍ من الصّحابة ومن بعدهم، والممنوع نِسْبة الزيادة له ﷺ. كيف وقد رُوِي عنه عليه الصّلاة والسّلامُ: «اللّهُمّ يا رب محمد وآل محمد، أجْزِ محمّداً أفْضَل ما هو أهْلُهُ». عيّاض عن وَهْبٍ: اللّهُمّ أعْطِ محمّداً أفضل ما سألكَ لنَفْسِهِ، وكُلّ ما سأل لنَفْسِهِ، وهو أهل له، لأنّه خَيْرٌ وهو أهْل كُلّ خَيْرٍ. ونقول: عليه أفْضَل الصلاة والسلام، وهو أهْل له. لما تقول ﷺ دُونَ أفْضَل، وهو أيضاً أهْل. والمراد أن الأشياء التي تَصْلُحُ لِجَزَائِهِ كثيرة، وأنا أطلب له أفضلها. هـ وقد أطال الكلام في المرآة على ما يتعلق بالإعْرَابِ، تركته مخافَةَ التطويل، فقد أجادَ فيه رحمهُ الله.

وأمّا قوله: «سُبْحانَ رَبّيَ العَظِيم وبِحَمْدِهِ ولا حَوْل ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم» فأخرجه في التّرغيب عن البزّار. ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال خَلْفَ الصّلاة: سُبْحان الله العظيم وبحمده ولا حَوْل ولا قوّة إلاّ بالله العلِيّ العظيم، قام مغفوراً له» هـ. إلاّ أن الشيخ أبْدل لفظ الجلالة بالرّب، والأمر سَهْلٌ.

وأمّا قوله: «أسْتَغْفِرُ الله العَظيم الذي لا إلٰه إلاّ هُوَ الحَيُّ القيُّوم، بديع السماوات والأرض وما بينهما مِنْ جميع جُرْمِي وطلبي وما جنَيْتُهُ على نفسي وأتوب إليه» فقال الشيخ بهاء الدين بن عُقَيْل: رَوَى بعض السّلف أنه قال: «مَنْ قال كل يوم ثلاث مرات بعد صلاة الصُبح مدّة شهر: أسْتغفر الله العظيم الذي لا إلٰه إلاّ هُوَ الحيّ القيوم بَدِيع السّماوات والأرض وما بينهما مِن جميع جُرْمِي وظُلْمي وما جَنَيْتُهُ على نَفْسِي وأتُوبُ إليه، أُعْطِي كَنْزَيْنِ: كَنْزاً من المالِ وكنزاً من العِلْم». وفي ألفاظِهِ بعض مخالفة لِمَا في الحِزْبِ كما رأيتُ. والمعنى واحد، ولعلّه اختلاف في الرّوايات.

وأمّا قوله: «فسُبْحانَ الله حين تُمْسُونَ وحين تُصْبِحونَ وله الحَمْدُ في السّماوات والأرض وعَشِيّاً وحين تظهرُون. يُخرِجُ الحيّ من الميّت ويُخرج الميت من الحيّ ويُحْيي الأرض بعد موتِهَا، وكذلك تُخْرَجون» فقال ابن عبّاس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال حين يُصْبِحُ: فسُبْحانَ الله حين تُمْسُونَ وحين تُصْبِحونَ وله الحَمْدُ في السّماوات والأرض وعَشِيّاً وحين تظهرُون. يُخرِجُ الحيّ من الميّت ويُخرج الميت من الحيّ ويُحْيي الأرض بعد موتِهَا، وكذلك تُخْرَجون، أدرك ما فاتَهُ في يومه ذلك. وإن قالهُنّ حين يُمْسي أدْرَك ما فاته في ليْلتِهِ». رواه أبو داود ولم يُضَعّفْهُ. وتكلّم فيه البُخاري في تاريخه. قاله في التّرغيب. وهذه الآية ليست من الحِزْبِ على ما في المِرآة، بل الثابت بعد قوله: أستغفر الله... الخ: لا إله إلاّ الله محمدٌ رسول الله ﷺ تِسْعاً، لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ﷺ، ثَبّتْنا يا ربّ بقولها، وارْحَمْنا يا ربّ بِفَضْلِها، واجعلنا من أخيارِ أهلها، واحْشُرْنا في زُمْرة قومها ثلاثاً: آمين، آمين، آمين، آمين يا ربّ العالمين. انتهى من مِرْآة المحاسِنِ.

وأمّا المُسَبّعاتُ العَشْرُ، فهي من شِعار الطريقة. وقد ذكرها الشيخان، أبو طالب وأبو حامد، والشيخ شهاب الدّين السهروَرْدي وغيرهم. فذكر في الإحياءِ جملة من الآيات تستحبُ قراءتها، لورود الأخبار بفضلها. ثم قال: وإن قرأ المُسَبّعات العَشْر التي أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم اليتمي، ووصّاه أن يقولها غُدْواً وعشيّاً فقد استكمل الفضل وجمع له فضيلة جملة الأدعية المذكورة في عوارف المِعْيار، يُنَال بالمُداومة عليها جميع المتفرّق في الأذكار والدّعوات. هـ.

وقال الشيخ أبو عبد الله الخرُوبي: هي من الأذكار العظيمة، التي جَرَتْ عادة الصّالِحين والعُبّاد بقراءتها، ويضيفونها إلى وظائِفِهم وأورادهم، قديماً وحديثاً، غدوة وعشية، ولم يزل الشيوخ يأمُرون إخوانهم وأصحابهم بقراءتها، ويحُضُونهم عليها. وما زال أشياخنا رضي الله عنهم يحضُوننا عليها مُنذ كنّا صغاراً هـ.

وقد أسند حديثها في القوة عن كرز بن وَبَرَة، قال: وكان من الأبْدَال، عن أخٍ له من أهل الشّامِ، عن إبراهيم اليتمي، عن الخضر عليه السلام، عن النّبيّ ﷺ. قال إبراهيم اليُتمي رضي الله عنه: كُنت جالساً في فِناءِ الكَعْبَةِ، وأنا في التهليل والتّسبيح، فجاءَنِي رجلٌ فسلّم عليّ وجَلَسَ عن يميني، فلم أرَ في زماننا أحسن منه. فقلت: يا عبد الله مَنْ أنت؟ ومن أين جئت؟ قال: أنا الخضرِ. فقلت: في أي شيء جئتني؟ فقال: جئتكَ للسّلام عليك، وحُبّاً لكَ في الله، وعندي هدية أُريد أن أُهْدِيها لكَ. فقلت: ما هِيَ؟ فقال: أنْ تقرأ قبل طلوع الشمس وانْبِساطها على الأرض، وقبل الغروب: قُلْ أعُوذُ برب النّاسِ، وقُلْ اعُوذُ بربّ الفَلَقِ، وقل هو الله أحَدٌ، وقل يا أيها

الكافِرونَ، وآية الكرسي، كل واحدة سَبْعَ مرَّات وتقول: سُبحان الله والحمْدُ لله ولا إله إلاَّ الله والله أكْبَر سبعاً وتُصلِّي على النَّبِيّ ﷺ سبعاً، وتستغفر للمؤمنين والمُؤمِنَات سَبْعاً، وتستغفر لك ولوالديْكَ سبعاً، وتقول: اللهم افْعَلْ بي وبِهِم عاجِلاً وآجِلاً في الدِّين والدّنيا والآخرة ما أنت أهْله، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن أهله، إنَّك غفور رحيمٌ، سبع مرَّات، وانظر لا تدَع غدوة وعشية. فقلت: من أعطاكَ هذه العَطِية؟ فقال: أعْطانيها محمد ﷺ. فقُلْتُ: أخْبِرْني بِثوابِ ذلك. فقال: إذَا لقيت محمداً فَسَلْهُ عن ثوابِهَا، فإنَّه يُخْبِرك بذلك. فذكر إبراهيم اليُتمي أنَّه رأى ذات ليلة في منامه، كأنَّ الملائكة جاءَتْهُ فاحْتملَتْه حتى دخلوا به الجنَّة، فرأى ما فيها، ووصف أُموراً عظيمة مما رآه في الجنَّة. قال: فسألْتُ الملائكة، فقلت: لِمَنْ هذه كلها؟ فقالوا: للَّذي يَعْمَلُ مثل عَمَلِكَ. وذكر أنَّه أكل من ثَمَرِهَا، وسَقَوْه من شَرَابها، قال: فأتَى النَّبي ﷺ وسبعون صفاً من الملائكة كلّ صفّ مثل ما بين المَشرِق والمغرب، فسلَّم عليَّ وأخذ بِيَدي فقلتُ: يا رسول الله إنَّ الخَضِر أخْبَرني أنَّهُ سَمِعَ منك هذا الحديث. فقال ﷺ: «صَدقَ الخَضِر، وكل ما يحكيه حقٌّ، وهو عالم أهْل الأرض، وهو رئيس الأبْدَالِ، وهو جنود الله في الأرض». فقلت: يا رسول الله فمن فعل هذا أو عمله ولم يرَ مثل الذي رأيته في منامي هل يُعْطى شيئاً مما أُعطيته؟ فقال: «والَّذي بَعَثَنِي بالحقّ إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يَرَنِ، ولم يَرَ الجنَّة، إنَّه لتُغفَر له جميع الكبائر التي عملها ويَرْفَع الله عنه غضبه ومقتهُ، ويؤمر صاحب الشِّمال ألاَّ يكتب عليه شيئاً من السيِّئات إلى سَنَةٍ. والذي بَعَثَني بالحقّ نَبِيّاً ما يَعْمل بعد هذه الرُّؤيا بهذا إلاَّ مَنْ خلقهُ الله سَعيداً ولا يتركه إلاَّ مَنْ خلقهُ الله شقيّاً».

وعن إبراهيم اليتمي: أنَّه مكَثَ أربعة أشهُرٍ لم يُطعم ولم يشرب، فلعله بعد هذه الرؤيا. انتهى. قاله في الإحياء، ولم يذكر الفاتحة فيها وذكرها في المِرْآة، وقال: إنَّه يتعوَّذُ قَبْلها ويُبَسْمِلُ ثم يُبَسْمِل فقط قبل كل سورة. ثم قال: وأحال في الإحياء والقوت على السّوَر وآية الكرسي من غير تعرُّضٍ للبسمَلَة. وما كتبناه في الباقِيات الصَّالحات هو المجموع عن الرِّوايات، فإن بعضها يزيد على بعضٍ، ولم يعيّنوا لفظ الصَّلاة على النبيِّ ﷺ، والذي كَتَبْنَاه هو الذي وجَدْنا النَّاس عليه، يعني اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّد كما صلَّيت على إبْرَاهيم وعلى آلِ إبراهيم، وبارك على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كما باركْتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم، إنَّك حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بارِك على محمَّدٍ وعلى آلِ محمد، كما بارَكْتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبْراهيم، إنَّك حَمِيدٌ مَجِيدٌ، لأنها رواية البخاري ومسلمٌ في صحيحيهما وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. ولفظ: جواد كريم، رؤوف رحيم، في آخر المُسَبَّعات من زيادة العوارف. هـ.

وأمّا الحِزْبُ الكبيرُ؛ فهو عند الشيخ ابن عطاء الله والشيخ ابن عبّاد، وأبي القاسم البرزلي، والشيخ زروق، وجمهور الشاذلية. أوّله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: الآية 54] الخ. . . وفيه ثلاث روايات، وعلى رواية الشيخ ابن عبّاد جَرَى العمل غالباً بِفَاس، وأما واضِعُهُ فهو الشيخ الأبَرَك والغَوْث القطب الجامع الأشهر إمام الطَّريقة ومَعْدِن الحقيقة الشَّريف الحَسَني الإدْريسي أبو الحسن الشاذلي بالشِّين والذَّال المعجمتَيْنِ.

وشاذلة: قرية بإفريقية. نزيل الإسكندرية، وإمام الطريقة الشّاذلية، قطب الزمان والحامل في وقْتِهِ لِوَاء أهل العِيَان، حُجَّة الصّوفية علم المجتهدين، زين العارفين، أُستاذ الأكابر، وزمزم الأسْرار، ومَعْدِن الأنوار، والقطب الغوث الجامع، صحب الشيخ نجم الدِّين الأصبهاني وابن مشيش وغيرهما، وحجَّ مرَّات ومات بصحراء عِيذاب، قاصِداً الحج فدُفِنَ هناك في ذي القعدة سنة ستّ وخمسين وست مائة، وكانت ولادته سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

قال الشيخ شمس الدين بن حسن الحنفي: اختصَّت الشّاذلية بثلاثة أمورٍ، لم تكن لأحَدٍ قَبْلهم، ولا لأحدٍ بعدهم.

الأولى: أنّهم مختارون من اللّوح المحفوظ.

الثانية: إنَّ المجذوب منهم يَرْجع إلى الصَّحْوِ.

الثالثة: إنَّ القطب منهم دائماً إلى يوم القيامة.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: سألت الله أن يكون القطب في بيتي إلى يوم القيامة فإذا علي يقال: يا علي، قد استَجَبْنَاك. ولذا قال القطب سيدي علي بن وَفَا: تلميذُهُم أستاذ. على زمان، وهو رضي الله عنه لم يَدْخل طريق القوم حتى كان يُعدّ للمناظرة، في العلوم الظَّاهِرة. شهد له الشيخ أبو عبد الله بن النعمان بالقطبانية، وكان الشيخ تقي الدِّين بن دقيق العيد رضي الله عنه يقول: ما رأيت أعْرَف بالله من الشيخ أبي الحسن الشّاذلي. وكان الشيخ رضي الله عنه يقول: قيل لي ما على وجْهِ الأرض مجلسٌ في الفقه أبْهَى من مَجْلس عبد العظيم المُنْذري وما على الأرض مجلس في عِلْم الحقائق أبهَى من مجلِسكَ. وكان يَحْضُر مَجْلسه من أهل عَصْرِهِ أكابِر كابْنِ الحاجب وابن عبد السَّلام عِزّ الدين، وابن دقيق العيد، وعبد العظيم المُنْذري، وابن الصَّلاح، وابن عصفور فكانوا يحضرون ميعاده بالمَدْرسة الكاملية من القاهرة. ويقرأ ابن عطية والشفاء ويمرّون بين يدَيْه إذا خَرَجَ. وكان رضي الله عنه يقول: إذا عَرَضَتْ

لك إلى الله حاجة إلى الله فاقسم على الله بي.

قال الشيخ أبو العباس المِرْسي: فكنتُ والله لا أذكرهُ في شِدَّةٍ إلاَّ انفَرَجَتْ ولا أمْرٌ صَعْبٌ إلا هان. وقال الشيخ أبو عبد الله الشَّاطبي: كنت أتَرَضَّى على الشيخ في كل ليلة كذا وكذا مرّة، وأسأل الله تعالى في جميع حوائجي وأجِد القبول في ذلك مُعَجَّلاً. فرأيت رسول الله ﷺ فقُلت: يا رسول الله إنِّي أترضَّى على الشيخ أبي الحسن في كل ليلة بعد صلاتي عليك فأسأل الله في حَوَائِجي أفتري على الله شيئاً في ذلك إذْ تعدَّيتكَ. فقال لي: «أبو الحسن ولدي حِسّاً ومعنى، والوَلد جُزْءٌ من الوَالِدِ. فمن تمسَّك بالجُزْءِ فقد تمسَّك بالكُلِّ وإذا سألت الله بأبي الحسن فقد سألتَهُ بي» هـ.

وأمَّا مناقِبُهُ وعجائب كراماتِهِ، فأكثر من أن تُحْصَى. أفْرَدها بالتَّأليف ابن الصبَّاغ وغيره، وقد طرَّزتْ الكتب والدفاتر بكلامِهِ وأذعيته.

وكان رضِيَ الله عنه يقول في فضل الحِزْب الكبير فيما حكاه سيدي عبد النُّور العمراني بواسطَتَيْن عنه رضِيَ الله عنه: ما رتَّبْتُ منه كلمة إلاَّ بإذن من ربّي وإذْنٍ من رسول الله ﷺ أي على وجه التَّلَقِّي يقظة أو نوماً. وإنّه أمانٌ للإقليم الذي يُقرأ فيه، ولو قرِيءَ ببغداد ما أُخِذت. وقال: إنّه اجتمع في قراءته معه أربعون من الأبْدَال مواجَهَة الكَعْبَة. وقال: مَن حفظه فهو من أصحابي. وقال: مَنْ قرأ حِزْبي فله ما لنا وعليه ما علينا. وكان دَاخِلاً في شفاعَةِ جدِّي رسول الله، يعْني شفاعة خاصّة، أمَّا العامة لكُلّ مُؤمِنٍ.

قلتُ: ويُضيف إليه حِزْب الشيخ الإمام، الولي، القطب، أبو زكرياء، يحيى النُّوري فإنه حفظ ومانِع مِنْ تصرُّف أهل الظَّاهر والباطِن. على ما نقل عن الشيخ القطب جمال الدِّين يُوسف بن عبد الله الكوراني قال: من واظب على قراءة حِزْب النُّوري بعد الصُّبح والمَغْرب أو قال بعد الصُّبْح والعشاء، فإنه لا يقْدِر أحدٌ أن يتصرَّف فيه لا مِنْ أهل الباطِنِ أرباب القلوب المتصرِّفين بالحقّ. أو قال: بالأحوال الصحيحة ولا من أهْلِ الظاهر أهل الشَّطَارة والسِّحر والمَكرِ والحزب والخصام والعَدَاء. والله تعالى أعلم.

وقد جَرَتْ عادة الفضلاء قراءة تَصْلية الشيخ القطب المحقق، الواصل المُوَصّل، شمس زمانِهِ وفريد دَهْرِهِ وأوانه سيدنا مولانا عبد السلام بن مشيش، نفعنا الله به، يقرؤونها بعد الوظيفة متصلة بها. نَفَعَنا الله بهم أجمعين.

وقد رأيت أن أختِمَ هذا الكتاب بِوَصية عظيمة، جامِعة مُفِيدة، مَنْسُوبة للمؤلِّف صاحِب الوظيفة، ونصُّها بَعْد البَسْمَلة والتَّصلية: اعْلَم أخي وفّقني الله وإيَّاكَ لأسبابِ

النَّجاةِ، وجعلنا ممَّن تعلَّق بها في جَمِيع الحالات، أن أُصُول القوم دائرة على خمسة أشْيَاء، مَنْ قام بها كان له ما لهُمْ من الحُرْمة، وعليه ما عليهم مِنَ الرَّحْمَة. ومن خالَفَ عنها كان بريئاً مِنْ طريقِهِم في الجملة.

أوّلها: رَفْعُ الهِمَّة عَنِ الخلائِقِ، وعدم التشوق إليهم في دَفْعٍ أو جَلْبٍ، إلاَّ من حَيْثُ أمَرَ الله تعالى بذلك، وسمّي رسْماً تشريفاً لا غير ذلك.

الثاني: العَزْمُ على البِّر والتَّقْوى، بطول الحياة، غير تقصير ولا فترة، ثم إن قَصَّر به الحال وغَلَبَتْه النفس بادَرَ للتَّوبة دون إضرارِ البتَّة، ولو في لحظة، ولا يقوم من موضعه حتى يأتي بطاعةٍ ترْفَعُ ما بَرَزَ منه... والمَرْء غَيْر معصوم بكلِّ حالٍ.

الثالث: القناعَةُ بما فتح الله تعالى من أسْباب الدُّنيا. قُلْتُ: أوجلت دون تشوف لما وراء ذلك، فلا يختار لقمة على لُقْمَة، ولا لِبْسَة على لبْسَة، ولا شُرْبة عند التخيير. ويختار ما لا كُلفة فيه أبداً لأنَّ الكُلْفَة تَفْسد الدِّين، وتنقب القلْبَ، وتُهلك في المعَاشِ، وتدعو إلى أخذِ الحَرَامِ والشُّبُهات، ووجود الرِّياءِ وغيره من البلايا العظيمة.

الرّابع: القِيام بآدَابِ الشَّريعة، من السُّنَنِ والمنْدُوباتِ المُهِمَّاتِ دونَ تتبع الفضائلِ ولا قصور الهِمَّة عن مهمها ما علمت دوامه مع طِيب نَفْسك فلا تؤثر عليه قلّة ولا كَثْرَة، لأنَّ العبادة مع طيب النَّفْس وفَرَح القلب بالله أعظم نَفْعاً في الدّنْيا والآخرة.

الخامِسُ: دَوَامُ الحُضُور مع الله حسب إمكانِك، فإن لم يكُن بوجود القَلْبِ، فباللِّسانِ وهو الذِّكْرُ. فإن لم يمكنا لقلة الفراغ، فبالنيّة. وذلك ألاّ تَدْخل في عَمَلٍ إلاّ لله، فتكون حَرَكاتك فيه ذِكْرٌ، وشَرْح ذلك يطُول. ولكن أذْكر لك ما فتح الله تعالى عليّ ويليق بحالِكَ.

فأمَّا رفع الهِمَّة بأن لا تتشوَّف، ولا تُزْفع، ولا تتبَعْ ولا تطمَعُ فيما في أيدي النَّاسِ ولا تتوهَّم أنه يُطيعُكَ ولا تَدْفَعْ ما يأتيك به الله دون تشوّق ولا طمع. ولا تتبع بِقَلْبِك ما فاتَكَ حُزْناً عليه، ولا تأسُفاً على فواتِهِ إذا احْتَجْت إلى شيء واشتهيْتَهُ فاطْلُبْ مولاك أن يُوَصِّله لك من أي وجه شاءَ لا مِنَ الوجه الذي تَتَوَهَّمُهُ، بذلِكَ يَتَقَوّى إيمانُكَ ويَدُوم عِزّك وتنفذ إرادتك.

فقد قال الشيخ أبو العبَّاس المِرْسي رضي الله عنه: والله ما رأَيْتُ العِزَّ إلاَّ في رَفْعِ الهِمَّةِ عن المخلوقين. وقال بعضهم: ما قُدِّر لماضغك أن يَمْضَغه فلا بدَّ أن يمضغَهُ، فكُلْ رِزْقك بعزٍّ ولا تأكُله بذُلّ. وأنشدُوا في ذلك:

اضرَعْ إلَى اللّهِ ولا تَضرَعْ إلى النَّاسِ ... واقْنَعْ بِعِزٍّ فإنَّ العِزّ في اليأسِ

واسْتَغْنِ عن كُلِّ ذي قُرْبى وذِي رَحِمٍ ... إنَّ الغَنِيَّ مَنِ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاس

ولا يَتِمُّ لك هذا إلاّ باستغنائك عن نَفْسِك، وذلك بأن تعتقد وتجزم على أن ما يَقَع من أسبابها لا يفيد مقاصدها، وإنما تَحْصل المقاصِد بفضْلِ الله فتَيْأس منها، فتتعلّق بهِ تعالى لِعِلْمِكَ أنها لا تُغْنِي عنك شيئاً، إذْ لو كان الأمْرُ ذاتياً لها لكان كل مُسَبّب يسْتفيد مُرَادهُ وليس كذلك، بل غالِبُ الأمْرِ أنَّ الضَّيَاع إنما يقَعُ لنجبَاء الصّنَّاعِ في أمْثال العامَّة السَّائرة من كثرة صُنَّاعِهِ. قُلْتُ: قُطَّاعه. وفي ذلك يقول القائِلُ:

وكَـمْ قَـوِيٍ قَـوِيٍّ فـي تـقَـلُّـبِـهِ ... مُـهـذّب الـرّأي عَـنْـهُ الـرِّزق مُـنْـحَـرِفُ
وكـم ضـعـيـف ضـعـيـف فـي تـقـلـبـه ... كـأنـه مـن خـلـيـج الـبـحـر يَـغْـتَـرِفُ
هــذا يــدُلُّ عــلــى أنَّ الــلّــه لَــهُ ... في الخَلْقِ سِرٌّ خفِيّ ليس يَنْكَشِفُ

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: يئِسْتُ من نَفْعِ نفسي لنَفْسِي، فكيف لا أيْأَسُ من نَفْعِ غيري لها. ورجَوْتُ الله لِغَيْري فكيف لا أرْجُوهُ لِنَفْسي؟ هـ.

واعلَمْ يا أخِي أنَّ بلايَا الخَلْقِ كلهم ومصائب دينهم ودُنْياهم مُتَوَلِّدَة من حَرْفَيْن هما خَوْفُ الخَلْق، وهمُّ الرِّزْق، وهما مُتوَلِّدانِ مِنْ ضُعْف الهِمَّة ودناءَةِ النَّفْسِ وذلِكَ من ضُعْفِ اليقين في بابِ الإيمان والتوكُّلِ فصحِّح إيمانك بالعمل على مُقْتضاه، وهو: «ما أصابَكَ لَمْ يكُنْ ليُخطِئَكَ وما أخطَأكَ لَمْ يكُنْ ليُصِيبَكَ» ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿107﴾﴾ [يُونس: الآية 107] فإذا تحققت من هذا كنت متحَققاً بعبادتِكَ، فإن أمر كل شيء إلى ربك كما أشارت إليه الآية القرآنية، والحقائق الإيمانية، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: الآية 98] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿99﴾﴾ [النحل: الآية 99]. فإنَّ العبودية الخاصة في تحقيق الإيمان والتوكُّل إذ قال في الآية الأُخرى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿65﴾﴾ [الإسراء: الآية 65] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿173﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿174﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان 173، 174].

والحَاصِل: الذي يُعَوّل عليه في هذا الفصل ثلاثة أمور لا بُدَّ لك منها إذا أردت صلاح قلبك.

أوّلها: أن تَحْسِب الخَلْقَ مَوْتى، فلا تطلُب منهم شيئاً ولا تُعوِّل منهم على شيءٍ لأنَّ قُلُوبهم ليست بأيديهم، ولذلك يتلقَّون الحالة الواحدة على وجوه، وإن لم يختارها.

الثَّاني: أن تكون حَوَائِجك كلها عند مولاك فَتَضرع إليهِ في القليل والكثير لا يقدر عليه سواه، وقد أمر بالضَّراعة إليه في الأمور، فوجَبَ امتِثال أمْرِهِ.

الثَّالِث: أن تعمل جهدَكَ عند الأسْبابِ وفي الطَّلَب من الخلائق، وغيره، لأن الله أمرك لأمرٍ زائدٍ، وعلامة صِدْقك في ذلك ألاَّ تتعدَّى الحق عليهم إن قصَّروا، ولا تُجاوز الحقَّ في شأنهم إن وافقوا مُرَادَكَ بل إن أعْطُوك شكَرْت مولاك وإن مَنَعُوك تَرْضَ بما تَوَلاَّكَ. واسْتَعِن على ذلك بالأذْكارِ الجامِعة للتَّفويض، مثل: «حسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل» خمساً وعشرين مرَّة بالغَدَاة وخمساً وعشرين مرَّة بالعَشِيِّ كما أخبَرَ به بعض أهْلِ الخير رحمَه الله.

وأيضاً: ما كان يُعَلِّمه الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لأصْحَابِهِ لضيْقِ الحالِ: يا واسِعُ، يا عَلِيمُ، يا ذا الفَضْل العَظيم، أنت ربِّي، وعلمك حَسْبِي، إنْ تمسسْنِي بِضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلاَّ أنْت، وإن تُرِدْني بِخَيْرٍ فلا رَادَّ لفَضْلِهِ تصيب بِهِ من تشاء من عبادِك وأنت الغفُورُ الرَّحِيم. لا تزال تَدْعو به حسب إمكانك وتشعر قلبك معانيه.

وأيضاً: ذكر فيه التفويض مثل دعاءِ عيسى عليه السَّلام: اللَّهُمَّ إنِّي أصْبَحْتُ لا أستطيع دَفْعَ ما أكْرَهُ ولا أمْلِكُ نَفْعَ ما أرْجُو أو أصْبَحَ الأمْرُ بيدِ غَيْري، وأصبحتُ مُرْتهناً بعملي، فلا فقير أفقر منِّي. اللَّهُمَّ لا تشمَّت بي عدُوِّي، ولا تُنَسِّي بي صديقي، ولا تجعل مُصِيبتي في ديني، ولا تجعل الدُّنيا أكْبَر هَمِّي، ولا مَبْلَغَ عِلْمي، ولا تُسلِّط عليَّ مَنْ لا يَرْحمني، يا حَيُّ يا قيُّومُ، بِرَحمتك أسْتغِيثُ لا تكِلنِي إلى نفسي طَرْفَة عَيْنٍ ولا أقلَّ من ذلك وأصلِح لي شأني كله هـ. رواه السني. وذكره الغزالي في بداية الهِدَاية وغيرها إلى غير ذلك، وبالله التَّوفيق.

وأمَّا العَزْمُ على البِرّ والتَّقوى، فلا خَيْر في عَزْمٍ لا يصْحِبُه عملٌ ولا خير في عملٍ لا يُصْحبه دوامٌ. ومعنى البِرّ: القيام بالحقوق الشرعية دون توقُّفٍ. والتَّقوى: اجْتِنَاب مواقع النَّهْي من المحرماتِ وتركِ الواجباتِ، كما قيل:

خَـلِّ الـذُّنُـوب صِـغَـارَهـا وكِـبـارَهـا فهو التقوى لا تحقِّرن من الذّنوب صِغارها

إنَّ الجِبَال مِنَ الحَصَى. وقد قال رسول الله ﷺ: «اتَّقِ الله حيثما كنت وأتْبِع السيئة الحسَنَة تمحها، وخالق النَّاس بخُلُقٍ حَسَنٍ». وهذا أمرٌ بيِّنٌ لا شكَّ فيه. لكن قد تَصْعُب التقوى على النَّفس لاتِّساع أمْرِها، فتوجه لتَرْك العظائم والقواعد المقدور عليها تعان على ما بعدها. وأعظم ذلك معصية الغيبة قولاً وسَمَاعاً، لأنها خفيفة على النُّفوس لألفها مستسهلة لاعتيادِها، مع أنها صاعقة الدِّين، وآفة المذنبين، من اتقاها أفلح في

نفيه أمره، ومن وقع فيها خَسِرَ فيما وراءَها. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: الآية 70]. فجعل صلاح العمل متوقِّفاً على سَدَاد القول. وكذلك ورَدَ: «أنَّ الجوارح تُصبح تشتكي باللِّسَانِ وتقول: اتّق الله فينا فإنَّك إن استقمتَ استَقَمْنا، وإن أعوجت أعْوجْنا، فلا تَهْمِل يا أخي لسانك وخصوصاً في هذه الخِصْلة، فتورَّع فيها أكثر مما تتورَّع في مأكَلِكَ ومشْرَبكَ، إذا فعلت طابَت حياتك، وكُفيت الشَّواغِب ظاهراً وباطناً لأنَّ من اشتغل بعيُوب النَّاس اشْتغل النَّاس بِعَيبه. وفي معنى ذلك قيل:

إذا شِئْت أن تَحْيَا ودِينكَ سالِمٌ ... وحَظّك مَوْفُورٌ وعَرْضكَ صَيِّنُ
لِسانَكَ لا تَذْكُرْ به عَوْرَةَ امْرِيءٍ ... فعندك عَوْرات وللنَّاس ألْسُنُ
وإن أبْصَرَتْ عيناكَ عَيْباً فقل لها ... أيَا عَيْنُ لا تَنْظر فللنَّاس أعْيُنُ
وعاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وجانِبْ من اعْتَدَى ... وفارِق ولكن بالَّتي هِيَ أحْسَنُ

ويا أخي، إنَّ هذه الأمور التي تدخل علينا من وجوه ثلاثة:

أحدها: التولُّعُ بالأخبار حتى لا نحِبّ أن يَفوتنا منها شيء؛ وهذا من الفضول التي نُهِيَ عنها، والتجسس الذي حرَّمه الله ولذلك قدَّم تحريمه عليها في كتاب الله إذ من كان مُعْرضاً عن أحوال النَّاسِ ربَّما يسْتثقل أخبارَهُم لئلاً يقع في شَيْءٍ منها.

الثَّاني: موافقة إعراض الناس تارة بتبليغ ما يسْتغربونه من أخبار الناس، وتارة بعَدَمِ استقباحِ ما يَرْضَوْنَه من ذلك ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبَة: الآية 62] وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عَنْهُ: كان أكثر رجال الله بجَبَل لبنان يقولون لي: إذا رَجَعْتَ إلى أبْنَاءِ الدُّنيا فقلْ لهم: مَنْ يكْثرُ الأكْل لا يجِد للطَّاعة لذَّة، ومَنْ يُكْثرُ النَّوم لا يجد للعمر بَرَكة، ومن يُكْثِر الكلام بِفُضُول وغيبَة فلا يخرج مِنَ الدُّنيا على السَّلامةِ، فأنت ترى شُؤْمَ هذه الخِصْلَة. أعاذنا الله من شرِّها وجعلنا ممَّن فرَّ منها بمنِّهِ وكَرَمِهِ.

الثالث: وُجُود العداوة، والاشتغال بذَمِّ الأعْدَاءِ، ولا يشتغل بذلك إلاَّ خَسِيس الهِمَّة، رقيق الدِّيانة، مشغول بما لا يُصْلح له ديناً ولا دنيا. فأمَّا النَّميمَة والكذِب، فلا حديث على مَنِ اشْتغل بهما. ومن كان الكلام أهمّ عليه من الصمْت وقع في مَهَاوي الوقيعة وغيرها. ومن كان الصّمت أهمُّ عليه مِنَ الكلام لم يتكلَّم إلاَّ فيما يَعْنِيه. والكلام والصّمت لا يجريان على حُكْم واحِدٍ، ولكن متى تساوى الكلامُ والصّمْت في المَنْفَعَة فالصمت أولى للمؤمِنِ المشفَق على دِينه. واسْتَعِنْ على هذا الأمر بمُحَاسبَةِ نَفْسِكَ آخِرَ نهارك واستعمل الاستغفار في ذلك الوقت، فإنَّه مُنَبَّه عليه، وخصوصاً:

أسْتغفر الله العظيم الذي لا إله إلاّ هو الحيّ القيُّوم وأتوب إليه، فإنّه ورد أنّه كَفّارة للذّنُوب العِظَامِ، وله خواصّ أخرى وابلغ به إلى سبعين بل إلى مائة إن قدرْت على ذلك.

واعلم أنّ كل اسْتغفار لا يُصْحِبهُ اعتراف وانكِسار، ونَدَم على الذّنوب والوقائع، فإنّه تلاعُب، ومتى تَعَدّى بصاحِبِه إلى التّوبة فهو الكمال. ولا أقبح من عَبْد يُخاطب مَوْلاه بالكَذِبِ، فإذا قلت: وأتُوب إليك، فليكُنْ عَزمُكَ التّوبة دون تردُّدٍ. ومتى عَسَر عليك أمْرُ نَفْسِكَ فيها فكَثّر من اللّجوءِ إلى الله سُبْحانه. ومن قراءة إذا جَاءَ نَصْرُ الله. وأمّا القناعة باليسير أبداً فهو السنة والمِنّة ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «طُوبَى لِمَن كان عَيْشهُ كفافاً» فلو كان ثَمّ خير من الكفاف، لطلَبَه عليه الصلاة والسلام له ولأهْلِهِ. وقال عليّ كرّم الله وجهه: «خَيْر مالك ما أغْنَاكَ وخير منه ما كَفَاكَ». وقال ابن عطاء الله في الحِكَم: مِنْ تمام النّعْمة عليك أن يَرْزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يُطغيك، ليقل ما تفرح به، يقل ما تَحْزَن عليه.

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: الآية 97] هي القناعة. وفي معنى ذلك قيل:

رأيْـت الـقـنـاعَـةَ رأسَ الـغِـنَـا فـأصْـبَـحْـت بـأذْيـالِـهـا مُـتَـمـسِّـكُ
وأصْـبـحْـتُ فـي الـنّـاسِ بـلا دِرْهَـمٍ أتِـيـهُ عـلـى الـنّـاس تَـيْـه الـمـلـك

وفي الخبر المروي عنه عليه الصّلاة والسلام: «القَنَاعة مالٌ لا يَنْفَد» فعليك يا أخي بهذه الخِصْلة العظيمة التي بها النّجاة من كلِّ صفَة ذَميمَةٍ. واعلَمْ أنّ كل مُصِيبة واقِعة بك فهي من طَلَبِ الدّنيا وشَغَبِها، واتّساع النَّظَرِ في أسبابِها الباطِلة كعلم الكيمياء والكنوز ونحو ذلك ممّا لا يطلبُه إلاّ قليل العقل، قليل الدّين، خسيس الهمّة، متعلّق قَلْبُه بالدّنيا، إنما وقع ذلك كُلّه مِنْ عَدَم القناعة بالحالِ، واحتِقار منّة الله فيما أتاهُ، إذ تجِد أحدهم يتعلق في ذلك بإقامة الزّوايات وإطعام الخُبْز والإعانات على الخَيْرِ ولو صَدَق في طلب الخَيْر لكان شرّه على المسلمين أعمّ عليه ورِضاهُ بما قَسَّمَ له مولاهُ أحبّ إليه وحينئذ تكون اللّقمة ممّا بِيَدِهِ أفضل من أجْبال الياقوت، من غَيْره لو تَصَدّق به. وكذلك أخْذ الحرام والشبْهة والتذلّل للخَلْقِ ونحو ذلك إنما يتولّدُ من عَدَم القناعة بالحالِ، وهذا الفَضل كله إنما بنيَ على عِظَم المِنّة واحتقار النَّفْسِ فَمَنِ احْتَقَرَ نَفْسَه تكابر غيرها، ومن عظمت همّته لم يَرْضَ بطلب الدّنْيا، فأهْمَلَ ما فوق الكِفاية كنفرتك من دُونها، ربُّنَا الله لا شريك له واسْتَعِنْ على هذا الوجه بالذِّكر الذي ذَكَرَ أبو حامِد الغزّالي في بدايَةِ النّهاية، أنه يَذْكُرَ بعد صلاة الجمعة، أعْني: اللّهُمّ يا غَنِيُّ يا حميد يا

مُبْدِيء يا مُعِيد يا رحِيمُ يا ودُودُ أغْنِيني بحلالِكَ عن حَرَامِكَ. مائة.

وأما السنن والأدب، فقد تحقق اختيارُنا منها، وهو الوَسط، لا تفريط ولا إفراط في الضُّحى ستّ ركعات، وقبل: الظهر أرْبع، وبعده ركعتانِ، وقبل العَصْر أربع، وبعد المغرب ركْعَتانِ وكذلك بعد العِشاءِ وكلّها خفيفة، دون قراءة مُعيّنة. ومِنَ الليل اثنا عشرَ رَكْعة، ويُوَتِّر بواحِدَةٍ. كما هو مُسَطَّر في كُتب الأئمّة. وذكر طرفي النهار كما ورد. وأهمه في الصُّبْح كل يوم: لا إله إلاَّ الله الملك الحقّ المبين. مائة مرة، ففي ذلك تيسير أمْر وغِناء وَصْل كل واحدة منها بِمِثْلها في الصَّلاة على النّبيّ ﷺ. وقل: يا حَيُّ يا قَيُّومُ، لا إله إلاَّ أنْتَ بِرَحمتِك أسْتَغِيثُ. أرْبعين مرّة كل يوم وإن أمكن ذلك بين الفَجْر والصُّبْح فافْعَلْهُ فإنَّ له سرّاً عظيماً في حياة القَلْبِ، والتوفيقَ للعملِ الصَّالح، كل ذلك مع التّقوى والتَّوَجُّه إلى الله تعالى، وبالله التوفيق.

وأمّا الحُضُور معَ الله، فأصْلُه جَمْع القَلْبِ. وأصل الجَمْع الصَّمْت. وأصل الصَّمْت الجُوع، لا تأكُلْ حتى تحسّ بالجُوع، وذلك بأن تشتهي الخُبْز وحْدهُ. وعليك بقيام آخِرِ اللَّيل، والضراعة فيه، ففيه حياة القَلْبِ وإيَّاك والغفلة عن نَفْسِكَ وحقوق الله تعالى، والسَّلام على من يقف عليه، والحمد لله وكَفَى. وسلام على عباده الذِينَ اصْطَفَى. انتَهَتِ الوَصِية المُبَاركة، وبها تَمَّ الكتاب إن شاء الله، والحمد لله الذي هَدَانا لهذا وما كُنَّا لنهتدي لوْلا أنْ هدَانا الله، وصلَّى الله على سيّدنا ومَوْلانا محمد نبيّه ورسوله ومصطفاهُ، صلاة تنشرح بها الصُّدُور وتنطق بها الأفواه، على يد جَامِعِهِ، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، لطف الله به في الدَّاريْن، بجاه سيّدنا محمد سيّد الكَوْنَيْن والثَّقَلَيْنِ آمين.

نَقَله هنا عبد ربه، وراجي عفوه وفضله: العمراني الخالدي عبد السلام.

الفصل الثاني

1 ـ نبذة عن مناقب الزهاد السبعة.

2 ـ كشف النقاب، عن سر لبّ الألباب.

3 ـ شجرة اليقين، فيما يتعلق بكون ربّ العالمين.

4 ـ منازل السّائرين والواصلين، وأسرار علم الحقيقة، ودوائر الحضرة، وأصناف الأولياء البررة.

5 ـ فضائل نور سيّد المرسلين، وذكر أطواره في الكونين.

1 ـ نُبْذَة عن مناقِبِ الزُّهادِ السَّبْعَةِ

نبذةٌ صالحة، ولمحَة يسيرة، من ذكر بعض مناقب سَادتنا الزُهَّاد السَّبْعة للإمام الكبير، والصوفي الجليل، سيّدي أحمد بن محمد بنعجيبة الحَسَنِي.

اللَّهُمَّ يا مَنْ أفصَح بالحمدِ والثناء عليه العوالِمُ والأكوانُ، وعَجَزَ عن إحْصاءِ حَمْدِهِ والثناء عليه اعتقاد الجنان، ونطق اللسان، نَحْمدُكَ يا الله على ما أوْليتنا من جزيل الفضل والإحسانِ. ونشكرك شكراً يتوالى على نِعمك الظاهرة والباطنة التي أغْنَى عن ذِكرها العيان، والصلاةُ والسلامُ على سيّدنا محمد درَّة العَوَالم وبهجة الأكْوَانِ، وارْض اللَّهُمَّ عن جملةِ أصحابه الأطْهارِ، أعْيان الصّدور وصدور الأعيَان. وبعد:

فهذه نُبْذَة صالحة ولمحَة يسيرة من ذكر بعض مناقب سادتنا الزُّهاد السبعة، وذكر شيءٍ من كلامهم، نفعَنا الله بهم أجمعين، وقد جمعهم الشّاعِر متوسّلاً بهم، فقال:

أُوَيْسٌ ومَسْرُوق رَبِيعٌ وعامِرٌ ... أبُو مُسْلم والأسْوَد والحسَنُ البَصْرِي

وَضِفْ هَرِماً وسَلْ مِنَ اللّهِ كُلَّما ... تُرِيدُ تُجَبْ في حَالة العُسْرِ واليُسْرِ

تَوَسَّلْتُ يا ربِّ إلَيك بجاهِهِمْ ... تُعَامِلنا بالعَفْو واللطفِ واليُسْرِ

1 ـ أُوَيْسٌ القَرَنِي:

أمّا أُوَيْس القَرَني، فهو من أكابِرِ الزُهّاد ومن أعظم النُسّاك، ورأس العُبّاد، حتى صار تُنْسَب إليه طريقة الانقطاع إلى الله تعالى، فيقال: طريقة الأوْسية. ويُقال: إن تكُن نَاسِكاً فكن كأُوَيْسٍ إلى غير ذلك. وقد عدّه بعضهم من الصحابة. ونقل بعضهم أنّه اجْتمع برسول الله ﷺ عدَّة مرَّات. وحَضَرَ معه في غَزْوة أُحُد، وقال: والله ما كسرت رُباعيته، حتى كسرت رُبَاعيتي، ولا شُجّ وجْهُه حتى شجّ وَجْهِي، ولا وُطِيءَ ظَهْرُهُ حتّى وُطِيءَ ظَهْرِي. هـ.

والأصحُ أنّه من التّابعين. وقد أخبر رسول الله ﷺ بشأْنِهِ ونَوَّه بِذِكْره وإشادة ذكره، فقال: «يا أبا هُرَيْرة، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يحُبُّ من خَلْقِهِ الأصْفِياء الأتْقياء الأبْرياء، الشَّعثة رُؤُوسُهُمْ، المغبّرة وجُوهُهُمْ، المخمصة بُطونهم من كَسْب الحلالِ، الّذين إذا استأذنُوا على الأمَراءِ لَمْ يؤذَنْ لهم، وإن خَطبُوا المنعمات لم يُنْكحوا، وإن غابوا لم

يُفتقدوا، وإن حَضروا لم يُدعَوا. وإن طلعوا لم يُفرحوا بطلعَتهم، وإن مَرِضُوا لم يُعادُوا، وإن ماتوا لم يشهدوا». قالوا: يا رسول الله كيفَ لنا بِرَجُلٍ منهم؟ قال: «ذَاكَ أُوَيْس القَرَنِي»، قالوا: وما أُوَيْس القَرَنِي؟ قال: «أَشْهَل، ذُو صُهُوبة، بعيد ما بين المنكبَيْن، مُعْتدل القامة، آدم، شديد الأدمَة، ضارب بِذَقْنِهِ إلى صَدْرِهِ، رَام ببصَرِهِ إلى سجودِهِ، واضع يمينه على شمالِهِ، يتلو القرآن يَبْكي على نَفْسه، ذو طهريْن أبيَضَيْن، مُتَّزِراً بإزار صوفٍ، مَجْهول في الأرض، معروفٍ في أهل السَّمَاء، لَوْ أَقْسَمَ على الله لأَبَرَّ قَسَمَهُ، ألا وإنَّ تَحْتَ مَنْكبه الأيْسَر لمعَة بَيْضَاء، إلا إنَّه إذا كان يوم القيامة قيل للعُبَّاد: ادْخلُوا الجنَّة. ويُقال لأُوَيْس: قِفْ فاشْفَعْ، فيُشَفعُهُ الله في مِثْلِ ربيعة ومُضَر يا عُمر، ويا علي، إذا لقيتمَاهُ، فاطْلُبا إليه أن يَسْتغفر لكما يُغفر لكما» وذكر باقي الحديث.

وفي حديث: أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «يكُون في أُمَّتي رجُلٌ يقال له: أُوَيْسٌ القَرَنِي، يَدْخل الجنَّة بشفَاعَتِهِ مثل عدد ربيعَة ومُضَر، لَوْ أقْسَم على الله لأبرَّه فَمَنْ لقيهُ منكم بَعْدِي فَلْيقرؤهُ مني السلام» ثم سُئِلَ عن علامتِهِ فقال: «رجل أصْهَب أشْهَل، ذو طُهْرين أبيضين له أدم» وقد كان به بياض، فدعا الله عزَّ وجل فأذْهَبَهُ الله عنه إلاَّ مقدار الدينار أو الدِّرهم لا يُوبهُ له مَجْهُولٌ في الأرض معروف في السَّماء، وقد بَلَغَ من شدَّة نُحُولِهِ ونهاية ضَعته أنَّ الناس كانوا يَسْخَرون منه، ويَهْزَؤُونَ به، ويُؤْذونه، ويَرَون فيه أهْلية الخداع والتَّلَصُّص ويَنْسُبونه إلى ذلك. فقد رُوي أنَّ بعض فقهاء الكُوفة دفع إليه ثَوْبَين، وكان يُجَالسهُ فانقطع عنه من العَري فَرَدّهما عليه، بعد أن أخذهما منه. وقال: إنَّ النَّاس يقولون: مِنْ أين له هذانِ الثَّوْبانِ، أترى من خدع عليهما. وكان في ذلك الوقت يجالس الفقهاء ويَظْهَر للنَّاس وذلك قبل أن يعرف بجلالة القدر ورفعة الخطر، وتنويه عمر رضي الله عنه به على المِنبر، فلمَّا رأى أنَّ الناس عرفوا جلالة قدره هرب عنهم، واسْتَخْفَ منهم، ولبَّسَ أمره عليهم بِرعاية الإبل، وغير ذلك.

وقيل لعُمر رضي الله عنه لمَّا سأل عنه قومه: ما فينا أخمل منه ذِكراً. فلمَّا لقيه هو وعلي رضِيَ الله عنهما وسألاهُ مَنْ هُوَ، فقال: راعِي غَنَم، وأجير قوم. وسَتَر ذِكْرَ أُوَيْس. فلمَّا سألاه عن اسْمِهِ، فقال لهما: عَبْد الله. فلمَّا سألاه عن اسمِهِ الذي سمَّته به أُمُّه امْتَنع أن يجيبهما على ذلك. فلمَّا أخْبَرَاهُ بصفة النبيّ ﷺ وأنهما عرفاه بذلك فقال لهما: عَسَى أن يكون ذلك غَيْري. فلمَّا قالا له: أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّ تحت منكبك الأيْسَر لمْعَة بَيْضَاء، وطلبا منه أن يوضحها لهما، لَمْ يَجِدْ بُدّاً أن يُوضحها لهما. وذلك ـ والله تعالى أعلم ـ ليريهما رؤية عيْن صحَّة قول النبيّ ﷺ وصِدْقه في إخباره بالغَيْبِ، وذلك أمْر واجبٌ عليه، وإلاَّ فلعلَّه كان يتعلل لهما كما فعل فيما سُئِل عنه.

ثم بعد ذلك، لمَّا سأله عمر رضي الله عنه أنْ يَلْتَقِي معه ويجعل ذلك الموضع ميعاداً بينه وبَيْنَه قال له: يا أميرَ المؤمنين لا ميعاد بيْني وبَيْنكَ ولا أعْرفك ولا تعرفني بعد اليوم. ثم دفع الإبل إلى أصحابها وتخلَّى عن الرّعاية. وكذلك فعل مع هرام بن غيَّان رضي الله عنه لما لقيه بشاطيءِ الفُرَات، ووقع بينهما التعرف. فقال له: حَدّثني بحديثٍ عن رسول الله ﷺ أحفَظهُ عنك. فقال: لا أُحِبُّ أن أفْتَحَ هذا الباب على نَفْسِي، لا أُحِبّ أن أكون مُحَدِّثاً، ولا مُفتياً ولا قاضياً. فلمَّا فَرَغا من الكلام الذي كان بِصَدَدِهِ وسأله مُدَاومة الاجتماع معه، أبى وامْتَنَع وقال: لا أرَاكَ بعد اليوم ولا تَسْأل عني، أنطق أنت ها هنا حتى أنطق أنا ها هُنَا. ثم بعد ذلك اجْتَهَد في طلبه والبحث عنه فلم يقع له عليه خبَر. ومن عجب أمره أن حقَّقَ الله تعالى هذا الحال مِنَ التَّخَبِّي والتَّسَتُّر وأتَمَّهُ له بعد مَوْتِهِ مع ما أظهره بسببه من الآياتِ والعِبَر حينئذ قال عبد الله بن سلامة: غَزَوْنا أذربيجن زمن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، ومعنا أُوَيْس القَرَنِي رضِيِ الله عنه فلمَّا رجَعْنا مَرِضَ فماتَ، فنزلنا قَبْر مخفُورٌ وماء مسْكوبٌ، وكفن وحنوط، فغسَلْنَاه وكفناه وصلّيْنَا عليه ودفناهُ ولا أثَرَ هـ. من ابن عَبَّادٍ.

وقال له رجُل: أوْصِنِي. فقال له: عليْكَ بكتابِ الله وسنة خَيْر المرسلين، وصالح المؤمنين، وذكر الموت، وعَدَم مُفَارقة الجماعة. وقال له آخر: ادْعُ لي، فقال: حَفظك الله ما دُمْتَ حياً ورضاك من الدُّنيا باليَسير وجعَلَكَ مِنَ الشَّاكرين لما أعْطاكَ.

وكانت الوَحْدة أحبَّ إليه من الشُّهْرَة. ويقُولُ: ما دُمتُ مع النَّاس وأنا في غَمٍّ. وكان كلمَّا يُمْسي يَتَصدَّق بِكُلِّ ما في بَيْتِهِ وكان يَلْتقط الكِسرَ من المَزَابِلِ.

وكان يقول: الدّعاء بظَهر الغَيْب أفْضَلُ وأسْلَمُ مِنَ الزيارة واللقاء، لأنَّ اللقاءَ قد يعرف فيه التزيّن والرياء.

وكان إذا أمْسَى يقُولُ: اللَّهُمَّ إني أعْتَذِرُ إلى كُلّ كَبدٍ جائع، فإنَّه ليس عندي إلاَّ ما في بَطْني.

وكان يقول: لَمْ يَدَع لي الأمر بالمعروف صَدِيقاً، وكُلَّما نَهَيْنَاهم عَنِ المُنْكَرِ شَتَمُوا أعْرَاضَنَا ووجدوا على ذلك مِنَ الفاسقين أعواناً، والله لقد رَمَوْنا بالعظائم من أجل ذلك.

وكان يَقُولُ: لا يَبْلغ الرَّجُل مقام الخَوْف حتى يكون كأنه قتل الخلق أجْمعين. وقال له رَجُل: أوْصنِي. فقال: فِرّ إلى ربّك. فقال: فمِن أيْنَ المعاش؟ فقال: أُفٍّ لِقُلُوبِ خالطَها الشَّكُّ. وقال له هَرم بن حيان: أوْصني. فقال له: تَوَسَّد الموت إذا

نمت، واجعَله نُصب عيْنيْك إذا قُمت. هـ مِنَ الطبقات.

2 ـ وأمّا مَسْرُوق:

ابن عبد الرحمٰن، فكان من أكابر التّابعينَ، ومن العلماء الرّاسخين، قد أخرج عنه البخاري ومُسْلم، وملاكنا بهما بالرواية عنه، وكان من أكابر الزُّهّادِ ورأس العُبّاد، وكان قد سُرِق وهو صغيرٌ فوجدوهُ فَسَمّوه مَسْرُوقاً.

وكان يقول: مَنِ ادَّعَى العِلْمَ بِغَيْر خشية فهو كاذِبٌ.

وكان يقول: إذا بَلَغَ أحَدكم أربعين عاماً، بل سَنَة، فليأخذ حذره من الله عزَّ وجلَّ، وكان يصلّي حتى تَوَرَّمَتْ قدماهُ. وكان له ستر يُرْخِيهِ بيْنَهُ وبين النّاس إذا دخلوا عليه، فكان يشتغل بالصلاة، ويدعهم في كلام دنياهم وكان يقضي بين الناس ولا يأخذ على ذلك أجْراً مِنْ بيْت المالِ ولا غيره.

وكان يقول: ما بقي للمؤمِن في هذا الزّمان خير من لحْدٍ رضِيَ الله عنه ونفعنا ببركاتِهِ. مات سنة ست وستين (66) من الهجْرة.

3 ـ وأمّا ربيع:

فهُوَ الرَّبيع بن خَيْثم. من أكَابر التّابعينَ، ورأس الزّاهدينَ. ومن العلماء الرّاسخين. وكان دائم التهجّد في الليل حتّى كانت ابنة جارهِ تعتقد أنّه أسطوانة فلما مات قالت لأُمها: يا أماهُ ما صنعَت السّارية التي كانت تحت سقيفة جارنا، فقالت لها: يا بنية إنما كانت تلك الأسطوانة هي جارنا الذي ماتَ، كان يظل اللّيلة قائماً، ولعلَّ البُنَيَّة ما كانت تصعد سطحهم إلاّ ليلاً حتّى ظَنّتْ ذلك، وكان يمسك جلده ويقول: يا جليدة كيف حالك إذا ذابت الجبال ودَكَّت الأرض دَكّاً، وكان لا يُمكن أهله من كَنْسِ بيته، ويقول: أنا أحق بالخدمة مِنكم، وأحبّ لنَفْسي المهنة، وكان يقول: لو رَآنا أصحاب محمد لقالوا: هؤلاء لا يُؤمنون بيومِ الحسابِ.

وكان يقول: مَنِ انتظر النّاس يرشدُونَه إلى عَيْبِهِ فقد ضلَّ سَعْيُهُ.

وكان يقول: كُنْ وَصّي نفسك وإلاّ هلكْتَ وأنت لا تَشْعُر. وأصابه الفالج فقالوا له: ألا تتداوى، فقال: علمت أنَّ الدّواء مشروع، ولكن لايَنْبغي المُتَداوي ولا المتداوى.

وكان أكثر علمه سرّاً لا يطّلع عليه إلاّ أهل بيته، وكان إذا دخل عليه أحَدٌ وهو يَقْرأُ في المصحف غطّى المصحف بكمِّهِ، وكان يقول: كل ما لا ينبغي به وجه الله يضْمَحلّ. وكان إذا وجَدَ غفلة مِنَ الناس يخرج إلى المقابِرِ ويقول: كُنّا وكُنْتم، بل يحيي الليل كله عندهُمْ فإذا أصبح كأنه نشر من قَبْرهِ.

وكان يخرج لصلاة الجماعة يهادي رجليه، فيقول النّاس: إنَّ الله قد رخَّصَ لك، فيقول: صحيح ولكن ماذا أصْنَع إذا سمعت مُنَادِي ربّي يقول: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح. مات رضي الله عنه في سنة سبع وستين (67) في أيام مُعاوية رضي الله عنه.

4 ـ وأمّا عامر:

فهو عامر بن عُبَيْد الله بن قيس. كان رضِيَ الله عنه من أكابِرِ التّابعين ومن العلماء الرّاسخين، ورأس الزّاهِدِينَ.

كان يقول: لو أنَّ الدّنيا كانت لي كلها ثم أمرني الله بإخراجِهَا لأخرجتها من غير تردّدٍ. وكان قد جعل على نَفْسِهِ كل يوم ألف ركْعة، فكان لا ينصرف منها وقد انتفَخت قدماهُ وساقاهُ. ثم يقول لنَفْسِه: يا نفس إنّما أُريد أن أُكْرمك عند الله غداً لأعملنّ عملاً حتى لا يأخذ الفراش منك نصِيباً.

وكان يقول: لا أُبالي إذا أَحْبَبْت الله عزَّ وجلَّ على أيّ حالٍ أصْبحت أو أمْسيت. وذلك لأنَّ المُحِبَّ لا يقع في معصية مَحْبُوبه فليس المراد أنّه لا يُبَالي بالمعصيَة إذا وقع فيها، فاعلم ذلك.

وكان يقول: منذ عَرَفْت الله لم أخَفْ سِوَاهُ. وكان إذا دعا على إنسان ظَلَمَه قال: اللهُمَّ كَثِّرْ مالَهُ، وأصِحَّ جَسَدَهُ، وأطل عمرهُ.

وكان يقول: ربّما يودّ العالم يوم القيامة أنّه لم يَعْلم شيئاً حين يحاسب على عَمَلِهِ بعلمه.

وكان رضي الله عنه إذا سافَرَ يأخذ معه ركْوة، فإن شاء صبَّ منها ماء للوُضُوء، وإن شاء صبَّ منها عَسَلاً وإن شاء صبَّ منها لبَناً. وكان معه بعض دراهم، فكان يُنْفق منها ما شاء على المساكين ولا ينقُصُ منها شَيْءٌ. وكان يقول: إني أسْتحيي أن أُعطي السّائل أقلَّ من رَغِيفٍ.

وقيل له مرّة: من هو خير منك؟ فقال: مَنْ كان صمْته تفكّراً، وكلامه ذِكراً، ومَشْيُه تدبّراً، فهذا خيرٌ مني.

وكان يقول: ذِكْرُ الله عزَّ وجلَّ شفَاء، وذِكْرُ غيره دَاءٌ. وكان يقول: مِنْ جَهْلِ العبد أن يخاف على النّاس مِنْ ذنوبهم، ولا يخاف على نَفْسه من ذُنُوبه.

وكان يقول: ليس خيركم بخيرٍ، ولكنه من لا أشرَّ منه. وكان كثيراً ما يَدْخل للمجانين فيطعمهم فيقول النّاسُ: إنهم لا يدرون بذلك. فيقول: الله يدري به.

وكان يقول: تفقّه ثم اعتزل.

وكان يقول: إذا متّ فلا تُعْلِموا بي أحداً وقدّموني إلى ربّي فهو أرْحَم بي مِنَ النَّاس.

وكان يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطّلاَق: الآية 2] أي من كل شيءٍ ضَاقَ على النَّاسِ. هـ من الطبقات، وبالله التوفيق.

5 ـ وأمَّا أبُو مُسْلِمِ:

فهو الإمام الحافظ، المحدّث الضابط، أخرج له البخاري وغيره. وهو أبو مُسْلم الغولاني. كان مِن أكابر التابعين، ومِن العباد النَّاسكين، والزُّهاد المنقطعين، كان دائم الإقبال على عبادة ربِّه، حتَّى لو قيل له: إنَّ جهنَّم تسْعر لك، ما قَدِر على أنْ يزيد في عَمَلِهِ شيئاً.

وكان قليل الأكْل، يقول: إنما تجري الخيل المضمرة.

وكان يقول: مَن شَدَّ قدميْه في الصَّلاة، يُثبّتهما الله في الصِّراط، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

6 ـ وأمَّا الأسْوَدُ:

فهو الأسْوَد بن يزيد النّخعي، كان إماماً فقيهاً، جَلِيلاً زاهداً، عابِداً ناسِكاً متورِّعاً. كان رضي الله عنه يَجْهد نفسه في العبادة والصَّوم حتى اخضرَّ جلده واصْفَرَّ. وكانوا إذا قالوا له: ارفَقْ بنفسك، يقول: إنَّ الأمر كُلَّه جدّ.

وذهَبَتْ إحدى عَيْنيه من كثرة البُكاء والجوع.

توفي رضي الله عنه بالكُوفة سنة خمس وسبعين (75). نَفَعَنا الله ببركاتهم أجْمعين بجاه نبيّنا المصطفى خاتم النبيئين.

7 ـ وأمَّا الحَسَنُ البَصْري:

فهو الإمام الجليل، المتَّفق على جلالته وزُهده وورَعِهِ. كان من أكابِر التَّابعين. صحب عليّ بن أبي طالب، وأنس بن مالك وغيرهما من الصحابة رضِي الله عنهم.

كان رضِي الله عنه كثير البُكَاءِ والحُزْنِ، لا يراهُ أحَدٌ إلاَّ ظنَّ أنه قريب عَهْدٍ بمُصِيبة، لما له من الحُزْنِ.

وكان يقول: لو نَادَى مُنَاد من باب المسجد ليخرج أفْسَق الجماعة وأقلّهم حياء من الله عزَّ وجلَّ ما سَبَقَني أحدٌ من الخروج إلاَّ مَنْ كان معه فضل قوّة عليَّ.

وكان يقول: لَوْ نَادَى مُنَاد من السَّماء كُلّ الناس يدخلون الجنَّة إلاَّ واحدٌ، لخَشِيتُ أن أكون ذلك الواحِد.

وكان يقول: لقد أدْرَكنا أقواماً كُنّا في جَنْبِهم لُصُوصاً، ولو أنهم رأوْنا اليوم لقالوا: هؤلاء لا يُؤمنون بيوم الحسابِ.

وكان رضِيَ الله عنه يقول: أدْركنا النَّاس وهم مع نسَائهم على وسادة واحدة، عشرين سنة يَبْكُون حتَّى تبتلّ الوسادة من دموعهم لايشعر عيالهم بذلك.

وكان رضي الله عنه يقول: زُرتُ عُمر بن عبد العزيز أيَّام خِلافته، فأخرج لي نصف رغيف، ونصف خيارة، وقال: كُلْ يا حسن، فهذا زمان لا يتحصَّل الحلال فيه.
وكان ميمون بن مهران رضي الله عنه يقول: زُرْت الحسن البصري بعد مَوْت عمر بن عبد العزيز. فلمَّا دققت الباب خرجت إليَّ جارية حَمَاسِية، فقالت: مَنْ تكون؟ فقلت: ميمون بن مَهْران. فقالت: كاتب عمر بن عبد العزيز. فقلتُ لها: نَعَمْ. فقالت: وما حياتك يا شقي بعد موت صاحبك إلى هذا الزمان الخبيث. ثم استأذنت الحسن فأذِنَ لها فأدْخَلَتْنِي إليه، فرحَّبَ بي، فأخرج لي كِسْرَة وشقة بطيخ رضي الله عنه.

وكان يقول: الزَّاهِدُ في الدُّنيا مَلِكٌ في الدنيا والآخِرة.

وكان يقول: مَن أقبل على الله بقلبِهِ أقبل الله عليه بقلوب عبادِهِ. ولولا أن المخلصين يحبّون نَفْرَة النَّاس خوفاً أن تشغلهم عن ربّهم، لما تفرّق النَّاس عنهم قط.

وكان يقول: من علامة محبّ الدّنيا أن يكون دائم البِطْنة قليل الفطنة هَمُّهُ بَطنه وفرجه. فهو يقول: متى يدْخل الليل حتى أنامَ. ويقول في اللَّيل: متى يصبح حتى ألْهُو وألْعَبُ وأُجالس الناس في اللَّغْوِ، وأسأل عن أحْوال النَّاس.

وكان يقول: لم يَبْقَ من روح الدّنيا إلاَّ ثلاث: لقاء الإخْوان، والتهجّد بالقرآن، وذكر الله خَالٍ عن النَّاس وعن النَّفْس.

وكان يقول: ما بقي للنَّاس أخٌ يُساعدهم على عَمَلِ الآخرة وما بقي إلاَّ مَن يُفسد على الناس قلوبهم.

وكان يقول: إني لأكرهُ أن يأتيني أخٌ إلى مَنْزِلي خوفاً ألاَّ أقُومَ بواجب حقِّهِ. وصلى الغداة بوضوءِ العَتمة أربعين سنة. وكان أكثر مشيه حافياً وكان له هيْبة عظيمة، وكان يَدْخُلُ على الوُلاة ويأمرهم ويَنْهاهم، لا يخاف في الله لوْمة لائِمٍ.

وكان يقول: والله لو كُنت ممَّن أعان على قَتْلِ الحسين أو أصحابه وعُرضت عليَّ الجنَّة ما دَخَلْتُها حَياءً من رسول الله ﷺ وخوفاً أنْ يَنْظر إليَّ نَظْرة غَضَبٍ.

وكان سُفيان الثَّوري يقول: الحسَن البصري أجَلُّ أصحاب عليّ بن أبي طالبٍ، وكان يُصلّي خلْفَهُ، وكان ليْلة قَتْله يُصَلِّي خلفَهُ. وكان الغالب عليه الخوف حتَّى كأنَّ النَّار لم تُخْلَق إلاَّ له وحْدَهُ.

وكان يَقُول: ذهبت المعارف وبقيت المناكر وما بقي اليَوْم من المسلمين فهو مَغْمُوم. وكان يُنشد كثيراً:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إنَّمَا المَيْتُ مَيْتُ الأَحْيَاءِ

وكان مِن أكثر النَّاسِ وَرعاً حتى كان يقول: وددت مراراً أنّي أكلْت من حَلالٍ فصارت في جوفي مثل الآجرة فإنه بَلَغَني أنها تقيمُ في الماءِ ثلاثمائة سنة.

وقيل له مرّة: الفقهاء يقولون كذا وكذا، فقال: وَيْحَكُمْ، هل رأيتم فقيهاً قط إنَّما الفقيه الزَّاهد في الدّنيا، البَصِيرُ بذَنْبِهِ، المُدَاوِم على عبادة ربه ليلاً ونهاراً لا يَفْتُرُ.

وكان يَحْلِفُ بالله مراراً أنّه ما أَحَبَّ الدّرهم أحد إلاَّ أذلَّهُ الله ولا تَرَكَهُ أَحَدٌ إلاَّ أعَزَّهُ الله.

وكان إذا اسْتأذَنَ عليه أَحَدٌ من إخوانه لا يأْذن له إلاَّ إذا كان عنده شَيْء يُطعمه، فإن لَمْ يكن عنده شيء يُطْعمه خرجَ له. وكذلك إذا دَق بابه أَحَدٌ لا يخرج له إلاَّ إن كان يَطْلُب أمْر دِينِهِ.

وكان يقول: المحبّ لله سكْران هَيْمان حَيْران لا يليق إلاَّ عِند مُشاهدة مَحْبُوبهِ.

وكان يقول: يُسْتَعَان على وِسْواس إبليس بالذّكْر والقُرآن، وعلى وِسْواس النَّفس بالصَّوْم والصَّلاة، والمجاهَدَةِ والرِّياضَةِ.

وكان يقول: إذا أَرَاد الله بِعبْد خيراً لم يُشْغله عنه بأهْلٍ ولا وَلَدٍ ولا مالٍ.

وكان يقول: مِنْ شَرْط التَّواضُعِ ألاَّ يَرَى نَفْسه فوق أحدٍ مِنَ المُسلمين، بل يرى نَفْسه دون كلّ أحَدٍ وكل لهم الفضل عليه.

وكان يقول: إذا أذنَبَ العَبْدُ ثُمَّ تابَ لم يَزْدَدْ مِنَ الله إلاَّ قُرْباً. وهكذا كلما أذْنَبَ، لأنه دائم السَّير بِذَنْبٍ وبلا ذَنْبٍ حتى يَصل إلى الآخرة.

وقال له رجلٌ: أشكُو قَسَاوة قلبي، فقال له: عليك بِمَجَالِس الذِّكْرِ والإحسان إلى اليتيم.

وكان يقول: شَرُّ النَّاس للميّت أهله، يُبالِغُونَ في البُكَاءِ عليهِ ولا يَهُون عليهم قَضاءَ دَيْنِهِ ليبرّدوا مضجَعه من الدَّيْنِ.

وكان يقول: أدْرَكنا قوماً كانوا فيما أحَلَّ الله لهم أزْهد منكم فيما حرَّم الله عليكم.

وكان يقول: الجاهِل يَشْتَري مَودَّة رَجُلٍ بِعَداوة ألف رجل.

وكان يقول: الطَّمع في الدُّنيا يشيّب العالِمَ، ويَذْهَبُ بحرمَتِهِ وهيبَتِهِ من القلوب.

وكان يقول: ذَمُّ الرَّجل نفسه في العَلانية مَدْح لها.

وقيل له مرَّة: هل في البُصْرَى مُنافق؟ فقال: لو خَرَجَ المُنافقون منها لاسْتَوحَشْتُ منهم لمشَاركتي لهم في الصفات.

وكان يقول: كِرَام إخوانك هو الَّذي سَيَدُوم لك وليس بأخيك من احتجبت سريرته، وكان إذا جلس بين الناس يجلس ذَليلاً كالأسِير، وإذا تكلَّم يتكلَّم كلام رَجُلٍ قد أُمِرَ به إلى النَّارِ.

وكان يقول: مَنْ لَبس الصّوف تواضعاً لله تعالى زاده نُوراً في بَصَرِهِ وقلبِهِ، ومَن لبسَه إظهاراً للزُّهدِ في الدّنيا والتكبّر به على الإخوان في نَفْسِهِ دور به في جهنم مع الشَّياطين.

وكان يقول: ما كل الناس يصلُح لِلبْس الصوف، لأنَّه يَطْلُبُ صفاءَ ومُراقبة الله عزَّ وجلَّ.

وقِيل له مرَّة: ما سَبَبُ لبْسك الصّوف؟ فسَكَت. فقيل له: ألا تُجِيبُ. فقال: إنْ قُلتنيا زكَّيْت نفسي، وإن قلت فقراً وضيقاً شَكَوْتُ رَبّي هـ، من الطبقات، نَفَعَنا الله به وبأمثالِهِ.

8 ـ وأمَّا هَرِم بن حيَّان:

فهو ملحَق بهم، ومضاف إليهم، وهو من أعْبَد التابعين وأزْهدهم في الدُّنيا.

وكان يقول: اصْرفُوا حبّ الدنيا من قلوبكم تدخلها الآخرة.

وكان يقول: اللهُمَّ إنّي أعُوذ بك مِن زمانٍ يتمدَّد فيه صغيرهُمْ ويؤمّلُ فيه كبيرهُمْ، وتقرب فيه آجالهم، ويَرَوْن فيه أعَزَّ إخوانِهم على معصية الله فلا ينهَوْنَهُ.

وكان يقول: عليكم بقلَّة الكلام، فإن صاحب الكلام إما أن يُقّصر فيه فيُخصَم، أو يُبالغ فيه فيأثم.

ولم يذكر في الطبقات سنة وفاتِهِ. نفعنا الله ببركاتِهِمْ وأفاض علينا مِنْ كَرَمِه وجوده ما أفضت عليهم، وحشرنا معهم في دَارِ الكرامة مع النبيئين والصدّيقين والشهداء والصَّالحين، وجعلنا في جوار خَيْر النبيئين المُرْسلين سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيئين، وإمام المُرْسلين صلَّى الله عليه وسلَّمَ وعلى آلِهِ الطيبينَ وذرّيته المباركينَ، عدد ما ذَكَره الذَّاكرون وغَفَلَ عن ذِ كْرِهِ الغَافلون، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

وهذا آخر التعليق المُبَارك وغالب ما اعْتمدت عليه فيه: مِن الطبقات الشُّعْرانية،

قصَدت به التَّبَرُّك بذكر أحْوَالِهِم، والاقتباس من أنوار حِكم كلامهم، مع أنَّ كثيراً ممَّن يتوسَّل بهم ولا يعرف مقامهم. وقد وَرَدَ أن عند ذِكرهم تتنَزَّل الرحمات. اللهُمَّ إنَّا نتوسَّلُ إليك بحبِّهم فإنَّهم أحبّوك وما أحَبُّوك حتى أحْبَبْتَهُمْ، فبحبّك إيَّاهم وَصَلُوا إلى حُبِّك، ونحن لم نَصِلْ إلى حُبِّهم فيك إلاَّ بحظِّنا منك فتَمِّمْ لنا ذلك مع العافية التامَّةِ الكاملة، حتى نَلْقاك يا أرحم الرَّاحمين، يا ربّ العالمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تَسْليماً.

وكان الفراغ منه يوم الأربعاء ثالث عشر شعبان عام ألف ومائتين وتسْع هجرية (1209هـ) على يد جامعه أحمد بن محمد بنعجيبة، لطف الله به في الدَّارين آمين.

وكان الفراغ من نسخه هنا، يومه: السبت 9 صفر الخير عام 1400هـ، موافق 29 دجنبر سنة 1979م.

الشَّرْحُ الثَّانِي

2 ـ كَشْفُ النِّقَابِ عَنْ سِرِّ لُبِّ الأَلْبَابِ

الحمدُ لله وحده. وصلَّى الله على مَنْ لا نَبِيّ بعده. وبعد:

فهذا تقييد عجِيبٌ يَرْفع حجاب الوَهم عن الحاذق اللَّبيب، فيتضمَّنُ رَفْع الحجاب عن السِّرِّ المصُون، وزوال الطِّلْسم عن الكَنْزِ المَذفُونِ، وسمَّيته: «**كشْفُ النقابِ عن سِرِّ لُبِّ الألْبَابِ**» وهذا أوَّلهُ، والله المُسْتَعانُ.

اعْلَمْ أنَّ الحق جلَّ جلاله، أوْدَع هذا الآدَمي أسْرار ذاتِهِ وصفاته وأفْعالِهِ، لكن حَجَبَ ذلك عنه بِحِكْمَتِهِ وقَهْرِهِ، فجعل على كل واحِدٍ من الأسْرار الثلاثة طلسَماً وحجاباً مسْتورا، فسَتَرَ ذلك السِّرّ عن القلْبِ بسبب الطلسام الذي غَشَّى به قلبهُ «طلسَام توْحيد الأفْعَالِ».

اعْلَمْ أنَّ فِعْل العبدِ كلَّهُ مِنَ الله، بل لا فاعِلٍ في الوجود سوَاهُ. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القَصَص: الآية 68] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية 107] وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصَّافات: الآية 96] ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البَقَرة: الآية 253].

ثم إنَّ الحقَّ جلَّ جلالهُ جعل على قَلْب العبد طَلْسَاماً غشَّى به نور تَوْحيد الأفعال، وهو ما جعَلَ له من الاخْتِيار في الظَّاهِرِ فتوَهَّم أنه مختار إن شاء فَعَل وإن شاء تَرَكَ. وهذا يحُسّ به كل عاقِلٍ من نَفْسِهِ حتى يُفَرِّق بين حركة الارتعاش وغيرها. ولذلك قيل في الجَبْرية: إنَّهم قومٌ بَلَهٌ لم يُفَرِّقوا بينهما، وهذا هو المُسمَّى بالكسْبِ عند أهل السُّنَّة. وبالحِكْمَة عند الصُّوفية، فيقولون: القدرة تُبْرِز، والحِكْمَة تَسْتُرُ. وبسبب هذا الاختيار الظَّاهر جاءت الشَّرائع وعليه يترتَّبُ الحساب، من الثَّوابِ والعقابِ، وفي حقيقة الأمْرِ: لا فاعل إلاَّ الله. لكن هذا سِرٌّ من أسْرار الألوهية أخفَاهُ الله عن عَبْدِهِ وجعل له اختياراً في الظَّاهر لتقوم به الحجَّةُ عليْهِ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية

149] ؛ وهذا السِّرُّ الذي ستَرَهُ الله لا يصحُّ للعَبْدِ أن يَحْتَجّ به لنفْسِهِ فيترك العمل أو يعمل بالمعاصي، لأنَّ العمَلَ مطلوبٌ من ناحية الشريعة وهي إنما تعَلَّقَتْ بالظّواهر، وهذا الطلسام يَغْلظ ويرقّ، بقدر رقّة الحِجَابِ وكثافَتِهِ، فإذا غلظ الحجابُ كثر في العَبْد التدبير والاختيار حتى رُبَّما يَجْزِمُ أنَّه الفاعل المُخْتَار، كما توهَّمَتِ المُعتزلة وإذا ضَعُفَ الطلسام ورقَّ الحجابُ قلَّ تَدْبيره واختيارهُ وانْعَزَلَ العَبْدُ مِنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ، فإذا اتَّصَلَ العَبْدُ بشيْخ التَّربية عزله عن اخْتيار نَفْسه، وأمَرَه بتحكيمه على نفسه في أموره كلها. فيقف عند أمره ونَهْيه فإذا حصل له الفهم عن الله وصار يُفقهه قَلْبه في الأمور حَكَّمَهُ الله على نفسه وانعزل عن تَدْبيره واختياره، وإذا وقع منهُ التَّدْبيرُ والاختيار كان بالله ومن الله وإلى الله محلول فيه، يُدَبّر وينظر ما يفعل الله فحينئذٍ ينكَسِرُ عنه الطلسَام عن توحيد الأفعال، فيَرى الأفْعَالَ كلها مِنَ الله ذَوْقاً وكشفاً لا علماً فقط. فيدخل حينئذٍ في السَّبْعين ألفاً الذين يَدْخُلُونَ الجنَّة بغَيْرِ حسابٍ، إذْ لم يَبْق له فعل يُحَاسب عليه بخلاف غيره لكثافة حِجَابه، ينسُب الفعل لنفسه ولغيره.

وعَلامتهُ: أنَّه ينقص رجاؤه عند وُجود الزَّلل ويقْويهِ عند وجودِ العمل، ويغضب على مَن أذَاهُ مع أنَّه يعتقد لا فاعل إلاَّ الله وأنَّ العَبد مجْبورٌ في قالَبِ الاخْتِيارِ لكن لا يكفي في هذا مجرَّد العِلْم ولا بدَّ من الذَّوْق الصَّريح كما تقدَّم. ومن هذا الذَّوْق عَبَّرَ الجيلاني رضي الله عنه حيثُ قال:

أُرَانِـي كـالآلاتِ وهـو مُـحَـرِّكِـي أنـا قَـلَـمٌ والاقْـتِـدَارُ أصَـابِـعُ
ولَـسْـتُ بِـجَـبْـري ولـكـن مُـشـاهِـدُ فَـقَـالَ حَـبِـيـبٌ مـا لَـهُ مَـنْ يُـنَـازِعُ

فإذا حصل للعَبْد هذا الذَّوْق وزال عنه الإشكال والتَّعارض بين الحقيقة والشريعة، فيُنَزِّل الحقيقة في محلها، وهو الباطن. والشريعة في مَحَلّها وهو الظَّاهر. فقوله عليه السلام: «اعملوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلِق له» جمع فيه بين شريعة وحقيقة.

فقوله: اعملوا: شريعة. وكل مُيَسَّر... الخ حقيقة. فكأنه قال عليه السلام: فاعملوا، أي توجَّهُوا للعمل في الظَّاهر ولسْتُمْ بعامِلينَ في الحقيقة. وقوله عليه السلام: «لَنْ يدخل أحدُكم الجنَّة بعمله» حقيقة. وقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: الآية 32] شريعة. فالشريعة تَنسب العمل للعبْدِ، باعتبار ما جُعِلَ فيه من الاخْتِيار في الظاهر الذي هو الكَسْبُ، والحقيقة تُنْفِيهِ عنه باعتبار ما في نَفْس الأمر. وهكذا، يَسيرُ العبد بين حقيقة وشريعة. فالحقيقة اعتقاد في الباطن والشريعة عملٌ في الظاهر. وقد تمسَّك الكُفَّار بالحقيقة وحدها حيث قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: الآية 148] ، ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا

يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزّخرُف: الآية 20] فلم ينفعهم ذلك حيث أهْمَلُوا الشريعة ورفَضُوها وكذلك من قال: دعانِي وسدَّ البابَ فما تكون حيلَتي. فإنه احْتَجَّ بالقَدرِ مع أنَّ الاختيار الذي جعله الله في العبد في الظاهِر حاصل له في العادة لأنّه قادِرٌ على الخروج مِنَ الكُفر ينطق بالشهادة مثلاً. وأمّا الجَبْر الباطني والقهر الإلْهي، فلا يتعلق به التكليف إذ ليس في طوق العبد بل هو من أسْرار قَهْرِ الرُّبوبية، الذي اختصّ الله به ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية 23].

قال سهل رضي الله عنه: للألوهية أسرار لو انكشفت لبَطَلَتِ النُّبوءَةُ. وللنُّبوءة أسْرار لو انكشَفَتْ لبَطَلَ العِلْمُ، وللعلم أسرار لو انكشفت لبطلَتِ الأحكام هـ. فلو انكشفَتْ أسرار الألوهية من غير رِدَاءٍ لصار الخلق كلهم أغْنِياء عن تَلَقِّي طَلَبِ العلم، لاستغراقهم في مجاري الأحَدية، فلا يحتاجُونَ إلى واسِطةٍ. ولو انكشفَت أسرار النبوءات للخلق لصاروا كلهم علماء، لظهور العِلم الإلْهي الذي كان كامِناً في بواطِنِهم، فيَسْتَغنون عن تلقِّي العلم من الأنبياء. ولو انكشفت أسرار العِلْم بحيث يتبيَّن الشَّقي من السَّعِيد، لبَطلَتِ الأحكام إذ يقول الشقي: لا يَنفعَني عمل فلا يعملُ، ويقول السعيد: أنا سعيد لا نحْتاج إلى عملٍ فتبْطل أحْكام الشَّرائع، فأبْهَمَ الله تعالى هذا الأمر عن عِبَادِهِ ودعا الكُلَّ إلى طاعَتِهِ وتَوْحيده فهدى من سَبقت له السعادة وخَذَل من سَبَقَ له الشَّقَاء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ [يُونس: الآية 25] ومن سَبَقَتْ له رُتبة عالية حرَّكه إلى النهوض لأسبابها، إذا أراد أن يُظْهر فَضْلَهُ عليك خلَقَ فِيكَ ونسب إليك، ومَنْ سبقت له رُتبة متوسطة حرّكه إلى أسبابها على ما جرى به القَدر السَّابق، فلا يصح الاحْتجاج بالقدر في هذه الدَّار. فإن قلت: قد ورد في الحديث: «إنَّ آدَم وموسى عليهما السلام قد تَحاجَجا فقال موسى عليه السَّلام لآدم: أنْتَ الذي خَيَّبْتَنا وأخرجْتنا من الجنَّة. وقال آدم: يا موسى، أتلُومني على أمْرٍ قضَاهُ الله عليَّ قَبْلَ أن أُخْلَقَ. فحَجَّ آدَمُ موسى، أي غَلَبَهُ بالحُجَّةِ».

قلنا: هذا الاحتجاج كان بعد موتِهما، في دار البَرْزخ وليست بدار التكليفِ، وإنما هي دارُ التعريف فيصحّ الاحتجاج فيها بالقَدَرِ. فإن قُلت: كيف يتوجَّه العِتَابُ إلى العبد وهو لم يفعل شيئاً في الحقيقة؟ قُلنا: توجَّه إليه باعتبار نِسْبة الفعل لنَفْسه على الاختيار الذي خلقه الله فيه في الظاهِرِ.

روي أنَّ العبد إذا بَلَغَ حدَّ التَّكْليفِ أرسل الله له مَلَكاً فيقول له: مَنْ أنت؟ فيقول: عبد الله، فيشهدون عليه بالعبودية لله، فإذا تحرَّك أول حركَة قيل له: من فعل هذا؟ فيقول: أنا، فيشهدون عليه بنِسْبَةِ الفعل لنفسه هـ. فعلى هذه النِّسْبة يقَعُ الحساب. فمن خرج عنها ذوقاً وكشفاً ورآها من الله حقّاً سَقط عنه الحساب، كما تقدَّم

في السبعين ألفاً. والله تعالى أعلم.

طَلْسَامُ تَوْحِيدِ الصِّفَاتِ

اعلَم أنَّ هذا الهَيْكل الإنساني جعله الله أُنموذجاً ربّانياً، تُحَاكي صِفاته صفات الرَّحمْن فيه قدْرة وإرادة، وسمعاً وبَصَراً وكلاماً، وهذا معنى الحديث: «إنَّ الله خَلَق آدَم على صُورته» على بعض التّأويلات إلاّ أنَّ هذه الصّفات التي جعلها الله فيه حادثة ناقِصة، وصفات الحق تعالى قديمة كامِلَة، وهي كامِنة في الإنسان كُمُون الثّمار في الأغْصانِ، وكُمُون الزّبد في اللَّبَنِ، فاحْتَجبَتْ صفات الحقّ القديمة بصفاتِ العبد الحادِثة، وقد تخرَق له العادة فيظهر عليه من العلم والقدرة أو السَّمعِ والبَصَر أو الكلام ما يبهر العُقول ثم يَسْتُر ذلك عنه، فيرجع لأصْلِهِ، ويقف عند حدِّهِ. فلمّا احْتَجَبَتْ عنه صفات الحقّ بِطلسام وجود صفات نَفْسِهِ زَعَمَ أنه يقدر بقدرتِهِ ويُريد بإرادتِهِ ويَحْيَا بحياته، ويسمع بسَمعه ويُبْصر ببصره، ويتكلم بكلامه، وفي الحقيقة إنَّما صفاته قائمة بصفاتِ الحقّ وشُعاعٍ من شعاعها لا تأثير لها أصلاً، فإذا انْكَسَرَ عنه هذا الطلسام الوَهْمِي وارْتَفَعَ له الحجاب عن توحيد الصفات تحقق ألاَّ قُدْرة له ولا إرادة ولا عِلْم ولا حياة إلاّ بقُدْرة الله وإرادته، وكذا سائر صِفاته فصار يتحرَّك بِقُدْرة الله ويريد بإرادته ويَسمع ويبصر بالله، ويتكلَّم بالله. وفي ذلك يقول الشّشتري رضي الله عنه: أنّا بالله نَنْطق، ومِنَ الله نَسْمَع. وقول القطب ابن مشيش رضي الله عنه: حتّى لا أرى ولا أسْمع ولا أجِد ولا أُحِسّ إلاّ بها. وفي مثل هذا ورد الحديث: «فإذا أحْببتُه كنت سَمْعَه الذي يَسْمع به وبَصَره الذي يُبْصر به» الحديث، والله تعالى أعلم.

طَلْسامُ تَوْحِيد الذَّاتِ

اعْلَم أنَّ الحق جلَّ جلاله كان كَنْزاً مخفياً، لطيفاً أزليّاً، لم يَعْرفه أحَدٌ، فلمَّا أراد أن يُعرف تجلَّى بتجليات من ذلك الكَنْزِ، كثفها وأظهرها بمقتضى اسْمه الظَّاهر، ثم أبْطَنها بمُقْتضى اسمِهِ الباطِن. فصارت ظاهرة باطِنة، أبْطنها بما أظهر عليها من أحكام العُبُودية، وأوصاف البشرية، ونُعُوت الحَدَثية، مِن حسِّ التكوين والتَّشْكيل والتغيير والتحييز، ولا حادث في الحقيقة إنما تجدَّد لها التَّجلي والظُّهور فبطَنَت بعد ظهورها، فتحقق فيها اسْمه الظَّاهر، واسمُه الباطِن. فمن نظر لأصْلِها وغاب عن حِسِّها لم ينحجب بها عن الحقّ تعالى، ورآه ظاهراً فيها، ومن وقَفَ مع حسِّها الظاهِر حجب بها عن شهود الحق وصارت في حقِّهِ ظُلْمة. ولذلك قال في الحِكَم: الكَوْن كلّه ظُلْمة، وإنما أنَارَهُ ظهور الحق فيه. فإنما هو ظُلمة في حقّ أهل الحِجَابِ وأمَّا في حق أهل

العيانِ فالكون عندهم كلُّهُ نورٌ، فإذا اتّصل العبد بشيْخ التّرْبية غَيَّبه عن أوصاف بشريته بشهودِ روحانيته وعن أحكام العبودية بظهور نور الربوبية وعن حسّ الكائنات بشهود معاني أسْرار الذّات، فيغيبُ عن نفسه بشهود مَحْبوبه وعن الكون بشُهُودِ المُكَوِّن، وينال مقام المَحْبُوبية كما ورد في بعض روايات الحديث المتقدّم: «فإذا أحْبَبْته كُنْتُهُ» فإذا انْكسر هذا الطلسام وهو وجود العبد الوَهْمي، ووقوفه مع أوصاف بشريته بالغَيْبَة عنها ظهر له الكَنْز الذي هو خفياً وهو الذّات الأقْدسُ فيدخُل مقام الإحسان وينال رتْبة الشهود والعيان، وهي الوِلاية الكُبْرى، والسعادة العُظْمى. وعن هذا عبَّر ابن الفارض رضِيَ الله عنه بقوله:

بِذلكَ سِرٌّ طالَ عنك اكْتِتَامُهُ ... ولاحَ صباحٌ كنتَ أنتَ ظلامُهُ
فأنتَ حِجابُ القَلْبِ عن سِرِّ غَيْبِهِ ... ولولاك لَمْ يُطْبع عليه خِتامُهُ
فإنْ غِبْتَ عنه حلَّ فِيهِ وطَنَّبَتْ ... على مَوْكِبِ الكَشْفِ المصُون خيَّامُهُ
وجاءَ حديثٌ لا يُمَلّ سماعُهُ ... شَهِيّ إلينا نَثْرُهُ ونظامُهُ
إذا سَمِعَتْهُ النَّفْسُ طابَ نَعِيمُها ... وزَالَ عَنِ القَلْبِ المُعَنّى غَرامُهُ

وقال الششتري في بعض أزْجالِهِ:

يا قاصِداً عَيْنَ الخَبَرْ غِطَاهُ أيْنَكْ ... الخَمْرُ مِنْكَ والخَبَرْ والسِّرّ عِنْدَكْ

ثم قال في شأن رَفْعِ الطلسام:

اسْمع كلامي واتهم إن كُنْتَ تَفْهَم ... لأنَّ كنزك قَدْ عُدِم عن كُلّ طَلْسَمْ

واعْلَمْ أنَّ وجود هذا الطِّلسام حقٌ وحكمته صَوْن أسرار الذّاتِ العلية، وسَتْر أسْرار الرُّبُوبية، ليبقى الكنز مدفوناً والسر مصوناً، ولولا هذا الطِّلْسام لافْتضح السّر ونالَهُ مَن لا يستحقهُ فيستدلّ بالإظهار ويُنادى عليه بلسَانِ الاشتهار، وهذا هو الرَّدّ الذي أشار إليه في الحديث: «وما بيْن النّاس وبين أنْ يَنْظرُوا إلى ربّهم إلاَّ ردَاء الكِبْرياء على وجهه في جَنَّةِ عَدْنٍ» وهو رداء الحسّ والقَهْرية المنشور على وجه أسرار المعاني، وهذا في حق أهل الحجاب في الدّنيا.

وأما من زال عنه طلسام توحيد الذّات، فلا يُحْجَبُ عنه الحق ساعَةً لا في الدّنيا ولا في الآخِرة، فهم ينظرونَ إلى ذاتِ الرَّحمْن في كل أوان، ويُسَمَّى هذا الطِّلسام، عالم الفَرْق، وعالَم الحكمة، وعالم الملك، وعالم الأشباح، وعالم الأثر، وعَالَم الشهادة. ويُسمَّى الكنز الذي ستر به عالم الجمع، وعالم القدرة، وعالم الملكوت، وعالم الأرواح، وعالَم الغَيْب. وأمّا عالم الجبروت، فهو البَحْر اللطيف الفيّاضُ الذي يتدفق منه أنوار الملكوت وهو ما لم يقع التجلي من الكنز المصون والسرّ المكنون.

والحاصل: أنَّ الوجود واحد، وهو وجود الحق تعالى. فما وقع به التجلّي، مَن نظرهُ بعين الجمع سمّاه ملكوتاً، ومن نظره بعين الفَرْقِ في عالَم الحِكمة سَمَّاهُ مُلكاً، وما لم يقع به التجلّي مِنَ الأسْرَار اللطيفة الغيبية فهو جَبَروتٌ، وهو مجرّد اصطلاح خارج عن اصطلاح اللّغة، فأهْل الفَرْقِ من أهل الحجابِ، لا يَرَوْن إلاَّ الملك لوقوفهم مع حسِّ الكائِناتِ فاحتجبَت عنهم أنْوار الملكوت وأهْل الفناء لا يَرَون إلاَّ الملكُوت وتسْرح أفكارهم في أسرار بحَارِ الجَبَرُوتِ، وأهْل البَقَاء يروْنَ الملكوت ويسرحُونَ في بِحَارِ الجَبَروت ويتنزّلون إلى عَالم المُلك لأداءِ حقوق العبودية، والأدَب مع الرّبوبية، ويتفنَّنُون في عُلُومِهِ فلا يحجبهم جمعهم عن فَرْقِهِم، ولا فَرْقهم عن جَمْعِهِم، ولا فَنَاؤهم عن بقائهم ولا بقاؤهم عن فنائهم. يُعطون كل ذي حق حقّه ويوفون كل ذي قسْط قسْطهُ، جعلنا الله من خواصّهم بمَنّهِ وكَرَمِهِ آمين.

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمينَ.

كَمُل التقييد المُبارك بحمد الله وحسْن عونه، على يد جامعه: أحمد بن محمد بن عجيبة الحسَني، لطف الله به في الدّارَين، ووافق الفراغ من تبييضهِ ثامن عشر ذي القعدة الحرام سنة تسْع عشر ومائتين وألف هجرية (1219هـ) هـ.

ووافق الفراغ من نسخه هنا عشية يوم الأحد عاشر صفر الخير عام 1400هـ موافق 30 دجنبر سنة 1979م.

ناسخه: العمراني الخالدي عبد السلام. لطف الله به في الدّارين.

3 ـ شجرة اليقين فيما يتعلّق بكون ربّ العالمين

وصلّى الله على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبه وسلم تسْليماً

3 ـ كِتابُ شَجَرَةِ اليَقِينِ

الحَمْدُ لله رب العالمينَ، والصَّلاة والسَّلام على خَيْرِ البَرية محمَّد وآلِهِ أجْمَعِين. أمَّا بَعْدُ:

فَقَد جاءَ في الخَبَرِ، أنَّ الله تعالى خَلَقَ شَجَرَة مِنَ النُّورِ ولها أربعة أغصَان فسمَّاها: شَجرةَ اليَقِين. ثم خَلَق نُورَ مُحمَّدٍ ﷺ في حِجَابٍ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضاء. مثله كَمَثَلِ الطَّاووس، ووضعها على تلك الشَّجَرَة فسبَّح عليها مقدار سبعين ألف عام ثم خَلَق مِرْآة الحيَاة مَوْضِع اسْتِقبالِهِ. فلمَّا رأى الطَّاووس فيها صورتَهُ أحْسَن صورة وهَيْئتهُ أحْسن هيئة فاسْتَحْيَى مِنَ الله حقَّ الحيَاءِ، فَسَجَدَ لله تعالى خَمْس سجداتٍ فصارت علينا تلك الصلاة فرضاً مَوْقوتاً فأمَرَ الله تعالى محمَّداً ﷺ وأُمَّته بخمس صلواتٍ. قال: ولمَّا نظر الله تعالى إليه عَرِق حَيَاءَ مِنَ الله تعالى، فَمِن عَرَقِ رَأسِهِ خَلَقَ الملائكة، ومِن عَرَقِ وَجْهِهِ خلق العَرْشَ والكُرْسي واللَّوحَ والقَلَمَ والجنَّة والنَّار والشَّمْس والقَمَر والكَواكِبَ والحُجُبَ وما كانَ في السَّمَاءِ، ومِنْ عَرَق ظَهْرِهِ خلق البيتَ المعمورَ والكَعْبة وبَيت المَقْدِس ومَوْضع مساجد الدّنيا، ومِنْ عَرَقِ حاجِبَيْهِ خَلَقَ المُؤمنينَ والمُؤْمنَاتِ، والمسلمينَ والمسلماتِ، ومن عرقِ أُذنِهِ خلقَ أرْوَاح اليَهُود والنَّصارى والمجوس، ومن شبهَهُم، يَعْني من الرَّفْضِ والملحدينَ والمُنافِقِينَ. ومِنْ عَرَق رِجْلَيهِ خَلَقَ الأرْض والمَشْرِق والمغرب وما فيها. ثم قال الله تعالى: أنظر أمامك يا نُورَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فنَظَر نُور محمَّد ﷺ فرأى نوراً من ورائهِ ونوراً عن يَمِينه ونوراً عن شمالِهِ ونُوراً أمامَهُ. فالنُّورُ الذي رأى أمامَهُ هو أبو بَكْرٍ الصدِّيق رضي الله عنه، والنُّور الذي رأى وراءَهُ هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والنُّور الذي رأى عن يَمِينِهِ هو عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، والنُّورُ الذي رأى عن يَسَارِهِ هو علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ونَفَعَنا بهم أجْمَعِين. ثم خَلَقَ نُور الأنبِياء من نُور محمَّد ﷺ وعَلَيْهم أجْمَعِين. ثم نظرَ إلى ذلك

النُور فخلق أرواحهم فقالوا: لا إله إلاّ الله محمَّد رسول الله ﷺ. ثم صَنَع قنديلاً مِنَ العقيق الأحْمر يُرى ظاهره من باطنِهِ ثم خَلَق صورة محمَّدٍ كصُورتِهِ في الدُنيا، ثم وضع في هذا القنديل قيامه كقيامِهِ في الدنيا في الصَّلاةِ، ثم طافت الأرواح حَوْل نُور محمَّد ﷺ فسَجَدُوا وهَلَّلُوا مقدار مائة ألف سنةٍ، ثم أمَرَ الله تعالى الأرْواح أن يَنْظرُوا إليه، فنظروا إليه كلهم فَمِنهم من رأى رأسهُ فصار خليفة وسُلْطاناً بينَ الخلائق، ومنهم من رأى جبْهَته فصار أميراً عادِلاً، ومنهم من رأى عَيْنيْهِ فصار حافظاً لكتاب الله عزَّ وجلَّ. ومنهم من رأى حاجِبَيْهِ فصار نقاشاً، ومنهم من رأى أُذُنَيْه فصار مستمعاً ومقبلاً، ومنهم من رأى خدَّيْهِ فصار محسناً وعاقلاً، ومنهم من رأى أنْفَهُ فصار حكيماً وطبيباً وعطَّاراً، ومنهم من رأى لِسَانه فصار رسولاً بين السَّلاطين، ومنهم من رأى حَلْقَهُ فصار واعِظاً ومُرشِداً وناصِحاً، ومنهم من رأى لِحْيَتَهُ فصار مُجاهِداً في سبيل الله، ومنهم من رأى عَضُدَيْهِ فصار جاحِداً ومُنافقاً، ومنهم من رأى عَضده الأيْمن فصار حَجَّاماً، ومنهم من رأى عضده الأيْسَر فصار جاحِداً، ومنهم من رأى كفَّهُ الأيْمَن فصار طرازاً وصفاقاً، ومنهم من رأى كَفَّهُ الأيْسر فصار كيَّالاً، ومنهم من رأى يديه فصار ساخياً كيِّساً، ومنهم من رأى ظهْرَ كَفَّيْه فصار بخيلاٍ ولئيماً، ومنهم من رأى ظهر أصابعه الأيمَن فصار خَيَّاطاً، ومنهم من رأى أصابع يده اليُسْرى فصار حَدَّاداً، ومنهم من رأى صَدْره فصار عالِماً ومُكَلِّماً ومجاهِداً، ومنهم من رأى ظهره فصار متواضِعاً ومُطِيعاً لأمر الشَّرْعِ، ومنهم من رأى جَنْبَيْهِ فصار غازياً، ومنهم من رأى بَطنه فصار قانِعاً وزَاهِداً، ومنهم من رأى رُكْبَتَيْهِ فصار ساجِداً وراكِعاً، ومنهم من رأى رِجْلَيه فصار صياداً، ومنهم مَن رأى تحت قَدَمَيْه فصار ماشياً، ومنهم من رأى ظله فصار مُغَنِيّاً وصاحب الطنبورِ، ومنهم مَنْ لم يَرَ شيئاً فصار يَهودِيّاً أو نصرانيّاً أو كافِراً أو مجوسيّاً ومدعياً للربوبية كفرعون وغيره من الكُفَّار.

واعْلَمْ أنَّ الله تعالى أمَرَ الخَلْق بالصَّلاةِ على صُورَةِ مُحَمَّدٍ بالقيام مثل الألف، والركوع كالحاءِ، والسجود كالميم، والقعود كالدَّالِ. وخَلَقَ الخَلْق على صورة اسْم محمَّد ﷺ، فالرَّأس مُدَوَّر كالميم، واليَدانِ كالحَاءِ، والبَطْنُ كالميم أيضاً، والرِّجلانِ كالْدالِ، ولا يحرق أحَد من الكفَّار على صورتِهِ بل يبدلهم الله تعالى على صفَةِ الخنازير ثم يقذف بهم في النَّارِ.

بَابُ
تَخْلِيق آدَمَ على نبيّنَا وعليه الصَّلاة والسَّلام

قال ابن عباس رضِيَ الله عنه: خلق الله آدَم عليه السلام من أقاليم الدّنيا، فرأسه

من تراب الكَعْبَة، وصدره من تراب الجنَّة، وظَهْره وبطنه من تراب الهِنْدِ، ويَدَيه من تراب المشرق، ورجلَيْه من تراب المغرب.

وقال وهب بن مَنْبَه رضي الله تعالى عنه: خَلَقَ الله آدَمَ من الأرضين السبعة، فرأسه من الأولى، وعنقه من الثانية، وصدره من الثالثة، ويده من الرّابعة، وظهره وبَطْنَه من الخامِسَة، وفَخذِهِ وعَجزُهُ من السَّادِسَة، وساقيه وقدميه من السَّابِعة.

وفي رواية أخرى عن ابن عباسٍ رضي الله عنه: خَلَقَ الله آدَمَ عليه السَّلامُ: رأسه من تراب بيْت المقدس، ووجْهه من تُرَابِ الجنَّة، وأسْنَانه من تراب الكَوْثر، ويده اليُمْنى من تراب الكَعْبَة، ويده اليُسْرى من تراب فارس، ورجْليه من تراب الهند، وعظمه من تراب الجبل، وعَورته من تراب بَابل، وظهره من تراب العِرَاق، وقلبه من تراب الفِرْدوس، ولسَانه من تراب الطَّائف، وعيْنيْه من تُراب الحَوْضِ، فلمَّا كان رأسُه من تُرَابِ بَيْتِ المقدس صار موضعَ العَقْل والفِطْنَة والنُّطق. ولما كان وجْهه من تراب الجنَّة صار مَوْضع الزّينَة. ولمَّا كان عيْنيه من تراب الحَوْضِ صار موضع الملاحة. ولمَّا كان أسْنانه من تراب الكَوْثر صار مَوْضِع الحلاوة. ولمَّا كانت يده اليُمْنَى من تراب الكَعْبَة صار موضع المؤونة، ولمَّا كانت يَدُهُ اليُسْرى من فارِس صار موضع العَوْنة. ولمَّا كان ظهره من تراب العِراقِ صار موضع القوّة. ولمَّا كانت عورته من بَابل صار موضع الشَّهْوة. ولمَّا كان عَظمه مِنَ الجَبَل صار مَوْضع الصَّلابة، ولمَّا كان قلبه من الفِرْدَوْس صار موضع الإيمان، ولما كان لسَانه من تراب الطَّائف صار موضع الشَّهادة. وجعل الله تعالى آدم عليه السلام تسْعة أبْواب، سبْعَة في رأسِهِ: عيْناهُ وأُذناه ومنخاره وفمه. واثنان في بَدَنِهِ: قُبُلِهِ ودبره. وجعل الله الحواسَّ الخمس: البصَرَ في العينين، والسَّمْع في الأذنَيْن، والذَّوق في الفم، والشَّمَ في الأنْفِ، واللمسَ في اليَدَيْن، والمشي في الرّجلين.

ويُقالُ: لمَّا أراد الله تعالى أن يَنْفخَ في آدَم عليه السلام الروح أمرَ الروح أن تدخل فَمَهُ، ويُقال: من دماغِهِ، فاسْتدارت فيه مائتي عام ثم نزَلتْ إلى عيْنيْه فنظر إلى نَفسه، فرآها كُلّها طيناً فلمَّا وصلت إلى أُذنيْه سمع تسْبيح الملائكة، ثم نَزَلتْ إلى خياشيمه فعَطَسَ وقبل أن يفرغ من عِطَاسِهِ نزلت الرّوح إلى فَمِهِ ولسانه. ولقَّنَهُ الله تعالى بالحمدِ، فأجابه رَبّه: يرحمك الله يا آدم. ثم نزلت إلى صَدْرِهِ فعجّل القيام فلم يُمكنه القيام، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: الآية 11] فلمَّا وصلت إلى جَوْفِهِ اشتهى الطَّعام. ثمَّ انتشرت الروح في جَسَدِهِ كُلِّه فصار لحماً ودماً وعَرَقاً وعَصَباً، ثم كساه الله تعالى لِباساً من ظفرٍ، يزداد كل يَوْم حسْناً وجمالاً فلمَّا قارف الذّنب تبدَّل هذا الظفر بالجِلْد، وبقي منه ما بقي في أنامِلِهِ ليتذكر بذلك أوّل حالِهِ. فلمَّا أتمّ الله

تعالى خلْقَ آدم ونَفَخَ فيه الرّوح وألْبَسه الله عزَّ وجلَّ مِنَ لِبَاس الجَنَّةِ، ونُورُ محمَّد ﷺ يلمع في جبهته كالقمر ليْلَة البَدْرِ. ثم رفعه الله تعالى على سَرِيرٍ وحمله على أعْناقِ الملائِكَة، فقال تعالى لهم: طُوفُوا به في السَّمَاوات ليَرَى عجائِبَهَا وما فيها تبييناً. فقالت الملائكةُ: ربَّنا سَمِعْنا وأطَعْنَا. فحملته الملائكة على أعْنَاقهم وطافَتْ به السماوات مقدار مائة عامٍ. ثم خلق له فرساً من المسْكِ الأظفَرِ يُقال له ميمونة، ولها جناحانِ مِنَ الدّرّ والياقوت فركبها آدم وجبريل يأخذ بلجامه وميكائيل عن يَمِينِهِ وإسْرافِيل عن شِمالِهِ فطافُوا به على السماوات. فيقول: السلامُ عليكم. ويقولون: وعليكم السَّلامُ. فقال الله تعالى: يا آدَمَ هذه تحيتكَ وتحية المؤمنين من ذريتك فيما بَيْنَهم إلى يوم القيامة.

بَابٌ
في ذِكْرِ الملائِكَة

واعْلَم أنَّ الله تعالى خَلَقَ من الملائكة أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسْرَافيل، وعزرائيل، وهو ملك الموت، عليهم السَّلامُ، وجعل إليهم أمُور الخلائق، وتدبيرهم، وتدبير العالم كله إلى يوم القيامة.

جَعَلَ جبريلَ صاحب الوَحْي والرسالة.

وميكائيل صاحب الأمطار والأرزاق.

وعزرائيل صاحب الأرواح.

وإسرافيل صاحب القرْنِ.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنه: اعْلَم أنَّ إسْرافيل سأل من الله أن يعطيه الصّور وقوَّة السبع السماوات فأعطاه. وقوة السَّبْع الأرضين فأعطاه وقوَّة الثّقلين فأعْطاهُ، ومن تحت قَدَمَيْه إلى رأسه شعوراً وله ألْف لسَانٍ يسبّح الله تعالى لِكُلِّ لسان ألْف ألْف لغة، ويخلق الله تعالى من كُلّ نَفَسٍ ملكاً يسبّح الله تعالى إلى يوم القيامة، وهم مُقَرَّبُون عند الله تعالى.

وأمَّا حَمَلة العرشِ، وهم الكرام الكاتبون، وهم على صورة إسْرافيل، وينظر إسرافيل كل يوم وليلة ثلاث مرَّات إلى جهنَّم فيذوب ويصير كَمِثْل وَتْر القَوْسِ ويبكي بُكاءً شديداً ويتضرَّع إلى الله تعالى. ولولا أنَّ الله تعالى مَنَعَ دموعه لامتلأتِ الأرْض من دُمُوعِهِ ولصارت كطوفَانِ نوحٍ عليه السلامُ.

ومن عظمه: أنَّه لو صُبَّ ماء البحار والأنْهار على رأسِهِ ما وقَعَت قَطْرَة على الأرْضِ.

وأمَّا ميكائيل عليه السَّلامُ، خَلَقهُ الله عزَّ وجلَّ بعد إسْرافيل بخمسمائة عام، ومن رأسه إلى قَدَمَيْه شعُوراً من الزَّعفرانِ وأجْنِحَة من الزَّبرجد الأخْضَر، وعلى كلِّ شعرة ألف ألف وَجْهٍ، في كل وجْهٍ ألف ألْف فَم، في كل فم ألْف ألف لسانٍ، كل لسانٍ يتكلَّم بألف ألف لُغَةٍ، يسْتغفر الله تعالىَ بكلِ لسانٍ لِّلمؤمنين والمذنبين من أُمَّة محمَّد ﷺ فيقْطر من كل عَيْن ألْف قطرة، فيَخلُق الله تعالى من كلِّ قطرة تَنْزِل مَلَكاً على صُورة ميكائيل يُسبِّحونَ الله إلى يوم القيامة، وأسْمَاؤهم: المَلاَئِكة الكَوْثَرِيُّون، وهم أعْوَان ميكائيلَ، مُوَكَّلون على المَطَرِ والأرزاق والأثمار، فما مِنْ قطرة في البحارِ ولا ثمرة على الأشجار ولا نبات في الأرض إلاَّ وعلى كل حبَّة مَلَك مُوَكل بها.

وأمَّا جِبْريل عليه السَّلام، خَلَقَه الله تعالى بَعْد ميكائيل بخمس مائة عام وله ألف وستمائة جناح ومن رأسه إلى قدميه شعوراً من زعفران، والشمس بَيْن عَيْنَيْه، وعلى كل شعْرة قَمَر وكواكب، وكل يوم يَدْخل في بَحْرِ النُّورِ ثلاثمائة وستين مرَّة، فإذا خَرَجَ يسْقط من أجْنِحتهِ ألف ألف قُطَرٍ، يخلق الله من كل قطرة أيضاً ملكاً على صفَةِ جبريل يُسَبِّحون الله تعالى إلى يوم القيامة، وأسْماؤهم: الرُّوحانيّونَ. وأمَّا صُورَة مَلَكِ المَوْتِ، مثل صورة إسْرافيل كل الوجوه والألسنة والأجنِحة.

بَابٌ
في ذِكْرِ تَخْلِيق المَوْتِ

وفي الخَبَر، عن النبيّ ﷺ قال: لمَّا خَلَقَ الله المَوْت حجَبَه عن الخلائق بألْف ألْفِ حجابٍ، وعظمته أكبر من السماوات والأرض، وقد شُدَّ بِسَبعين ألف سِلْسلة، كل سلسلة طولها مسيرة ألْف عامٍ لا يقربونه الملائكة ولا يَعْلَمُون مكانه، إلاَّ أنهم يَسْمعون صَوْته في كل وقتٍ وكل ساعَة إلى وقت آدَمَ.

قال عليه السَّلامُ: «لمَّا خَلَقَ الله آدَمَ، سلَّط عليه مَلَك المَوْتِ، فقال المَلَكُ: يا ربِّ، وما المَوْتُ؟ فأمَرَ الله بالحجاب فانكَشَفَ، وارتفع حتى رآه الملك، قال الله تعالى للملائكة: انظروا هذا الموت. فوقفَت الملائكة أجمعين. فقال الله تعالى للمَوْتِ: طِرْ عليهم، وانشر الأجنحة كلها وافتح عينيك كلها. فلمَّا طارَ عليهم المَوْت نَظَرَتِ الملائكة إليه وتحيّروا ووقعُوا مغشياً عليهم ألْف عام. فلمَّا أفاقوا قالوا: ربَّنا أخَلَقْت خلقاً أعظم من هذا الخلق؟ قال الله تعالى: أنا خلَقْتهُ وأنا أعظَمُ مِنْهُ، وقد تَذَوَّق منه كل مَخْلوق. فقال سبحانه وتعالى: يا عُزْرائيل خُذْهُ فقد سلطناك عليه. فقال: إلٰهي بأيِّ قُوَّةٍ آخذهُ فإنه عَظيم. فأعطاه الله تعالى قوَّة السماوات والأرْض، ثم أخذه مَلَك المَوْت، فسكن في يَدِهِ، فقال الموت: يا ربِّ، اذِن لي حتى أُنادي في

السَّماوات مرَّة. فأذِن له ربّه، فنادَى المَوْت بأعْلَى صوتِهِ وقال: أنا المَوْت الذي أُفرِّق بين كل حبيب، أنا الموت الذي أُفرِّقُ بين المَرْءِ وزوجه، أنا المَوْت الذي أُفرِّق بين الأمهات والبنات، أنا الموت الذي أُفرِّق بين الأبْنَاء والآباء، أنا الموت الذي أفرّق بين الأخ والأخوَات، أنا الموتُ الذي أقهر القويّ من بني إسْرَائيل، أنا الموت الذي نعمر القبور، أنا الموت الذي أُخرِّب الدُّورَ والقصُور، أنا الموت الذي أطلبنّكم ولو كُنتم في بُرُوجٍ مشيَّدَة، ولم يَبْق مخلوق إلاّ يذوق مني. فإذا نَزَل الموتُ على أحَدٍ قامَ بينَ يَدَيْه على صُورتِهِ ثم تقُولُ النَّفس: مَنْ أنت؟ وما تريد؟ فيقول: أنا المَوْت الذي أُخرجك من الدّنيا وأجْعل أولادكَ يتَامَى، وزَوْجَك أرْملة، ومالك مَوْرُوثاً بين وَرَثِتك الذين كُنْتَ لا تحبّهم حال حياتِكَ، فإنك لَوْ لـم تَمْلك إلاَّ خيراً لنفسك لكان خَيْراً لك، فإذا سمع النَّفس حوَّل وجهه إلى الحائِطِ، فيرى الموت قائماً بين يديه، فيقول الموت: ألَمْ تعرفنِي؟ أنا الموت الذي قبضت أرْواح أوْلادِكَ ووالِديْك وأنت تَنْظر ولم ينفعكَ اليوم أحَد من أقاربك وأخواتِك وأولادكَ، أنا الموت الذي أفنيْتُ القرون الماضية، قَرْناً بعد قَرْنٍ، أكثر منك مالاً وولداً وقوَّة. ثم يقول له مَلَك المَوْت: كيف رأيْت الدّنيا؟ فيقول له: رأيتها نكَّارة غدَّارة، ثم يقول الله تعالى للدُّنيا: كَلِّميه، فتقول الدّنيَا: يا عَاصِي ما تَسْتَحيي، أنت أذنَبْت ولم تمْتنع من المعاصِي، وأنت طلبتني ولم تفرّق بين حلالٍ وحَرَام. ظننت أنك لن تخرجْ من الدّنيا، هيهَات، فأنا بريئة منك ومن عَملك وتراثك فإنه قد وضع في يدِ غَيْرك. فيقول المَالُ: يا عاصِي كَسَبْتَنِي بغَيْر حقٍّ ولا تصدَّقْت بي على الفقراءِ والمساكين، أنا اليوم قد وقَعْت في يد غيرك، فذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿88﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿89﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان 88، 89]، فيقول الميّت: يا ربّ ارجعني ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿100﴾﴾ [المؤمنون: الآية 100] فيقول الله تعالَى: كلاّ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿49﴾﴾ [يونس: الآية 49]. ثم يأخذ رُوحَه، إن كان مؤمناً فَعلَى السَّعادة، وإنْ كان مُنافقاً فَعلَى الشَّقَاوة، لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿18﴾﴾ [المطففين: الآية 18] وفي الآية الأخرى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿7﴾﴾ [المطفّفين: الآية 7].

بَابٌ
في ذِكْرِ مَلَكِ المَوْتِ عَلَيه السَّلامُ، وكَيف يأخُذُ الأرْواحَ، وكيف يَقْبِضُها

ذكر في كتاب السلوك، عن مقاتل بن سليمان رحمه الله تعالى: أنَّ مَلَكَ المَوْت

كان له سَرير في السَّماءِ السَّابِعة، ويُقال: في السَّماء الرَّابعة، خَلَقَهُ الله تعالى مِن نُورٍ له سَبْعون ألْف قَائمة، وله أربعة آلاف جَنَاح. مملوّ جميع جسده بالعُيُون والألسِنَة وليس أحَد من خَلْق الله تعالى من الطُّيور والآدَميين وكُلّ ذي رُوح إلاَّ ولَهُ في جَسَده وجْه وعَيْن، ويَد بِعَدَدِهم، فيأخذ تلك اليد الروح وينظر الذي بحاذيه، وكذلك يقبض أرْوَاح المخلوقين في كل مكانٍ، فإذا ماتَ الإنسان في الدّنيا ذَهبت عَيْناه من جَسَدِهِ. ويُقالُ: إنَّ له أربعة أوْجهٍ: وجه أمَامَهُ، ووجْهٌ على رَأسِهِ، ووجْه على ظَهرهِ، ووجه تحت قدَمَيْهِ. فيأخُذُ أرْوَاح الأنبِياء والملائكةِ على الوجه الذي على رأْسِهِ، وأرْواح المؤمنين من أمامِهِ وأرواح الكافرين من وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وأرواح الجنّ من تحت قَدَمَيْهِ، وأحَد أرْجُلِه على جِسْر جهَنَّم والآخر على سرير الجنَّة. ويُقال من عظمته: لَوْ صبّ مياه جميع البحار والأنهار على رأسِهِ ما وقَعَت قطرة على الأرضِ. ويقال: إنَّ الدنيا بأسْرِها في عَيْن مَلَك المَوْتِ، كحَبَّة خَرْدَلٍ في يَدِ أحَدِكُم. وكذلك الخلائق، فإنَّه يُقَلّب الخلائق في الدنيا كما يقلّب أحَدكم الدَّنانير والدَّراهم. ويُقال: لا يَنْزِل ملكُ الموت إلاَّ على الأنبياءِ والمُرْسلينَ، وله خليفة على أرْواح السباع والبهائم. ويُقال: إنَّ الله تعالى إذا أفْنى خَلْقه كلهم من النَّاس وغيرهم، يُطْفي تلك العيونُ التي في جَسَدِ مَلك الموت كلها.

وأما مَعْرفة انتهاءِ الأجَلِ، أنَّ مَلَكَ المَوْت إذا دفَعَ الله نسْخة الموت والمرض، يقول: إلٰهي متى أقبض أرْواحِ العبيد وعلى أي حالٍ وهَيْأةٍ أقبض أرْواحهم. فيقول الله تعالى: يا مَالِكَ المَوْت، هذا عِلْم غَيْبٍ لا يطَّلع عليه أحَدٌ غَيْري، ولكن أعلمك إذا كان وقته أجْعل لك عَلامات تعرف بها ذٰلك. وأنَّ المَلَك الذي هو مُوَكَّل بالأنْفاسِ يأتي إليه فيقول له: فَنِي نفس فلان، والَّذي على رزقه يأتي إليه ويقول له: تَمَّ رزق فلان، والذي على عمله يأتي ويقول: تَمَّ عَمَل فلان. وإن كان من السعداء خطّ على الاسم الذي مكتوب في صحيفته التي عِنْدَ مَلك المَوْت، خطّ من نور أبْيض حول اسمه، وإن كان من الأشقياء خط من سواد. ثم لا يتمّ لمَلك الموت عَمل ذلك، حتى يسقط عليه ورقته من الشجرة التي تحت العَرْش مكتوب على الورقة اسم صاحِبِها، فحينئذ يأخُذ روحه.

وروي عن كَعْب الأحْبَار رضي الله عنه: أنَّ الله تعالى خَلَق شجرة تحت العَرْش عليها أوراق بعدد كل خَلْقٍ، فإذا انتهى أجل العَبْد وبقي من أجَله أرْبعين يَوْماً سقطت ورقته في حُجْر عُزرائيل فيطلع بذلك فيأمره الله بقَبْض روح صاحبه، بعد ذلك يسمُّونَهُ ميّتاً في السَّمَاءِ وهو حيٌّ في الأرْضِ أربعين يوماً.

ويُقال: إنَّ مَلَكاً يَنْزِل بصحيفة على مَلَكِ المَوْتِ من عند الله تعالى وبيده بَرَاءة فيه

اسم من أُمِرَ بِقَبْضِ رُوحِهِ والموضع الذي فيه يقبض روحهُ، وسبب ذلك مكْتُوب، وكيف يقبضه عليه.

وذكَرَ أبو اللَيْث رحمَة الله عليه قال: ينزل قطرتان من تحت العرش على اسْم صاحبه، أحدهما أخضر والآخر أبيض. فإذا وقع الأخْضَر على أيّ اسْم كان، عَرف أنّه شَقي، وإذا وقع الأبيَض على أيّ اسم كان عَرَف أنه سعيد.

وأمَّا مَعْرِفَةُ المَوْضِعِ الذي يموت فيه، فيُقال: الله تعالى خَلَق مَلكاً موكّلاً بِكُلِّ مولودٍ يُقال لهُ: مَلَك الأرْحام، فإذا ولدت أمُّ المولودَ أُمِرَ به أنْ يدخل في سرَّتِهِ في النّطفة التي في رَحِمِ أُمِّهِ من تراب الأرض التي يموت عليها، فيدور العَبْدُ حيث ما يريد حتى يعود إلى مَوْضع ترْبَتِهِ فيموت فيها. وعلى هذا يدل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النّساء: الآية 78]، ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية 154].

وعلى حِكايةٍ: أنَ مَلَكَ المَوْت كان يَظْهَرُ في الزَّمَنِ الأول فدخَل يوماً على سليمان بن داود عليهما السلام، فأخَذَ يَنْظر إلى شابٌ كان عنده، فارتَعدَ الشَّابُ منه، فلما غابَ مَلَك الموت قال: يا نبيَّ الله لَوْ رأيْتَ أنْ تأمُرَ الريح فتَحْملني إلى الصّين، فأمر الريح فَحَمَله إلى الصّين فعَاد ملك المَوْت إلى سُلَيْمان، فسأله عن سبب نظَرِه إلى الشَّاب، فقال له: إنّي أُمِرْت أن أقْبضَ روحه في بَلَدِ الصّينِ في ذلك اليوم، فَرأيته عندك. فتعجَّبَ من ذلك، فأخْبر سليمان بقصته، كيف قَبَضَ روحه في تِلْكَ اليوم بالصّينِ.

وفي خَبَر آخَرَ: أنَّ لملك الموت أعْواناً يقومُون بقَبْضِ الأرواح. ألا تَرَى أنه رُوي أنَّ رجُلاً ألْقَى الله على لسانِهِ: اللّهُمَّ اغْفِرْ لي ولمَلِك الشمس، فاسْتأذن هذا الملَك ربَّه في زيارتِهِ، فلمَّا أذِنَ له نَزل عليه وقال له: أنت تكثِر الدّعاء لي فما حاجتُكَ عندي؟ قال: حاجتي أنْ تحملني إلى مكانِكَ من الشَّمْس، فإنّي أريد أن نَسْأل مَلَك الموت لعلَّه أن يخبرني بقرْبِ أجلِي. قال: فأخذه وأقْعَدَه في مقعده من الشَّمْسِ، ثم صعد إلى ملك الموت وذكر له أن رجُلاً من بني آدم ألْقَى الله على لسانِهِ أنْ يقول: اللّهم اغفر لي ولمَلَكِ الشَّمْس، وقد طَلبَ مني أن أطْلُبَ منك أن تُعْلِمَه بأجَلِهِ متى قرب ليسْتَعِدَّ له. فَنَظَرَ مَلكُ المَوْتِ في كتابِهِ وقال: إنَّ صاحبَكَ هذا له شأن عَظِيمٌ. وإنه لا يموت حتَّى يجلس في مَجْلسكَ مِنَ الشَّمْسِ، قال: قد جلَسَ في مَجْلسي هذا، قال مَلَك الموت عند ذلك: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٤٩﴾ [يونس: الآية 49].

وأمّا أجَل البهائِم من غَيْرِ الجنّ والإنْس، ما رُوي في الخبَر عَنْ رسول الله ﷺ أنّه قال: «وآجَال البهائم كلّها في ذِكْرِ الله تعالى، فإذا تَرَكُوا ذِكْر الله تعالى، قَبَض الله أرواحَهُمْ ولَيْس لمَلكِ المَوْتِ من ذلِكَ شيْءٌ. وقد قيلَ: أنّ الله تعالى قابِضُ الأرواحِ، وإنما أُضيف ذلك إلى مَلَكِ الموت كما أُضيف القتل إلى القاتِلِ، والموت إلى الأمراضِ، وهذا ما يدُلّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُمَر: الآية 42] الآية.

بَابٌ
في ذِكْرِ جَوَابِ الرُّوحِ

وفي الخَبَر، أنّ مَلَك الموت إذا أراد أن يقبض روح العبد فتقول الروحُ: لا أُطِيعك ما لم يأمرني ربي بذلك. فيقُولُ له المَلَكُ: أمَرَني بذلك. فيطلب منه الروح العلامة والبُرْهان، فيقول: إنّ ربّي خَلَقَني وأدخَلَني في جسدي، ولم تكن عنده ذلك، فهل تُريد أن تأخُذَني. فيرجع ملك الموت إلى الله تعالى فيقولُ: إلٰهي عَبْدك يقول كذا وكذا ويطلب مني العلامة. فيقول الله تعالى: صَدَق رُوح عَبْدِي، يا مالك الموتِ اذْهَب إلى الجنّة وخُذْ تفّاحة عليها علامتِي، وأريها روح عَبْدِي. فيذهب ملك الموت فيأخُذَها وعليها مكتوب: بسم اللهالرحمٰن الرحيم. ويجيء ويعرفه، ويراهُ، فإذا رآه العَبْدُ يخرج روحُه مع النشاط. اللّهُمّ سهّلْ علينا خروج أرْوَاحنا.

بَابٌ
في ذِكْرِ الأعْضَاءِ

وفي الخَبَرِ: إذا أراد الله أن يقبض رُوح عَبْدٍ فيجيء ملك الموت مِنْ قِبَلِ الفَم ليقبِضَ روحه منه، فيَخرج الذُكْر من فِيهِ فيقول: لا سبيلَ لك من هذه الجهة وإنما أجري فيه ذكر ربي، فيرجع مَلك المَوْتِ إلى الله تعالى، فيقول: كيت وكيت يا رب. فيقول الله تعالى: اقبضْ روحه من جِهَة أُخرى. فيَجيء من جهة اليَدِ ليقبض الرُوح فتَخْرُجُ منه الصَّدقة وتقول: لا سبيل لك إلَيْهِ فإنه قد تصدّق بي كثيراً ومَسَح بي رأس يتيم وكتب العِلم، وضرب بالسَّيْف في الجِهادِ على أعْناقِ الكُفّار. ثم يجيء من قِبل الرِّجْل فتقول: لا سبيل لك من قِبَلي، فإنّه كان يمشي إلى الجمعة والأعياد، ومَجالس العِلم. ثم يجيء مِنَ الأذْنِ فتقول: لا سَبيل لك مِن قِبَلي، فإنه كان يسمع بي العلم والموعظة. ثم يجيء من قِبَل العَيْنِ فتقول: لا سَبيل لك من قِبَلي، فإنّه قد نَظَرَ بي في المُصْحف ووجه العلماء. فينصرفُ مَلَك الموت إلى ربّه فيقول: يا ربّ إنّ عَبْدَك يقول

كذا وكذا. فيقول الله جلَّ جلالَهُ: يا مَلَك الموتِ، علق اسْمي في كَفك وأريه روح عبدي المؤمِن يُطِيعك. قال: فيكتب مَلَك الموت اسْم الله تعالى في كَفِّهِ فيراهُ رُوحُ المؤمن ويجيبُهُ فيخرج رُوح المؤمن على بَرَكَةِ الله فَتَنْصَرِفُ عنه مرارة النَّزع والقَطيعة بِرَحْمة الله عزَّ وجل، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: الآية 22]، والآية الأخرى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الزُمَر: الآية 22] وكيف لا ينصرف عنهم العذاب وأهوال يوم القيامة.

وفي الخَبَرِ: خَمْسَة أشياء سُمّ قاتِل. وخمسة أُخرى ترياقها. فالدُّنيا سمّ قاتل، والزُهْد ترياقها. والمال سمّ قاتل، والزَّكاة ترياقه. والكلام سُمّ قاتل، وذِكْر الله ترياقه. والعمر كُله سم قاتل، والطَّاعَة ترياقه. وجميع السَّنَة سمّ قاتل، وترياقها شهر رمضان».

وفي الخَبر: «إذا وقعَ العَبْد في النَّزع يُنَادي منادياً: دَعْهُ حتى يسْتريح، فإذا بلغ الروح إلى الصَّدْرِ قال الله تعالى: دَعْهُ حتَّى يَسْتريح. وكذلك إلى الرّكبتين، وإلى السُّرَّة». فإذا بلَغَ إلى الحلقوم جاء نداءٌ: دَعْهُ حتى يُودِّعَ الأَعْضَاء بعضها بعضاً. فيودّع العَيْن، فيقول: السَّلام عليكم إلى يَوْم القيامة، وكذلك الأُذُنين واليَدَيْن والرّجلين ويُودع الرّوح النَّفس، فنعوذ بالله من وَدَاع الإيمان باللّسانِ، والمعرفة بالجَنَانِ، فبقيت اليدانِ والرّجْلانِ، بلا حَرَكة، والعَيْنان لا نظر لهما، والأُذُنان لا سمع لهما، والبدَن بلا رُوحٍ، ولو بقيِ لسان بلا إيمانٍ وقلبٌ بلا معرفة فكيف حالُ العبد في اللَّحْدِ لا يَرَى أحداً، لا أباً ولا أُمّاً، ولا ولَداً، ولا إخواناً ولا صحاباً، ولا فِراشاً ولا حِجاباً، فلو لم يرَ أباً كريماً فلقد خَسر خسراناً مُبيناً.

قال أبو حنيفة رحمة الله عليه: وأكْثَرُ ما يُسْلب الإيمان في وَقْت النَّزْع والعياذُ بالله، أعاذَنا الله وإيَّاكم من سَلْبِ الإيمان مِنَ القلب وقت النَّزْع بجَاهِ سيدنا محمَّدٍ ﷺ.

بَابٌ
في ذِكْرِ الشَّيطانِ وكَيْفَ يَسْلُب الإيمان

وفي الخبر: «يجيء الشيطانُ إليه فيجلس عند رأسه، ويقول: أتْرك هذا الدِّينَ، وقُل: إلٰهين اثْنَين تَنْجُو من هذه الشدَّة. وإذا الأمر كذلك، والأمر شديد، فعليك بالبكاءِ والتضرّع، وإحْياء اللَّيلِ، وكثرة الرّكوع والسُّجود، حتى تَنْجُو إن شاء الله تعالى».

وسُئِلَ أبو حنيفة رحمهُ الله تعالى: أيّ ذَنبٍ أخوف لسلب الإيمانِ، قال: الشِّرك بالله، وترك الشكر على الإيمانِ، وترك خَوْف الخاتِمَة، وظلم العباد. قال: مَنْ كانت فيه هذه الخِصَال الثلاثة فالأغلَب أنه يخرجُ مِنَ الدّنيا كافِراً إلاّ مَنْ أدرَكَتْهُ السَّعادة. ويُقال: حال الميّتِ حالٌ شديد، لأنه حال عَطَشٍ واحتراق في الكَبِدِ. ففي ذلك الوَقت يجد الشيطان فرجة لنزع الإيمان من المؤمن لأنَّ المُؤمن يَعْطِش في ذلك الوقت، فيجيء الشيطان عند رأسِهِ ومعه قدَح من الماء فيتحرك له، فيقول المؤمن: أعْطِنِي. فيقول له: كذِّب الرسول حتى أعطيك منه. فمن سَبَقَتْ له الشقاوة يجيب إلى ذلك، لأنه يصير إلى العَطشِ، فيخرج مِن الدّنيا كافِراً. ومن أدرَكَته السعادة يردّ كلامه، ويتفكَّر أمامه كما حكى ابن أبي زكرياء الزَّاهد لمَّا حَضَرَته الوفاة، وأتاه صديقه وهو في سكراتِ المَوْتِ، ولقنهُ: لا إله إلاّ الله محمَّد رسول الله، فأعْرَضَ الزَّاهِد عنه ولم يقل. فقال له ثانياً، فأعرض عنه أيضاً، فقال له ثالثاً، فقال له الزّاهِدُ: لا أقُولُ. فغُشِيَ على صَدِيقِهِ. فلمَّا كان بعد ساعة وجد أبُو زكرياء خفَّة وفتح عينيه فقال لهم: هل قُلْتم لي شيئاً؟ قالوا: نعم، عَرَضنا عليك الشهادة ثلاث مرَّاتٍ وأعرضت في المرّتين، وقلت في الثالثة: لا أقُول. فقال الزَّاهد: أتاني الشيطان عليه اللَّعْنة ومعه قَدَح مِنَ الماءِ ووقف عن يميني وحرَّكَ القدَحَ، وقال: أتحتاج الماء؟ فقلت: بَلَى. فقال لي: قل عيسى ابْن الله. فأعرضت عنه. وأتاني من قِبَل الرِّجلِ فقال لي كذلك، وفي الثالثة: قلت له لا. فضَرَبَ القدح وولّى هارباً فأنا رَددتُ على إبليس لا عَلَيْكَ. فأنا أقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ.

وفي الخَبر: عن منصور بن عثمان قال: «إذا دَنَا مَوْتُ العَبْدِ قَسَّمَ الله مالَهُ على خَمْسَةِ أقْسَام: المالُ للورثة، والرُوح لمَلَكِ الموْتِ، واللَّحْم للدّود، والعظم للتراب، والحسنات لَلخصماءِ، والشيطان لسَلْب الإيمان». ثم قال: «إن ذهَبَ الوارث بالمالِ يجُوز، وإن ذهب مَلَكُ الموت بالروحِ يجُوزُ، وإن ذهب الدّود باللحم يجوز، وإن ذهب التراب بالعَظم يجُوز، وإن ذَهَبَ الخصماء بالحسناتِ يجوز، يا لَيْتَ الشيطان لا يَذْهَبُ بالإيمانِ عند المَوْتِ وإن ذهَبَ الإيمان كيف يجوز عند الموت، فإنه يكون فراقاً من الدِّين، فإن فارَقَ الروح بالجسَدِ لا بد لكلّ أحدٍ منه غير فراق الرَّبّ، فإنه فراق لا يُدْركه أحَدٌ بعد أخْذِ الشيطان الإيمان.

بَابُ
ذِكْرِ النِّدَاءِ

وفي الخَبَرِ: «إذا فارَق الرُّوح مِنَ البَدَنِ، نودي مِنَ السَّماء ثلاث صَيْحاتٍ: يا ابْنَ

آدَمَ أتَرَكْت الدنيا أم الدّنيا تركتك، أجَمَعْتَ الدُّنيا أم الدّنيا جَمَعَتْك. أقَتَلْتَ الدُّنيا أم الدّنيا قتلتْكَ. وإذا وُضِعَ الميت في المغسل نودي ثلاث صيحات: يا ابْنَ آدم أين بَدَنك القوي، فما أضعفك اليوم. أيْن لسانك الفصيح فما أسْكتك اليوم، أيْن أحِبَّاؤك فما أوْحَشَكَ اليوم. وإذا وُضِعَ في الكَفَنِ نُودي ثلاث صيحات أيضاً: يا ابْنَ آدَمَ، اليوم تَذْهب إلى سَفَرِ بعيد بغير زَادٍ وتخرُجُ من منزلك فلا ترجع أبداً، وتركب فرساً فتصير إلى بيت أهْوَالٍ، وإذا حُمِل على الجنازَة نودي ثلاث صيحات أيضاً: يا ابْنَ آدَمَ، طوبَى لك إن كنت تائباً، طوبى لك إن كنت أصبحتَ برضوانِ الله، ويْلٌ لك إن كُنت أصبحت بسَخَطِ الله. وإذا وُضِعَ للصَّلاةِ نُودي ثلاث صيحاتٍ أيْضاً: يا ابْنَ آدَمَ، كل عمل عملته تراه السَّاعة، إن كان خيراً فتراه خيْراً، وإن كان شرّاً فتراه شرّاً. وإذا وُضِع الجنازة على شفر القَبْرِ نودي ثلاث صيحاتٍ أيضاً: يا ابْنَ آدَمَ ما تزودت من العمرانِ لهذا الخرابِ، وما حملت من هذا الغنى لهذا الفقر، وما حملت من النور لهذه الظلمة. وإذا وُضِع في اللَّحْدِ نودي ثلاث صَيْحات أيضاً: يا ابْنَ آدَمَ، كنت على ظَهْرِي ضاحِكاً فَصِرْت في بطنِي باكياً، وكنت على ظهري فرِحاً فصِرْت في بطني حَزيناً، وكنت على ظهري ناطقاً فصرت في بطني أبْكَم. وإذا أدْبَرَ النَّاس عنه يقول الله تعالى: يا عَبْدِي، بقيت فَريداً وَحِيداً، فتركوك في ظلماتِ القَبْرِ، وقد عصيتني لأجْلِهِم، وأنا أرْحمكَ اليوم رَحْمَة يتعجَّب منها الخلائق، وأنا أشفق عليك مِنَ الوالِدِ بِوَلده.

بابٌ
في ذِكْرِ القَبْرِ

قال أنس بن مالك رضِي الله عنه: إنَّ الأرْض تُنَادي كل يوم عشر مرات، تقول عشر كلمات: يا ابن آدَم، تَسْعَى على ظهري وتُذلّ في بَطْني، وتَمْشي في المجامِعِ على ظهري، وتقع وحيداً في بَطْنِي.

وفي الخبَرِ: «إنَّ القَبْر يُنادي كل يوم ثلاث مرَّات: أنا بَيْت الوحشة، أنا بيت الظُّلْمة، أنا بيْت الدّودِ، ماذا أعْددتً لي، ويُقال: أنَّ القَبْرَ يُنَادي كل يوم خمس مرَّاتِ: أنا بَيْتُ الوَحْشَةِ، فاجْعل لي مؤنساً القرآن، أنا بيت الظُّلْمة فنوِّرْني بصلاة اللَّيْل، وأنا بيْت الوَحدة، فاحْمِل الفراش، وهو العمل الصَّالح، وأنا بيْت الأفاعي، فاحمل علي الترياق، بِسْم الله الرحمٰن الرَّحيم، وإهراق الدود، وأنا بيْت سؤال مُنْكر ونكير، فأكثِرْ عليَّ: لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله ﷺ.

بَابٌ
فِي نِدَاءِ الرّوحِ بَعْدَ الخُرُوجِ

وفي الخَبَر عن عائشة رضي الله عنها قالت: كُنت قاعدة مُرَبعَة في البيْت، فدخَلَ عليّ رسول الله ﷺ فأردتُ أن أقُوم له، كما كانت عادَتِي عِنْد دخوله، فقال: «اقْعُدِي كما كُنت جالسة يا أمّ المؤمنين»، وجلسَ فوقعَ رأسه في حجْري فَنَام مُسْتلقياً على قفاهُ، فأخذتُ بالنَّظَر في لِحْيَتِهِ، فرأيْت فيها تسْعَة عشَرَ شَعْرَة بيضاء، فتفكَّرْتُ في نَفْسي: إنْ كان يخرج من الدّنيا فتبقى الأُمّة بلا شَيْءٍ، فبكيت حتى سالَتْ دُمُوعي فقطَرَ على وجْهِ النبي ﷺ قطرة، فانتبَه من نَوْمه فقال: «ما الّذِي أبْكَاكِ يا أُمّ المؤمنين؟» فقصَصْت عليه القصّة، فقال لي: «يا أُمّ المؤمنين، أيُّ حالٍ أشدّ على الميّت؟» فقلت له: أنتَ أعلم يا رسُول الله. فقال لها: «قُولي أنتِ»، قلت: لا يكون الحال أشدّ على الميّتِ من وقت خُرُوجه من دارِهِ. فقال: «أوْلاده يبكون خَلْفَهُ ويقولون: يا والِدَاهُ، ويقول: الوالد كذلك، فقال: هذا شديد وهناك أشدّ منه قال: قلت له: أشدّ الحال على الميّت أنْ يُوضع في اللّحدِ ويُحثَى عليه التُّرَاب، ويرجع عنه أقاربه وأولاده وأحِبَّاؤُهُ ويسلمونه إلى ربّه مع عَمَلِهِ. قال عليه السلام: «يا أمّ المؤمنين، إنَّ هذا لشديد، وهناك أشد منه»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال عليه السلامُ: «اعْلَمِي يا عائشة أنَّ أشدَّ الحال على الميّتِ حين يَدْخل الغاسِل دَارَهُ لِيَغْسِلَهُ فيخرج خَاتم الشباب من أُصْبُعه، وينزع قميص العروس من يده، ويرفع عمامَة المشايخ والفقهاءِ من رأسه، فينادي رُوحُهُ بين يدَي رأسِهِ، يَسمعه كل الخلائق إلاَّ الجِنّ والإنْس، فينادي: يا غسال بالله عليك انزع ثيابي بِرفقٍ، فإني السَّاعة فرغت من حَرْب مَلَكِ المَوْتِ، وإذا صَبَّ عليه المَاءَ صاح كذلك، يقول: يا غسَّال بالله عليك، لا تجعل مَاءَكَ حارّاً ولا بَارِداً، فإن جَسَدِي مجروحٌ بخُروجِ الرّوحِ. فإذا فرغ مِنْ غَسْله ووُضِع في كَفَنِهِ فيشدوا مواضع قدميه، فينادي فيقول: بالله عليكَ يا غسَّال لا تشد الكَفَن على رأسِي حتى يرى وَجْهِي أهْلِي ومالي وأولادِي وقرابتي، فإن هذا اليوم آخر رؤيتي لهم، فإني اليوم أُفارقهم فلا أرَاهم إلى يوم القيامة. فإذا خَرَجَ الميّتُ من دارِهِ نادى: بالله يا جماعة، تركْت امرأتي أرملة، فعليكم ألاَّ تُوذُوها، وأولادي يَتَامَى، فعليكم ألاَّ توذوهُمْ. فإني أخرج اليوم من دَارِي فلا نرجع أبداً. وإذا حَمَلُوه على الجنازة فيقول: بالله يا جَمَاعَتِي، لا تعجَلُوا حتى أسْمع صَوْت أولادي وأقرِبَائي، فإني اليوم أُفارقهم إلى يوم القيامة. وإذا وُضِع على السَّرير ومشوا ثلاث خطواتٍ، يُنَادي بصوْتٍ يَسْمعه كل شيء إلاَّ الثَّقلَيْنِ، يقول: يا أحْبَابِي، ويا إخواني، ويا أولادي أُوصيكم لا تغرَّنَّكم الدّنيا كما غرَّتْ بي، ولا

يلعبن بكم الزّمان كما لَعِبَ بي، اعْتَبِروا بي فإنّي خَلَّفْتُ ما جَمَعْتُ لوَرَثَتِي ولايَحْمِلُونَ من خَطِيئتي شيئاً، والدّنيا تحاسِبُني، وأنتم تتبعُونَ الجنازَة ثم تتركوني، وإذا حَملوهُ على جنازَتِهِ ويرجع بعض أهله وأصدقائِهِ من المصلّين فيقول: بالله يا إخواني كنت أعْلَمُ أنَّ الميّت يُنْسَى ويكون أبْرد من الزَّمهرير في قَلْبِ الأحبَّاءِ، ولكن لا ترجعُوا في هذه السَّاعة حتى تَدْفنوني. وإذا وضعوه عند قَبْرِه فيقول: بالله يا إخواني كنت أعلم أنكم ستعودوا وأنا في القَبْرِ فريداً وحيداً، أدْعُوكم أن تدعُوا لي بدعوة. وإذا وضعوه في لحْدِهِ فيقول: بالله، يا وَرَثَتِي، ما جمعت مالاً كثيراً تركته لكُمْ فلا تَنْسونِي من خيركم ودُعائكم لي فإني اليوم أحْتاج إليكم وأنا علَّمتكم القُرآن والأدَبَ فبالله عليكم لا تَنْسَوني».

وعلى هذا، حكايةٌ عن أبي قَلاَبَة رحمَه الله تعالى، أنَّه رأى في المنامِ مقبرة كل قبورها قد انشقَّتْ وأمواتها قد خَرَجُوا منها وقعدوا على شفير قُبُورِهِم وبين يَديْ كل واحدٍ منهم طبَق من نُورٍ، ورأى من بينهم رَجُلاً من جيرَانِهِم، لم يَرَ شيئاً بين يَدَيه من نُور، فسأله وقال: ما لي لا أرى بين يَدَيْك شيئاً من نُور. قال الميّت: إنَّ لهؤلاء أولاداً أو أصدقاء يَدْعُون لهم ويتصدَّقُون لأجْلِهِم، وهذا النُّور مما يَبْعَثُون إليهم وأنا لي ولد غَيْر صَالح، لا يدعو لي، ولا يتصدَّقُ عليَّ. ولهذا لا نُورَ لي كما تَرَى وأنا في خَجَلٍ بين جيرانِي. قال: فلمَّا انْتَبَهُ أبو قلابة ذهب إلى ابْنِ الميّتِ وأخْبره ما رأى من حالِ والِدِهِ، قال الولد: إني تبْت على يديك فلا أعُود إلى ما كُنت عليه أبداً، فاشتغل يَدْعُو لوالِدِهِ دُبُر كل صلاةٍ ويتصدّق عليه. فلمَّا أتت على أبي قلابَة مدَّة رأى أبُو قلابة في منامه تلك المقبرة على حالِهَا الأوَّل، ورأى الرَّجل المذكور أوَّلاً قد تَنَوَّرَ وخَرَجَ من نورِهِ نُوراً أضْوَأ من نور الشَّمِس أكْثَر من نور أصحابِهِ فقال: يا أبا قلابة جزاك الله عنِّي خَيْراً بقولك نجَوْتُ من النَّار، ونَجَوتُ من خَجَلِ الجيرانِ.

وفي الخَبَر: أنَّ مَلَكَ الموت جاء إلى رجل بالإسكندرية، قال له الرَّجُلُ: مَنْ أنْتَ؟ قال له: أنا ملَكُ الموتِ. فارْتَعَدَتْ فَرَائِسُهُ فقال له مَلَك الموت: ما هذا الذي أرَى مِنكَ؟ قال له الرَّجُل: خَوْفاً من النَّارِ. فقال له ملك الموت: أكْتبُ لك كلاماً تَنْجُو بِهِ مِنَ النَّارِ. قال: بلى. فدعا ملك الموت بصَحيفة وكتب فيها: بِسْمِ الله الرَّحمٰن الرَّحيم بَرَاءَة من النَّار. فلمَّا سمع الرَّجل ذلك صاح وقال: آه، اسم الحبيب فيه هذه اللذَّة، فكيف رُؤْيَتُهُ؟!! ثم قال الرَّجُلُ: النَّاس يقولون: إنَّ الدنيا مع الموت لا تسْوى دانق، وأنا أقول إنَّ الدُّنيا يا مالك المَوْتِ لا تسوى دانق لا يوصَل إلى الحبيب إلاَّ الحبيب.

بَابُ
ذِكْرِ المُصِيبَةِ عِنْدَ المَوْتِ

رُوِي في الخبر: «أنَّ من أُصِيب بمصيبة فخرقَ ثَوْباً أو ضَرَبَ صَدْراً فكأنما أخذ رُمحاً وحارَبَ ربَّهُ.

ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَنْ سَوَّد باباً مِنَ المُصيبة، أو ثوباً، أو خَرَق ثوباً، أو حَلَّق شَعْراً، بُنِيَ له بكلِّ شعرة بَيْتٌ في النَّارِ. وكأنّما اشترك في دَمِ سَبْعين نَبيناً ولا يقبل الله تعالى منه صَرْفاً ولا عَدْلاً ما دام لك السَّواد على بابه، وضيَّق الله تعالى عليه قَبْرَهُ وشدَّ عليه حسابَهُ ولعَنَه كل يوم ملائكة السماوات والأرض، وكتب له ألْف ألف خطيئة، وقام يوم القيامة عُرْيَاناً. ومن خَرَق جيبه خرق له دينه، ومن لطَمَ خدَّهُ حرَّم الله تعالى عليه النظر إلى وَجْهِهِ الكَرِيم».

وفي الخَبَرِ: «إذا مات ابْنُ آدَمَ، اجتمع عليه الصِّياح في داره، فيقف مَلَك الموتِ عند باب دارِهِ فيقول: ما هذا الصياح؟ فوالله ما نقصْت لأحَدِكُم عُمُراً ولا رزقاً ولا ظلمت أحداً منكم. فإن كان صِيَاحكم مَلامِي، فأنا عَبْد مأْمُورُ. ومَن كان مِنَ الميّت فإنه عَبْد مَقْهورٌ، وإن كان من الله تعالى فإنكم كافِرُونَ بالله وملائكته فوالله إنَّ لي عليكم لعَوْدة، ثم عَوْدة، حتى لا يَبْقى منكم أحَدٌ.

بَابُ
في ذِكْرِ البُكَاءِ على المَيّتِ

قال الفقيه أبو حنيفة رحِمَهُ الله تعالى: النَّوْح حَرَامٌ، ولا بأس بالبُكَاءِ على المَيّتِ، والصَّبْر أفضَلُ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُمَر: الآية 10] .

ورُوِي عن النَّبِيّ ﷺ أنّه قال: «النَّائحة ومن حولها من مستعملها فعليهم لعنَةَ الله والملائكة والنَّاس أجمعين». وقال لأمَة الحسين رضي الله عنه: اعْتَكَفَتْ امْرأته على قبره سَنَة، فلمَّا كان رأس العام ورَفَعُوا الفسْطاط سَمِعُوا صوتاً من جانِبِ القَبْر: هل وَجَدُوا ما فقدُوا، وسَمِعُوا صوتاً آخر من الجانِب الآخر: بل يَئِسُوا فانْصَرَفُوا.

ورُوي عن النَّبِيّ ﷺ أنّه لما مات ابنُه إبراهيم دَمَعَتْ عيناهُ، فقال له عبد الرحمٰن بن عوفٍ رضي الله عنه: يا رسُول الله، ألَيْسَ قَدْ نَهَيْتنا عَنِ البُكَاءِ، فقال: «إنّما نهيتُكُم عن صَوْتَيْنِ فاجِرَيْنِ أحمقيْنِ، وهما النَّوْح والغناء، وعن خَدْشِ الوَجْهِ وشق

الجيوب، ولكن هذه رحْمَة جعلها الله في قلوب الخلائق الرحَمَاء». ثم قال النَّبِيّ ﷺ: «القلب يحزَنُ، والعَيْن تدمع، ولا نقول إلاَّ ما يُرْضي الرَّبَّ».

ورَوَى وهْبُ بن كيسان، عن أبي هريرة رضي الله عنه: رأى امْرأة تبكي على ميّتٍ، فنهَاهَا، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «يا أبا حَفْصٍ، فإنَّ العَيْن باكية، والنفس حصاية، والعهد حدث».

بَابُ
ذِكْرِ الصَّبْرِ على الميِّتِ

رُوِي عن ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّل ما كتَبَ القَلَمُ في اللَّوْح المحفوظ بأمْر الله تعالى: «أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا. مُحمَّد عَبْدِي ورسولي، وخِيرَتي من خَلْقِي، مَنِ اسْتَسلم لقضائي وصَبَر على بلائي وشكَرَ لنَعمائي، كتَبْتُهُ صدِّيقاً، وبَعَثْتُهُ مع الصِّدِّيقين يوم القيامة. ومن لم يَسْتسلم لقضائي ولَمْ يَصْبِر على بلائي ولم يشكر نعمائي فَلْيَخْرُجْ من تَحْتِ سَمَائي، ويطلبُ ربّاً غَيْرِي، بل سوائي».

قال الفقيه رحمه الله تعالى: الصَّبْرُ على البلاءِ وذكر الله تعالى عند المصيبَة، مما يجب على الإنسان يجلب الثواب لكنَّهُ إن ذكر الله تعالى لذلك كان رضًى منه بقضاءِ الله تعالى، وتَرْغِيماً للشيطانِ.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصَّبْرُ على ثلاثة أوجه: الصَّبْر على الطَّاعة، والصَّبْر على المَعْصِية، والصَّبر على البَلاء. فمن صَبَر على المعصية أعْطاه الله يوم القيامةِ ثلاثمائة دَرَجَة كل درجة ما بيْنَ السماء والأرض ومن صَبَرَ على الطَّاعة أعطاه الله تعالى مثْل الأوَّل. ومن صَبَر على البَلاءِ أعْطاهُ الله تسعمائة درجة، كل درجة ما بيْنَ العَرْشِ إلى الثَّرَى مرَّتَيْنِ.

بَابٌ
في خُرُوجِ الرُّوحِ مِنَ البَدَنِ

وفي الخَبَرِ: «إذا وقَعَ العَبْدُ في النَّزْعِ، وحبس لسانهُ، يدخل عليه أربعة أمْلاكٍ، فيقُولُ الأول: السلام عليك، أنا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِشَرَابِكَ، طفت الأرض شَرْقاً وغَرْباً، فما وجَدتُ لكَ شُرْبة ماءٍ فرَجَعْت الساعة. ثم يدخل الثاني فيقول: السلام عليك، أنا ملك موكل بطعامك طفت الأرض شرقاً وغرباً فما وجدتُ لك لقْمَة فرجعت الساعة. ثم يدخل الملك الثالث فيقول: السلام عليك، أنا المَلك الموكَّل بالأنْفَاسِ طفت الأرض

شرقاً وغَرْباً فما وجدتُ لك نَفَساً واحداً من أنْفاسِكَ. ثم يدخل الرّابع فيقول: السلام عليك، أنا الملكُ الموكّلُ بأجَلِكَ وعُمرِكَ، طُفتُ الأرض شرقاً وغَرْباً، فما وجدت لك ساعةً مِنَ العُمُرِ. ثم يدخل عليه كراماً كاتبينَ، عن اليمين وعن الشمالِ، فيقول أحَدُهما: السلامُ عليك أنا مَلَك موكّلٌ بالسيّئات. ويقول الآخر: أنا مَلَك مُوكل بالحسَنَاتِ، فيخرج صاحب الحسنات صحيفة بيضاء فيعرض عليه، فيقول: انظر، فعند ذلك يفرَحُ ثم يخرج صاحِب الشمال صحيفَةَ سَوْدَاء فيقول: أنظُرْ، فعند ذلك يسيل عرَقهُ ثم ينظر يميناً وشمالاً خوفاً من قراءة الصحيفة، فيعود الملك يديه يشخصهما مع الوسادة. ثم ينصرف الملكُ، فيدخُلُ ملكَ الموت عن يمينه بملائكة الرّحمة، وعن يساره بملائكة العذابِ، ومنهم مَنْ يَجْذِب منه الروح جَذْباً، ومنهم من يَنْزِعُ نَزْعاً، ومنهم من ينشط نَشطاً، فإذا بَلَغَتِ الحُلقُومَ فحينئذٍ يأخُذُ مَلَكُ الموت فإن كان من أهْل السَّعادة نَادَى إلى ملائكة الرَّحْمة، وإن كان من أهل الشقاوة نادى إلى ملائكة العَذَابِ، فيأخذ الملائكة رُوحَهُ فيعرُجُوا بها إلى حَضْرَة رَبّ العالمين، فإن كان من أهل السعادة فيقول الله: ارجعوه إلى بدنِهِ حتى يرى ما يكون من جَسَدِهِ. ثم تهبط الملائكة والروح معهم، فيضعونها في وسَطِ الدَّارِ فتنظر من يحزنُ عليه ومن لا يحزن وهو ميّتٌ لا ينطقُ بكلامٍ، ثم يشيّع الجنازة إلى القَبْرِ فالله عزَّ وجلَّ يَرُدّ الروح إلى جسده.

واختلفت الروايات فيه، فقال بعضهم: يُزْرع الروح في جسده، وهو في القَبْرِ كما كان في الدّنيا، ويجلس ويُسْأل. وقال بعضهم: يكون السؤال للرّوح دون الجَسَدِ.

وقال بعضهم: يدخل الرُّوحُ في جَسَدِهِ إلى صدره. وقال آخرون: يكون الرّوح بين جَسَدِهِ وكَفَنِهِ. ففي كل ذلك قد جاءَت الآثارُ، والصحيح عند أهْلِ العِلْم: يقِرُّ العبد بعذَابٍ، ولا يشتغل بكيفيته. قال الفقيه رحمه الله: من أراد أن يَنْجُو من عَذَابِ القبر فعليه أن يُلازِم أرْبعة أشياء، ويتجنَّب أربعة. فأمّا الأربعة التي يُلازمها: فمحافظته على الصلوات الخمس، والصدقة، وقراءة القرآن، وكثْرَة التَّسْبيح. فإنَّ هذه الأشياء تضيء في القَبْرِ وتُوسِّعُهُ. وأما الأربعة التي يجتَنِبُها العَبْدُ: الكَذِبُ، والخيانة، والنميمة، والبُول على البَدَنِ. وقد قال النبيّ ﷺ: «استَبْرِؤا من البَوْلِ فإن عامّة عذَابِ القَبْرِ منه». ثم يهبط المَلَكَانِ الغَلِيظان يَخْرِقان الأرْض بمخالبهما، وهما مُنكر ونكير، فيجلسانه، ويقولان له: مَنْ رَبُّك وما نبيُّكَ وما دِينك، إلى آخِرِهِ. فإن كان من أهل السعادة فيقول: ربّي الله، ونَبيِّي محمد ﷺ، وديني دين الإسلام. فيقولان له: نَمْ نَوْمَةَ العَرُوس. ويَفْتَحان له كوَّة عند رأسِهِ فينظرُ منها إلى منزله في الجنّةِ، ثم يعرج الملكانِ مع الروحِ إلى السَّمَاءِ ويُجعل الروح في قناديل مُعَلّقة بالعَرْشِ.

ورُوي عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله

تعالى: لا يخرج عبْد من عِبادي من الدّنيا وأنا أُريد أن أغفِر له، إلاّ أقتصّ منه، كل سَيّئة عملها، بسُقم أو مَرَضٍ، أو حرٍّ، أو ضيق في معيشة، وما يصيبه من غمٍّ. وإن بقي عليه شيء من سيئاتِه شددت عليه عند المَوْتِ، حتى يَلْقَاني ولا سيّئة عليه من سيئاتِهِ. وعِزَّتي وجلالي لا أُخْرِجُ عَبْداً من عِبادي من الدُّنيا وأنا أُريد أن لا أغْفِرَ له، نبيت بكل حسنة عملها في جسدِهِ أو فرجٍ يُصيبُهُ أو سَعَة في رزقه فإن بقي من حسنَاتِه شيء هَوّنت عليه عند الموت حتى يلقاني ولا حسَنَةَ لهُ».

قال السّوْداء: كنا عند عائشة رضي الله عنها، فقالت: سَمِعْت رسول الله ﷺ يقولُ: «ما مِنْ مُؤمِنٍ يُشاكُّ بِشَوْكَة إلاّ رفع الله له بها حَسَنَة وحَطّ بها سيئة».

وقد قيل: لا خَيْر في بَدَنٍ لا يُصيبُهُ الأسْقَامُ ولا في مالٍ لا يصيبه النَّوائِبُ.

وفي الخَبَرِ: عن النّبي ﷺ قال: «إنَّ المؤمِن إذا كان في انقطاع من الدُّنيا، وإقبالٍ إلى الآخرة، نزلت عليه ملائِكَة من السَّماء بيض الوجوه، كأنَّ وجُوههم الشَّمْس، ومعهم أكفانٌ من أكْفانِ الجنَّةِ، وحُنُوط من حُنوطِ الجنَّةِ، فيجلسون منه مدَّ البصر ثم يجيء ملَكُ الموتِ فيَجْلِسُ عند رَأسِهِ فيقول: أخرج أيَّتُها الرُّوح المُطْمَئِنة إلى مَغْفِرة الله ورضوانه. قال النبيُّ ﷺ: فتخرج وتَسِيلُ من نَفَسِهِ كما يسيل القطر من السَّماءِ، فيأخذونها في أيْدِيهم ويُدْرِجونها في تلك الأكفانِ ويخرج منها ريح المِسْكِ. قال النبيُّ ﷺ: وما يصعدون على الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الطيّب؟ فيقولون: هذا روح فلان ابن فُلان فيذكرونه بأحسن أسمائه التي كان يُدْعى بها في الدُّنيا حتى ينتهوا به إلى سَمَاء الدُّنيا، فتفتح لهم أبواب السماء وتشيعها من كل سماء ملائكة حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة، فيُنَادِ مُنادٍ من قِبَل الله عزَّ وجلَّ: اكْتُبُوا له كتاباً في عِلِّيين، ورُدُّوهُ إلى الأرض لقوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآية 55] قال: فيَرُدُّونَ روحه إلى جسَدِهِ ويأتيه ملكانِ مهيبَان فيجلسانه ويقولان له: مَن ربك؟ فيقول: ربّي الله، فيقولان له: ما دينكَ؟ فيقول: دين الإسْلام، إلى آخره. فيقولان له: ما تقول في هذا الرّجل الذي بُعِث فيكُمْ، يَعْنِي محمَّد، فيقول: هو رسول الله أنزل القرآن عليه، وآمنتُ به وصدَّقته. فيُنادي الرّبّ من السّماءِ: صدق عَبْدي، فافرشوا له فراشاً من الجنّة. قال رسول الله ﷺ: فهو يأتيه من ريحها وطيبها ويُوَسَّع له في قَبْرِهِ مدَّ البَصر. قال: ثم يأتيه رجُل أحْسَن النَّاس وجهاً، طيِّب الرائحة، فيقول له: أبْشِر بالذي بشَّرك ربُّكَ، هذا يومك الذي كُنْتَ تُوعَد. فيقول له: مَنْ أنت يرحمك الله، ما رأيت في الدنيا أحْسَنَ منك، فوَجهُك الذي يجيء بالخير فيقول له: أنا عَمَلُكَ الصَّالح. فيقول: رَبِّ أقِم السَّاعة، رَبِّ أقِم السَّاعة، حتى أرجع إلى أهْلِي ودَاري. قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وإنْ كان كافِراً إذا حَضَره الموت نزل عليه ملائكة العَذَابِ، إذا كان في انقطاعٍ من الدّنيا وإقبال على الآخرة، ومَعَهُمْ لباس من العَذَابِ،

فيَجْلِسُونَ بعيداً منه حتى يجيء مَلك الموت فيجيءُ فيجلس عند رأسه فيقول: أُخرج أيتها النَّفس الخبيثة إلى سَخَطِ الله. قال: فتتفرَّق رُوحُه في جَسَدِهِ فيُسْتخرج رُوحُه من بدنِهِ كما يستخرج الشَّوكُ من الصُّوفِ، فإذا خرج روحه لعَنه كل شيءٍ ما بين السَّماءِ والأرْضِ، يَسْمَعه كل شيءٍ إلاَّ الثَّقَلين، فيَصْعَدُون بها إلى سَمَاءِ الدُّنيا فيُغلق السَّماء، فينادي المُنادي من قِبَل الله تعالى: رُدُّوه إلى مَضْجَعِهِ. فَيَرُدُّوهُ إلى قَبْرِهِ، فيأتيه مُنكر ونكير بأهْول ما يكون من الهَوْلِ، أصواتُهُما كالرَّعْدِ القاصِف، وأبْصارهما كالبَرْقِ الخاطِفِ، يُخرِقان الأرْض بأنيابِهِما، فيُجلسانه فيقولان له: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: لا أدري. فينادى من جانب القَبْر: اضْربُوه بمِطْرقة مِنْ حَدِيدٍ، لو اجتَمَع الخلائق كلهم لم يَنقُلُوها، ويشعل منه قبره فيضيق حتى تَخْتَلِف أضْلاعه، ثم يأتيه رجل قبيح المَنْظَرِ، أنْتَنَ الرَّائِحة، فيقول له: جزاك الله شرّاً بما عَمِلْت، إنما كنت بطيئاً عن طاعَةِ الله، سرِيعاً في مَعْصِيَة الله. فيقول: مَنْ أنت؟ ما رأيت في الدُّنيا أسْوَد منك. فيقول: أنا عَمَلكَ الخبيث. ثم يُفتح له باباً إلى النَّار فينظُرُ إلى مَقْعَدِهِ من النَّار، فيقول: رَبِّ لا تُقِم السَّاعة رَبِّ لا تُقِمْ السَّاعة، حتى نرى أهلي وأولادي وأقربائِي، فلا يزال كذلك إلى يَوْم القيامة. ويُقالُ: يُفْتَنُ المُؤمِنُ في قَبْرِهِ سبعة أيام، والكافرُ أرْبَعين يوماً.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ ماتَ يَوْمَ الجُمعة، أو ليلة الجمعة، أمَّنَهُ الله تعالى مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ».

وفي الخَبَرِ: عَنْ أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه: إذَا تُوفِّي الرَّجل ووُضِع في قَبْرِهِ، فيجيء مَلَك ويَقْعُدُ عند رأسِهِ ويُعذِّبه، ويَضربه ضرباً واحداً بمِطْرقة من حديد فلم يَبْق عُضْوٌ منه إلاَّ قطعَهُ. ويَلْهَب في قَبْره ناراً، ثم يقال: قم بإذْنِ الله، فإذا هو يَقْعُد مستَوِياً، فيَصِيح صَيْحَة يَسْمَعه ما بين الخافقين إلاَّ الجن والإنس. ثم يقول له: لِمَ فَعَلْتَ هذا بي، ولِمَ تُعذِّبني، أنا أُقيم الصلاة وأُوتي الزَّكاة، وأصُوم شهر رمضان. قال: أعوذ بالله منك، فإنَّكَ مَرَرْت يوماً بمظلوم وهو يسْتغيث بك فلمْ تُغِثْهُ، وصلَّيْت يوماً فلم تَسْتَبر مِنْ بَوْلِكَ. فتبيَّن بهذا الخبر أنَّ نَصْرَة المظلوم واجبَة».

كما رُوي عن النبي ﷺ قال: «مَنْ رأى مَظْلُوماً فاسْتَغَاثَ به فَلَمْ يغثه، ضُرِبَ مائة سَوْطٍ مِنَ النَّارِ».

ورُوِي عن عَبْدِ الله بن عُمَر رضي الله عنهما، عَنِ النَّبي ﷺ أنَّه قال: «أربعة نَفَرٍ يحشرهم الله يومَ القيامة على منابرَ من نُورٍ، فيُدخلهم الله تعالى في رَحْمَتِهِ. قيل: مَنْ أُولئِكَ يا رسول الله؟ قال: مَنْ أشْبَعَ جَائِعاً، وجَهَّزَ غازِياً في سبيل الله، وأعانَ ضَعِيفاً، وأغاثَ ملهُوفاً مِنْ مَظْلِوم».

ورُوِي عن أنسِ بن مالِكٍ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إذا وُضِعَ الميّتُ في القَبْرِ وأهَالُوا التُّراب عليه، يقول أهْلُه وأولاده: واسَيِّدَاه، واشَرِيفاهُ. فيقول

المَلك المُوكَّل: أتَسْمَع ما يقول أهلُكَ وأولادُكَ. فيقول: نَعَمْ، فيقول له: أنتَ كُنْتَ السَّيِّد، أنتَ كنت شَرِيفهم، فيقول العبد له: يقولون ذلك، يا ليتهم سَكَتُوا. فيضيق القَبْر فتختلف أضلاعه، ويُنادي في قبره: واكَسر عظامَهُ، وأذل مقاعداهُ، واقدمتَاهُ، وأعْنَفَ سُؤلاهُ، حتى تَدخُل عليه أوَّل ليلة جُمعَة رجَبٍ من عامِهِ، فيقول الله عزَّ وجل: أُشْهِدكم يا ملائكتي أنّي قد غَفَرْت له سيِّئاتِهِ ومَحَوْت عنه خطاياهُ بحبّ هذه الليلة».

بابٌ
في ذِكْرِ المَلك الَّذِي يَدْخُلُ القَبْرَ قَبْلَ منكر ونكير

رُوِي عن عبد الله بن سلاَّم رضي الله عنه أنَّه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن أوَّل مَلَكٍ يَدْخُل على الميّت قبل منكر ونكير، قال: «يا عَبْد الله، يدْخل على الميّتِ قَبْل مُنكرٍ ونكير ملكٌ وجهه يتلألأ كالشَّمسِ اسْمُه رُومان يدخل على الميّت فيقعده، ثم يقول له: اكْتُبْ ما عَمِلْت من حسناتِك ومن سيِّئاتِك. فيقول له: بأيِّ شَيْءٍ أكتُبُ، أين قَلَمي ودواتي ومِدادي. فيقول له: ريقك مَدَادِك وقلمك أُصْبعك. فيقول له المَلك: يا خاطيء أما تَسْتَحيي من خالِقِكَ حيث عملتها في الدّنيا وتستحيي مني الآن، فيرفع العمود ويضربه، فيقول العبد: ارْفَع عني العمود حتي أكتبَهَا. فيرفَعهُ، فيكتب جميع حسناتِهِ وسيئاتهِ، ثم يأمره أن يطويَهُ ويختمهُ، فيقول: بأي شيءٍ أخْتمه وليس معي خَاتم، فيقول له: اختمها بظفركَ، فيختمَهُ بظفره ويُعَلِّقه في عنقه إلى يوم القيامة. كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿13﴾﴾ [الإسراء: الآية 13] . ثم يدخل منكر ونكير بعد ذلك. وقالَ: وسيرى العاصِي كتابه يوم القيامة فإذا أمَره الله تعالى بالقراءة فَيَقْرَأ جميع حسناته، فلمَّا بلغ إلى سيِّئاته سكَتَ، فيقول الله تعالى: لِمَ لا تقرأ؟ فيقول: أستحيي منك يا ربّ. فيقول الله تعالى: لِمَ لا تسْتَحيي مني في الدّنيا، الآن استحيَيْت مني. فيندم العبد فلم ينفعه النَّدمُ، فيقول الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿30﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿31﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿32﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿33﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿34﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿35﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿36﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿37﴾﴾ [الحاقّة: الآيات 30-37]

بَابٌ
في ذِكْرِ جَوَابِ الأعْمَالِ لمُنكر ونكيرِ

وفي الخَبَرِ: «إذا وُضِع العَبْد في القَبْرِ، أتاه مُنكر ونكير، أسْودانِ أزْرَقا العَيْنينِ، أصواتهما كالرَّعْدِ القَاصِفِ، وأبصارهما كالبَرْق الخاطف، يخرقان الأرض بأنيابهما،

فيأتيانِهِ من قِبَلِ رأسِهِ، فتقول صلاتُهُ: لا سَبِيل لكم مِن قِبلي، فكان صَلاته باللّيل والنّهار، حذاراً من هذا المضجَع. فيأتيانِهِ مِنْ قبَل يمينه، فتقول الصَّدَقة: لا سبيل لكُما من قبلِي، فقد كان يتصدّق بِي، حذاراً من هذا المَضْجع. فيأتيانِهِ من قبل الشِّمَال، فيقول صَوْمه: لا تأتيانِهِ من قِبلي، فقد كان يجوع ويعطش، حذاراً من هذا المضجع، فيوقظانِهِ كما يُوقظ النّائم، فيقولان له: ما تقول في هذا الرّجل الذي بُعِثَ فيكم - يعني محمّد ﷺ - فيقول: أُشهِدكم أنّه رسول الله. فيقولان له: عشت مؤمناً ومتّ مؤمناً».

ثم الحكْمَة في سؤال منكر ونكير، أن الملائكة طَعَنَتْ في بَنِي آدَمَ حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البَقَرَة: الآية 30]، فردَّ الله عليهم بقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية 30]. فبعَثَ الله المَلَكَيْنِ إلى قَبْر المُؤمِنِ يسألوه عن ذلك، إلى آخره. فأمرهما الله أنْ يشهدا بين يدي الملائكة ما سَمِعا من العَبْد المؤمن لأنَّ أصْل الشهود اثْنانِ. ثم يقول الرّبُّ: يا ملائكتِي، قد أخذت رُوحَه، وترَكْت ماله لغَيْره. فيسألاه في بَطْنِ الأرض، فلم يجب عن أحَدٍ إلاّ عَنِّي، فقال: ربِيَّ الله، وديني الإسلام، ونبيّي محمَّد ﷺ.

بَابٌ
في ذِكْرِ كِراماً كاتِبِين

رُوي أن لكُلّ إنسانٍ ملكَان، أحدُهما عن يمينه يكتب الحسَنَات، من غير شهادة صاحِبِهِ. والآخر عن شمالِهِ، يكتب السيئات ولا يكتبها إلاّ بشهادة صاحِبِهِ. وإن جلس العَبدُ، أحَدهما عن يمينِهِ والآخر عن شمالِهِ. فإن مشى أحدهما خَلْفَهُ والآخر أمامه. وإن نامَ أحدهما عند رأسه والآخر عند رِجلَيْهِ.

وفي رواية أخرى: خمس أمْلاكٍ: ملكانِ باللّيلِ، وملكانِ بالنّهارِ، ومَلَكٌ لا يُفارقُهُ وقت من الأوقاتِ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: الآية 11]. المُراد بالمُعَقِّبَات: ملائكة اللّيل والنهار، يحفظونه من الجنّ والإنسِ والشياطين. وقيل: المَلَكانِ بين يدَيْه يكتبانِ الحسناتِ والسيئاتِ قلَمُهما لسانُهُ، ودواتهما حَلْقه، ومدادهما ريقهُ، وورقهما فؤادُهُ.

ورُوي عن النبيّ ﷺ: «أنَّ صاحب اليمين أمين على صاحِب الشمال، فإذا عمل الرَّجُلُ وأراد أن يكتبها صاحبه، قال له صاحب اليمين: أمسِكْ، فيمسك سَبْع ساعات، فإن استغفر الله تعالى لم يكتُبْ، وإن لم يستغفره يكْتُب سيئةً واحدةً. وإذا قُبض روحُ العبد ووُضِع في قَبْرِهِ قال الملكانِ: يا ربّ وكَّلْتَنا بعبدِكَ نكتبُ عمله، قد قُبِض روح

عبدك فأذَنْ لنا ما نَصْنعُ، نَصْعد إلى السَّماءِ؟ فيقول الله تعالى: السَّماء مملوءة بالملائكة يسبِّحونِي، فسبِّحاني أنْتُما على قَبْرِ عبدي وهَلِّلاَ وكَبِّرَا، واكتبا ذلك لعبدي حتى أبعثه من قبره. وقال: ومِنْ هذا الفعل سمَّاهم كِرَاماً كاتِبِينَ، لأنَّهم كانوا إذا كَتَبُوا حسَنَة يَصْعدونَ بها إلى السَّماءِ، ويعرضونها على الله ويشهدون على ذلك ويقولون: يا ربَّنَا، إنَّ عبدكَ فُلاناً عمل حسَنَة كذا وكذا. وإذا كتبُوا سيِّئةً يَصْعَدون بها إلى السماءِ مع الغَمِّ والحُزْنِ فيقول الله تعالى: يا كِراماً كاتِبِينَ، ما فعل عَبْدي؟ فيكتمون، حتى يسأل الله ثانياً، فيقولون: إلٰهنا أنتَ سَتَّار العيوب، وأمَرْت عِبَادك أنْ تَسْتُرَ عُيُوبَهم، فإنهم يقرؤون كتابك كل يوم ويرجُون رَحْمَتك،. ويقول الكِرامُ الكاتِبِينَ: إلٰهَنَا، اسْتُرْ عيُوبَهُم، وأنت علاَّمُ الغُيُوب، وستَّار العُيُوب. ولهذا سُمُّوا كِراماً كاتِبِينَ».

بَابٌ
في ذِكْرِ الرُّوحِ بعد الخُرُوجِ، وكيفَ يأتِي إلى قَبْرِهِ ومَنْزِلِهِ

قال النبيُّ ﷺ: «إذا خَرَجَ الرُّوح من بَنِي آدم، فإذا مضى ثلاثة أيام، فيقول الرُّوح: يا رب، اذن لي حتى أنظر إلى جَسَدي الذي كنت فيه. فيأذَنُ الله له فيَجيء إلى قَبْرِهِ وينظر من بعيد، وقد سال المَاء من مِنْخَرِهِ ومن فِيهِ فيبكي بُكاءً طويلاً ثم يقول: يا جَسَدِي المِسْكين، أما تَذْكُر أيام حياتك، هذا المنزلُ مَنْزل الوَحْشَةِ والغَمُّ والكربة والحزن والندامة. ثم يمضي، فإذا كان خمسَة أيام فيقول: يا رب، اذن لي حتى أنْظر إلى جَسَدِي. فيأذن الله تعالى لَهُ، فيأتي إلى قَبْرِهِ فينظر من بعيد، وقد سال الدَّم من مِنْخَريه وفَمه ورأسه وأُذُنيه وماء وصديد وقيح، فيبكي بُكاءً طويلاً ويقول: يا جسدي المسكين، أما تذكر أيام حياتك، هذا المنزل منزل الهمّ والغَمِّ والمحنَة والدِّيدان والعقاريب، أكَلَتِ الدِّيدان لحْمَكَ ومَزَّق جلدكَ وعظمك. ثم يمضي، فإذا كان سبْعة أيَّام فيقول: يا رب اذِنْ لي حتى أنظر إلى جسدي، فيأذن له، فيأتي إلى قبره وينظر من بعيد وقد وقع في فِيهِ دُودٌ، فيبكي بُكاء طويلاً فيقول: أنت ما تذكر أيَّام حياتك هذا، أين أولادك وأقاربك، وعِزّك ودارك، وامرأتك وعَقَّارك، أين إخوانك أين أصدقاؤك، أين رفقاؤك وجيرانك الذين كانُوا يرضونك في جِوَارك، اليوم يبكون إلى يوم القيامة.

ورُوي عن أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّه قال: إذا ماتَ المُؤمن طار رُوحه حول داره شهراً، فينظر إلى من خَلْفه من عيالِهِ كيف يقسم ماله، وكيف يؤدِّى ديونه، فإذا أتَمَّ شهراً رُدَّ إلى قَبْره فيدور حول قبره سنة، فينظر من يدعو له، ومن يحزن عليه. فإذا أتَم سنةً رفع روحه إلى حيث تجتمع الأرواح إلى يوم القيامة. وهو قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: الآية 2] الآية.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القَدر: الآية 4] ويُقال: الرُّوْحُ فيها، أي الرَّحمة على المؤمن كما قرئتْ. والرّحمة بالفتح والضمّ معاً قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القَدر: الآية 4] الآية، ومعهم الرَّوح والريحان، الآية، والسلام والرَّيحان. ويُقال: الرُّوحُ مَلَكٌ عظيم ينزِل على المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النّبَإ: الآية 38] الآية، وقيل: معناه بني آدَمَ. وقيل: معنى الرُّوح في ليلة القَدْرِ، يستأذن بالنزول إلى مَنْزلنا ويُسلِّم على جميع المؤمنين والمؤمنات من شفَقَتِهِ عليهم. ويقال: الروحِ روح الأقرباء يقولون: ربنا إئذن لنا بالنزول إلى منازلنا حتى نرى عياناً أولادَنا، فينزلُون في ليلَة القَدْرِ، كما قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ: «لا يأتي على الميّت فجاعة أشدّ من الليلة الأولى، وإذا كان يوم عيد عاشوراء وليلة الجمعة الأولى من رجب وليلة النصّف من شعبان، ويوم الجمعة يخرجُونَ من قبُورهم فيقفون على باب بُيُوتِهِم ويقولون: ارحمونا اليوم بصدقة، أو لقمة، فإنَّا مُحتاجون إليها. فإن لم تعطونا فاذكرونا بركْعَتين في هذه الليلة المباركة، هل من أحد يذكرنا ويذكر غُرْبتنا، يا من سكَنَ في دارِنا، ويا من نَكَحَ أزواجَنا، ويا من أنامَ واسِع قصورنَا، ونحن الآن في أضيَق قُبورنا، ويا من قَسَم أموالنا، ويا من استذَلَّ أيْتامنَا، هل منكم من أحدٍ يتَفكَّر غُرْبتنا وفقرتنا، كتابنا مطوية، وكتابكم منشورة، وليس للميّت في اللَّحْدِ ثواباً فلا تَنْسَونا من خَيْركم ودُعَائِكم، فإنَّا محتاجُون إليكم أبداً. فإن وجدوا من الصَّدقة والدعاء فمنهم من يَرْجع فرِحاً مسروراً، ومنهم من لم يَجد شيئاً، يرجع محزوناً آيِساً.

بَابٌ
في ذِكْرِ خُرُوجِ الرُّوحِ مِنَ البَدَنِ ومَسكنه بعدما قُبِضَ

وقد قيل: إنَّ الروح مجمُوع في الحياة لا في جميع بَدَنِهِ، لكنَّه في جزْءٍ من أجزائهِ، غير مُعَيّن، والدَّليل على ذلك: يجرح الواحد بجرحاتٍ كثيرة فلا يموتُ، ويُجْرح جراحة واحدة فيمُوتُ، لأنَّه صاحب المكان الذي فيه الرُّوحُ.

وقيل: الروحُ يحلّ في جميع البَدَنِ، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: الآية 79] فإن قيل: ما الفَرْق بين الرّوحِ والروَّان؟ قيل: هما واحد ليس بينهما فرقٌ كما أنَّ البَدَنَ مع اليَد، لكن اليد تذهبُ وتجيء، والبدنُ لا يتحرَّك. وكذلك الرّوان مع الرّوحِ يذهب ويجيءُ والروح لا يتحرَّك قطُّ. ثم موضع الروح في الجسد غير معيّن، وموضع الروَّان بين الحاجبَيْن، فإذا زالتِ الرّوحُ مات العَبْد لا محالَة، وإذا زال الروَّان ينام العَبْد، كما أنَّ الماءَ إذا صُبَّ في القَصْعَة ووُضِع في بيتٍ، ووضع عليها شعاع الشمس من الكُوَّة وشعاعها في

السّقف تتحرّك القصعة من مَوْضِعِها، وكذلك الروحُ، سكَنَتْ في البَدَنِ وشعاعها إلى الفرْش، وهو الروّان، فيرى الرؤيا في المَنَامِ.

وأمّا مَسْكَنُ الرُوحِ بعد القَبْضِ، قد قيل: مَسْكنه الصُور، وهو القَرْن الذي التَقَمه إسْرَافيل، وفيه ثقب بعددِ الخلائقِ إلى يوم القيامة، إن كان مُنَعَّماً فهنالك، وإن كان مُعَذَّباً فهنالِكَ.

ويقال: إنَّ أرْواح المؤمنين في حَوَاصِل طيور خضر في علّيّينَ، وأرواح الكافرين في حواصِل طيور سودٍ.

ويقال: إنَّ أرواح المؤمنين إذا قُبِضُوا رفَعَتْها ملائكة الرَّحمة إلى السَّماء الرَّابعة بالإعزَاز والإكْرام، فيُنَادي مُنادٍ مِن قِبَل الله: اكْتُبُوا كِتَابَه في عليينَ، ثم ردّوها إلى الأرضِ: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآية 55]. قالَ: فَيَردُّون روحه إلى جسدِهِ ويفتح له أبواب الجنَّة، فينظر إلى مَوْضِعه منها حتى تقوم الساعة؛ وعلى هذا قول علي، حتى إنهم يسمعون نِعالَهُمْ.

وسُئِل بَعْضُ الحُكَمَاءِ عن معادِنِ الأرْوَاحِ بعد المَوْتِ، قال: أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في جنات عَدْنٍ، ويكون في اللّحد مؤنساً، والأجساد ساجِدة لِرَبِّها، وأرواح الشُّهَداء في الفِرْدَوْسِ، وسَط الجنَّة في حَوَاصل طيور تطيرُ في الجنّة حيث شاءَتْ، ثم تأتي إلى قناديل معلقة بالعَرْش. وأرواح وِلْدان المسلمين في حواصِلِ عصافِير الجنَّة عند جَبَل المسك إلى يوم القيامة. وأرواح ولدان المشركين بدونِ الجَنَّة، ليس لهم مأوى إلى يوم القيامة. وأرواح المؤمنين الذينَ عليهم ديُون ومَظَالِم معلقة بالهوا، لا تَصِلُ إلى الجنَّة ولا إلى السَّمَاءِ حتى يؤدُّوا عنه الدّيْن والمظالم. وأرواح فسَّاقِ المسلمين تُعَذَّب في القَبْرِ مع الجَسَدِ. وأرواح الكُفَّار والمُنافقين في سجْن نارِ جَهَنَّم غُدَواً وعَشِيّاً.

بَابٌ
في ذِكْرِ ماهِيَة الرُّوحِ

وقد قِيل: إنَّ الرّوح جِسْمٌ لطيف، هوائية عناية للمخلوق، ولذلك لا يقال: الله تعالى لهُ رُوحٌ لأنه يسْتَحيل أنْ يكون محَلّ الأجْسَام. وقد قيل: إنَّ الروح عرض. وقيل: إنه ينشقُّ مِن الهوا. وهذان القولانِ على مَنْ أنكَرَ عذاب القَبْرِ. رُوِي أنَّ اليهود أتوا إلى النبيّ ﷺ، فسألوه عَنِ الرُوحِ وعن أصْحَاب الكَهْفِ وعن ذِي القَرْنَيْنِ، فَنَزَل في شأنهم سورة، وهو اللوح الذي كَتب عليه أسْماء أهل الكهف، ونزل في الرُّوحِ

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: الآية 85]، قيل: معناه: مِنْ عِلْم ربِّي، لا عِلْمَ لي به. وقيل: إنَّ الروح ليس مخلوق لأنَّه مِنَ الله تعالى أثروا كلامه، لأنه معنى الآية ما ذكرناهُ.

وقيل: معناه: مَنْ يكوّن ربي بكلمة: كُنْ، وأن الأمْر على ضَربيْن: أمر التِزام كأمْرِهِ بالعباداتِ، وأمر تكوين، كقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ [الإسراء: الآية 50]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: الآية 82] وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبإ: الآية 38] قيل: معناه بني آدَم. وقيل: إنَّ الروح مَلك عَظِيمٌ ويقوم وحده صَفاً. وأمَّا قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشُعَرَاء: الآية 193] معناه: جبريل. وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحِجر: الآية 29] فهذا إضافة خَلْقٍ، وقيل: معناه إضافة تكريم، كما يُقال: «نَاقةُ الله»، و «يُثبُتُ الله». وأما قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: الآية 12] إضافة تكريم على ما قدَّمْناهُ. وقد قيل: معنى: فيه، فنفخت فيه من روحِي جبريل عليه السلام، وقيل: معنى رَحْمَة الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجَادلة: الآية 22] أي: بِرَحْمَةٍ مِنْهُ.

بَابٌ
في ذِكْرِ الصُّورِ والحَشْرِ والبَعْثِ

اعْلَمَ أنَّ إسْرافيل صاحب القَرْنِ، وقد خلق الله تعالى اللّوْح المحفوظ من درّة بَيْضاء، طوله ما بينَ السَّماءِ والأرْضِ، سَبْع مرَّات، وعلّقه بالعرشِ مكتوب فيه: ما هو كائِنٌ إلى يَوْم القيامة. وإسرافيل له أرْبعة أجْنِحة، جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، وجناح يسير عليه، وجناح يُغطّي به رأسه ووجهه من هيْبَة الجبَّار. رأسُه تحت العرش، ويأخذ قوائم العرش على كاهِلِهِ، لا يحملُ العرْش إلاّ بقدرتِهِ، وإنه يَصْغر من خشية الله مثل وِتْر القَوْس، فإذا قضى الله شيئاً دنا من اللّوْح، فيكشف الغطاء عن وجهه وينظر إلى ما قَضَى الله من شيْءٍ مِنْ حُكْم وأمْرٍ. وليس من الملائكة أقرب منه مكاناً مِنَ العَرْشِ، من إسْرَافيل، وبيْنه وبين العَرْشِ سَبْع حُجُوب، بين الحجاب والحجاب مسيرة خمسمائة عام، وبين جبريل وإسرافيل سبعين حِجَاباً، فإنّه قائم قد وضع الصّور على فخذه الأيْمَن، ورأس الصُور على فيه، ينظر أمْرَ الله حتى يأمره بالنَّفْخ في الصُورِ، فإذا انقَضَتْ مُدّة الدُنيا يَدْنو الصُور إلى وجه إسْرَافيل ويجعل مَلَك الموتَ أحد كفَّيْه تحت الأرْضِ السَّابِعَة والأُخرى فَوَق السَّماءِ السَّابِعَة، ثم يطبقها فيأخذ أرواح أهل السَّماء وأهل الأرْض ولا يَبقَى في الأرض إلاّ إبْلِيس لعَنَةُ الله عليه، ولا في السَّماء إلاّ جِبْريل

وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وهم الذين استثناهم في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية 68].

وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى خلق الصُّور له أربعة شُعَب، شعبة منها في المَغْرِب، وشعبة في المَشْرق، وشُعْبة منها تحت الأرض، وشعْبة فوق السَّماء السَّابعة. في الصُّورِ من الثقبِ بعدد الأرواح، وفي واحِدَة منها أرْوَاح الأنبياءِ، وفي واحدة منها أرواح الملائكة، وفي واحِدَة منها أرْوَاح الجِنِّ، وفي واحدة منها أرواح الإنسِ، وفي واحِدة منها أرْوَاح الشَّياطين، وفي واحدة منها أرْوَاح البهائِم حتى النَّملة والبقَّةُ إلى تمام سبعين صنفاً. وأُعْطيه إسْرَافيل، فهو واضِعه على فِيهِ، ينتظر حتَّى يُؤمَر بالنَّفخِ فينفَخ فيه ثلاث نفخات، نفخة الفَزَع، ونَفْخَة الصَّعْق، ونفخة البعث. قال حُذَيفة: يا رسول الله كَيْفَ يكون الخَلائِق عند النَّفْخِ في الصُّورِ؟ قال: يا حُذَيفة: «والَّذِي نَفْسِي بيده ينفَخ في الصُّور وتقوم الساعة والرَّجُل قد وضعَ اللُّقْمة في فِيهِ فلم تصل إلى جَوْفِهِ، والثَّوْبُ من يَدَيْهِ يُرِيد لبْسَه فلا يَلبسهُ، والكُوز يريد أن يشرْبَ منه فلا يشرَب. ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية 53].

بَابٌ
في ذِكْرِ نَفْخَةِ الصُّورِ والفَزَع

قال: ينفخ نَفْخَة الفَزَع، فيبْلغ فزعه من أهْلِ السماوات والأرض إلاَّ من شاء الله ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ [الطُّور: الآية 10] ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ [الطُّور: الآية 9]، وترجف الأرض رجفاً مثل السَّفينة في البرّ، وتضع الحوامل، وتذهل المراضع، وتصير الوِلدان شِيباً، وتصير الشَّياطين هاربة، وقد تناثَرَت النجوم، وكسفت الشمس والقمر فوقَهُمْ، والأموات من ذلك في غفلة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحَجّ: الآية 1] ويكون ذلك أربعين سنة.

ورُوي عن ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنه أنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحَجّ: الآية 1] قال: أتَدْرُونَ أي يوم ذلِكَ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلِك يوم يقول الله تعالى لآدَمَ: قُمْ وابْعَث إلى النَّار، فيقول: يا رب كَمْ مِن كل ألْفٍ؟ فيقول الله تعالى: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النَّار وواحد إلى الجَنَّة»، فشق ذلك على القَوْم وبكوا بُكاءً شديداً، ثم قال رسول الله ﷺ: «إنِّي أرجُو أن تكونُوا رُبع أهْلِ الجنَّة». ثم قال: «إني

أرجو أن تكونوا شَطْر أهْلِ الجنّة» ففرح أصحابه بذلك، ثم قال لهم: «أبْشِروا، ما أنتم في الأمَمِ الماضية إلاَّ كالشَّامة في جَنْبِ البَعير، وما أنتم جُزء واحِد مِن ألف جُزءٍ».

وقال أبو هُرَيْرَة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن لله مائة رَحْمَة، أنْزَل منها رَحْمَة واحدة، بيْنَ الجنّ والإنس والبَهَائم والطَّيْرِ والهوام في الأرض، فبها يتلاطفون وبها يُسْتَرحمون، وتسعة وتسعين رحمة يَرْحَمُ بها عِبَادَهُ يوم القيامة ثمَّ يأمُرُ الله تعالى إسْرافيل أن ينفَخَ نَفْخَة الصَّعْقِ. فيقول: أيَّتها الأرواح العاريات اخْرُجوا بأمْرِ الله، فصعق ومات أهل السماوات والأرض إلاَّ من شاء الله. يُقال: هُمُ الشهداء، فإنَّهم أحياء عند ربِّهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عِمران: الآية 169] الآية.

وفي الخَبَر: عَنِ النَّبي ﷺ قال: «إنَّ الله يكَرّم الشُّهَداء بِخَمْس كراماتٍ، لم يكرم بها أحد ولا أنا.

أحدُها: أنَّ جميع أرْوَاح الأنبياء يقبضهُمْ مَلَك المَوْتِ، وأنا كذلك، وأرْوَاح الشُّهَداء يقبضهم الله تعالى.

والثاني: أنَّ جميع الأنبياء يُغَسَّلُون بعد موْتِهِم، وأنا كذلك، والشُّهداء لا يُغَسَّلونَ.

والثالث: أنَّ جميع الأنبياء يُكَفَّنُون، وأنا كذلك، والشهداء لا يُكَفَّنُون.

والرَّابع: أنَّ جميع الأنبياء يسمون المَوْتَى، وأنا كَذلِكَ، ويُقال: مات محمد ﷺ، والشهداء لا يسمّون مَوْتى، بل أحْياء.

والخامس: أنَّ جميع الأنبياء يشفعون يوم القيامة، وأنا كذلك، والشهداء يشفعون كلَّ يوم إلى يوم القيامة. وقالَ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النَّمل: الآية 87] يعني استثْنَى عَشَر نفْسٍ: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعُزْرائيل وثمانية من حملة العرش، فتبقى الدّنيا بلا إنس ولا جانٌ ولا شيطان ولا وحْشٍ. ثم يقول الله تعالى: يا مالك المَوْتِ إنِّي خلَقت أعْواناً بعَدَد الأوَّلين والآخرين، وجَعلت لك قوَّة السَّماوات والأرض، وإنّي أُلْبِسُك اليوم ثَوْب الغَضَب. فانزل بِغَضَبي وسطوَتِي إلى إبليس، وأذقهُ الموت، واحمل عليه مَرَارة الأوَّلين والآخرين من الجنّ والإنس أضعافاً مُضَعّفة، واحْمِلْ معَكَ من الزَّبانية سَبْعين ألف مَلَكٍ، مع كل ملكٍ زبانية بسلسلةٍ من سلاسلِ لَظَى، فيُنادي، فيفتح أبواب النيرانِ، فينزل ملَكَ الموت لو نظر إليه أهل السَّماوات السَّبع والأرضين السَّبْع لماتُوا كلهم، فينتهي إلى إبْليس ويَزْجره زَجْرَة فإذا هو قد ضعف وله زَجَرات، منها هذه الزَّجرة لو سمعها أهل السَّماوات والأرْض لصعقُوا من تِلْك الزَّجْرة، وملك الموت

يقول: قِفْ لي يا خَبيث لأُذِيقك الموت. كم مِنْ عُمُر أدرَكت، وكم من قَرْنٍ أضْلَلْتَ، قال: فيَهرب إبليس إلى المَغْرِب فإذا هو عنده فيغوص في البِحَار فإذا هو عنده، فلا يزال حيث يهرب إلاَّ وهو عنده، ويقومُ إبليس في وسَطِ الدُّنيا عند قَبْر آدَمَ عليه السَّلام، ويقول: يا آدَم، صِرْت لأجْلِكَ رجيماً وملعوناً ومَطروداً، فيقول: يا مَلَك الموت بأي كأس تسْقيني للموْتِ؟ وبأي عذابِ تقْبِض روحي. فيقول: بكأس لَظَى والسَّعير، وإبليس يتمرَّغُ مرَّة في التراب، ويصيح مرَّة، وهو يهرب مرَّة، حتى يأتي إلى المَوْضع الذي أُهْبِط فيه ولُعِنَ وقد نصَّبت له الزَّبانية السَّلاسِل، وصارت الأرض كالجمرة، يضربه الزَّبانية ويطعنُونَه فيبقى في النَّزْعِ وفي شِدَّة المَوْتِ ما شاء الله تعالى.

بَابٌ
في ذِكْرِ فَنَاءِ الأَشْيَاءِ

ثم يأمرُ الله تعالى مَلك الموت بفناء الحجارة، ويقول لها: قد انقضَت مدّتها، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية 88]، فينادي ملك الموت إلى البحار، فيقول: قد انقضَت مدَّتكم، فيقولون: ائذِنْ لنا حتَّى نَنُوح على أنفسِنَا. فيقول كل واحدٍ منهم: أينَ أمْواجِي، أين عجائبي، والسّفن تجري عليَّ والحيتان، فقد جاء أمر الله. فيصيح عليها ملك الموت صَيْحة فكأنَّ ماءها لم يكُن قط. ثم يأتي إلى الجِبالِ، فيقول: قد انْقَضَتْ مُدَّتكم، فيقولون: ائذِنْ لنا حتى ننوحَ على أنفسنا، فيقول كل واحدٍ منهم: أين صعودي، أين قوَّتي، فقد جاء أمر الله. فَيصيح بهم أيضاً صَيْحَة فيذوب كل جَبَلٍ بإذن الله تعالى. ثم يأتي إلى الأرض فيقول لها: قد انْقَضَتْ مُدَّتك، فتقول: ائذِنْ لي حتَّى أنُوح على نَفْسِي. فتقول: أين مُلُوكي، أين أصحابي، أيْن أشجاري وأثماري وأنهاري وأنواع نَبَاتِي، فيصيح بها مَلَك المَوْت صَيْحة فتسقط حيطانُها ويتغيَّرُ أساسها. ثم يصعد إلى السَّماء ويصيح صيحة فتكسف الشمس والقمر والنجُوم، ثم يقول الله تعالى: يا مَلك الموت، مَنْ بقي مِنْ خَلقي، وهو أعلم. فيقول: إلٰهي أنت الحيّ القيُوم لا تأخذك سنة ولا نَوْم، وبقي إسْرافيل وجبريل وميكائيل وحملة العَرْش وعبدك الضعيف عُزْرائيل، فيقول الله تعالى: اقْبِضْ أرْوَاحهم. ثم يقول الله تعالى: يا مَلك الموت ألمْ تسمع في كتابي حيث قلت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية 185]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية 26] وأنت خَلْق من خَلْقي، خلقتك، فمُت أنت بإذْني. ثم يأمره الله بِقَبْض روحِ نَفْسه، قال: فيأتي إلى مَوْضع بين الجنَّة والنَّارِ، ويجعل بصَرَه إلى السَّماء فيَنْزَع روحه ويصيح صيحة لو أنَّ الخلقَ كُلهم بالحياة لماتُوا من صيحته، ثم يقول: «لَوْ عَلِمْتُ أنَّ نَزْعَ الرُّوحِ بهذِهِ

الشدّة، لكُنتُ على أزوَاح المؤمنين أشفَق».

وفي خبر آخر: فيذهب بين الجنّة والنّار فيمُوتُ هناك ولا يَبْقى إلاّ الله تعَالى.

بَابٌ
في ذِكْرِ الخلائقِ يوم القيامَةِ

وفي الخَبَر: «إذا أراد الله تعالى أن يَحْشر الخلائق بعد أن يحيي جبْريل وميكائيل وإسْرافيل وعُزْرائيل، أوّلهُم إسْرَافيل، فيأخذ الصُور من العَرْشِ، ثم يُبْعَثون إلى رِضْوان، فيقولون: يا رضوان زيّن الجِنَان لمحمَّدٍ ﷺ. ثم يأتون مع البراق ولواء الحَمْد، وحلتينْ من حُلَل الجنّة، فأوّل من يحيي الله من الدّوابّ، البراق. فيقول الله تعالى: انطلقُوا إلى قَبْر حَبيبي محمَّد ﷺ. فيذهَبُون، وقد صارتِ الأرض قاعاً صَفْصَفاً. فلا يَدْرون قَبْرَهُ فيظهر نورهُ مثل العمودِ من قبره إلى عنَانِ السّماء فيقول جِبْريل: ناد إسْرَافيل، أنت الذي الخلائق بيدك. فيقول: يا جبريل، نادِ أنتَ، فإنك خليله في الدّنيا. فيقول: أنا أسْتَحْيي منه. فيقول إسرافيل: ناد أنْت يا ميكائيل. فيقول: السلامُ عليك يا محمّد. فلا يُجيبه أحدٌ. فيقولون لمَلَك الموت: نادِ أنْت. فيقول: أيتها الرُوح الطيبة، قُومي لفَصْلِ القضاءِ والحساب والعَرْضِ على الرّحمٰن. فينشقّ القبر فإذا هو جالِس في قَبْره، فينفض التّراب من رأسه ولِحْيته، فيعطيه جبريل حُلّتين والبُرَاق، فيقول: يا جبريل، أيّ يوم هذا؟ فيقول: هذا يوم القيامة ويَوْم الحَسْرَة والنّدامة، هذا يوم البُراق، وهذا يوم الفراق، وهذا يوم التلاقِ. فيقول: يا جِبْريل بَشّرْني. فيقول: يا محمَّد، ما نفَخَت الصور قبل قيامك. فيقول: الآن طابَتْ نَفْسِي وقرّت عيني. فينادي ويأخذ التّاج والحلّة، فيلبسهما ويَرْكب البراق ﷺ.

بَابٌ
في ذِكْرِ صِفَةِ البُرَاقِ

قال الشيخ رحمه الله تعالى: له جناحان وهو يطيرُ ما بين السّماءِ والأرض، ووجهه كَوَجْهِ الإنسان، ولسانه لسان العرب، أمنح الحاجبيْن، محمد القرنيْن، رقيق الأذنيْن، من زبرجَدٍ أخْضَر، أسْود العينين. ويُقال: كالكوكب الدُّري، وناصيته من ياقُوتة حمراء، وذَنبه كذَنَبِ البَقر، ومكحَّل بالذّهب الأحْمر، بَدَنه كالبَقر. ويُقال: كالطّاووس، فوق الحمار ودون البَغْل، سمّي بالبُرَاقِ لأنّ لوْنَهُ وسُرْعَتَهُ في السَّيْر كالبَرْقِ، فلمّا دنا النّبيُّ ﷺ ليَرْكبَ البُرَاق، فقرَّبه واضطرَبَ، ويقول: وعِزَّةِ ربّي، لا

يَرْكبُني إلاَّ النَّبي ﷺ الهاشمي الأبطحِي القرشي. فيقول: يا محمد بن عبد الله. فيركَبُهُ ثم ينطلق إلى الجنَّة فيخرّ ساجِداً، فينادي المُنادِي: ارْفَع رأسك فلَيْسَ هذا يوم الركوع والسُّجُود، بل هو يَوْم الحساب والعقاب. ارفع رأسك واسْأل الله تعالى. فيقول: إلٰهي، أين ما وعدتني في أُمَّتي، فيقول: أُعْطيك ما تَرْضَى. قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: الآية 5] ثم يأمر الله السَّماء أن تمطر الماءَ، فتُمْطِر السماء ماءً كَمَنِيِّ الرجال أَرْبعينَ يوماً ويكون الماءُ فوق كل شيءٍ اثنا عشَرَ ذِراعاً، فتَنبتُ الخلقُ بذلك الماء كَنَبَات البُقل حتى تكَامَلَتْ أجسامهم، وكانت كما كانت في الدُّنيا، ثم يطوى السماءُ والأرضُ، فيقول الله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: الآية 16] فلا يجيبه، ثم يقول ثانياً وثالثاً، فلا يجيبُهُ أحدٌ. ثم يقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية 48] ثم يقول: أين الجَبَّارون، أيْنَ المُلوك وأبناء الملوك، أين الذين كانوا يأكُلُون رِزْقي ويَعْبُدون غيري، أين طِوال الآمالِ. قال: ثم تصير الجِبَال كالعِهْنِ المَنفُوش، ثم يبدل الله هذه الأرض التي عمل عليها المعاصِي، فينصب عليها جَهَنَّم ويأتي بأرض مِنْ فِضَّةٍ بيضَاءَ، فينَصب عليها الجنَّة.

ورُوِي عن عائشة رضِيَ الله عنها، أنها قالت: يا رسُول الله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية 48] أين يكون النَّاس يومئذٍ، فقال: «سألتِنِي عن شَيْءٍ ما سألنِي أحدٌ غَيْرك. إنَّ النَّاس يومئذ يكونُونَ على الصِّرَاطِ».

بَابٌ
في ذِكْرِ نَفْخَةِ الصُّورِ في البَعْثِ

ثم يقول الله تعالى: يا إسْرافيل قُمْ وانْفَخْ في الصُّور نَفخة البَعْثِ. فينادي: أيتُّها الأرواح الخارجة، والأجساد الباليَة، والعظام النَّخِرَة، والعُروق المنقطعة، والجلود الممزَّقة، والشعور المتساقطة، قوموا لفَصْل القضاءِ. فيقَومُون بأمر الله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُمَر: الآية 68] يعني: يَنْظرون إلى السَّماء قد مُزِّقت، وإلى الأرض قد بُدِّلتْ، وإلى العِشار قد عُطِّلَتْ، وإلى الوُحُوش قد حُشِرَتْ، وإلى البحار قد سُجِّرَتْ، وإلى النُّفُوس قد زوِّجَتْ، وإلى الزَّبانية والسَّلاسل قد حضرتْ، وإلى الشَّمس قد كُوِّرتْ، وإلى المَوَازن قد نُصِبَتْ، وإلى الجنَّة قد أُزْلِفت، وإلى الجَحِيم قد سُعِّرَتْ، عَلِمَتْ نَفسٌ ما أَحْضرَتْ، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس: الآية 52] الآية. قال: فيَخْرُجون من قبُورِهِم حُفَاتاً عُرَاتاً.

بَابٌ
في ذِكْرِ الخَلائِقِ وكيف يُحْشَرُون ويؤتى بهم يَوْمَ القِيَامَة

سُئِل رسول الله ﷺ: ما مَعْنى هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿18﴾﴾ [النَبَإِ: الآية 18]، قال: فبكى رسول الله ﷺ حتَّى بلَّت ثيابه مِنْ دُمُوع عينيه، ثم قال: «أيُّها السَّائل، لقد سألتَني عن أمْرٍ عظيم، إنه يحْشر يوم القيامة الأقوام اثنا عشر صفّاً:

أما الأوّل: فيُحْشرون على صِفَةِ القِرَدة، وهم الفتّانُون في الناس. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: الآية 191].

والثّاني: يُحْشَرُون على صِفَة الخنازير، وهم أهل السُّحْت. قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المَائدة: الآية 42].

والثالث: يُحْشَرون عُمْياناً يترَدَّدون فيتعَلَّق بهم النَّاسُ، وهم الذين يتجاورون في الحكم. قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿58﴾﴾ [النِّساء: الآية 58]

والرّابع: يحشرُون صُمّاً وبُكْماً، وهم المُعْجَبون بأعمالهم، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النِّساء: الآية 36] الآية.

والخامسُ: يُحْشرون يسيل من أفواههم القيْح، ومقنعون بألسنتهم، وهم العلماء الذين يخالفُون أقوالُهُمْ أعمالَهُمْ. قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البَقَرَة: الآية 44].

والسادس: يُحْشَرون على أجسادهم قروح من نارٍ، وهم الشَّاهِدون بالزّورِ.

والسّابع: يُحْشَرُون على أقدامِهِم وجِبَاهِهم معقودة بنواصيهم، وهم أشدّ نَتْناً من الجيفَةِ، وهم الذين يتبعون الشَّهوات واللَّذات. قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿86﴾﴾ [البَقَرَة: الآية 86] الآية.

والثّامِن: يُحْشَرون كالسَّكارى يقعدُون يميناً وشِمالاً وهم الذين يَمْنعون حق الله من أموالهم. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: الآية 267] الآية.

والعاشِرُ: يُحْشَرُونَ من قُبُورهم خارجين ألْسِنتهم من قَفَاهم، وهم أصحابُ النميمة. قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: الآية 191].

والحادِي عشر: يُحْشَرون من قبورهم سكارى وهم الذين يتحدَّثون في المساجِدِ بحديث الدُّنيا. قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿18﴾﴾ [الجنّ: الآية 18].

والثاني عشر: يُحْشَرون من قُبورهم على صُورَة الكِلابِ، وهم الذين يأكلون الرّبا، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عِمرَان: الآية 130] الآية.

وفي خَبَرٍ آخر: عن مُعاذ بن جبلٍ رضي الله عنه، عَن النَّبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يَوْم القيامَة، يوم الحسْرَة والنَّدامة، يحشر الله أُمّتي على اثنَيْ عشر فوجاً:

أما الفوجُ الأول: فيخرجون من قُبُورهم ليس لهم يدانِ ولا رِجْلان، فينَادي المُنادي مِن قِبَل الرّحمٰن: هؤلاء الذين كانوا يُؤذون الجِيران، ماتُوا ولم يتوبُوا، فهذا جَزَاؤهُم، ومَصيرهم إلى النّار. قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النّساء: الآية 36].

وأما الفَوْج الثاني: فيُحْشرون من قبورهم على صُورَة الدّابّة، ويقال: على صُورة الخنازير. فيُنادي المُنادي من قِبَل الرَّحمٰن: هؤلاء الذين يتهاونُونَ بالصّلاة، ماتُوا ولم يتُوبُوا، هذا جزاؤهُمْ ومصيرهم إلى النّار. قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [المَاعون: الآيتان 4، 5] الآية.

وأمّا الفوج الثّالِث: يُحشرون مِن قُبُورهم وبُطونهم مِثْلَ الجِبال ملأت من الحيّات والعقارب كمثل البِغال، فينادي المُنادي من قِبل الرّحمٰن: هؤلاءِ الذين كانُوا يَمْنَعون الزّكاة ماتُوا ولم يتوبوا، هذا جزاؤهُم ومصيرهم إلى النارِ. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية 77] الآية.

وأمّا الفوج الرّابع: فيُحْشَرون من قُبورهم، يجري من أفواههم دَمٌ، وأمعاؤهُم تجري على الأرض والنّار تخرج من أفواههم. فيُنادِي المُنادي مِن قِبل الرَّحمٰن: هؤلاء الذين كذبُوا في البَيْع والشّراءِ ماتُوا ولم يتُوبُوا فهذا جزاؤهم ومصِيرهم إلى النّارِ. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية 77] الآية.

وأمّا الفوج الخامِس: فيُحْشرون من قبورهم رائحتهم أنْتَن من الجِيفَة، فيُنادي المُنادي من قِبَل الرَّحمٰن: هؤلاء الذين يكتمونَ المعاصي سَتْراً من النّاس ولَمْ يَسْتَحْيُوا من الله، ماتُوا ولم يَتُوبوا فهذا جَزَاؤهم ومصيرهم إلى النارِ، لقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ

مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النّساء: الآية 108] الآية.

وأما الفوج السادس: فيُحشرون من قُبورهم وهم مقطوعوا الحُلقوم من الأقفية، فيُنادي المُنادي من قبل الرّحمٰن: هؤلاء الذين يمنعون الشهادة، ماتُوا ولم يتوبوا، فهذا جزاؤهُمْ ومصيرهم إلى النّار، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية 283] الآية.

وأمّا الفوجُ السَّابع: فيُحشرون من قُبورهم، سُود الوجُوه، زرق العُيُون، بُطُونهم مملوءة من النّار، فيُنادي المُنادي من قِبل الرّحمٰن: هؤلاءِ الذين يأكلون أموال اليَتَامى ظُلْماً، ماتوا ولم يَتُوبُوا، فهذا جزاؤهم ومصيرهم إلى النّار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النّساء: الآية 10] الآية.

وأمّا الفوج الثامِنُ: فيُحشرون من قبورهم جُذاماً وبراصاً، فينادي المُنادي من قِبَل الرّحمٰن: هؤلاء الذين عَقُّوا والديْهم ويُشركون بالله تعالى، ماتُوا ولم يَتُوبوا، فهذا جزاؤهُم ومَصيرهم إلى النار، لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿36﴾﴾ [النّساء: الآية 36].

وأمّا الفوج التّاسع: يُحشَرُون من قُبُورهم عُميان القَلب والعين كَقَرْنِ الثّور، وشفاههم مطروحة على صدورهم، وألسنتهم مطروحة على بُطُونهم وفخذيهم، يخرج من بُطُونهم العَذرة أنْتَنْ من الجيفة، فينادي المنادي مِنْ قبل الرّحمٰن: هؤلاءِ الذين كانُوا يَشْربُون الخَمْر ماتوا ولم يتوبوا فهذا جَزاؤهم ومصيرهم إلى النّار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المَائدة: الآية 90] الآية.

وأمّا الفَوْج العاشِرُ: فيُحْشرون من قبورهم ووجوههم مثل القَمرِ ليلة البَدْر، فيمرُّون على الصِّراط كالبَرْق الخاطف، فيُنادي المُنادي مِن قِبَلِ الرّحمٰن: هؤلاء الذين كانوا يعملونَ الصالحات وينهَوْنَ عن المُنْكر ويحفظون الصلوات الخمس مع الجماعة، ماتُوا على التَّوبة، فهذا جَزاؤهم ومصيرهم إلى الجنّة والمغفرة والرّضوان لأنهم رضوان الله عليهم، ماتوا وهو رَاضٍ عنهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿30﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿31﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿32﴾﴾ [فُصِّلَت: الآيات 30-32]. ثم يقول الله تعالى للوُحُوش: كُونوا تُراباً. فعند ذلك يقول الكافِر: يا ليتني كُنْت تراباً، ويقال:

يُؤتى بِعَالـم يوم القيامة من عُلَماء أُمَّة محمَّد ﷺ فيقف بين يدَي الله تعالى، فيقول الله تعالى: يا جِبْريل، خُذْ بيده واذْهَب به إلى نبيّه محمَّدٍ ﷺ، فيأتي إلى النبيّ ﷺ وهو على شاطيء الحَوْض، يَسْقي أمّتَه بالآنية، ويسقي العلماء بكَفَّيه، فيقول له جِبْريل: يا رسول الله لماذا تسْقي أُمّتَك بالآنية وتَسْقي العلماء بِكَفَّيْكَ؟ فيقول: لأنَّ الناس كانوا يشتغِلون في الدّنيا بالتِّجارة، وهم كانوا يشتغلون بالعِلْم».

قال الفقيه رحمه الله تعالى: أفْضلُ العلماء هو الذي يُوَالي أوْلياء الله، ويُعَادِي أعْدَاء الله.

وعلى هذا جاء في الخبر: أنَّ موسى عليه السلام نَاجى ربَّهُ: فقال له ربُّهُ: هَلْ عملت لي عملاً قط. قال: صلَّيْت لك وصُمْت لك وتصدَّقْتُ لك وحمدت لك وسبَّحت لك وقرأتُ لك كِتابك وذكَرْتُ لك. قال الله تعالى: «أمّا الصلاة يا موسى فَلَكَ بُرْهانٌ. وأما الصوم فلكَ جُنّة. وأمَّا الصدَّقة فلك ظِلٌّ. وأما التَّسبيح فلك أشجَارٌ. وأما قِرَاءة كتابي فلكَ حُورٌ وقُصُور. وأمَّا ذِكْرُكَ فلك نُورٌ، فهذا كله لك يا موسى فأيُّ عمل عملت لي؟ فقال مُوسى: إلٰهي دُلَّنِي على عَمَلٍ هو لك. قال: يا مُوسى، هل والَيْتَ لي وليّاً؟ وهل عادَيْتَ لي عَدُوّاً؟ فعَلِمَ موسى أنَّ أفضَل الأعْمَال الحبُّ في الله والبُغْضُ في الله. ثم يُقْضَى بين الخلائق، إذا وقفوا بين يدي الله تعالى قيل: أيْن أصْحَاب المَظالِم؟ فيُنادون رَجُلاً رجُلاً، فيأخذ من حسناتِهِ فيدفع إلى مظلومه، يوم لا دينار ولا دِرْهم، فلا يزال حتى لا يَبْقَى من حسناتِهِ شيء فيأخذ من سيّئاته فيرد عليه فإذا فرغَ من سيّئاته قيل له: ارْجع إلى أمّك الهاوية، فإنَّهُ لا ظُلْمَ اليوم، إن الله سَرِيع الحساب، يعني سَريع المجازاة.

وعلى هذا جَاءَ في الخَبَر: «أوْحَى الله إلى مُوسى: قُلْ لقومك يفعلون حيلة واحدة أُدْخلهم الجنَّة. قال مُوسى: وما هي يا رب؟ قال: يرضون خصمائِي. قال: إلٰهي وإن كان قد ماتُوا؟ قال الله: يا مُوسى، أنا الله حيٌّ لا نَمُوتُ حتَّى يَرْضوني. قال: كيف يَرْضوك؟ قال: بأرْبعة أشياء: بنَدَامةِ القَلْب، والاسْتِغْفار باللِّسَانِ، ودُمُوع العَيْن، وخِدْمة الجوارح.

بَابٌ
في ذِكْرِ نَشْرِ الخلائِقِ من القُبُورِ

ويُقال: إذا نُشِر الخلائق من القبور يقفُون وقوفاً على المَوْضِع الذي نشروا عنه أربعين سنة لا يأكلون ولا يشربُون ولا يجلِسُون ولا يتكلَّمون. قيل: يا رسول الله بِمَ

يُعرف أهل الدّنيا يوم القيامة؟ قال: «إنَّ أُمَّتي يوم القيامة غُرّاً محجلينَ من أثرِ الوضُوءِ».

وفي الخَبَر: «إذا كان يومُ القيامة، يَبْعثُ الله الخلائق من قبُورهم، فيأتي الملائكة إلى قُبُور المؤمنين ويَمْسَحون رؤوسهم من التُّراب، وينتشر الترابُ منهم إلاّ من مَوْضع سجُودِهِم، فيمسَح الملائكة تلك المواضع فلا يَذْهبُ منها، فينادي المُنادي مِنْ قِبَل الرَّحمٰن: يا ملائكتِي، ليس ذلك تراب قبورهم إنما هو تراب محارِبِهم، حتَّى يمُرُّوا الصِّراط ويدخُلُونَ الجنَّة، حتى كل من ينظر إليهم يعلم أنَّهم خدَّامي وعُبَّادي».

ورُوِي عن جابرِ بن عبْد الله رضِيَ الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة وبُعِثَ مَنْ في القبُور، أوْحَى الله تعالى إلى رضوَان، أني قد أخْرَجْتُ الصَّائمين من القبُور، جائعينَ عاطشينَ، فاستقبِلْهُمْ أنت بشَهَواتِهِم من الجِنَانِ. فيصيح رضْوان: أيَّتُها الوِلْدان الذين لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُم، حتى يأتُوا، فيؤتوا بأطباقٍ من نُورٍ ويجتمع عنده أكثر من عدد التُّرابِ وأقطار الأمطار، وكواكب السَّماء، وأوْراق الأشجار، بالفاكهة الكثيرة والأطْعِمة السمينة والأشرِبة اللَّذيذة. فإذا أطعَمهُم ذلك، يقول لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقّة: الآية 24] ».

ورُوِي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه قال: «ثلاثة تُصافحهم المَلائكة يوم يخرجُونَ من قُبُورهم: الشُّهداء والصَّائِمُونَ رمضان، وصائموا عَرَفَة».

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسُولُ الله ﷺ: «يا عائشة، إنَّ في الجنَّة قصوراً من درٍّ وياقُوت وزُبَرْجَد من ذَهَب. قالت: يا رسول الله، لمن هذا؟ قال: لِمَنْ صَامَ يَوْمَ عَرَفَة لما فيه من الرَّحْمَة والمغفِرة. يا عائشة، مَنْ أصْبح صائماً يوم عَرَفَة فتَحَ الله له ثلاثين باباً من الخَيْر، وأغلَق عنه ثلاثين باباً من الشَّرِّ، فإذا أفْطَر وشَرِبَ الماء اسْتغفر له كل عِرْق في جسَدِهِ يقول: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ إلى طلوع الفَجْرِ».

وفي خبرٍ آخر: يَخْرُجُ الصَّائمون من قبُورهم ويُعْرفُون بريح صِيامِهِم، يتعلَّقُونَ بالموائِدِ والأباريق، يُقال لهم: «كُلوا فقد جُعْتُم حين شَبِعَ النَّاس، واشْرَبُوا فقد عَطشتم حين رووا الناس، واستريحوا. فيأكلُونَ ويشربُون ويَسْتَرِيحون والنَّاس في الحِساب».

وقد جاءَ في الخَبر: «عَشرَة نَفَرٍ لا تُبْلَى: الأنبياء، والغازي، والعالم، والشهداء، وحامِل القرآن، والمؤذن، والإمام العادِلُ، والمَرْأة إذا ماتَتْ من نِفَاسِها، ومن قُتِلَ مظلوماً، ومن مات يوم الجمعة وليلتها».

وفي الخَبرِ عن النَّبيّ ﷺ: «يَقُومُ النَّاس يوم القيامة كما ولَدَتْهُمْ أُمَّهاتُهُمْ، جِياعاً عُرَاتاً. قالت عائشة رضي الله عنها: الرِّجال والنِّساء؟ قال: نعم. قالت: واسَوْأتاهُ،

ينظرُ بَعْضهم بَعْضاً. فضرب النبيّ ﷺ على مَنْكِبيها وقال: يا عائشة، يشتغلُ النَّاس عن النَّظرِ، فإنَّهُم ينظرون بأبصارِهِم إلى السَّماءِ واقفون أربعين سنة لا يأكُلُون ولا يشربون، فمنهم من يَبْلغ العرق إلى قدميه، ومنهم من يَبْلغ إلى ساقَيْهِ ومنهم من يبلغ إلى بطْنِهِ، ومنهم من يبلغ إلى صَدْرِهِ، والعَرَق يكون من طولِ الوُقُوف».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسُول الله، هل يحشر واحد منَّا كاسِياً يوم القيامة؟ قال: «الأنبياء، والأوْلياء، ومن صام رجَب وشعبان ورمضان على الولاءِ، وكل النَّاس جائع يومئذ إلاَّ الأنبياء وأهلهم، وصوَّام رجب وشعبان ورمضان على الوَلاءِ فإنهم لا جَوْع عليهم ولا عَطَش. ويُقال: يسوقهم بأجمعهم إلى أرْضِ المِحْشر عند بيت المقدس في أرْض يُقال لها السَّاهرَة، قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿13﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿14﴾﴾ [النّازعَات: الآيتان 13، 14] ويقال: الخلائق في عَرَصات القيامة تكون مائة وعِشْرين صَفّاً، كل صفٌ منهم مسيرة أربعين ألف سنة، وعَرْض كل صفٌ منهم مسيرة عشرين ألف سَنَة». ويُقال: أن المؤمنين منهم ثلاث صفوف، والباقي كفَّار.

ورُوي عن رسُول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أمَّتي مائة وعشرون صفّاً». وهذا القول أصحُ.

وصِفة المؤمنين، أنَّهُم غُرّاً محجَّلين، وصِفَة الكافِرين أنَّهم سُود الوجوهِ مقرَّنين بين الشَّياطين.

بَابٌ
في ذِكْرِ سَوْقِ الخلائِقِ إلى المِحْشَرِ

ويُقال: يُساق الكفَّار بأقدامهم، ويُساق المؤمنون بنَجائبهم ومَرَاكبهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿85﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿86﴾﴾ [مريَم: الآيتان 85، 86].

قال رسول الله ﷺ: «والَّذي نَفْسِي بيدِهِ، إذا خَرَجوا من قُبُورهم اسْتقبلوهم بِبَرق لها أجْنحة بيضاء عليها رِحَال من ذَهَبٍ، أزِمَّتها بالزَّبَرجد، شرَاك نِعالهم نورٌ يتلألأ، كل خطوةٍ مدَّ البصَرِ».

وقد رُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «يُحْشَر المؤمنُون رُكَّاباً على نجائبِهِم، فإنهم قد اعتادوا الركوب في الدّنيا، وإنهم كانوا في صُلْبِ آبائِهِم، ثم بعد ذلك بُطُون أُمَّهاتهم مَرْكبهم تسعة أشْهُر، فحين ولَدْنَهم أُمَّهاتهم ثم في حجر أُمّهم سنين الرضاع، ثم إذا نزع فعنق أبيهم، ثم الخيل والبِغال مراكبهم في البرّ، ثم السّفن في البَحرِ،

فمن مات والديهم فعنق إخوانهم، وحين قاموا من قُبُورهم لا تمشوهم راجِلاً فإنهم اعْتادوا الرّكُوب ولا يقدِرُون على المَشْي وقدّموا نجائِبَهم، وهي الأضْحِية، فيركبونَهافيقدمون على المولى ولذلك قال ﷺ: «سَمِّنوا ضحايَاكُمْ فإنّها إلى الجنّة مطايَاكُمْ».

بَابٌ
في ذِكْرِ يَوْمِ القِيامَةِ

وفي الخَبَرِ: «إذا كان يوم القيامة يَجْمع الله الأوّلين والآخرين في صَعيدٍ واحِدٍ، وتَدْنُو الشمس من رُؤُوسهم، ويشتدُّ عليهم يوم القيامة حرّها، فيخرُج عِنَق من النّار كالظّلّ، فينادي المُنادي: يا مَعْشر الخلائِقِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ [المُرسَلات: الآية 30] فينطلقون وهُم على ثلاثة فِرَقٍ: فِرْقة المؤمنين، وفرقة المُنافقين، وفرْقة الكافرين. فإذا صار الخلائق إلى ظلّ، صار الظّلّ على ثلاثة أقسام: قِسْم للحرارة، وقسم للدخان، وقسم للنُور، فذلك قولُهُ تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ [المُرسَلات: الآية 30] الآية. فالحرارة تقوم على رؤوس المنافقين، والدُّخان على رؤوس الكافرين، والنُّور على رؤوس المؤمنين. فالحرارة على رؤوس المُنافقين، فإنهم لا يحشرون من الحرارة في الدّنيا. قال الله تعالى: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبَة: الآية 81] . يا محمد، لو كانوا يفقَهُون. والدُّخان على رُؤوس الكُفّار، لأنهم كانوا في الدُّنيا في الظلمة وفي الآخرة كذلِكَ، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية 257] . والنُّور على رُؤوس المؤمنين لأنهم كانوا في الدُّنيا في النُّور، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البَقَرَة: الآية 257] وقال في صِفاتهم يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحَديد: الآية 12] .

وقال ﷺ: «سَبْعة يُظلّهم الله في ظِلّهِ يوم لا ظلّ إلا ظِلُّهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجل طلبَته امرأة ذات حُسْنٍ وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجُل ذكر الله خالياً ففاضَتْ عيْنَاه من خَشْيتِهِ، ورجلانِ تحابًا في الله، اجْتمعا عليه، وافترقا عليه، ورجُل تصدَّقَ بيمينِهِ فأخفاها عن شمالِهِ، ورجُل تعلق قلبه بالمساجِد».

وقال رسول الله ﷺ: «إذا جَمَعَ الله الخلائِق، يُنادي المُنَادِي: أين أهْل الفَضْلِ؟

قال: فيقوم أُناسٌ وهُم يسيرون سِرَاعاً إلى الجنَّةِ، فتتلقَّاهم الملائكة فيقولون لهم: إنَّا نراكُمْ سِراعاً إلى الجنَّة، فمن أنْتُمْ؟ فيقولون: نحن أهْل الصَّالحاتِ من أهل الفَضْلِ. فيقولون لهم: وما كان فَضْلكُم؟ فيقولون: كنَّا إذا ظُلِمْنا صَبَرْنا، وإذا أُسِيء إلينا غَفَرْنا. فيُقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجز العاملين، ثم يُنَادي المُنادي: أين أهل الصَّبر؟ فيقولون لهم: ما كان صَبْركُم؟ قالوا: كُنَّا نَصْبِرُ على طاعة الله ونَصْبِر عن معاصي الله، فيقولون لهم: ادْخُلوا الجنَّة. ثم يُنادي المُنادي: أيْن المُتَحابون في الله؟ فيقُوم أُناس يسيرُون سِراعاً إلى الجنَّة فتتلقَّاهم الملائكة فيقولون لهم: إنَّا نراكُمْ سِرَاعاً إلى الجنَّة، فمن أنتم؟ فيقولُون: نحن المُتَحابُّونَ في الله. فيقولون لهم: ما كان تحابُّكُمْ؟ فيقولون: كنَّا نتحابُّوا في الله ونتباذلوا في الله. فيقولون لهم: أدْخُلوا الجنَّة».

وقالَ ﷺ: «إنما تُوضع المَوازن للحسَابِ بعد دُخُول هؤُلاءِ الجنَّة. وأمَّا لِوَاءُ الحَمْد فوق السماوات».

وسُئِلَ رسول الله ﷺ عن لِوَاءِ الحَمْدِ وصِفتِهِ وطُوله، قال: «طولُهُ مسيرَة ألْفِ سَنَةٍ، مكتوب عليه لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله. وعَرْضه ما بين السَّماء والأرض، وسنانه من ياقوت أحْمَر، قبضته من فِضَّة بَيْضاء، وزُمَرَّدة خضراء، ثلاث دوائب من نور دوائب بالمشْرِق، وآخر بالمغْرب، وآخر بوَسطِ الدّنيا، مكتوب فيه ثلاثة أسْطارٍ، في السَّطْرِ الأول: بِسْم الله الرَّحمٰن الرَّحيم. وفي الثاني: الحمد لله رب العالمين. والثالث: لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله. كُل سطر مسيرة ألف سنةٍ وعنده تسعون ألف لواءٍ، كل لواء سَبعون ألف صفٌ من الملائكة، في كل صف خمسمائة ألف مَلَكٍ يُسَبِّحون الله ويُقدِّسُونه».

قال الفقيه ابن أحمد الجُرْجاني رحمه الله تعالى: مَعْنى قوله: لِوَاء الحَمْدِ: إنَّه إذا كان يومُ القيامة والمؤمنُون حَوْل لوائِهِ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلى قيام السَّاعة، ويكون الكُفَّار في راحَة مِن النَّار، ما دام لِوَاء الحَمْدِ مضرُوبٌ، وإذا حُوّل اللّواءُ فحينئذ يُساق الكفَّار إلى النَّارِ.

وفي الخَبر: «إذا كان يوم القيامة يُنصب لواء الصِّدْقِ لأبي بكْرِ الصّديق وكُلّ صديق تحتِ لِوَائِهِ. ولِواء العدلِ لِعُمَرَ، وكل عادلٍ تحتَ لِوَائه. ولواء السَّخاوة لعُثمان وكل سخي تحت لوائِهِ. ولوَاء الشهداءِ لعليّ بن أبي طالب رضِي الله عنه وكل شهيد تحت لِوائِهِ. ولِوَاء الفِقْه لمعاذ بن جَبَلٍ وكل فقيه تحت لِوَائِهِ. ولِواء الزُّهْد لأبي ذرّ الغفاري، وكل زهّيد تحت لوائِهِ. ولواء الفقر لأبي الدَّرْداء، وكل فقير تحت لوائِهِ. ولِوَاء المُقرَّبين لأبي كَعْبٍ، وكل مُقرَّبٍ تحت لِوَائِهِ. ولواء الأذان لبلال بن حَمَامَة، وكل مُؤَذِّن تحت لوائه. ولواء المقتول ظُلْماً للحسين بن علي بن أبي طالب، وكل مقتول تحت لوائه، فذلك قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: الآية 71]».

بَابٌ
في ذِكْرِ ما يقضى بين الخلائق والوُحُوش

وفي الخبر: إذا كان يوم القيامة، يقوم الخلائق ويشتدّ بهم ويلجمهم العَرَق، فهم يكونون في حَيْرَةٍ، فيبعث الله جبريل إلى محمَّد ﷺ فيقول: يا محمد، سِرْ إلى أُمّتِك، حتى يدعونني بالإسلام الذي كانوا يَدْعونني به في دار الدّنيا عند الشدائد. فينادي محمد به بلسان واحدٍ، فيقولون: بِسْم الله الرَّحمٰن الرحيم، فحينئذ يوصل الله القضاء بين الخلائق. ثم يقول الله تعالى لسائر الأُمم: لَوْ لَمْ يكن ذكر محمد به لي بهذا الاسم لأتممت القضاء عليكم أَلْفَ عام. ثم يقضي الله بين الوحُوش والبهائم، حتى يقضي بين الجمَّاء والقَرْناء. ثم يقول اللهُ تعالى للوحوش والبهائم: كونوا تراباً فعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿40﴾﴾ [النبأ: الآية 40].

قال مُقاتل بن سليمان: عشَرَة من الحيوان: ناقةُ صالحٍ، وعجْل إبراهيم، وكَبْش إسماعيل، وبقرة مُوسى، وحوت يُونس، وحمار العُزَيْر، ونملة مُوسَى، وهُدْهد بلقيس، وناقة محمد ﷺ وعليهم أجمعين، وكلب أصحاب أهْل الكَهْفِ، يصوره الله تعالى على صورة الكَبْشِ ويدخل الجنة. ألا ترى أن الكلب دَاخِلٌ وسَطَ الأحبَّاء فلم يطردوه. وذُكر في كَهْف التوحيد منذ خمسينَ سنة: فاطردوه عن رحمتي. واسم الكلبيَّة زائل عنه، ويسمونه بعض توراه وجريان. وقيل: قطمير، ولونه أصفر.

بَابٌ
في ذِكْرِ قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿90﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿91﴾﴾ [الشُعَراء: الآيتان 90، 91]

وفي بعض الأخبار: «إذا كان يَوْمُ القيامة يقول الله تعالى: يا جِبْريل قَرِّب الجنّة للمُتّقين، وبرِّز الجحيم للغاوينَ. فقَرِّبِ الجنّة إلى يمين العرش والجحيم إلى يسَار العَرْش. ثم يُمَدُّ الصِّراط على النَّار، وينصب الميزان، ثم يقول الله تعالى: أيْن صَفِيِّي آدم، أين خليلي إبراهيم، أين كليمي مُوسَى، أين رُوحِي عيسى، أين حبيبي محمد، قِفُوا عن يمينِ المِيزان. ثم يقول الله تعالى: يا رضوان، افتح أبواب الجِنانِ، ويا ملك العذاب افتح أبواب النار. ثم يجيء مَلَك الرَّحمة مع مَلَكِ العذاب، ومعه الأغلال والسَّلاسل، وثوب من قَطِرانٍ ويُنادي المنادي: يا معشر الخلائق انظُروا إلى الميزَانِ، فإنه يُوزن عمل فُلان بن فُلان».

بَابٌ
في ذِكْرِ عَظِيم السَّاعة في الدُّنيا

وفي الخبَر: رُوي أن أعْظَم ساعة تَرِدُ على العبد في الدنيا عند خُرُوج رُوحِهِ إذا شخصت عَيْناه، وانتشر منخراهُ، وتساقط شفتاه، ويصفر وجهه، فعرق جبينه، واشتدَّ أنينه، وانعقد لسَانه، لا يجيب جواباً ولا يَرُدُّ كلاماً، وعايَنَ ما قَدَّم بدليل صحيفته بين يديه واسْترسال مفاصِلِهِ، وانقَطَع رجاؤهُ، وخافت أحباؤهُ، وتفرّق عن أقاربه، وودَّع الملَكَان، فبقي مُتَحسراً قد تغيَّر عَقْله، وتمكّن الشيطان من اختلاسِهِ، وتلك السّاعة عظيمة عليه، وقد أُغْلِق عليه بابُ التَّوبة، فأفضل ما تكلم كلمة الشهادة، وأمَّا أعْظم الساعة ترِد عليه في الآخِرَة، فإذا نُفخ في الصور ويبعَث من في القبور، ويتعلَّق المظلوم بالظالِم، وكان الشهود الملائكة والسائل هو الله، والعذاب في جَهَنَّم، والنَّعيم في الجنَّة. قوله تعالى: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: الآية 2] . وصارت الولدان شيباً في هذا اليوم، قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: الآية 53] ، وقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: الآية 71] الآية. وقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: الآية 73] الآية. ويُقال: شهد عليكم سَبْع شهودٍ من الملائكة، قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: الآية 166] الآية. والآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة: الآية 4] والزَّمان، كما قيل في الخبر: يُنادي كل يوم: أنا يوم جديدٌ. أنا على ما تَعْمَلون شهيد. واللّسان، قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: الآية 24] ، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآية 65] الآية. والمَلَكانِ: لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الانفطار: الآية 10] الآية. والدِّيوان، لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: الآية 29] . والرَّحمٰن: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: الآية 61] الآية. فكيف يكون حالُكَ يا عاصي بعدما شهدت عليك هؤلاءِ.

بَابٌ
في ذِكْرِ شُهُودِ يَوْم القيامة

حُكي عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قالَ: قال رسُول الله ﷺ: «ما مِنْ مؤمنٍ إلاّ وله كل يوم صحيفة جديدة، فإذا طويَت وبها ذنوب مُظْلِمَة سَوْداء، وإذا طُويت فيها

استغفارٌ طويَتْ كأنها نورٌ تتلألأ».

قال الفقيه: ما مِنْ أحدٍ في الدُّنيا إلاَّ وعليه مَلَكان مُوَكَّلانِ مِنَ الله يحفظانِهِ ليلاً ونهاراً ويكتبان عليه أنفاسَهُ وأعماله، خَيْراً أو شرّاً، هَزْلاً أو جدّاً. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ [الانفطار: الآية 10] الآية، فيرفع له بكلِّ يوم كتاباً، وبكل ليلة كتاباً، ويجمع كل يوم كتبه في سجِّيل، فإذا جاء أجَله، ووقع في النَّزْع يُجْمع تلك السجِّلات بعضها على بعضٍ، فإذا خرجت رُوحُهُ يطوى بها عُنقه، ويختم عليه ويُجعل معه في قَبْرِهِ. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية 13] أي قلَّدْناه ديوان عَمَلِهِ. وإنما خصّ العنق بالتقليد لأنّه مَوْضع القِلادة والطَّوْق مما تزين وتشين. قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: الآية 13] أي يُعطيه كتاباً، ويقال له: «اقرأ كتابك الذي أمْلأت بالظُّلْم في دارِ الدُّنيا. لقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: الآية 14] ويُنادي مُنادٍ من قِبَل الرَّحمٰن: يا فُلان، خُذْ كتابك وراءَ ظَهْرِك فلا يَقْدِر أحَدٌ يأخذ كتابه إلاَّ شقيّاً بشمالهم، والكافرون من وراء ظهورهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: الآيات 10-12] بعد. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: الآيتان 7، 8] وهم الأتْقياءُ. وطائفة يُحاسَبون ثم يُهْلكون وهُم الكفار، وطبقة يُحَاسَبُون ويُناقشون ثم يُنْجَوْنَ وهم العصاة.

وفي الحديث عن النَّبيّ ﷺ أنّه قال: «يا ابن آدَمَ، لا يَزَال أحدكم يَوْم القيامة بين يدي الله تعالى حتى يُسْأل عن عُمُرِه فيما أفْنَاهُ، وعن مالِهِ من أين اكتَسَبَهُ، وفيما أنفقه، وعمَّا في كتابه، فإذا بلغ آخِر الكتاب يقول الله تعالى: يا عَبْدي هذا كله عملته أو الملائكة زادُوا عليكَ في كتابك؟ قال العَبْد: يا ربّ، كل ذلك فَعَلْته. فيقول الله تعالى: «أنا الذي سَتَرْتُها عليك في الدنيا وأنا الذي أغْفِرها لك اليوم. اذْهَب فإني غَفَرْتُها لك». هذا حال من يُنَاقش في الحساب، ثم ينجو بفضل الله. وأمّا الذين يُحَاسَبُون حِسَاباً يسيراً، فهم من جُمْلة الذين قال الله فيهم: هل علمتم ما فَعَلْتُمْ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقّة: الآية 19] الآية.

وسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الحساب اليَسير، قال: «يَنْظر الرَّجُل في كتابه فيتجاوز، ويُقال: مَثَلُ محاسبَة الله تعالى مع المؤمنين يَوْم القيامة كمعَاملة يُوسُف مع إخْوَتِهِ، حيث قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يُوسُف: الآية 92]، فقال يوسف عليه السلام: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم﴾ [يُوسُف: الآية 89] حين حلفتم. فلا يقول لهم أكثر من هذا، فإنَّه لا طاقة لهم في هذا الخِطاب.

وفي الخَبَر: «إذا أراد الله مُحَاسَبة الخلائق، يُنادي المُنَادِي مِن قِبَل الرَّحمٰن: أيْن

النبيّ الهاشميّ الحرمي القرشي. فيعرف رسول الله ﷺ، فيَحْمد الله ويثني عليه، فتتعجَّبُ الجموع منه».

وسُئِل ﷺ أن لا يفضح أمّته، فيقول الله تعالى: أعْرِض أُمَّتَك فحاسبْهم يا محمَّد. فيعرضهم، ويقوم كل واحد فوق قَبْرِهِ حتى يُحاسب حساباً يسيراً، ألا يغضب الله عليه، ويجعل سيّئاته داخِل صحيفته، وحسناته ظاهر صحيفته، ويُوضع على رأسه تاج من ذهبٍ مكَلَّل بالدّرّ والجَوْهر، ويلبس سبعين حُلَّةً ويُحَلَّى بثلاثة أسْوِرَةٍ: سِوار من ذهبٍ، وسوار من فضّة، وسوارٌ من لؤلؤ. فيرجع إلى إخوانِهِ المؤمنين فلا يعرفُونَه من جمالِهِ وكمالِهِ، ويكون في يمينه كتاب أعمال حسنَاتِهِ والبَراءة من النَّارِ مع الخُلْد في الجنَّة، فيقول لهم: أتعرفُونَني؟ أنا فلان بن فُلان، قد أكْرمني الله هذه بَراءتي من النَّار، وخُلْدي في دَارِ القرار. وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑨﴾ [الانشقاق: الآيات 7–9]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ㉕﴾ [الحَاقَّة: الآية 25] وكل حسنة عملها في باطن كتابِهِ وكُلّ سيئة عملها في ظاهر كتابه، ويكون له عذابٌ، وذلك للكُفَّار، لأنَّ الحسَنَة مع الكُفْر لا ثواب لها وذلك من صفات الكافرين، وجدُوا وِزْرَهم مثل جَبَلِ أبي قبِيسٍ وعيران، وهما جبلان بمكَّة، وعلى رأسِهِ تاج من النَّار، ويلبس حلّة من نُحَاس ذائِب، ويقلد على عنقه جمرة الكبريت، وتشتعل فيه النَّار، وتُغلّ يده إلى عُنُقِهِ، ويَسْوَدّ وجهه، وتزرق عيْنَاهُ، فيرجع إلى إخوانه فإذا رأوه فزعوا منه فلا يعرفونه، حتى يقول: أنا فُلان بن فلان، ثم يجرُّونه على وجهِهِ في النَّار فهؤلاءِ الكفار الذين يأتُونَ كتابَهُم بشمالِهِم، فلا يأخذونها بشمالهم ولكن يأخُذُونها من وراءِ ظهورهم».

كما رُوِي عن النبي ﷺ: «أنَّ الكافِرَ إذا دُعِيَ للحسابِ، يُنادى باسمه، فيقوم ملكٌ من ملائكة العذابِ يشق صدْرَه حتى تخرج يده اليُسْرى من وراءِ ظهره بين كَتِفَيْهِ ثم يُعْطَى كتابَهُ بِشِمَالِهِ».

بَابٌ
في ذِكْرِ نَصْبِ الميزَانِ

رُوِي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ينصب الميزان يوم القيامة، طول كل عمود منها ما بين المشرق والمغرب، وكفَّة الميزان كطِبَاق الدنيا في طولها وعرضها، وأحد الكَفَّين عن يمين العَرْشِ، وهي كفَّة الحسناتِ، والآخر عن يسار العرش وهي كفَّة السيئاتِ. وبين الميزان كرُؤوس الجبال من أعمال الثقلَيْن، مملوءَة من الحسناتِ

والسيئاتِ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنةٍ.

قال ابن عباس رضي الله عنه: يُؤتى بِرَجُلٍ ومعه تسْعَة وتسعون سِجلاً، كل سِجِلٌ مَدُّ البصرِ فيه خطاياهُ وذنوبَهُ، فيوضَعُ في كَفَّةِ الميزانِ ويخرج له قِرْطاسٌ مثل الأنْملة، فيه شهادة أن لا إله إلاّ الله محمَّدٌ رسول الله ﷺ، فيوضع في الكفَّة الأخرى فترجح بذلك على ذنوبه كلِّها، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القَارعَة: الآيتان 6، 7] يعني رجحت موازين حسناتِهِ بالخير والطَّاعة، يعني عيشة الجنَّة برضائه. وكما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القَارعَة: الآيتان 8، 9] الآية.

بَابٌ
في ذِكْرِ الصِّرَاطِ

قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله خلقَ على النَّارِ جِسْراً وهو صِراط على متْن جهنَّم، مدحَضة ومزلقة، وجعل عليه سبع قناطير، كل قنطرة منها مَسيرة ثلاثة آلاف سنة، ألف منها صعود، وألف منها استواء، وألف منها هُبُوط. أرقّ من الشعرة، وأحدُّ من السَّيْفِ، وأظْلَم من الليل، كأن عليه شعْبَة كالرَّمح الطويل، محدود السنانِ، يجلس العبد في كل قنطرَةَ منها ويُسْئل عما أمرَهُ الله تعالى.

فالأولى: يحاسب فيها عن الإيمان، فإن سَلِمَ مِنَ الكُفرِ والرِّياء وإلاّ وقع في النَّار.

والثانية: عَنِ الصَّلاة.

والثالثة: عن الزَّكاة.

والرابعة: عَن الصَّوْمِ.

والخامسة: عن الحجِّ.

والسادِسة: عن الوضوءِ والغَسْل من الجنَابَة.

والسابعة: عن بَرّ الوالديْن وصِلَة الرَّحِم والمظالم، فإن نجا منها وإلاّ وقع في النَّار».

وروى وهبٌ عن رسُول الله ﷺ أنَّه قال: «في جميع الجُسُور، يُنادي: يا ربَّ أُمَّتي أُمَّتي. فتركَبُ الخلائق الجُسُور حتى يركب بعضهم بعضاً، والجُسُور تضطرب كما تضطرب السفينة في البَحْرِ، في يوم ريحِ عاصِفٍ، تجُوزُ الزُّمْرة الأولى كالبَرْقِ

الخاطِفِ، والزُمرة الثانية كالرِّيح العاصف. والزُمرة الثالثة كالطَّيْرِ المُسْرِع. والزُمرة الرَّابعة كالفَرَسِ الجَوَاد. والزُمرة الخامسة كالرَّجُل المُسْرِع. والزُمرة السادسة كالماشية. والزُمرة السابعة قدر يوم وليلة. وبعضهم قدر شَهْرٍ، وبعضهم قدر سنةٍ وسنتين وثلاثة سنين، فلا يزال كذلك حتى يكون آخِر من يمرّ على الصِّراطِ بِقدر خمس وعشرين ألف سنة. وقيل: إنَّ الناس على الصِّراط يمرُّونَ والنَّار تحت أقدامِهِمْ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريَم: الآيتان 71، 72] والنَّار تشعَلُ في شُعُورهم وجُلُودهم ولُحُومهم حتى يجُوزُوها كالفحم سُود، إلاَّ مَنْ نجا منها. ومنهم من يجوزها ولا يخشى شيئاً من أهوالِها ولا ينال شيئاً من نِيرَانها، حتى إذا جاوزها يقول: أيْن الصِّراط؟ فيقال له: قد جُزْتَه من غير مشقة برحمة الله».

وقد جاء في الخَبَرِ: إذا كان يوم القيامة، يجيء النبيّ ﷺ بأُمَّتِهِ فإذا صعدوا على الصِّرَاط، يلتفت إليهم فيقول: هل كُنْتم على شريعَتِي، فيقولون: لا. فيتبَرَّأ منهم ويتركهم في جهنَّم». إخواني، هل اتبعتم شريعة نبيّكم، وهل سلكتم من طَريقته، وبعد الدُّخول في النَّار تحتاجون شفاعة نبيكُمْ.

وقد جاء في الخبر: «يأتي قوم يقفون على الصِّراط، فيقولون: لا نقدر جواز الصِّرَاط. ويروْن أُمَّة ظلمة فَيَبْكُون. فيأتي جبريل عليه السلام فيقول لهم: ما مَنَعَكُم ألاَّ تجوزُوا على الصِّراط؟ فيقولون: نخاف مِنَ النَّارِ. فيقول جبريل: إذا استقبلتم في الدنيا بَحْراً غميقاً كيف كنتم تجُوزُونَهُ. فيقولُونَ: بالسُّفن. فيأتي جبريل عليه السلام بالمساجد التي كانوا يُصلُّون فيها كهيْئة السُّفُون فيجلسون عليها ويمُرُّونَ على الصِّراط. ويُقال لهم: هذه مساجدكم التي صليْتم فيها الجماعة».

وفي الخبر: إن الله تعالى يُحاسب العبد فترجح سيِّئاته على حسناتِهِ، فيأمر به الله تعالى إلى النَّار، فإذا ذُهِبَ به يقول الله تعالى لجبريل: أدرِك عبدي واسْألْهُ: هل جَلَس مع العلماءِ في الدُّنيا، فأغفر له بشفاعَتِهم. فيسئل فيقول: لا. فيقول جبريل: أنت عالِمٌ بحال عَبْدِكَ، فيقول: اسْأله هل أحبَّ العُلَمَاء؟ فيسأله، فيقول: لا. فيقول الله تعالى: اسأله هل جلس على مائدة مع العلماء، فيسأله جبريل فيقول له: لا. فيقول: اسأله هل سكن مَسْكناً فيه عالِمٌ. فيسأله فيقول: لا. فيقول: اسْأله هل كان اسْمُه اسم عالم، وإن وافق اسْمُه لاسْمِهِ غَفَرْتُ له فلا يوافق فيه. فيقول لجبريل: اسأله هل أحبَّ رَجُلاً يحبُّ العلماء، فيقول: نعم، فيوافق فيه، فيقول الله تعالى لجبريل: خُذْ بيده وأدخله الجنة فإنه كان يحبُّ رجلاً في الدنيا وكان ذلك الرجل يحب العلماء، فغفرتُ له ببركاته».

وعلى هذا جاء في الخَبَر: «يحْشرُ الله تعالى يوم القيامة مساجد الدُّنيا كأنها بخت بَيْضاء، قوائمها من العَنْبَر، وأعناقها من الزَّعفران، ورأسها من المِسك، وظهرها من الزَّبرجد، يركبها الجماعة والمؤذِّنُون يقودونها، والأئمَّة يسعون فوقها فيعبُرُون في عَرَصَات يوم القيامة. فيُنادون: يا أهْل الجماعة، ما هؤلاء جماعة مقرَّبُون ولا أنبياء مُرسلون، بل هم من أمَّة محمد ﷺ الذين يحفظون الخمس صلوات مع الجماعة.
ويُقال: إنَّ الله تعالى خَلَقَ ملكاً يقال له: دَرْدَاء، له جناحان، جناح بالمغرب من ياقوتة حمراء وجناح بالمشرق من الزُّبرجد الأخْضَرِ، مكلل بالدّرِّ والياقوت والمُرجان ورأسه تحت العرش، وقدماه تحت الأرض السَّابعة، فينادي كل ليلة من رمضان: هَلْ من داعٍ فيُسْتَجاب له، هل من طَالبٍ فيُعطى له، هل من تائب فيُتَاب عليه، هل من مُسْتغفرٍ فيُغْفَر له، حتى يطلع الفَجْرُ».

بَابٌ
في ذِكْرِ أهْلِ النَّار

وفي الخَبَرِ: إنَّ جبريل عليه السلام أتَى إلى النبيِّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «يا جبريل، صف لي النَّار. قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق النَّار فأوقد عليها ألْف عام حتى احَمَّرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابْيَضَّتْ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسْوَدَّتْ، كاللَّيل المُظلِمِ لا يقدر أحد يُطفي لهيبها ولا حرَّها».

قال مُجاهِدُ: إنَّ لجَهَنَّم حيَّات كأمْثَالِ أعْنَاق البُخْتِ، وعقارب كأمثال البِغال الدُّهْم، فيهرب أهل النَّار من تلك الحياتِ فيؤخذون بشفاههم كشطة من بيْن الشفر إلى الظهر، فما ينجيهم منها إلاَّ الهُروب إلى النَّار.

وروي عن عبد الله بن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في النَّار حيَّات مثل أعْناق الإبل، فإذا لسع أحدكم لسعة يجد حمومتها أرْبعين خريفا».

وروى الأعمش عن زيد بن وهبٍ، عن ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ نَارَكُمْ هذه جزء من سبعين جزءاً من تِلْك النَّار، ولولا أنها ضربَت في البَحْرِ مرَّتين ما انْتَفَعْتُمْ بشيْءٍ».

قال مجاهد رضي الله عنه: «إنَّ نارَكُمْ هذه تتعَوَّذ من نَارِ جَهَنَّم».

وروي في الخبر: أنَّ الله تعالى أرْسَل جبريل عليه السلام إلى مالك خازن النَّار، بأن يأخذ من النَّار فيأتي بها إلى آدم، حتى يطبَخ بها طعاماً. قال مالك: يا جبريل كمْ تريد من النَّار؟ قال جبريل: أرِيدُ من النَّار مقدار ثمرة، قال مالك: لو أعْطيتك مقدار

ثمرة لذاب السبع سماوات والسبع أرضين من حَرِّها. يا جبريل لو أعطيتك ما تريد لم تنزل من السماء قطرة ولا تنبت الأرض نباتاً. ثم نادى جبريل: إلٰهي، كم آخذ من النَّار؟ قال الله تعالى: مقْدار ذرَّة منها، فأخذ مقدار ذرَّة وغَسَلَها في سبعين نَهْراً سبعين مرَّة، ثم جاء بالنَّار إلى آدَمَ فوضعها على جَبَل شاهق من الجبالِ، فذاب ذلك الجبل، ورجع النَّار إلى مكانِهِ وبقي دُخَّانها في الأحجار والحديد إلى يومنا هذا. فهذه النَّار من دُخَّانِ تلك الذَّرَّة، فاعتبروها يا مؤمنين.

وقال ﷺ: «إنَّ أهْوَن أهْلِ النَّار عذاباً الرّجل له نَعْلانِ من النَّار، يغلي منها دماغه، كأنها مِرْجَل سائقه جمرة وأضراسه جمراً، وأسفل من لهيب النَّار، وإنَّه أهون أهل النَّار عذاباً، قال: إن أهْل النَّار يدعُونَ ملكا فلا يردّ عليهم، ثم يقول لهم: إنكم ماكثون، يعني دائِمُون أبداً. ثم يدْعُون رَبَّهُمْ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿107﴾﴾ [المؤمنون: الآية 107] فلا يجيبهُمْ مقدار ما كانت الدُّنيا مرَّتين. ثم يَرُدُّ عليهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿108﴾﴾ [المؤمنون: الآية 108]. قال النبيُّ ﷺ: «فوالله ليس لهُمْ قوَّة بعدها بكلمَةَ وما كان بعد ذلك إلاَّ زفيرٌ وشهيق في النَّار، ويشبه أصواتهم بأصواتِ الحمير». قال جبريل عليه السلام: والذي بعَثك بالحق نبيّاً لو أنَّ رأس إبْرَة من النَّار فتحت فمها لاحترق أهْل الأرض من حَوْلِها. وقال: والذي بعثكَ بالحقّ نبيّاً لو أنَّ ثوباً من ثِياب أهل النَّار علق بين السَّماءِ والأرض لماتُوا من حَرِّها، وما يجدون من نعتها. والذي بعثك بالحقّ نبيئاً لو أنَّ ذراعاً من السِّلْسلة التي ذكرهاالله في كتابه وُضِعت على جبل لذَابَ الجَبَل حتى تبلغ الأرض السَّابعة السُّفلى. والذي بعثَكَ بالحق نبيئاً لو أنَّ رجُلاً بالمغرب يُعذَّبُ لاخترق كل ما كان على وجه الأرض من شدَّة عذابِهِ بالمشرق حَرُّها شدِيدٌ، وقعْرها بعيدٌ، وحطبَها جديدٌ، وشرابها حميم وصَدِيد، وثيابها مقطعات النيران، أعاذَنا الله من النَّار بِمَنِّهِ.

بَابٌ
في ذِكْرِ أبْوابِ النَّارِ

قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿44﴾﴾ [الحجر: الآية 44] للرِّجالِ والنِّساء.

قال: سأل النبيُّ ﷺ جِبْريل عن جَهَنَّم، هل لها أبْوابٌ كأبوابنا هذه؟ قال: لا، ولكن مفتوحة بعضها أسْفل من بَعْض من بابٍ إلى بابٍ، مسيرة سبعين سنة. كل باب منها أشدّ حَرّاً من الذي يليه بسبعين ضِعفاً. قال النَّبِيُّ ﷺ لجِبْريل: مَنْ ساكن هذه

الأبواب؟ قال له جبريل:

أما الباب الأول: وهو الأسْفَلُ، ففيه المنافِقُونَ ومن كفَر من أصحاب المائدة، وآل فِرْعون، واسمه الهاوية.

والباب الثاني: ففيه المشركُون واسْمُه الجحيم.

والبابُ الثالث: ففيه الصَّابُونَ، واسْمُه سَقَرَ.

والبابُ الرَّابع: ففيه إبليسُ ومَنْ تَبِعَهُ والمجُوس ومن تبعهم، واسْمُه لَظَى.

والبابُ الخامِس: ففيه اليهود، واسْمُه الحُطمَة.

والبابُ السادِسُ: ففيه النَّصارى، واسْمُهُ السَّعِير.

ثم أمْسَك جبريل عن سُكّان الباب السَّابع، فقال له النبيّ ﷺ: يا جبريل، خَبِّرْني عن الباب السَّابع. فقال له: أهْل الكَبَائر من أُمَّتِكَ، ماتُوا ولم يَتُوبُوا. فخَرَّ النبيُّ ﷺ مَغْشِياً عليه، فوضَعَ جِبريل رأسه على فخذه حتى أفاق النَّبِيُّ ﷺ. ثُمَّ قال النبيُّ ﷺ: يا جِبْريل عَظُمَتْ مُصِيبتي، واشتدَّ خوفي، أيدخل النَّار من أُمَّتي. قال: نعم، يدْخل أهل الكبائر من أُمّتك النَّار. ثمّ بكى رسول الله ﷺ وبكى جِبْريل لبُكَائِهِ ثم قال لجِبْريل: لِم تَبْكِ وأنت الرُّوح الأمينُ؟ قال: أخافُ أن أُبْتُلِي بما ابتلى به هارُوت ومارُوتَ، فهو الذي أبْكانِي، فأوْحى الله إليهما: أنّي ابتعدتكما من النّار، ولكن لا تتركا بكاءَكُمَا».

بَابٌ
في ذِكْرِ جَهَنَّم أعاذَنَا الله منها بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ

رُوِي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه أنّه قال: يُؤتَى بِجَهنَّم من تحتِ الأرض السَّابِعة السُّفْلى، وحولها سبعون ألف صفٍّ من الملائكة، كل صفٍّ أكثر مِنَ الثَّقَلين بسبعينَ مرَّة يجوزون بها بزِمامها، ولجَهنَّم أربع قَوَائم طول كل قائمة ألف عام، ولها ثلاثون ألف رأس، في كل رأس ثلاثون ألف فم، في كلّ فم ثلاثون ألف ضِرْس، كل ضرس مثل جَبَل أُحُد بثلاثين ألف مرّة، ولكل فم شفتان، كُل شفة مثل طباق الدّنيا، وفي كلِّ شفة سلسلة من حديدٍ في كل سلسلة منها سَبْعُون ألف حَلقة، ويُمسك كل حَلَقةٍ ملائكة كثيرة، فيأتُون بها عن يسارِ العرشِ، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ [المُرسَلات: الآية 32] ».

بَابٌ
في ذِكْرِ سَوْقِ النَّاس إلى النَّارِ

يُساق أعْدَاء الله إلى النَّار، وتَسْودّ وجوههم، وتَزْرق أعْينهم، وتخْتم أفْوَاههم، فإذا انْتَهوا إلى بابها اسْتقبلتهم الزَّبانية بأغلال وسلاسِيل فتلك السلسلة توضع في فَمِهِ، وتخرُجُ من دُبُرِهِ، وتُغَلّ يده اليُسْرى إلى عُنُقه، وتدخل يده اليمنى في فؤاده، وتخرُج من بين كتِفيْهِ، ويشد بالسَّلاسل، ويُقرَن مع كل بني آدم شيطان وسلسلة ويسحب على وجهه، ويضرب بمقامع من حديد ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿22﴾﴾ [الحج: الآية 22]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿182﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية 182] ».

ثم قالت فاطمة رضِيَ الله عنها: يا رسُول الله، ألَمْ تَسْألْ عن أُمَّتِك كيف يَدْخلونها؟ قال: «بَلَى، تَسُوقهم الملائكة إلى النَّار فلا تَسْودّ وجوههم، ولا تَزْرق أعينهُمْ، ولا تخْتم أفْواههم، ولا يُقرَنُون مع الشياطين، ولا توضع عليهم السَّلاسل والأغلال». فقالت: يا رسول الله كيف تقودهم الملائكة؟ قال: تقود الملائكة ثلاث نَفَرٍ: الشيخ باللِّحية، والنِّساء بالذّوائب والنَّواصِي، فكَمْ من ذي شيبة من أُمَّتي يُقبض باللحية يقاد إلى النَّار، وهو يُنادي: واشَيْبَتَاهُ، واضعفاهُ، وكم من شباب من أُمَّتي يُقْبَض من اللِّحية، يُقاد إلى النَّار وهو يُنادي: واشبابَاهُ، واحسن صورتاه، وكم من امرأة من أُمَّتي تقبَض بناصيتها، ويُقاد بها إلى النَّار، وهي تُنادي: وافضيحَتَاها، واهَتْك سترها. حتى ينتهوا بهم إلى مالك، فإذا نظر مالك إليهم فيقول للملائكة: مَنْ هؤلاءِ الذين لم تَسْود وجُوههم ولم تزرق أعينهم ولم توضع السَّلاسل والأغلال في أعناقهم؟ فتقول الملائكة: هكذا أُمِرْنا أن نأتي بهم على هذه الحالة. فيقول لهم مالك: يا مَعْشَرَ الأشقياء مَن أنْتُمْ؟ فيقولون: نحن من أُمّة محمّد ﷺ».

ورُوي في الخبر: لمَّا تقودهم الملائكة فيُنادون: يا محمَّد، فإذا رأوا مالكاً يَنسوا اسْم محمد ﷺ مِنْ هيْبَتِهِ فيقول لهم مالك: مَن أنتم؟ فيقولون: نحن ممَّن أُنزل عليهم القرآنُ، وممَّن يَصُوم شهر رمضان. فيقول مالك: ما أُنْزِل القُرآن إلاّ على محمَّد ﷺ. فإذا سَمِعُوا اسم محمَّد ﷺ صاحُوا بأجمعِهِم قالوا: نحنُ مِنْ أُمَّتِهِ. فيقول لهم مالك: أما كان لكم في القرآن زَجْرٌ على المعاصِي، فلِمَ عَصَيْتُمْ؛ فإذا أوقفوهم على شفير جَهَنَّم يَنْظُروا إلى الزَّبانية وإلى جهنَّم فيقولون: يا مالك اذن لنا حتى نبكوا على أنفسنا. فيأذن لهم فيبكُون الدُّموع حتى لا تبقى دموع، فيبكُون دماً. فيقول مالك: ما أحْسَنَ هذا البكَاءِ، لو كان لكم في الدُّنيا لما مسَّتْكم النَّارُ».

بَابٌ
في ذِكْرِ الزَّبَانية

قال منصور بن عمّار رحمه الله: بَلَغَنِي أنَّ لمالك أيْد وأرجل بعدد أهل النَّار، ومع كل رِجْل يد يضربه ويقعدهُ، ويُغَلّلُهُ ويُسَلْسِلُهُ بها، فإذا نظروا إلى النَّار رأوها تأكل بعضها بعضا من خَوْف مالِك.

وحُرُوفُ البَسْمَلَةِ تِسْعَة عَشَرَ حَرْفاً، وعدد الزَّبانية كذلك، سُمُّوا بذلك لأنَّهم زَبْنون الكُفَّار في نار جَهَنَّم. ويُقال: إنما سُمُّوا زبانية لأنَّهم يَعْمَلُون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم، فيأخُذُ واحِدٌ منهم عشرة آلاف بيَده اليُمْنى، وبيده اليُسْرى كذلك، وبِرجلِ اليُمنى كذلك عشرة آلاف وباليُسْرى كذلك، فيُعذب أرْبعين ألف كافِرٍ في مرَّة واحِدَة لما فيه من القوَّة والشدّة، أحدهم كمالك خازن النَّار، وثمانية عشر مِثْلُهُ، وهم رؤوس الملائكة تحت كل مَلَكٍ منهم من الخَزَنَةِ ما لا يُحصي عددهم إلا الله تعالى، وأعْيُنُهم كالبَرْقِ الخاطِفِ، وأسْنانُهُمْ كحافِرِ البقر، وشفاههم تمليء أفْواههم بخُرُوج لهَبِ النَّارِ من أفواههم، ما بين كَتِفَيْ كل واحِدِ منهم مسيرة سَنَة لم يخلق الله في قُلُوبهم من الرَّحْمة والرَّأْفة مقْدَار ذَرَّة ويَهْوِي أحَدُهم في بِحَارِ النَّار مقدار أرْبعين سنة، فلا تَضُرُّه النَّار لأنَّ النُور أشدُّ من حَرِّ النَّارِ. نعوذ بالله منها.

ثم يقول مالك للزَّبانية: ألْقوهم في النَّار، فإذا ألقوهم في النَّار نادَوْا بأجمعِهِم: لا إلٰه إلاَّ الله. ثم ترجع منهُمُ النَّارُ، ثم يقول مالك: يا نارُ خُذِيهم، فتقول النَّار: كيف نأخذهُمْ وهم يقولُون لا إلٰه إلاَّ الله. فيقول مالك: نَعَمْ، بذلك أمَرَ ربّ العَرْش العظيم. فتأخذهم، فمنهم من تأخذه إلى قدمَيْهِ ومنهم من تأخذه إلى رُكبتيْهِ ومنهم من تأخذه إلى سُرَّتِهِ، ومنهم من تأخُذُهُ إلى حَلْقِهِ، فإذا قربت النَّار إلى وجُوههم فيقول مالك: يا نَار، لا تحرِق وجوههم فطَال ما سَجَدوا للرَّحْمٰنِ ولا تحرِق قلوبهم، فطال ما عَطشوا من شِدَّة رمضان. فيبْقون ما شاء الله تعالى.

بَابٌ
في ذِكْرِ أهْلِ النَّار وطعامِهِمْ وشَرَابِهِمْ

قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهل النَّار سُود وجوههم، تظلم الأبْصَار، وتذهب العقول، رؤوسُهُمْ كالجِبالِ، وعُيُونهم بالطّولِ، وشعورهم كآجام القصب، ليس لهم مَوْت فيموتُونَ، ولا حياة يحيونَ، لكل واحِدٍ منهم سبعين جلداً، ما بين الجلد والجلد

سبعين طبقاً من النَّارِ، وفي أجْوافها حيَّات وعَقَارب من النَّار، يسمعون صوته كأصوات الوحوش، وبالسلاسل والأغلال يطوَّقون، وبالمقامع يُضْرَبون، وعلى الوجوه يُسْحَبُون». قال النبي ﷺ: «مساكين أهل النَّار، ينادون: يا ربَّاهُ، أحاط بنا العذاب، فوجدناه مطبقة يسحبونها مغلولة بأغلالها، إن اشتكوا لم يُرْحَمُوا، وإن صبروا لم يُنْجوا، وإن نادوا لم يُجَابُوا. فينادون بالوَيْلِ والثبور في الأصفادِ مُقرَّنين في سِجْن النَّار مخلدينَ ـ أي خالدين ـ نادِمين، طويلٌ عذابُهُمْ، ضيّق مَدْخَلُهُم، سائِلٌ صَدِيدُهُمْ، بَادِية عَوْراتهم، متغيّرة ألوانُهم، وهُمْ أشقياء، يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: الآية 106]، ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان: الآية 12] قال: مساكين أهل النَّار خَلَقَ الله لهم جَبَلاً من النَّار، يُقال له: صَعُودٌ، فيَصْعدون على وجُوهِهِم ألْف عام، فإذا صَعِدُوا إلى أعْلاه يضُمُّهُم الجبل ضَمَّة فَيَرُدّهم إلى قَعْرِهِ خاسِئِينَ. مساكين أهل النَّار، ثم يستغيثوا بالمَطَرِ فيرفع من النَّار سود، فيقولون: الغيث من الرَّحمْن. فيُمْطِرُ عليهم حجارة من النَّار ويَقَعُ على وسَطِ رؤُوسهم ثم يخرج من أدْبارِهِم، ثم يسألون الله تعالى ألْف عامٍ أن يرزقهم الغيْث، فيَظْهر سحاب أسْود به حيات فيلسعوا لَسْعَة لا يذهب وَجْعها ألفَ سنة. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: الآية 88]. مساكين أهل النَّار. ثم ينادون: يا مالِك، سبعين ألف سنة، فلا يرُدّ مالك على الأشقياء جواباً فيقولون: رَبَّنا نادينا مالكاً فَلَمْ يجبْنَا، فيقول الله لمالك: أجِبْ أهل النَّار. ثم إن مالك يقول لهم: ما يقولون، يا مَن غضب الله عليهم يا أهل النَّار، فيقولون: يا مالك، أسْقِنا شُرْبة ماءٍ حتى نستريح ساعة، فقد أكَلتِ النَّار لحُومَنَا وعظامنا ونَضِجَتْ جُلُودُنا وقطعَت النَّار قلوبَنَا فيسقيهم شُرْبة من مَاءِ الحميم إن سال باليَدَيْنِ تساقطت الأصابع، فإذا بَلَغَ الوُجُوه تناثرت العيُون والخدود، وإذا دخل البُطون قطَّع الأمعاء والكُبُود. قال: مساكين أهل النَّار، إذا استغاثوا بالطعام يُجَاء بالزَّقُّوم فإذا أكلوه يَغْلي في بُطُونِهِم ودماغِهِمْ وأضْراسهم يخرج لَهِيب النَّار من أفواههم وتسقط أحْشاؤهم من قَدَميهم. قال: مساكين أهل النَّار، يلبَسُونَ من قِطرانٍ، إذا وُضِع على البَدَنِ يسْلخ جلود الأشقياء في النَّار عُمْيٌ لا يُبْصرون، بُكْمٌ لا يَنطِقُون، صُمٌّ لا يَسْمعون، وكل جائع يشتهي الطَّعام إلاَّ أهل النَّار، وكل عريان يشتهي اللباس، إلاَّ أهل النَّار، فإنهم يتمَنَّون المَوْت ولا يموتون. أعاذنا الله من النَّار.

بَابٌ
في ذِكْرِ ألْوَانِ العَذَاب، على قَدْرِ أعْمَالِ العِبَادِ

قال رسول الله ﷺ: «ينجون من النَّار من سبعين ألف سنة هؤلاء سامنات

مُهْزِلات، كاسيات، عاريات، عالمُونَ جاهِلُونَ من أُمَّتي. آمنات من اللَّحم، مُهزلات من الدِّين، كاسيات من الثوب، عاريات عن الطَّاعة، عالمون ظاهراً من الحياة الدّنيا وهم عن الآخرة غافِلُون، جاهلون من أهل الشقاوة، يكسبون من أي مالٍ كان، ولا يُبَالون مِنْ أيّ بابٍ يُدْخلهم الله النَّار، كما قال الله تعالى: لو رأيت ناقض العَهْد والأمانة، يسحبون على وُجُوههم في النَّار، وإذا صاروا إلى جَهَنَّم صار كل عُضو منهم في مكانٍ، وكل عرق في مكانٍ، وَيْل لناقضِ العهد والأمانة، تراه مصلوباً على شجرة الزَّقوم، والنار تدخل من دُبره وتخرج من فَمِهِ وأُذُنيه وعيْنيْه، فلو رأيت يا أخ ناقض العهد والأمانة، فقد قارنَته الشياطين في السَّلاسِلِ والأغْلال، معَلَّقاً من لسانِهِ يسيل من دماغِهِ ومن منخرِهِ، لا ينامُ طُرْفة عينٍ ولا يَهْنأ راحة، حتى إن الكافر يطلب الأمان من العَذابِ. وكذا ناقِضُ العَهْدِ يطلب الأمانَ من العذابِ، والزَّانِي وآكل الرِّبا، وتاركُ الصَّلاة، يُعذَّبون في النَّارِ حَقْباً فلو كان ماءُ البحر مداداً، والأشجار أقلاماً والإنس والجن كتاباً لفنيت الإنس والجِنّ، ونَفَذت البحار كلها، ثم جاءوا بمثلها سبعين ألف ضعف، لنفذ ذلك كله، وتفنى الإنس والجِنّ من قبل أن يكتبُوا أعداد حِقب جهنَّم، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبإ: الآيات 23-26] الآية.

قال رسُولُ الله ﷺ: «ما الحَقْبُ يا جبريل؟ قال جبريل: أربعة آلافِ سنة. قال: سنتكم شهراً؟ قال: أربعة آلاف شهر. قال: شهركم يوماً؟ قال: أربعة آلاف يوم. قال: ويومكم ساعة؟ قال: سبعين ألف ساعة، وكل ساعة سنة من الدُّنيا».

ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إذا كان يَوْمُ القيامة يخرج من جَهَنَّم شيء اسْمه حريش، يتولد من العقارب اسمه كذا. ورأسه في السماءِ السَّابعة، وذنبه إلى تحت الأرضِ السَّابعة السُّفْلَى فينادي كل سنة سبعين مرَّة: أين مَن بارَزَ الرَّحمٰن، أين العاصون، أين من حارَبَ الرَّحمٰن، أين تارك الصلاة، أين من ضيَّع الزَّكاة، أين من شَرِبَ الخَمْر، أين من أكل الرِّبا، أين من يتحدَّثُ بحدِيث الدُّنيا في المساجِدِ. فإذا أكَّلْناهم وشرَّبناهم وطعَّمناهم فيجمعهم في فِيهِ، فيرجع بهم إلى جهنَّم. نعوذ بالله من الشقاوة.

بَابٌ
في ذِكْرِ شَارِبِ الخَمْرِ

رُوِي عن ابن كَعْبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بشارب الخَمْرِ

يوم القيامة، والكُوزُ مُعَلَّق في عُنُقِهِ، والطُّنبُور في يدِهِ، حتى يُصلب على خَشْبةٍ مِنَ النَّار، فيُنادي المُنَادي: هذا فُلان ابن فلان، من موضع كذا يخرج الخَمْر من فِيه. فإذا أهْل الموقف اسْتغاثُوا إلى الله تعالى من نَتْنِ ريحهم، ثم يكون مصيرهم إلى النَّارِ، فإذا طرحُوا في النَّار يُنادون ألف سنة: واعطشاهُ، ثم ينادون مالكاً فلا يجيبهم مقدار ثمانين عاماً، فيبكُون ويخرج العَرَق من أجسادهم أنْتَنُ من الجيفة، يُؤذُونَ جيرانهم فيُنادون: يا ربَّنا، ارْفع عنَّا العَرَق. فلا يُرْفع عنهم، ثم يجيء بالنَّار فتأكُلَهُمْ حتى يكونوا رماداً، ثم يُعادوا خَلْقاً جَدِيداً، ثم تكاد النَّار فتحرقهم، مغلولة أيديهم، فيبكُونَ، فيؤخذ بأرجلهم فيسحبُونَ في النَّار بالسَّلاسِل على وجوههم، وإذا استغاثُوا بالمَاءِ يُجَاء بالحميم، حتى إذا شربُوا قطع أمعاءَهُم، فإذا استغاثوا بالطعام يُجَاؤُوا بالزَّقُوم، فإذا جاؤوا بالزَّقُوم فيأكلوهُ، يغلي ما في بطونهم وما في دماغهم، فيخرج لهَبُ النَّار من أفواههم، فتسْقطَ الأخشاء من قدَمَيْهِم، ثم يجعل في تابوت من النَّارِ ألف عام طويل عذابه، ضيق مَدْخله، متغيّر لونه، ثم يخرج من التَّابوت بعد ألفِ عامٍ، ويُجْعل في سجنٍ من النَّار، ثم يُنادي ألف سنة: واعطشاهُ، فلا يُرْحم، ويجعل في السُّجن فيه حيَّات وعقارب كأمثالِ البُخْتِ يأخذون بقدميهم ويجعل على رؤوسهم تاج من النَّار، ويجعل في مفاصلهم الحديد، وفي أعْناقهم السَّلاسِل، وفي أيديهم الأغلال، ثم يخرجون بعد ألفِ عامٍ ثم يجعلون في ويْلٍ. والوَيْلُ: واد من أوْديَة جهنَّم حَرُّها شديدٌ وقَعْرُها بعيدٌ، والسلاسل والحيات والعقارب فيها كثيرٌ ويبقون في الوَيْل مقدار ألف عامٍ، ثم يُنادُوا: وامُحَمَّداه، فيسمع محمَّد ﷺ صوت الرَّجُل من أُمَّته فيقول الله تعالى هذا صوت الرَّجل الذي شرب الخَمْر في الدُّنيا ومات وهو سكران. يُقال: يَبْعثه الله في الحَشْرِ سكران، فيقول نبيُّنَا محمَّد ﷺ: يا ربِّ أتخرجه من النَّار بشفاعَتِي أمْ يبقى في النَّار خالداً مخلَّدا، فيقول الله تعالى: بل أُخرجه بشفاعتك يا محمَّد. فيُخرج من النار بشفاعة النبيّ ﷺ.

بَابٌ
في ذِكْرِ الخُرُوجِ من النَّارِ

ثم يُنادون فيها: يا حَنَّان، يا منَّان ألف عام، ويا حي ألف عام، ويا قيوم ألف عام، ويا أرحم الرَّاحمين ألف عام. فإذا أنفذ الله فيهم حكمَهُ فيقول الله تعالى: يا جبريل ما فعَلَ العاصُون من أمَّة محمَّدٍ؟ فيقول: إلٰهي، أنت أعلَمُ بحالهم منِّي. فيقول: انطلق وانظر ما حالُهُمْ. فينطلق جبريل عليه السَّلام إلى مالِك، وهم في وسَطِ جهنَّم، فإذا نظر مالك إلى جبريل قام تَعْظيماً له، فيقول: يا جِبْريل ما أدْخلك في هذا المَوْضع؟ فيقول له: ما فعلْتَ بالعُصاة من أُمَّة محمد ﷺ؟ فيقول مالك: ما أسْوأ

حالَهُمْ، وأضيق مكانهم، قد أحْرقت النَّار أجسادَهُم، وأكلت لُحُومهم، وبقيت وجوههم وقلوبهم يتلألأ فيها الإيمان. فيقول جبريل: ارْفع الحجاب حتى أنظر إليهم. فيأمر مالك خَزَنَتَهُ فيُرفَع عَنهم، فإذا نظروا إلى جبريل ورأوا ما أحْسَن خلقته فيعلمون أنه ليس من ملائكة العَذَابِ، فيقولون: مَنْ هذا العَبْد الذي لم نَرَ أحْسَن منه؟ فيقول مالك: هذا جِبْريل الذي كان يأتي محمّداً ﷺ بالوَحْي. فإذا سَمِعُوا اسم محمَّد ﷺ صَاحُوا بأجْمَعِهم ويبكون ويقولون: يا جبريل أقرىء محمداً منَّا السلام وأخْبره بِسُوءِ حالِنا قد أنسانا وتركَنا في النَّار. قال: فينطلق جبريل حتى يقوم بين يدي الله تعالى، فيقول الله تعالى: يا جبريل كيف رأيْتَ أُمّة محمد ﷺ؟ فيقول: يا ربّ رأيتهم ما أسْوأ حالَهُم، وأضيَق مكانَهُمْ، فيقول الله تعالى: إنْطلق إلى محمَّدٍ ﷺ وبلِّغه. فينطلق جِبْريل عليه السلام إلى النَّبيّ ﷺ باكِياً، والنَّبيُّ ﷺ في الجنَّة تحت شَجَرَة طُوبَى في خَيْمَة من دَرة بيضاء لها أربعة آلاف باب لكلِّ باب مِصْراعانِ من فضَّة وذهب فيقول له: ما يبكيك يا جبريل؟ فيقول له: يا محمَّد، لو رأيت ما رأيتُ لبكَيْت أشدَّ من بُكَائِي، قد جئت من عند العصاةِ من أُمَّتك الذين يعذبُون في النَّار، وهم يقرؤونك السَّلام ويقولون لك: ما أسْوَأ حالَنا وأضيق مكاننا، وهم يصيحُونَ: وامُحمَّداه، ويسمعهما الله في تلك السَّاعة الصيحات، فيقول له جبريل: اسمع صياحهم وهم يقولون: وامُحَمَّداهُ، فيقول النبيّ ﷺ: لبَّيْكُمْ لبَّيْكُمْ يا أُمّتِي، فيقوم النبي ﷺ باكياً فيأتي عند العَرْشِ والأنبياء خلفه فيَخِرُّ ساجِداً ويُثني على الله ثناء لم يَثْنِ أحدٌ قبله ولا بعدَهُ. فيقول الله تعالى: ارْفَعْ رأسك واسْأل تُعْطَ واشفَعْ تشفَّعْ. فيقول: يا رب الأشقياء من أُمَّتي، قد نفَذَ فيهم الوَعيد، وانتقَمْتَ مِنهُمْ، فشفِّعْني فيهم واقْبل شفاعتِي فيهم. فيقول الله تعالى: قَدْ شفَّعْتُكَ فيهم. فيأتي النبيُّ ﷺ مع الأنبياء فيُخْرِج من كان يقول لا إلٰه إلاَّ الله محمَّدٌ رسول الله ﷺ. فينطلق النبي ﷺ إلى جهنَّم فإذا نظرَ مالِك إلى محمد ﷺ قام تعظيماً له فيقول محمَّد ﷺ: يا مالِك ما حال أُمتي الأشقياء؟ فيقول مالك: ما أسْوأ حالهم وأضيَق مكانهم، فيقول النبيّ ﷺ: افتح البَاب، وارفع الطبق، فيفتح له الباب فإذا نظر أهل النَّار إلى محمَّد ﷺ صاحُوا بأجمعهم، فيقولون: يا محمَّد، قد أحْرَقتِ النَّار جلودنا ولُحُومَنَا، وقد تركتنا في النَّار ونَسيتنا. فيعتذر لهم، ويقول لهم: إنِّي لا أعلم ما أنتم عليه. فيخرجُون منها جميعاً وقد صاروا حُمَماً من النَّارِ فينطلق بهم إلى نَهر عند باب الجنَّةِ يُسمَّى نَهر الحيوان، فيغْتَسِلون فيه فيخرجُون منه شباباً جرداً مرداً مكتحلين، كأنَّ وجوههم القمر ليلة البَدْرِ، مكتوب على جباههم: هؤلاء الجهنَّمِيُّون عتقاء الرَّحْمٰن، فيدخلون الجنَّة فَيُعَيَّرُونَ بذلك الاسم، فيدعُو الله تعالى فيمحُو ذلك منهم. فإذا رأوا أهل النَّار أنَّ المسلمين قد خرجوا من النَّار قالوا: يا ليتنا كُنَّا مسلمين كنَّا

نخرج من النَّار. وهو قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝﴾ [الحِجر: الآية 2] ».

ورُوي عن النبي ﷺ قال «يُؤتَى بالمَوْتِ يوم القيامة كأنه كَبْش أملَح، فيُقال: يا أهل الجنَّة، هل تعرفون الموت، فينظرونه ويعرفونه. ويُقال لأهل النَّار: هل تعرفُون هذا؟ فينظرونه ويعرفُونَهُ، فيُذبح الموت بين الجنَّة والنَّار. ثم يُقال: يا أهل الجنَّة خُلوداً لا موت فيها، ويا أهل النَّار خُلُوداً لا مَوْتَ فيها. وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [مريَم: الآية 39] ».

وفي الخَبر: «إذا جِيءَ بجَهَنَّم تَزْفرُ زَفْرة جاثية كل أمَّة على رُكوبهم من هولها. قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الجَاثِيَة: الآية 28] فإذا نظروا إلى النار سمعُوا لها زفيراً، كما قال الله تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية 12] من مسيرة خمسمائة عام. وقال: «كل واحِد يقول: نَفْسِي نَفْسِي، حتى الخَلِيلُ والكليمُ، إلاَّ الحبيب محمَّد يقوَل: أُمَّتي أُمَّتي. فإذا قربت، يقول: يا نارُ بحقِّ المصلين وبحقِّ المصدِّقينَ وبحق الخاشعين، وبحق القائمين، ارْجعي فلا تَرْجع النَّارُ، فيقول جبريل: قل لها بحقِّ التَّائبين ودُمُوعهم، وبكائهم على الذّنوب فترجع. ويُجاء بدموع العصاة فترش عليها، فتطفيء النَّار كما كانت تُطفى بالماء في دارِ الدّنيا».

وفي الخَبَر: «إذا كان يوم القيامة تحشر الخلائق في وادِ الحَشْرِ. تجيء لهم جهنم مفتحة أبوابُها، وتأخذ أهل المحْشَر النَّارُ من تحت أقدامِهِمْ وأيمانهم وشمائلهم، فيستغيثون إلى النبيِّ ﷺ، ويستغيث النبي ﷺ إلى جبريل، فيقول له: لا تَخَفْ، أنْفُضْ تراب غبار رأسِك، فينفض رأسه فيبَسط الله غبار رأسه سحاباً مثل سَحَاب المَطَرِ، فيقف على رؤوس المؤمنين ثم يقول: يا محمد، أنْفُض لِحيتكَ، فينفض لِحْيَتَهُ، فيصيّر الله تعالى من غُبَار لِحْيته سِتْراً بينهم وبين النَّار، ثم يأمره أن ينفض غبار نَفْسِهِ، فيُصَيِّر الله تعالى من غبارِ نَفْسه بِساطاً تحت أقدامِهِم يُمنَعُهُم من نار لَظى ببركاتِهِ».

وفي الخَبَر: يُؤتَى بعَبْدٍ يوم القيامة، فيُرجَّح سيئَاتِهِ، فيؤمر به إلى النَّار فتتكلم شَعْرة من شَعرِ عينَيه، فتقول: يا ربّ، رسولك محمد ﷺ قال لي: عين بكت من خَشْيَة الله حرَّمَ الله تلك العَيْن على النَّار، فإنِّي بكيتُ من خَشْيَتك، فانْزَعْني عنه أو اغفر له. فيغفر الله تعالى له ويُنقذه من النَّارِ ببركة شعْرة واحدة كانت تبكي من خَشْيَة الله في الدُّنيا، ثم يُنادي المُنادي: نَجا فُلان بن فُلان ببركة شَعْرة واحدة. صدق رسول الله ﷺ.

بَابٌ
في ذِكْرِ الجِنَانِ والأبْوابِ الثَّمانية

قال وهب بن مَنبه رضي الله عنه: إنَّ الله تعالى خلق الجنَّة يوم خَلَقها عرْضها كعَرْضِ السَّماءِ والأرْضِ، طولها لا يعلمه إلاّ الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة، بَسَط الله الأرضين السَّبع، وجميع هؤلاء وسعها الله إلى أن تَبْلُغ أهْل الجنَّة والجنان كلها، مائة درجة ما بين الدَّرجَة والدَّرجة خمسمائة، أنهارها مطرودة، وأثمارها متدلية على ما تشتهيه الأنْفُس وتلذّ الأعْيُن، فيها أزواجٌ مُطَهَّرة من الحُورِ العِين، خلقَهُنَّ الله تعالى من أنوار كأنَّهُنَّ الياقُوتُ والمَرْجان، فيهنَّ قاصِرَات الطَّرْفِ من غير أزواجِهِنَّ فلا يَنْظُرْن إلى أحد سواهم ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمْن: الآية 56] كلما جمع واحدة منهنَّ أصابها بِكراً، وعليها سبعون حُلَّة مختلفة الألوان حَمْلها أخفّ عليها من شعرة في بدنها، يُرَى مُخّ ساقيها من وراء لحمِها وعظمِها، كما يُرَى الشَّراب الأحْمَرُ في الزّجاج الأبيض، رؤوسها مُكَلَّلَ بالدّرّ والجَوْهَر، مُرَصَّعة بالياقوتِ.

بَابٌ
في ذِكْرِ أبْوابِ الجِنَانِ

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه: للجنان ثمانية أبواب من الذَّهَبِ، مُرَصَّعٌ بالجَوْهر.

على الأول: لا إلٰه إلاّ الله محمد رسول الله، وهو باب الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين.

والباب الثاني: باب المصلين، الذين يكملون الوُضُوءَ وأركانه.

والبابُ الثالث: باب المُزَكِّين بِطِيب أنفسهم.

والباب الرابع: باب الذين يأمُرُون بالمعروفِ وينهَون عن المُنْكَرِ.

والبابُ الخامِسُ: باب من نَهَى نَفْسَهُ عن الشَّهوات.

والبابُ السادِسُ: باب الحُجَّاج والمُعْتَمِرينَ.

والباب السَّابع: باب المُجاهدين.

والباب الثامِنُ: باب الذين يَغُضُّونَ أبصارهم عن المحارِمِ ويعملون فِعْل الخيرات، من برّ الوالدين وصِلَة الرَّحِمِ وغير ذلك.

وثمانية جَنَّاتٍ:

أوّلها: دارُ الجنانِ، وهي من لؤلؤ أبْيَض.

وثانيها: دار السلام، وهي من ياقوتة حمراء.

وثالثها: جنَّة المَأوى، وهي من زَبَرجدٍ أخضر.

ورابعُها: جنَّة الخُلْدِ، وهي من مُرْجانٍ أصْفَر.

وخامسُها: جنَّة النَّعيم وهي من فضَّة بيضاء.

وسادسها: جنَّةُ الفِرْدوس، وهي من ذَهَبِ أحْمَر.

وسابِعُها: جنَّةُ عَدْنٍ، وهي من دُرَّةٍ بَيْضاء.

وثامِنُها: دَارُ القَرَارِ، وهي من فِضَّة الجنان، وهي مُشرفة على الجنانِ كُلِّها. ولها بابانِ ومِصْراعان، مِصْراعٌ من ذهَبٍ، ومصراع من فضَّة، وكل مَصْرع بينه وبين الآخر كما بين السَّماءِ والأرض. وأما بِنَاؤُها: فَلَبِنَة من ذهبٍ ولَبِنَة من فِضَّة، وطينُها وتُرابها العَنْبَر، وحشيشها الزَّعفران، وقُصُورها من فضَّة، وعروقها الياقُوت. وفيها نَهْرُ الكَوْثَرِ، وهو نهر نبيِّنا محمد ﷺ وأشجارها الدرّ والياقوت، وفيها نَهْرُ التَّسْنِيم، وفيها: نَهْر السَّلسبيل وفيها نهر الرَّحِيق المَخْتُوم. ومن وراء ذلك من الأنْهَار ما لا يُحْصِي عددهم إلاَّ الله تعالى.

وفي الخَبَر: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليلة أُسْري بي إلى السَّماء، عرض عليَّ جميع الجنان، فرأيت فيها أرْبَعة أنهار: نَهْر من ماءٍ، ونهر من لبَنٍ، ونهر من خَمْرٍ، ونهر من عَسَلٍ. كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمَّد: الآية 15]. قال النبي ﷺ: قُلْتُ لجبريل: من أيْن تَجِيء هذه الأنهار وإلى أين تَذهَبُ؟ قال جبريل عليه السلام: تذهب إلى حَوْضِ الكَوْثر، وأما أنا لا أدري من أين تَجِيءُ، فاسأل رَبَّك يُعلِمْكَ ويُريك ذلك. فدعا ربَّهُ، فجاء مَلَكٌ فسلَّم على النَّبي ﷺ وقال: يا محمَّد غَمِّضْ عينيك. قال: فَغَمَّضْتُ عَيْني، ثم قال: افْتَح عينيك، ففتحت فإذا أنا عند شجرةٍ ورأيت قبَّة من درَّة بيضاء، ولها بابانِ من ياقوتِ أحمر، وقيل: من ذهبِ أحمر، لو أنَّ جميع ما في الدنيا من الجنِّ والإنسِ وُضعوا على تلك القُبَّة لكانوا مثل طائر جالس على جبَلٍ. فرأيْت هذه الأنهار الأربع تجري من تحت هذه القبَّة، فلما أرَدتُ أن أرجع قال لي المَلَك: لِمَ لا تَدْخُل في القُبَّةِ؟ قلتُ: وكيف أدْخُل وعلى بابها قِفْل، فقال لي: افْتح، قلت: كيف أفْتح وليس لي مِفتاحٌ. قال لي: في يدكَ مفتاحه. قلتُ: أين مفتاحُهُ، قال مفتاحه: بِسْم الله الرَّحمٰن الرَّحيم. فدنوتُ من القفل وقلت: بسم الله. انفتح القفل، ودخلت

القبَّة. فقال لي المَلَك: هل رأيت يا محمَّد؟ قلت: نَعَمْ. قال: انطلِق ثانياً. فلمَّا انطلقت رأيْت مكتوباً على أربعة أركانِ القبَّة: بِسْمِ الله الرَّحمٰن الرَّحيم. ورأيْت نهر الماء يخرج من ميم الرحمٰن، ونهر العسل يخرج من ميم الرَّحيم، فعلمْت أن أصل هذه الأنهار الأربع من التسمية. قال الله تعالى: يا محمَّد، من يذكرني بهذه الأسماءِ من أُمَّتِك بقلب خالِصٍ وهو قوله تعالى: «بِسْمِ الله الرَّحمٰنِ الرَّحيم» سقيته من هذه الأنهار الأربَعَة، يسْقي الله يوم القيامة. يوم السبتَ ماءها، ويوم الأحد يشربُونَ عَسَلَها، ويوم الاثنين يشرَبُونَ لبَنَها، ويوم الثلاثاء يشربون من خَمْرِها، وإذا شربوها سكروا وإذا سكروا طاروا ألف عام حتى ينتهوا إلى جَبَلٍ عظيم من مسْكٍ أذفر فيخرج السلسبيل من تحتِهِ فيشربون وهذا يوم الأربعاء، ثم يطيرون ألف عام حتى ينتهوا إلى قَصْرٍ عظيم كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤﴾ [الغاشِيَة: الآيتان 13، 14] الآية، فيجلس كل واحدٍ منهم على سريره، فينزل عليهم شراب الزَّنجبيل، فيشربون ذلك يوم الخميس، ثم يُمطر عليهم من غَمامٍ أبْيَض الذي خلق من عَنْبَر الباقي ألف عام حُلَلاً، وألف عام جوهراً، فيتعلق بكل جَوْهرة حُوراً ثم يطيرُونَ ألف عامٍ، حتى ينتهوا إلى مقعد صِدْقٍ، فذلك يوم الجُمُعة، فيقعدون على مائدة الخلد فينزل عليهم شراب ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾ [المطففين: الآيتان 25، 26] فيشربُون، قال: وهم الذين يعملون الصالحات ويجتنبون المعاصي والكبائِر.

بَابٌ
في ذِكْرِ أشْجَارِ الجَنَّةِ

قال كَعْب الأحْبار رضي الله عنه: سألْتُ رسول الله ﷺ عن أشجار الجنَّة فقال: «لا تيبس أغْصانُها ولا يتساقط وَرَقُها، ولا يَفْنَى رُطَبُها، وإنَّ أكبر أشجار الجنَّةِ شجرة طُوبَى، أصلها من دُرَّة وأوسطها رَحْمَة وأغصانها من زبرْجَد، وأوراقها من سُنْدُسٍ، وعليها سبعون ألف غُصْنٍ، أقصاها غصنٍ ملتصق بساق العرش وأدنى أغْصانُها في سماءِ الدُّنيا ليس في الجنَّة غرْفة ولا قبَّة إلاَّ وفيها غُصْن يُظل عليها، وفيها من الثمار ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: الآية 71] ونظير ذلك في الدنيا الشمس، الأصل في السَّماء وقد يصل ضَوْؤها في كل مكانٍ في الأرض».

قال علي بن أبي طالب رضِيَ الله عنه: ثَبَتَ في بعض الأخبار أنَّ أشجار الجنَّة من فِضَّةٍ وأوراقها بعضها من فضَّة وبعضها من ذهبٍ. وإن كان أصْل الشجرة من ذهب، يكون أغصانها من فضَّةٍ، وإن كان أصلها من فضة، يكون أغصانها من ذَهَبٍ.

وأشجار الدّنيا: أصلها في الأرض وفرعها في الهواء لأنها دار فناءٍ، وليس كذلك أشجار الجنَّة، فإن أصلها في الهواء، وأغصانها في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ [الحَاقَّة: الآية 23] أي ثمرتها قريبة. وتراب أرضها مِسْكٌ وعَنْبَر، أنهار ماءٍ ولبَن وعسل وخَمْرٍ، وإذا هبَّتِ الرِّيح يضرب الورق بعضه بعضاً فيسمع منه صوت ما سُمع مثله في الحُسْنِ.

وفي الخَبَرِ: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قالَ رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنَّة شجرةً يخرج من أعلاها حلي، ومن أسفلها خَيْل، ذات أجْنحة مَسْرُوجة مَلْجُومة بالدّر والياقوت، ولا تَغُوطُ ولا تَبُول، فيركب عليها أولياء الله فتطير بهم في الجنَّة، فيقول الذين أسْفل منهم: يا رب، بماذا بَلَغَ عِبَادك هؤلاء هذه الكرامة؟ فيقول الله تعالى لهم: «إنَّكم كنتم تنامُونَ وهم يُصَلّون وكانوا يَصُومون وأنتم تَفْطرون، وكانوا يُجاهِدون وأنتم تتركون، وكانوا يُنفِقون أموالهم وأنتم تبخلون.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: إنَّ في الجنَّة شجَرَة يَسِيرُ الرَّاكب في ظلِّها مائة عام ما يقطعها. قال الله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقِعَة: الآية 30] ونظيره في الدّنيا الوقت الذي قبل طلوع الشَّمس، وبعد غروبها، إلى أن يَدْخل سواد الليل. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفُرقان: الآية 45] يعني قبل طلوع الشمس وبعد غُرُوبها.

ورُوي عن النبيّ ﷺ قال: «ألا أُنَبِّئُكُمْ بساعَةٍ هي أشْبَه بساعة في الجنَّة. هي السَّاعة قبل طلوع الشَّمس، ظلها دائم، وراحتها باسط، وبركتها كثيرة».

بَابٌ
في ذِكْرِ الحُورِ

وفي الخَبَرِ: عن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا خَلَق الله تعالى وُجُوه الحُورِ من أربَعَة ألوانٍ: أبْيَض، وأصفر، وأخضَر، وأحْمَرُ، وخلق بدنَهَا مِنَ الزَّعْفرانِ والمِسْكِ والعَنْبَر والكافور، وشعرها من القرنفل ومن أصابع رجلَيْها إلى رُكْبتيها من الزَّعفران، ومن عُنُقها إلى رأسِهَا من الكافُور، لو بصقَتْ في الدُّنيا لصارَتْ مِسْكاً إلى يوم القيامة، ولا بَحْراً إلاَّ صار عَذْباً مكتوب في صَدْرِها اسم زَوْجِها، واسْم من أسماء الله تعالى ما بين مَنْكبَيها فرسخ في كل يَدٍ من يَدها عشرة أسورة من ذَهَبٍ وفي كل أُصْبُع من أصابع يَدَيْها عشر خواتم، وفي كل رجْلَيها عشر خلاخِل من الجوهر واللؤلؤ».

ورُوي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنَّة

حوراء يقال لها: لعبة، خلقت من أربعة أشياء، مِنَ المِسْك والكافور والعنبر والزّعفران عُجن طينها بماءِ الحيوانِ، وجميع الحُورِ لها عاشق، ولو بصقت في البَحْر بصْقة لصار عَذباً من ريقها. مكتوب على نحرها: مَن أحبَّ أن يكون له مثلي فَلْيَعمل بطاعَة ربِّهِ».

وفي الخبر: عن ابنِ مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خَلَقَ جنَّة عدْن فدعا جبريل عليه السَّلام فقال له انطلقْ، وانظرْ إلى ما خلقت لعبادي وأوليائي. فذهَبَ جبريل فطاف في تلك الجنَّة فأشرفت إليه جارية من الحُورِ العين من بَعْضِ تلك القصور، فتبسَّمَت إلى جِبْريل، فضَاءت جنَّة عدنٍ من ضَوْءِ ثناياها، فخَرَّ جبريل عليه السَّلام ساجِداً فظَنَّ أنّه من ربِّ العزَّة، فنادتْهُ الجارية: يا أمين الله ارْفَع رأسك. فرفع رأسه فنظر فقال: سُبْحان الله الذي خَلَقَك. قالت الجارية: يا أمين الله، أتدري لِمَن خُلِقت؟ إنَّ الله تعالى خَلَقَنِي لمن آثر رضَاءَ الله على هَوى نَفْسِهِ».

وعلى هذا جاء في الخَبَر عن النَّبي ﷺ أنّه قال: «رأيْت في الجنَّة مَلائكة يَبْنُون قُصُوراً، لِبنَة من ذهبٍ، ولبنة من فضَّةٍ. فبينما هم كذلك إذ كَفُّوا عن البناءِ، قد تمَّتْ نَفَقتُنَا. قلتُ: ما نفقتكم؟ قالوا: ذكر الله؛ لأنَّ صاحب القُصُور كان يَذْكر الله عزَّ وجلَّ فلمَّا كفَّ عن ذِكر الله كفنا عَنْ بِنَائِهِ».

وفي الخَبَرِ: «ما مِنْ عَبْدٍ يصُوم رمضان إلاَّ يُزَوِّجه الله زوجة من الحور العين، في خَيْمَة من درّة بيضاء مجوّفة كما قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾ [الرّحمٰن: الآية 72] أي امرأة محررة مستورة، وعلى كل امْرأة منهنَّ سَبْعون حُلَّة وسبعون سريراً من ياقوتة حمراء، على كل سرير سَبْعون فِرَاشاً ولكل امْرأة ألْف وصِيفة، ويُعْطى لزوجها مثل ذلك، مع كل وصيفة صحيفة من ذَهَبٍ، هذا لكل من صامَ رمضان، سوى ما عمل من الحسناتِ».

بَابٌ
في ذِكْرِ أهْلِ الجنَّةِ ونَعِيمِها

وفي الخَبَرِ: «إنَّ من وراءِ الصِّراطِ صَحَارى فيها أشجار طيبة، تحت كل شجرةٍ عيْنَانِ تخرجان من الجنَّة، إحداهما عن اليمين، والأخرى عن اليسار، والمؤمنون يجوزُونَ من الصِّراط وقد قاموا مِن القبور، وقاموا في الحسَابِ، ووقفوا في الشمس وقرأوا الكُتب، وجَازُوا الصِّرَاط، وجاؤوا يشربُونَ من إحْدى العَيْنَيْنِ، فإذا بلغ الماء صدورهم يخرج كل ما كان من قَذَر ودَم وبَوْلٍ يزول عنهم، فيظهر ظاهرهم من باطِنهم، ثم يجيء في حَوْض آخر، يغمس فيها رؤوسهم ونفوسهُمْ وتُضِيءُ وجوههم

كالقَمَرِ ليلة البَدْرِ، وتلين نفوسهم كالحرير وتطيب أجسامهم كالمِسْكِ، فَيَنتهُون إلى باب الجَنَّة، وإذا بحَلَقَةٍ من ياقوتة حمراء فيضربوها بصحيفة فتخرج الحُور العِيْنِ فتعانق كل واحِدة زوجها وتقول له: أنت حبيبي وأنا راضية عنكَ، لا أسْخَطك أبداً. ويدْخل بيتَهُ وفي البيت سبعون سريراً على كلِّ سريرٍ سَبْعون فِرَاشاً، على كل فراش سبعون حوراء عليها سبعون حُلَّةً، يُرى مخ سَاقها من الحُلل، ولو أنَّ شعرة من شعرات إماء أهل الجنة سقطت إلى الأرض لأضاءت لأهل الأرض».

قال النبيّ ﷺ: «الجنَّة حُلة بيضاء تتلألأ لا ينام أهلُها، ولا شمس ولا ليل فيها، ولا نومَ، لأن النَّوم أخَد الموت، ودار الجنَّة سبع حوائط محيط بالجنان كله: الأول: من فضَّةٍ. والثاني: من ذَهَبٍ وفِضَّةٍ. والثالث: من ذَهَبٍ. والرَّابع: من لؤلؤٍ. والخامس: من دُرَّة. والسادسُ: من زَبَرْجَدٍ. والسابع: من نُور يتلألأ ما بين كل واحد منها مسيرة خمسمائة عام. وأمَّا أهل الجنَّة جُرْد مُرْدٌ مكَحَّلونَ».

وفي الخَبَرِ: إنَّ أهل الجنة يكون على كل واحدٍ منهم سبعون حُلَّة، يُقلَّب كل حلَّة في كل ساعة سبعون مرَّة، فيرَىَ وجهه في وَجْهِها، وصدرها وساقها ووجهها، هي في وَجْهه وصَدْره وساقِهِ لا يُنْزَفون ولا يَكْتَحلون ولا يكون شعر إبطٍ ولا عانَةٍ، إلاَّ الحاجِبَيْنِ، وشعر الرأس والعينين».

وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: والذي أنزل الكتاب على نَبِيِّهِ إنَّ أهل الجنَّة يزدادون كل يَوْم حسناً وجمالاً، كما ينقصون في الدّنيا. فيعطى الرجلُ قوَّة مائة رَجُلٍ، في الأكل والشراب والجماع. ويجامع الحوراء وكلما وصل وجدها عذراء. ويجامع كما تجامع أهل الدّنيا من الرجل وأهله حَقباً. والحَقْب: ثمانُون سنة».

قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: فإذا أكل وليّ الله من الفاكهة ما شاء، يشتاق إلى الطعام فيأمر الله تعالى بأن قَدّمُوا له الطَّعام. فيأتون بِسَبْع ألف مائدة من درٍّ وياقوت، وعلى كل مائة ألف صَحْفة من ذهب، كما قال الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزّخرف: الآية 71]، في كل صَحْفة سَبْعون ألف لونٍ من الطعام، لم تغله النَّار ولم يطبَخه طبَّاخٌ، ولم يَغْل في قدر النَّحاس وغيره. ولكن، الله تعالى يقول له: كُنْ فيكونُ. بلا نَصَبٍ ولا تَعَبٍ. فيأكُل وليّ الله وغيره من تلك الصحائف ما شاء، فإذا شبع فينزل عليهم الطيور من الهَوَا ويقفون على ما جَارَ عليهم، كلٌ يمرّ على رأس كل وليّ الله تعالى، ويقول كل طَيْر: يا وليَّ الله، أنا طائر كذا وكذا، وأشرب شرب كذا وكذا من ماء السلسبيل ومن ماء الكافُور، وروضة من رياضٍ، فيشتاق وليُّ الله إلى تِلك الطَّيْرِ فيأمره الله تعالى، فيقع على مائدةٍ من أي لونٍ شاءَ فيكون مشوياً، فيأكل ولي الله من لحومها،

ثم يرجع الطير بإذن الله حياً كما كان في الجنَّة، لا ينفد طعامُهُم ولا يَنقص شيئاً».

قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ أهل الجنَّة يأكُلُونَ ويَشْرَبُونَ ثم يصير طعامهُمْ وشرابُهُم رشحاً كريح المِسْكِ الأذْفر، والكافور، لا يَبُولُونَ ولا يَغوطون». وصلى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً.

انتهت بحمد الله وحُسْنِ عَوْنِهِ وتوفيقه، ولا حَوْلَ ولا قُوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم.
انتهى كتاب شجرة اليقين مساء الاثنين 18 رجب عام 1400هـ ق 2 يونيه سنة 1980م، يليه الحديث عن منازل السَّائِرِين.

4 ـ منازل السائرين والواصلين، وأسرار علم الحقيقة، ودوائر الحضرة، وأصناف الأولياء البررة

وأما منازل السائرين فهي ما ينزلها العبد في سيره، ثم ينتقل منها إلى ما هو أعلى منها، وهي ثلاث مقاماتٍ: مقام الإسلام، ومقامُ الإيمانِ، ومقام الإحْسانِ. وفي كل مقام ثلاثةُ منازِل.

فمقامُ الإسلام فيه ثلاثة منازِلَ: مَنْزِل التوبة والتَّقوى والاستقامَة.

ومقام الإيمانِ فيه ثلاثة منازِل: منزل الإخلاصِ والصّدق والطمأنينة.

ومقام الإحْسَان فيه ثلاثة منازِل: مَنْزِل المُرَاقبة والمُشاهدة والمعرفة.

هكذا ذكرها الساحلي في بُغْيَتِهِ. فمقامُ الإسلام لإصلاح الجوارح الظاهرة، ومقام الإيمانِ لإصْلاح القلُوب الباطِنة، ومقامُ الإحسان لإصْلاحِ السَّرائر الغَيبية. ويُسمَّى الأول: علم الشريعة، والثَّاني: علم الطريقة. والثالث: علمَ الحقيقة.

فالتَّوْبة لها ثلاثُ درجاتٍ: تَوْبَة العوام، والخواصّ، وخواصّ الخواصّ.

فتوبة العوامِ مِنَ الذّنُوب والسيّئات.

وتَوْبة الخواصّ مِنَ الهَفواتِ والخَطرَات.

وتَوْبة خواصّ الخواصّ من شُهُود الحسّ والفتراتِ.

والتقوى لها ثلاث طبقات: تقوى العوام منَ الكبائِر والصَّغائر، وتقوى الخواصّ من الهواجِسِ والخواطِرِ، وتقوى خواصّ الخواصّ من رُؤية الأغيار.

والوقوفِ مع الأنوارِ مثل الوقوف مع المقاماتِ والكراماتِ. والاستقامة لها أيضاً ثلاث درجات: استقامة العوام، وهي مُتَابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفْعاله الظَّاهرة. واسْتقامة الخواصّ: وهي متابعة الرسول ﷺ في أقْواله وأخْلاقِهِ الباطنة، واستقامة خواص الخواص وهي مُتابعة الرَّسُول ﷺ في معارفِهِ وأسراره الغيبية. ثم إنَّ هذا القسم الذي ذكَرنا في التوبة والتَّقوى والاستقامة إنمَّا يليق منها بمقام الإسلام القِسم الأول فقط، فتوبةُ العوام لأهل مقام الإسلام، وتوبة الخواصّ لأهل مقام الإيمان، وتوبة خواصّ الخواصّ لأهْلِ مقام الإحْسان. هكذا التقوى والاستقامة مُرَتَّبة على المقامات الثلاث.

قال في البُغْيَة: فالإسلام له معنًى يخُصُّه، وهو انقياد الظاهر بما يُكلَّف به من وظائف الدِّين مع ما لا بدَّ منه من التصديق. والإيمان له معنى يخُصُّه وهو تصديق القَلْب بجميع ما تضمَّنه الدِّين من الإخبار بالغيوب مع ما لا بدَّ منه من شُعَبِهِ. والإحسان له معنى يخصُّه وهو تحسين جميع وظائف الدِّين الإسلامية والإيمانية، بالإتيان بها على أكْمَل شروطها وأنتج وظائفها، خالِصةً من شوائِبِ عِلَلِها، سالمة من طرفِ آفاتِها. ثم إن الإسلام داخلٌ تحت نطاق الإيمان إذ لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له.

وهنا نكتة بدِيعةٌ توضح لنا ما كان خفياً على بعض النَّاس، وذلك أنَّ الشَّرْع سمَّى كل مقام بما يَغْلُبُ عليه، فإذا غلبَت أوصاف الظَّاهر سمِّي بالإسلام ومتى صار الظَّاهِرُ يستمدّ من أنوار الباطن سُمِّي بالغالبِ عليه وهو الإيمان. فإذا تصَفَّتِ النفس وتطهَّرت وصارت نوراً يضيء منها الباطن والظاهر، سُمِّي بالغالب عليه وهو الإحسان، فأُعْطي الاسم للغالِبِ على عادة العرب في إعطاءِ الحُكْم للغالِبِ. وكُلّ مقام لا بد أن يكون فيه من غيره من مُقِلٍّ ومن مُكْثِرٍ، وليس قولنا مقام الإسلام نعني به أنه عرَيّ عن غيره من إيمان وإحسانٍ وكذلك مقام الإيمانِ والإحسان. فإذا غلبت على السَّالك أوصافُ مقام من هذه المقامات سُمِّيَ بها، وقد يُسَمَّى بالمقام من حصل على بَعْضِهِ بنوعٍ من الاتِّساعِ، والمجاز الأول أقرب للحقيقة.

فَصْلٌ

والعمَلُ في سُلُوك هذه المقامات، هو الأخذ بالبدايَةِ حتى إذا أحْكَمَها واتَّصف بمُقْتضاها، بلَّغَتْه إلى النِّهاية، ولا يتمكن قدماً إلى النهاية حتى يتخلَّص من وظائف البداية، أو يقارب على الخلاص، إذ لكلِّ مقامٍ من هذه المقامات بداية وتمكين ونهاية.

قُلْتُ: المُرادُ بالتَّمكين: التَّمكين من السَّيْرِ. فبِداية الإسلام التَّوْبة وتَمْكِينُ الاستقامة، ونهايته التَّقْوى.

قُلْتُ: قد تقدَّم لنا عكس هذا التَّرتيب، لأنَّ الاستقامة أدقُّ وأصْعَبُ من التَّقْوَى، فهي النِّهاية، والله تعالى أعْلَمُ. وبداية الإيمان الإخْلاصُ، وتمْكينهُ: الصِّدْقُ. ونهايته الطُّمأنينة. وبدايةُ الإحسان المُرَاقبة. وتمكينه: المُشاهدة. ونِهايتهُ: المَعْرفة هـ.

قُلْتُ: وما سَلَكَهُ الساحِلي رحمه الله من جَعْل مقام المُراقبة داخِلاً في مقامِ الإحسانِ هو الموافق لتفسير النَّبِي ﷺ بقولِهِ: «أنْ تَعْبُدَ الله كأنَّك تَرَاهُ فإن لم تَكُنْ تراهُ

فإنَّه يَرَاكَ»، على تفسير البعض، أي فإن لم تكُن ممَّن يَعْبُدُ الله كأنه يراهُ، فكن ممَّنْ يَعْبدُ الله كأنَّ الله يَرَاهُ، وهي المُرَاقَبَةُ.

وقالَ بعض أشيَاخنا: كُلُّ من يُكْشف عنه الحِجَابُ، فهو من مقامِ الإيمانِ، ولا يترَقَّى إلى مقامِ الإحسان حتى يُكْشَف عنه حِجابُ الوَهْم والحسّ. فعلى هذا يكون بداية مقام الإحسانِ الاسْتِشرَاف على الفناءِ، ووسطُهُ تحقيق الفَنَاءِ. ونهايتُهُ: الرُّجُوع إلى البقاءِ، وهي المعرفة الكامِلَة، والله تعالى أعلم.

وأمَّا منازِلُ الإيمانِ، فهي ثلاثةٌ:

أوَّلها: الإخلاصُ، وهو إخْرَاجُ الخَلْق من مُعاملة الحقّ. وهو على ثلاثة دَرَجات: إخْلاصُ العوامِ؛ وهو العَمَلُ لله بقَصْد الثَّوَابِ، ودَفْعِ العِقاب، دُنْيا وأُخْرى. وإخلاصُ الخواصّ، هو العملُ لله على نَعْتِ المحبَّة والإجْلالِ. وإخْلاصُ خواصّ الخواصّ وهو العمل بالله على نَعْتِ الأدَبِ. وإظهارالعبودية.

وثانيها: الصِّدْقُ، وليس المراد به هنا صِدْق اللِّسَان، وإنما المراد صِدْق الجَنانِ بتصْفية مشْرَبِ التَّوحيد، في مُعامَلَة الواحِدِ الحقّ. وذلك بتَرْكِ الحُظُوظِ واللُّحُوظ، والفَرق بين الإخلاصِ والصِّدْق، أن الإخلاص يختصُّ بِنَفي صفاتِ الإشْراكِ، والصِّدْق يختصُّ بنَفْي صفات النِّفَاقِ.

وقال بعضُ العارفينَ: الصِّدْق عِمادُ طريق السَّالكين، وبابُ حَضْرَة العارفين. قال: وإن كان الإخلاص عبارة عن تصحيح عقْد التَّوحيد بالتَّنَزُّهِ عن دَنَاءَة الشِّرْكِ فالصِّدْقُ له بمنزِلة التشحرة للذَّهبِ، ينفِي عنه عوارض النِّفاق، ويُصَفِّيهِ من كَدُراتِ الأوهَامِ، وذلك أن الإخلاص لا يَخْلُو من مُداهَنة النَّفْسِ، ومُسامحة الهوى، والصدق يُذْهِبُ المُداهنات، ويَرْفع المسامحات، إذ لا يشُمُّ رائحة الصِّدق من دَاهَن نفسه أو غيره، فيما دق أو جلّ. وعلامتُهُ: اسْتِوَاء السِّرّ والعلانية بحيثُ لا يَسْتَحيي من شَرِّه ولو كُشف لجميع الخَلْقِ ولا يُبالي بسُقُوطه من عَيْنِ الخَلْق قد اسْتوى عنده المَدْحُ والذَّمُّ والعِزُّ والذّلُّ هـ.

والصِّدْقُ على ثلاثِ طبَقَاتٍ: صِدْق أهل البداية، والوسط، وأهْل النهاية. فأما صِدْق أهل البداية، فهو رَفْضُ الحُظوظِ العاجِلة والآجِلة في معاملة الحق، وهذا هو الصِّدق في العُبُودية. وأما صِدْق أهْل الوَسَطِ، وهم السائرُون، فهو تَرْك اللُّحُوظ والالتفاتِ إلى غير المَحْبُوبِ. وأمَّا صَدْق أهْلِ النِّهاية فهو رَفْضُ رُؤْية السِّوى بتحقيق توحيد المولى فالظاهر عبودية والباطن حرية وبالله التوفيق.

وثالثها: الطُّمأنينة؛ وهو سُكُون القلب عند التقلُّب والاضطراب إلى ثَلج النَّفسِ

وشُهُود مُسَبّب الأسباب، وهو على ثلاث طَبَقاتٍ: طُمأنينة ذِكْرٍ، وطُمأنينة قُرْبٍ، وطُمأنينة شهودٍ. فطُمأنينة ذِكْرٍ، هو طُمأنينة القلب بذِكْرِ الله، وهو ناشيءٌ عن شُهُود توحيد الأفعالِ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿28﴾﴾ [الرّعد: الآية 28] . وطمأنينة قُرْبٍ، هو تحقيق المُرَاقبة من القَلْبِ بالأُنسِ من الحبيب. ومناجاة القَرِيب، وهو نَاشيء عن شهُودِ توحيد الصِّفاتِ. وطمأنينة شُهُودٍ، وهو لأَهْلِ التَّمْكين، والرّسوخ في اليقين، وهو ناشيءٌ عن تحقيق توحيد الذّاتِ.

قال في البُغْيَة: وقد تقدَّم لنا أن تَوْحيد الأفعال، وتوحيد الصّفات، وتوحيد الذّاتِ. كُلُّ ذلك راجعٌ إلى اختلافِ مراتبِ التوحيدِ. وإشارة إلى أن بعض هذه المراتِبِ يَسْبِقُ بَعضاً في وُرُودِ معارِفِ ذلك السَّالِك. على المعارف الذَّوقية لأنَّ الإيمان لا يقوم إلاَّ بِعِلم اليقين الذي لا شكَّ فيه، إنَّ الله واحِدٌ في أفعاله، واحِدٌ في صِفَاتِهِ، واحِدٌ في ذاتِهِ، والعلم بهذا لا يتبعَّضُ ولا يتجزَّأ. إنما المراد بأقسام التَّوحيد الثلاثة أنَّ معارفها ذَوْقية، لا ينالها السَّالك دفعةً واحدةً، لكن يَرِدُ عليه أولاً معارف معاني أفعالِهِ تعالى، ثم يرد عليه ثانياً معاني صفاته تعالى، غير معارف أفعالِهِ. كما أنَّ معارف ذاتِهِ غير معارف صِفاتِهِ، لكنَّهُ بالعُثُورِ على معارفِ الصِّفَاتِ يتهيأُ لنَيْل معارفِ الذَّاتِ، والسالِكُ إذا خرق حجاب هَوَاهُ ينفتِحُ له شُعاع من أنوار التوحيد يُدْرك به آثار أفعال الله تعالى في مجاري حُكْمِها، وإبداع تصاريفها، فإذا تمكَّن في ذلك ورسَخت قدمه فيه، انفتحت له أبوابٌ يَطلع منها على حقائق معاني صفاتِهِ بالعلم اللَّدُني، فإذا تمكَّنت أسرار ذلك من الرُّوحِ أوْرَثَ الروح ثباتاً وأكسبها قوّة فأشرَفَتْ على البحر الزَّاخِرِ وبِقَدْرِ تَبَحْبُحِهِ فيه يكون غَوْصُهُ على يواقيت أسراره وجواهِرِ حقائقه، وعند ذلك يَفْنى الوجود بأسْرِهِ ولا يبقى غير موجوده القديم. انتهى المراد منه.

وأمّا منازِلُ الإحْسَانِ، فهي ثلاثة أيضاً.

أوَّلها: المُرَاقبة، وهي كما قال بعضهم: هي مُرَاعاة السِّرّ بملاحظة الحقّ مع كل خَطْرَةٍ، فمَحَلّ المُرَاقبة من الإحسان كمحلِّ الإخْلاص من الإيمانِ. ولما نال القَلْبُ بالطُّمأنينة من العمارة بالله ما قيل للرُّوحِ: قد آن لك أنْ تصفو مشارِبكَ، وتقْرب منك مطالبكَ، فراقِبْ مولاكَ عساهُ يَتولاَّكَ، فتظفر بمُشاهدته فهو حاضِرٌ معك، قريبٌ منك، إنْ صفا سِرُّكَ فهو مَوْضِع نظر الله عزَّ وجلَّ هـ.

وقال بعضُ العارفين: مَن لم يحكي بينهُ وبين الله تعالى المراقبة لم يصل إلى الكَشْفِ والمشاهدة.

وثانيها: المشاهدة، وهي كما قال شيخنا: شهُود العَظَمَة بالعَظمَة. أي بحيث يَفْنَى من لم يكن ويَبْقَى من لم يَزَلْ. فما شاهَدَهُ أحَدٌ سِوَاهُ، ولا عَرَفَ الله إلاَّ الله، قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعَام: الآية 103] أي الحادِثة، إنما تدركُهُ الأبْصارُ القديمة. وفي الحديث القدْسي: «ولا يَزَال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتى أُحِبَّه، فإذا أحْببته كنت سَمْعَه الذي يَسْمع به، وبَصَرَه الذي يُبْصر به، ويَدَه التي يَبْطِش بها، ورِجْله التي يَمْشِي بها». وفي رواية أخرى: «فإذا أحْبَبْتُهُ كُنْته» فحيث يتولَّى العبد مولاه كان أمْرُهُ كله بالله، فينتقل من لام الجرّ إلى باءِ الجرّ. أي ينتقل من العمل لله، إلى العمل بالله. وفي هذا المعنى قال الشيخ أبو مَدْين رضي الله عنه: ما رأيت شيئا إلاَّ رأيتُ البَاء مكتوبة عليه. وقال الشبلي رضي الله عنه: أنا النّقطة التي تحت البَاءِ. يُشير إلى أنَّه به ظهَرَ سِرّ الوحدة التي كانت محجوبة في خزائِن الغيُوبِ. والله تعالى أعلمُ.

وثالِثُها: المعرفة، والمُراد تمكين المشاهدة من القَلْبِ، والخروج من سُكْر الحيْرة إلى صفاءِ المعرفَة، والخروج من عَيْن اليقين إلى حقِّ اليَقينِ.

وقال بعضٌ: المعرفَةُ قُرْبٌ دائِمٌ، وقلبٌ هائِمٌ، فلا يَشْهَد إلاَّ مولاه ولا يعرّج على أحدٍ سِوَاهُ.

وقال الجُنيد رضي الله عنه في وصْفِ العارفِ: عَبْدٌ ذاهِبٌ عن نَفْسِهِ، مُتَّصِلٌ بذِكْرِ ربِّه، قائِمٌ بأداءِ حقِّه، ناظِرٌ إليه بقَلْبِهِ، أحْرَقَتْ قلبه أنوَارُ هِدَايته، وصفا شَرَابُه من كأس ودِّهِ، تجلَّى له الجبَّار عن أسْتار غَيْبِهِ، فإن تكلَّم بالله، وإن سَكَتَ فمن الله، وإن تحرَّكَ فبإذْنِ الله، وإن سَكَنَ فمع الله، فهو بالله ولله ومعَ الله، ومن الله وإلى الله هـ.

وقال في بُغْيَة السَّالِكِ: اعلمْ نَوَّر الله قَلبي وقَلْبك بأنْوَارِ المعارِفِ وحملنا على مِنهاج كل وليٍّ عارف، أنَّ المعرفة هي نهاية مقام الإحسان، وآخر منازِلِهِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعَام: الآية 91] أي ما عَرَفوهُ حق معرفته. وقال الله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المَائدة: الآية 83]. وقال ﷺ: «إنَّ دِعامَةَ البيت أساسُهُ، ودِعامةَ الدِّين المَعْرفة بالله تعالى». ونَعْني بالمعرفة هنا، تمكينُ حال المُشَاهدة واسْتصْحابِها مع إقامة العَدْلِ ومُلازمة الحِكْمَة، وهذا غير ما يطلقه أهل الفِقْه من أنَّ المعرفة هي العلم بالرُّسوم، وإن كان للمعرفةِ عموم يصح أن تطلق على العِلم من حيث هو، لكن أخصّ مقتضياتها المعرفة بالله تعالى، بمعاني أسمائِهِ وصفاتِهِ من غير تفريق بين الصِّفة والذَّاتِ، وهي المعرفة الصَّادِرة من عيْن الجَمْعِ وتُعرب عن الخلاص التام وتفصح عن دوام السِّر مع الله، وتتضمَّن حديث الحق إيّاه، بتصريف أسْراره فيما يجري به من تصاريف أقداره. وإذا تأمَّلت هذه المعرفة وجدتها تشمل جميع المعارف والعلوم. وقد قالوا في حَدِّ المعرفة إحاطة بعيْن الشيء

كما هُوَ. والخَلق فيها فِرَقٌ.

ثم قال في الفَرْق بين العالِم والعارفِ. العالمُ: يُقتدى بهِ. والعارف يُهْتَدَى به. وقالوا: العالم دون ما يقول والعارف فوقَ ما يقول. وحال العارف فوق نهاية المُشاهدة ولا نهاية للعَارفِ إنما ارتقاؤه أبداً إلى ما لا نهاية له، لأنَّ معارف الله عزَّ وجلَّ لا تتنَاهَى، والعارِف يَرْقَى إلى المعارِفِ مُرُور أنفاسه، وتوالي زمانِهِ. وقد قال بعضهم: المعرفَةُ أوّلها قولُكَ: الله. وآخِرها ما لا نهاية له. فَحَسْبنا الإشارة إلى مبادِئها، والعَجْز عن الكشفِ عن كُنْهِ نهايتها. ثم قال:

فَصْلٌ

واعلم أن لمبادىء هذه المعرفة شروطاً وآداباً، إذ نهايتها تَقْضِي بالعجز عن تصويرَها، فضلاً عن الكلام في أحْكامها.

أمّا شُرُوطُها فأربَعَةٌ:

الأوّلُ: القرْبُ الدّائِم، فلا يَشْهَد إلاّ الله، ولا يرجع إلاّ إلى الله، كما أنَّ الغافِل يَرْجع إلى قَلْبه وتفكُره وتذكُره فيما يَصْلح له من أمر أو يستقبله من حالٍ كذلك العارف رجوعه إلى ربّه ذاهِلاً عن قَلْبِهِ وفكره وذِكْره، لأنَّ المعرفة تَقْضِي بتمزيق الرُسُوم، وهو فَنَاء الإشارة، إذ العارف مسْتهلك في مَعْروفِهِ مسْتغرق في شهودِهِ.

الثاني: العجْزُ المؤذن بالإدراكِ، كما قال الصدِّيق رضي الله عنه: العَجْز عن دَرْكِ الإدراكِ إدْراكٌ. وإلى ذلك الإشارة بقول النبي ﷺ: «لا أُحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثْنَيْتَ على نَفْسِكَ». قال ذو النُونِ المصري رضي الله عنه: أعرَفُ النَّاس بالله أشَدُّهم تحيّراً فيه، إنما هو شهُود خَفِيٌّ مِنْ غير إحاطةٍ ولا وقوفٍ على كُنْهٍ ولا حَصْرٍ بمكانٍ ولا زمانٍ، ولا تعويلٍ على تصوّر ولا تفكُر ولا تَدَبُر جلَّ الله وجلَت المعرفة به، وسبحانه عما لا يليق بألوهيته سُبْحانه علوّاً كبيراً.

الثالثُ: المحافظة على مَرَاسم الشريعة، وإقامة الوظائف الرَّبَّانية، اقتداء بإمام العارفينَ وسيّد المقرَّبين الذي تفطَّرت قدماهُ من طول القيام، مع نهاية شهودهِ، وتمْكِين مَعْرِفته وقد ضلّ قوم وزَلَّت أقدامُهُم حين ادَّعوا المعرفة، وقالوا بترك الحركاتِ، ورأوا أنَّ ذلك من بابِ البرّ والتقوى، ولم يشعُرُوا بأن ذلك تعطِيل وكُفرٌ.

قُلتُ: القائلون بتلك الحركاتِ لم يقصدُوا بها تعطيل الشريعة ولا إبْطال الحكْمَة لأنَّ معرفتهم تُنافِي هذا. وإنَّما قَصَدُوا أنَّ العمل إذا صار إلى القُلُوبِ اسْتَراحت الجوارح وركدت، وصار العمل كله قلبياً باطنياً بين فكرة ونظرة وشهود ومعرفة.

فأوقاتهم كلها مَعْمُورة بأعظم الطَّاعاتِ، وهي الفِكْرة التي تَعْدِلُ ساعة منها ستِّين سنةً وقد قال بعض العُلماءِ: كلُّ ليلة عند العارِفِ بمنزلةِ ليلَة القَدْرِ هـ. لكن عبادَتُهُمْ خَفية لا تظهر. ولمَّا انتقل عَمَلُهُم إلى القُلوب، وهو شهود المعاني، والغَيْبَة عن الأوانِي صار اشتغالهم بالعَمَلِ الحسِّي بطالةً ورُجُوعاً من الأعْلى إلى الأدْنَى.

وقول الجُنيد رضي الله عنه: القولُ بإسْقاط الأعمال عندي عظيمٌ. والذي يَسْرِق ويزني أحسن جاهاً عندي من الذي يقول بإسقاط الأعمال، لأنَّ العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ورَجَعُوا فيها إلى الله. هـ مراده. والله أعلمُ.

القول بإسقاط الحِكْمَة وإهمال الشريعة، وهذا كُفْرٌ، ومن تحقق فَناؤه وبقاؤه كان كَامِلاً جامِعاً عَمَله بالله، ومن الله، وإلى الله، شكراً لا حَصْراً.

وقد قال الجُنيد رضي الله عنه في مَوْضعٍ آخر: عمل العارفين تاج على الرؤوسِ .هـ.

الرَّابعُ: صيانَةُ ما حصل عليه من تصفية الرُّوح حتى يَبْقى مُتَخَلِّقاً بأخْلاقِ الحقِّ، فيكون خليفة على الحقيقة فلا يتحرَّك ولا يسكُن ولا ينطق ولا يَصْمُت إلا بالله ولله. وعن الله وفي الله، وإلى الله ومع الله حتى أنَّ لسانَهُ لصامت عن الحقائق وأفعاله وأحواله تشير إليها، فهو بالله من حيث تَوْلِيَتُهُ له، ولله من أجْلِهِ لا من أجْلِ حظٍّ، ومع الله من حيثُ المُشاهدة، وفي الله من حيث التَّكْليف. هـ.

وأمَّا آدَابُها، أي المعرفة، فأربعَة:

الأولُ: إعْطَاءُ الحِكْمَة أهلها، ومنعُها من غير أهْلِها. كما ورد في الحديث: «لا تُعطوا الحِكْمَة غير أهلها فَتَظْلِموها، ولا تَمْنَعُوها أهلها فتظلِمُوهُمْ». قُلْتُ: وقد أشار بعض الأُدَباءِ إلى هذا المعنى، فقالَ:

لأكْتُمُ عِلْمِي عن ذَوِي الجَهْلِ طاقَتِي ... ولا أنْثُرُ الدُّرَّ النَّفيسَ على البُهَمْ
فإن قَدَّرَ اللّه الكَريمُ بلُطْفِهِ ... ولَقَيْتُ أهلاً للعُلوم ولِلْحِكَمْ
بَذَلتُ عُلُومي واستَفَدتُ عُلُومَهُمْ ... وإلاَّ فَمَخْزون لَدَيَّ ومُكْتَتَمْ
فمَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلماً أضاعَهُ ... ومَنْ مَنَعَ المُسْتَوجِبِينَ فقدْ ظَلَمْ

وقال بعضُهُم: سكوتُ العارف أنْفَعُ، وكلامه أشْهَى وأطيَبُ، ورأس الحِكْمَة مُخاطبَة النَّاس على قَدْرِ عُقُولهم.

الثَّاني: التزام الأدَبِ في كل شيءٍ، مع الله عزَّ وجلَّ، وأعْظَم الأدَب معه حفظ أسْرار الحقِّ، صيانة عن الخَلْقِ، فهو مع الخلق بِرَسْمِهِ، ومع الله بالله. كما قال بعضهم

وقد سُئِلَ عن العارف فقال: العارف في نَوْمِهِ ويقظته لا يرى غير الله ولا يُرَافق غير الله، ولا يُطالع غير الله. وعِنْدَ العارفِ من الاتِّسَاع ما يلبّس به الحقائق بالرُّسُومِ؛ فهو في وَادٍ وهُمْ في وَادٍ.

الثالث: مُلازمة الهَيْبَة والصعود إلى غايتها. فإنَّ الهَيْبَة من أماراتِ المعرفة، كلما ازدادت معرفته زادَتْ هَيْبَتُهُ، وقَدْ يُعَبّر عن الهَيْبَة بالخَشية. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية 28] . وقال النبيُّ ﷺ: «أنا أعْرَفُكُم بالله، وأنا أشَدُّكُمْ له خَشيَةً». فإن قُلْت: كلامك يشير إلى أنَّ المَعرفة مَحوٌ مُطْلق، والمَحوُ المُطْلق فَنَاء عن الرُّسُوم والصِّفات، والهَيْبة من الرسومِ والصفات، فالجوابُ: أن العارف وإن كان بهذه المثابَة من الاسْتِغراق في مَعْروفِهِ والاستهلاكِ في مُوجِدِهِ لوُجود شهودِهِ فمن علامات قرْبِهِ وإن اختطف عن إحساسِهِ، أن تَبْقَى رُسُوم الأدَبِ مَحْفُوظة عليه، بحِفْظِ الله تعالى إيّاها عليه وإقامته فيها مقام الحَمْلِ، فيكون سرّه مسْتغرقاً في شهودِهِ ورسْمه قائماً بوظائف معبوده.

الرّابع: الصعود أبداً إلى الغاية فلا يقنع من الله تعالى بحالِ وَقْتِهِ، كما لا يقف عن السَّيْرِ إليه. وكلما سنح له من الطباع البشرية سانِحٌ أخْمَدَ ناره بنور مَعْرفتِهِ، تنزيهاً عن مُقتضيات الطباعِ وجَرْياً في ميدان المَعْرِفة على العِيَانِ، فهو يَرْقَى أبَداً من حالٍ إلى حَالٍ، ومن مَنْزِلٍ إلى منزلٍ. وبالله التوفيق.

ذِكْرِ ثمَرَاتِ المَعْرِفَةِ ونتائِجها

اعلَمْ أنَّ الرُّوح إذا كَمُل صفاؤُها، ورسَخَتْ أقْدَامُها في مَعْرِفة الحقّ، اتَّصَفَتْ بإحْدى عشرة خِصْلَة حميدة، تترقَّى بها عن إحْدَى عشرة صفة دُونَها، وإلى هنا انْتَهَى العِلْم، بما يَرْقَى العارف إليه، ويرقى عنه. ووراءَ ذلك من الأسْرارِ اللطيفة والحقائق الدَّقيقة ما يَجِلُّ عن البيَانِ.

الصِّفَةُ الأولى: الحرية؛ ومعناها: أن يكون العارفُ فَرْد الفَرْدِ، من غير أن يكون تحت رقِّ شيْءٍ من الموجودات لا منْ أغراض الدنيا ولا من أغْرَاضِ الآخِرة. فالحُريّة عبارة عن غايَة التصْفية والطَّهارة، فالمُكاتب عَبْدٌ ما بقي عليه دِرْهَمٌ. قال بعضهم: ليس بِحُرٍّ من بقي عليه من تَصْفية نَفْسِهِ مقدار فَصِّ نَوَاةٍ.

الثّانية: وهو الفَوْزُ بحقيقة الإيثار في الأصْلِ، وهو عبارة عن إدراكِ مقام تضمحِلُّ فيه الرُّسُوم بالاستغراق في الأوّلية والآخِرية. والظاهرية والباطنية، وبذلك تَرْقى الرُّوح إلى مقام تضمَحِلُّ فيه ظِلال الأوهام عند سُطوع أنوار الحقائق.

الثالثة: الجمع الأتَمُّ، وهو الذي يُعَبِّرُون عنه بجمْع الجَمْع، الذي يقضي بقطع الإشارات والشخوص عن الأمارات والمعاملات بعد صحَّة التمكين، والبراءة من التلوينِ. وبذلك تَرَقَّى الرُّوحُ عن شُهُود غير الله في شهودِ الجَمْعِ.

الرَّابِعة: الصَّحْوُ، وهو عبارة عن تمكين حالِ المشاهدة واتِّصالها مع برْءِ الرُّوح من لدَغاتِ الدَّهْشِ، وترويحه من ضغطة صدَماتِ التلف. ولا ينال كمال الصَّحْو إلاَّ بِحيَاة الرُّوح بوارِدِ الجمع ولوائح الوجودِ. وذلك بِرُقِي الرُّوح عن الدَّهش المُذْهِل عن التمكين من مطالعة جمال الحَضْرَة.

الخامِسَةُ: التحقيق، وهو الوصول إلى المعرفة بالله، الذي لا تدركُهُ الحواس، لتخليص المشرب، من الحق بالحقِّ، حتى تسْقط المشاهدات، وتبطل العباراتِ، وتفنى الإشارات. ولذلك قالوا: مَنْ عَرَفَ الحقَّ كَلَّ لسانُهُ.

وقال في الحِكَم: ما العارف من إذا أشار وجَدَ الحق أقرب إليه من إشارته، بَلِ العارف من لا إشارة لَه لفنَائِهِ في شُهُودِهِ وانْطِوَائِهِ في وُجُودِهِ. هـ. وذلك برُقيّ الروح عن الحَيْرَة إلى شهود أنوار الحقائق صافية مُسلَّمَةً حين تشرق أنوار المَعْرِفة على ضَمْضَام[1] البشرية، لأنَّ سبب الحَيْرة هي ظلمة وُجُودك ولوْث حدُوثِكَ، فإذا ذَهَبَتْ ظُلْمة وجودِكَ، بوجودِ الحقِّ واضْمَحَلَّ لوْث حدوثِك بتغطيته بوصْفِ مَعْبُودِكَ ذهَبَتِ الحَيْرة وتمَكَّنَتِ الرُّوحُ من المَعْرِفَة.

السَّادِسَةُ: البَسْطُ، ونعني به بَسْطَ الرُّوح، باسترسال شهودِ المعاني، عند تصفيتها من شهودِ حِسّ الأوانِي، لأنَّ كأس المعاني حُلْوُ المذَاقِ، فكل من صَفَا مشربُه دَامَ بَسْطه وفَرَحُهُ.

وفي الحِكَم: ما تَجِدُهُ القُلُوبُ من الأحْزَانِ فلما مُنِعَتْ من الشُّهُودِ والعيانِ ولا بُدَّ من حِفْظِ السِّرِّ في هذا المقام، لأنَّ البَسْط مزَلة أقْدَام، وصاحِب هذا المقام عَلَمٌ في طريق الإرْشَادِ، وإمامٌ يَهْتَدي به جميعُ العبادِ؛ ومصْباح يسْتضيءُ بنُورِهِ السَّالكُونَ ويقطف من ثمارِ حِكْمَتِهِ الوَاصِلُونَ. وذلك تَرْقى بالرُّوحِ عن وارداتِ القبْضِ المستمَدِ من الطَّبْعِ.

السَّابِعة: التَّلبِيسُ، والمراد به تغطية الأسْرارِ، بأسْتار الأسباب، إبقاءً على الكافَّة خَوْفاً من التَّعالي والفتنَة. وتوْفيةً لحقِّ الحِكْمَة. وذلك من خواصِّ الأنبياء، ثم بعدهم للأئمَّة الرَّبَّانيين الذين يُرَبُّون السالكين بصِغَار الحِكْمة، قبل كبيرها. وذلك يرقى بالرُّوحِ

(1) الضَّمْضَامُ: الذي يَحتوي على كلِّ شيء.

عن إطلاقِ العبارات بما لا يَحْمِلُهُ عقل كل إنسانٍ.

الثَّامِنة: البَقَاءُ، والمراد به الخُروجُ من فَنَاءِ المشاهدة إلى بقاءِ المعرِفة من غير أُفُول يَخِلُّ بشمس المشاهدة ولا رُجوع إلى شواهِدِ الحسِّ إنما هو اسْتصحاب الطَّرَب، مع استيناس الرّوحِ، فهو كما قالوا كبَائِنٍ دَانٍ، أي كبعيدٍ قَرِيبٍ. وذلك يرقى بالرُّوحِ عن الضُّعف عن حَمْل واردات الحقّ.

التَّاسِعَة: السِّرُّ، وهو قَرِيب من التلبيس، لكن التلبيس أقْوَى، لأنه سَتْر حسام الجَمْعِ في قراب التَّفرقة إبْقاءً على الكافَّة، بالسَّلامة من الحَيْرَةِ، والجمع بين الجَمْع والتفرقَة أمْرٌ صَعْبٌ. وأما السِّرُّ فهو أضْعَف، لأنَّ صاحِبَه يشير إلى مَنْزِلٍ وهو في غيره، فمنفعة هذا قاصِرةٌ على نفسه لحِكْمة حكم بها الحكيم العليم، بخلافِ صاحِب التَّلْبيس إذ قد قيَّضهُ الله لمَنْفَعَة عِبادِهِ وذلك يَرْقَى بالرُّوح عن ضَيْق البَوْحِ الهاتِكِ لستْرِ السّرّ القادح في الغَيْرة.

العاشِرة: الاتِّصَالُ، وهو اتّصال الوجود بتوالي الجَمْع، لكن لا يُدْرِكُ هذا الاتّصال بوَصْفٍ ولا يُنال بجَدٍّ، إنما هو سِرٌّ لا تكْشِف عن مُسَمَّاهُ العبارة، وإن أومأتْ إلى نحوه الإشارة. وذلك يَرْقَى بالرُّوح عن وَهَنِ الانْفِصالِ ويتهيَّأ للخروج عن ظلمة الكَوْنين إلى أنوار المعرفة.

الحادية عَشَرَ: الحِكْمَةُ، وهي التي هبَّتْ بها أرياح التخصيص، واسْتنشقتها أهل الولاية فأوردتهم موارد التحقيق، وألْبَستهم خِلَعَ المعارف وأظْفَرتهم بذخائر الأسْرار، ومَرْجِعها إلى إتْقانِ العِلْمِ والعملِ، الذي هو مُحَصِّل مقام الإحْسانِ، ولا تكون إلاَّ لعارفٍ وارثٍ، وذلك يَرْقَى بالرُّوح عن التَّضْميم بالغَيْرةِ إلى دلالة الخَلْقِ على الله عزَّ وجلّ. وبالله التوفيق. قاله السَّاحلي بالمعنى مع زيادة عليه.

كَيفِيَةُ الذِّكْرِ في هذه المَنَازِلِ

ذكَرَ في بُغْيَة السَّالِكِ أن أهْلَ التَّوبة والتَّقوى والاستقامة من مقام الإسلام، ذِكْرُهُم النَّفْي والإثباتُ. وكذلك أهْل الإخْلاصِ والصِّدْق من مقام الإيمان، ذِكْرُهمْ لا إلٰه إلا الله حتَّى يُمْتَحَى صُوَر الأشياء من قلوبهم، وتَحْصلُ لهم الطُّمأنينة بالله أو بِذِكْرِهِ، فحينئذ ينتقلون إلى الاسم المُفْرد، فيذكرهم في حال الطمأنينة، والمراقبة، والمشاهدة والمعرفة حتى إذا تمكَّن في بِحَارِ المعرفة، وحصل له لُبَابُ سرِّ التَّوحِيد حُصُولاً راسِخاً وانكشف له من معناه أنْوَار الحقائق متَّصلة مُعْرِبَة عن المعارف الإلٰهية، حتى أن جميع ما احتوَتْ عليه المَمْلكة من الوجودِ، ناطقها وصامتها، متحركها وساكنها، جامِدِها

ومائِعها، حيّها وميّتها، ظاهِرها وباطنها، من العَرْشِ إلى الفُرْش، كلُّ ذلك مُستحضرٌ عنده يُعْرِب كل جَوْهر فرْدٍ منه عن لُبابِ سِرِّ التَّوحيد، فهو ذاكِر بحركاته وسكناته، ولحظاته وخطراتِهِ. فالغَيْبَة عنه غايتها الحُضور معه، كذلك جميع الأذْكَارِ وإن اختلفَتْ كيفياتُها وسائر الكلام وإن تبايَنتْ معانيه، ما من حَرْف ولا شكلَةٍ ولا نُقْطَة إلاّ وهو يُفْصِحُ عن لُبَابِ سِرِّ التَّوحيد، فالحالات عندهُ واحِدة، والأذكار لديْه مُتساوية، فالعارف وإن كان هو مَعْدن الذِّكْرِ وسِرُّهُ ولُبَابه، فهو يَجْري فيه جَرْيَ الماءِ في الأغصانِ، من غير تحريكِ لسانٍ، ولا تكلّف جَنانٍ. ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ [النّمل: الآية 88] وكما اتحدتْ في المعارف الأحوال، وتساوَّت عنده الأذكار اتَّسَعَتْ له دائِرَة العُلُوم ووَسِعَ قَلْبَهُ نتائِجُ الفُهومِ. فالعارف إكْسِيرُ العالَم، بل إكْسِير الوُجودِ، منه تَسْتَمِدُّ الأكوان لأنّه صار قطبُ الزَّمانِ، فهو كَعْبَةٌ لِجَمْع شملها، تستمدُّ منه جميع الأنوار، وترد عليه المعارف أفْواجاً بعد أفواج، وتتراكم عليه الحقائق أمواجاً بعد أمْواج، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقولِهِ: العارِفُ هو الذي لا يُكدِّرهُ شيءٌ ويَصْفُو به كَدَر كل شيءٍ. قالوا: ومُعاشَرَةُ العارِف كمُعاشَرَةِ الحقّ، يَحْتملك ويخلم عنك، لأنّه مخلق بأخلاق الحقّ. قالوا: وهو كالمَطَرِ ينتفِعُ به كل شيءٍ أصابَهُ. وقالوا أيضاً: كُنْ مع العارفِ كيف شئت. وقالوا أيضاً: العارِفُ كالأرْضِ يطأه البرّ والفاجر ولا يفرق بينهما إلى غير ذلك من الأخْلاق الحسَنَةِ التي ورثَهَا مِنَ الحَضْرَةِ النَّبوية، حققنا الله بها بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

تَنْبِيهٌ: ما ذَكَرَهُ السَّاحِلي من التفصيل في الذاكرين الهَيْلَلَة، والمُفْرَد، هو طريق الأقدمين. والذي أدْركنا عليه أشياخُنَا هو التفصيل في المريدينَ، فمن ظهرتْ عليه آثار العناية من الجدّ في طلب الحقّ، وكانت عَيْنه حمراء في الوصول إلى الغايات، لُقِّنَ الاسم المُفرد في أوّل بدايتِهِ لكن طريق الشَّاذلية مُخْتَصَرَة أوّل قَدَم يضعه في مقام الإحْسانِ، وإن كان لا يَشْعُرُ إنْ سقط على شيْخ التربية فيها. ومن ظهرت عليه أمارات التبرك والاحترام بالطريق لقّن الهَيْللة والصلاة على رسول الله ﷺ وتلاوة القرآنِ، حتى يظهر عليه ما يُحرّكه إلى النُّهوضِ، وحينئذ يلَقّنُ المُفْردُ، استعمالُ ذِكر الاسم المُفرَد أمرٌ مُجمَع عليه عند الصُّوفية.

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: هو سلطان الأسْمَاءِ. وقال الشيخ الميومي: ثمرته الوصول إلى معرفة الذَّاتِ. ولما ذَكَرَ الشيخ ابن جُزَي ثمرات الأذكار قال: وثمرة اسم الجلالة يجمع تلك الثمرات كلّها ولا عِبرة بمن أنكَرَه من الفُروعية المتجمِّدِين لأنّهم لم يعرفوا قَدْرَهُ ولم يَذُوقوا ثَمَرته. وقولهم: إنه ليس بكلام، مرْدودٌ فإنَّهُ خَبَرٌ عن مُبْتدأ مُضْمَرٍ، يُقَدِّرهُ السَّالِكُ ضَمِيرُ الغَيْبَة، والمجذوب ضمير التكَلُّم.

والصاحبي خِطابٌ أو تكلُّمٌ. والله تعالى أعلم.

ذِكْرُ مقاماتِ المُقَرَّبين

وهي اثنا عَشَرَ مقاماً على عدد بُرُوج الشمس والقمر، يَسير فيها العارف كما تسير الشمس في بُرُوجها، وهي: التَّوْبة، والخَوْف، والرَّجاء، والورع، والزُّهْد، والصَّبْر، والشكرُ، والتَّوكل، والرِّضى، والتَّسليم، والمُراقبة والمحَبَّة.

أمّا التَّوبة: فهي الرُّجوع عن كل وصْفٍ دَنِيءٍ، والتحلّي بكل خُلُقٍ سَنِيّ، ولها ثلاثة أركانٍ: النَّدَمُ والإقلاعُ وعدم الإصْرار، وأما رَدُّ المظالِمِ فهو فَرْضٌ مستقل تصحُ التوبة بدُونِهِ، ويُعاتب على تَرْكِهِ أو يتحمَّلُ الله عنه إنْ صَحَّت تَوْبته، ولها آدَابٌ: الاجتهاد في أعمال البِرّ جَبْراً لما فاتَ. وكثرة التضرُّع والاسْتغفار، والصلاة على النبيّ المختار، وصحبة الأولياء والأبْرار، ومجانبة الغَافلين والفُجّار، وقد تقدَّم تقسيمها في ذِكْرِ المنازِل.

وأما الخوفُ: فهو قَبْض القَلْبِ، من هيْبَة الرَّبِّ، أو إحجام القَلْب عن مخالفة الرَّبِّ، وهو على ثلاثة أقسام: خوف العوام، وهو خوف العقابِ، وسوءِ الحسابِ، وخوف الخواصّ: وهو خوف الوقوف، والرجوع إلى المألوفِ، وهو من علامة الإهمال. وخوف خواصّ الخواصّ، وهو خَوْف الحجبة بعد الوَصْلَةِ والبُعْدِ بعد القُرْب الناشئان عن سُوءِ الأدَبِ. والله تعالى أعْلَمُ.

وأمّا الرَّجاءُ: فهو تعلُّق القلب بأمْر يحصل في الآجِلِ، مع الأخذ في العمل المحصِّل له في العاجِلِ، أو طمع يصحبه عَمَل في المطمُوع فيه، لأجْلِ تَحْصِيله، وإلاَّ فغُرورٌ وأُمْنية، وهو على ثلاثة أقْسام: رَجَاءُ العوام، وهو الطمع في حُصُول نعِيم الأشْباحِ، ورجاء الخواصّ، وهو الطَّمَع في حُصُول نَعيم الأرواحِ، وهو رضَى الحبيبِ، والقرْب من القريب، ورجاء خواصّ الخواصّ، وهو الطَّمَع في نعيم الأسْرار، بشهُودِ الكريم الغفَّارِ على سبيل الدَّوام والاستمرار. والخوفُ والرجاءُ معْتدلان عند العارفِ لا يزيدان بزيادةِ الأعمالِ ولا ينقصانِ بنقصِها، لأنَّهما ناشِئانِ عن شُهودِ جلال الحبيب وجَمَالِهِ، وهُمَا لا يتغيَّران بخلافِ العوامِ، فرجاؤهم ناشِيءٌ عن العمل الصَّالح يزيد بزيادتِهِ، وينقص بنقصانِهِ، والله تعالى أعْلَمُ.

وأمَّا الوَرَعُ: فهو تَرْكُ ما يُكدِّر القَلْب، ويُوجب سُخْط الربِّ. أو الخروج من كل شبْهَة ومُحَاسبة النفس مع كل طرفة، أو تَرْك المتشابه والحرَام جُزْء منه يعدل أمْثال الجبالِ من الصَّلاة والصيام، وهو في اللِّسَانِ أشدُّ منه في الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وهو على

ثلاثة أقسام: وَرَع العوام، وهو تركُ المتشابه والحرام، وورَع الخواصّ، وهو تركُ ما يُغيِّر القلوب، ويوجب البُعد من المحبوب. وورع خواصّ الخواصّ وهو تركُ الأخْذِ من يَدِ المخلوقِ بالنُّزُوعِ عن الحُظوظ إلى الحقوق. أو تقول: هو صحَّة اليقين، والتَّعلّق برب العالمينَ، ووجود السكون إليه وعكوف الهِمَمِ عليه، وطُمأنينة القلب، حتى لا يكون له رُكونٌ إلى شيءٍ من السِّوَى.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: الوَرَع نِعْمَ الطريق لِمَنْ عجَّلَ ميراثه، وأجَّل ثوابَهُ. فقد انتهى بهم الوَرَع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعَمل لله وبالله، على البيّنة الواضحة، والبصيرة النَّافذة، الخ كلامه رضي الله عنه.

وأمَّا **الزُّهْدُ**: فهو عُزُوفُ القلب عن التَّعلق بالفاني، أو نَفْضُ يدِ القَلْب من التَّعلُّق بغَيْرِ الرَّبِّ، أو بُرُودة الدّنيا من القَلب وعدم الالتفاتِ إليها، أو ترك ما زاد على الحاجة. وهو على ثلاثة أقسامٍ: زُهْد العَوَامِ في الذَّهب والفضَّة وما يَنْشأ عنهما، وزُهْدُ الخَوَاصِّ في كلِّ ما يحبس عَن السَّير من العلائق والعوائِقِ مثل الجاهِ ونَحْوِهِ، وزُهْدُ خواصِّ الخواصِّ وهو تَرْكُ السِّوى بأسره عاجِلاً أو آجِلاً، وبالله التوفيق.

وأمَّا **الصَّبْرُ**: فهو حَبْسُ القَلْبِ، على حُكْم الرَّبِّ، أو تجرُّع المَرارة من غير تَعْبيس أو تَلَقِّي البَلاءِ بالرَّحْبِ والفَرَح، وهو في الطلب عنوان الظَّفْرِ، وفي المِحَنِ عنوان الفرجِ، وهو من الإيمان، كالرأس من الجَسَدِ. ويكون في أربعة مواطِن: عِنْد البَلية وفي وُرُود النِّعْمَة، وفي تركِ المعصية وفِعْل الطاعَةِ. وهو على ثلاثة أقْسامٍ: صَبْر العوام، وهو حَبْس النَّفْس على ما تكرهُ، وصَبْرُ الخواصّ وهو حَبْسُ القلبُ على الحُضُور مع الرَّبِّ في كلِّ نَفَسٍ. وصَبْر خواصِّ الخواصّ وهو حَبْس السِّرِّ على شُهُودِ المعاني وحبْس الرُّوح على التَّأدُّب مع الحبيب في كُلِّ مَظهَرٍ. والله تعالى أعْلَمُ.

وأمَّا **الشُّكْرُ**: فهو اعتراف القَلْب بالنِّعَم، ورَدّها إلى المُنْعم بها على وجه الخضوع والاستِكانة. وهو على ثلاثة أقْسام: شكْرُ العوام، وهو الشُّكر باللِّسَانِ، لأجل ما حصل له من مُتْعة النَّفْسِ ورَاحة البَدَنِ. وشكر الخواصّ، وهو الخِدمة بالأركان لأجْلِ ما حصل للقَلْبِ من الفَرَحِ بإقبال الكريم المَنَّان. وشكر خواصّ الخواصّ، وهو فرح الزوح بالمُنْعِمِ دون الالتفات لشيء دونه. وعلامتهُ: دوام شكره في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ لاسْتغراقه في شهودِ المُنْعم، دون قَيْد وُجُودِ النِّعَم، والله تعالى أعْلَمُ.

وأمَّا **التَّوَكُّلُ**: فهو ثقة القَلْب بقيام الرَّبِّ، أو أن تكون بما في يدِ الله أوْثق منك بما في يَدِكَ. والتعلق بالله والتعويل عليه في كل شيْءٍ علماً بأنه عالِم بكِل شيءٍ، أرْحم بك من كل شيْءٍ، وهو على ثلاثة أقسام: توكُّل العوام، وهو أن يكُون مع الحقّ

كالموكِّل مع الوكيل الصديق الملاطفِ، وتوكل الخواصّ، وهو أن يكون مع الحقّ كالطفل مع أُمّهِ لا يعوّل إلاَّ عليها ولا يَلْتَجِيء إلاَّ إليها إذ لا يعرف غيرها في باب المَبَرَّةِ والإحسان. وتوكُّلُ خواصّ الخواصّ، وهو أن يكون مع الله كالميِّت بين يدي الغاسِل، لا يُريد شيئاً ولا يُدَبِّر شيئاً ولا يعتمد على سببٍ، ولا يحتاج إلى طَلَبٍ، ومن كان هكذا، قامَ الله عنه بأموره كلها، قبل أن يَهْتَمَّ بها. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلاق: الآية 3] أي كافِيهِ.

وأمّا الرِّضَى: فهو تَلَقِّي مَوَارِد القَدَرِ بالفَرَحِ والسُّرُور. وقيل: تَلَقِّي المهالِكِ بوجهٍ ضاحِكٍ. أو سُرُور القلب عند حُلُول القضاءِ، وترْكُ الاختيار على الله فيما دبَّرَ وأمْضى، أو شرْحُ الصَّدْر ورفع الإنْكَارِ لما يَرِدُ من قبل الواحِدِ القهَّارِ. وهو على ثلاثة أقسام: رضى العوام بالمجاهدة، بعد حُصُول المُنازعة، ورضى الخواصّ بالمجاهدةِ عند الصَّدْمة الأُولى. ورِضَى خواصّ الخواصّ بالمُشاهدة للحبيب عند نزولِ القدرِ، فهُم راضُون عن الله في كل حالٍ وفي كل زمانٍ، قائلين بلسانِ الحالِ والمقال، حبيبي ومحبوبي على كلِّ حالةٍ. وكما قال في العَيْنِيَّة:

تَـلـذُّ لـي الآلامُ إنْ كُـنْـتَ مُـسْـقِـمِـي   وإنْ تَـخْـتَـبِرْنِـي فَـهـيَ عِـنْـدِي صَـنَـائِعُ

وأمّا التَّسليم: فهو ترْكُ المُنازعة فيما دبَّرَ وأبْرَمَ، علماً منك بأنَّه أعْلَم وأحْكَمُ أو تَرْكُ التَّدْبير والاختيار بالسُّكُون تحت مجاري الأقدار. والرّضى أعظم منه على الحَدِّ الأوَّلِ، ومُرادف على الأخير، وهو على ثلاثة أقسام: تسْليم العوام بالعلم دون العملِ، وتسْليم الخواصّ بالعَمَلِ دون الذَّوْقِ، وتسليم خواصّ الخواصّ بالذَّوْقِ والحَالِ. فهم في عُمُوم أوقاتهم لا يُدَبِّرون ولا يختارُونَ قد هَجَم عليهم اليقين، وسكنوا إلى حُكْم ربّ العالمين، إذ ما تَرَكَ مِنَ الجَهْلِ شيئا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظْهَرَه الله. وبالله التَّوفيق.

وأمّا المُرَاقبَةُ: فهي: شهُودُ قرْب الحبيب، والتأدُّب بين يدي القريب. أو إدامة علم العَبْدِ بإطلاع الربّ، والقيامُ بحقوقِ الله سِرّاً وجهراً خالِصاً من الأوْهام، صادِقاً في الاحترام، وهي أصل كل خَيْرٍ، لا يُتوصَّل إليها إلا بمحاسبة النَّفْسِ وإصلاح الوقت، فمن لا مُراقبة له لا مُشاهدة له وهي على ثلاثة أقسام: مُراقبة العوام بحفظ الجوارح من المخالفةِ والآثام. ومُرَاقبة الخواصّ بحفظِ القُلُوب من الخَطَراتِ والغفلاتِ والرّكون إلى الرُّخص والتأويلات، ومُراقبة خواصّ الخواصّ بِحِفْظِ السّرِّ من شُهُود الحِسّ، أو بحفظ الرُّوح من شهودِ الفَرْقِ. والله تعالى أعْلَمُ.

وقد تقدَّم الكلامُ على مقامِ المشاهَدَةِ في ذِكْرِ المنازِلِ، وبالله التوفيق.

وأمّا المحَبّة: فهو أخْذُ قَلْبِ العَبْدِ إلى التّعلق بالرَّبِّ أوْ مَيْلٌ دَائِم بقَلْبٍ هَائم، أو مُشاهدة الحبيب في الحُضُور والمَغِيب، أو مَحْو الحُجُب بصفاتِهِ، وإيثار المحبوب بذاتِهِ أو مُوَاطأة القَلْبِ لمُرَادِ الرَّبِّ أو خَوْف تَرْك الحُرْمة مع إقامة الخِدْمَةِ أو اسْتِقلال الكثير من نَفْسِكَ واستِكْثار القليل من حَبيبك، أو مُعانقَة الطَّاعةِ ومُجانبة المُخالفَةِ.

وقال الشِّبْلي: أنْ تغارَ على المَحْبُوب أن يُحبَّه مثلك، وهي على ثلاثة أقْسام: محَبّة العوام في مُقابلة الإحْسان، ومحبّة الخواصّ في مُقابلة الهِداية والتَّقْريب، ومحبّة خواصّ الخواصّ في غير مُقابلَة. بل ناشئة عن شُهُود جمال الذَّاتِ وكمال الصّفات، وتكُون أوّلاً كسْبية بصُحْبَة أهل المحبّة الكاملة، ثم تكون وهبية برفع الحِجابِ وفتح البابِ، وهذا الذي قصدت رابِعَة العدوية بقولها: أُحُبك حُبّيْن: حُبَّ الهَوَى وحبّاً لأنك أهلٌ لذلِك. فأمّا الذي هو حُبّ الهوى فشغلِي بِذِكْراك عمَّن سِوَاك، وأمّا الذي أنت أهلٌ له فكشفُكَ للحُجُبِ حتّى أرَاك، ولها علامات: الإكثار من ذِكْر المحبوب لأنَّ مَنْ أحَبَّ شيئاً أكْثر من ذِكْرِهِ بِقَلْبِه وبلسانه، وامتثال أمْرِهِ، واجتناب نَهْيِهِ. كما قال الشاعر:

تَعْصِي الإلَه وأنْتَ تُظهر حُبّهُ ... هذا مُحال في القِياس بَديعُ
لَوْ كان حبّك صادِقاً لأطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

والاستِسْلام لقَهْرِهِ إذ كُلُّ ما يَرِدُ مِنْ قِبَلِ الحبيب حبيبٌ، والله تعالى أعْلَمُ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشّاذِلي رضي الله عنه: المحبّة أخْذة مِنَ الله لقلب المؤمن عن كلِّ شَيْءٍ سوَاه، فترى النَّفْس مائلة لطاعتِهِ والعقل متحصناً بمعروفه، والروح مأخوذة في حَضْرَته، والسرّ مغموراً في مُشاهدتِهِ، والعَبْد يسْتزيد من حبِّهِ فيزداد، ويُفاتح بما هو أعْذَب من لذيذ مُناجاته، فيُكْسَى حُلَل التقريب على بِساطِ القرْبَة، ويمسُّ أبكَارَ الحقائق، وثيِّبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا: أوْلِيَاء الله عَرَائِس ولا يرى العرائس المجرمون قال له القائِلُ: قد عَلِمْت الحبَّ، فما شَرَاب الحبّ وما كأسُ الحبّ؟ وما السَّاقي؟ وما الذَّوق؟ وما الشرْبُ؟ وما الرّيُّ؟ وما السُّكْرُ؟ وما الصَّحْوُ؟ قال: الشَّرَاب هو النُّورُ السَّاطِعُ من جَمَالِ المَحْبُوبِ، والكأسُ هو اللُّطفُ المُوَصّل ذلك إلى أفواهِ القُلُوبِ. والسَّاقي: هو المتولي ذلك للخصوص الكبراء، والصالحين من عبادِهِ، وهو الله العالم بالمقادِير ومصالح أحْبابِهِ، فمن كُشف له عن ذلِك الجمال أو حُظِيَ بِشَيْءٍ منه نَفَساً أو نَفَسَيْنِ ثم أرْخى عليه الحجاب، فهو الذَّائق المشتاق ومَن دَام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشَّارِب حقّاً، ومَنْ توالى عليه الأمْرُ ودَام له الشرب حتى امتلأت عروقهُ ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلِكَ الرّيُّ. وربّما غابَ عن المحسوس والمَعْقُولِ فلا يَدْري ما يُقال، ولا ما يَقُولُ، وذلك هو السُّكْرُ،

وقد تدورُ عليه الكاساتُ وتختلف لديهم الحالات ويُرَدُّونَ إلى الذِّكْر والطَّاعات، ولا يحجبُون عن الصِّفات ثم تزاحم المقدورات فذلك وقتُ صَحْوِهِمْ واتساع نظرهم، ويزيد علمِهِمْ، فهم بنجوم العِلْم وقَمَر التوحيد يهتدُونَ في لَيْلِهِمْ، وبشموس المعارف يستضيئُون في نهارِهِم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: الآية 22] .

وقال القطْبُ الشيخ عبد السَّلام بن مشيش رضي الله عنه: المحبَّة أخْذَة من الله قَلْبَ من أحَبَّ بما يكشف له من نور جمالِهِ، وقدس كمال جلالِهِ، وشَرَابُ المحبَّة مَزْجُ الأوصافِ بالأوصافِ، والأخلاق بالأخلاقِ، والأنوار بالأنوَارِ، والأسماء بالأسماءِ، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال، ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عزَّ وجل، والشربُ سَقي القلوبِ والأوْصَال، والعروق من هذا الشرابِ حتى يَسْكُرَ، ويكون الشرابُ بالتدريب بعد التدريب والتهذيب فيُسْقى كلٌّ على قَدْرِهِ، فمنهم من يُسْقَى بغير واسطةٍ، والله سُبْحانه يتولَّى ذلك منه له، ومنهم من يُسْقى من جِهَة الوسائِطِ كالملائكة والعُلَماءِ والأكابر من المُقرَّبين، فمنهم من يسكر بشهُودِ الكأسِ، ولم يَذُقْ بَعْد شيئاً، فما ظنُّكَ بعد الذَّوْق وبعد الشُّرْب وبعد الرِّيِّ، وبعد السكر بالمشروب ثم الصَّحْوُ بعد ذلك على مقادير شتَّى، كما أنَّ السُّكر أيضاً كذلك، والكأسُ مِغرَفَةُ الحقّ، يغرف بها من ذلك الشَّرَاب الطَّهور المَحْض، الصافي لمن شاء من عبادِهِ المخصوصين من خَلْقِهِ، فتارة يَشْهَد الشَّاربُ تلك الكأس صورة، وتارة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها علمية، فالصُّورة حَظُّ الأبدانِ والأنفس، والمعنوية حظُّ القلوب والعُقُول، والعلميةُ حظُّ الأرواحِ والأسْرار، فيا له من شرابٍ ما أعْذَبَهُ، فطُوبَى لمن شَرِب منه ودامَ ولم يُقطَعُ عنه. نسألُ الله من فضلِهِ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المَائدة: الآية 54] . وقد تجتمع جماعة من المحبِّينَ، فيُسْقون من كأسٍ واحِدَةٍ، وقد يُسْقَون من كُؤُوسٍ كثيرة، وقد يُسْقى الواحِدُ بكؤُوسٍ. وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الأكواسِ، وقد يختلف الشُّرْبُ من كأسٍ واحدة، وإن شَرِبَ منه الجَمُّ الغَفِيرُ من الأحِبَّة. انتهى كلامُهُ رضي الله عنه، رزَقَنا الله من شَرَاب مَحَبَّتِهِ الحَظَّ الأوفر بمَنِّهِ وكَرَمِهِ آمين.

ذِكْرُ أسْرَارِ عِلْم الحَقِيقَةِ

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: الآية 3] ، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: الآية 3] ، وقال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية 115] ، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: الآية 60]

وقال رسول الله ﷺ: «أصْدَق كَلِمَة قالها الشَّاعِر، كلمة لبيد:

ألا كُـلّ شَـيْءٍ مـا خَـلاَ الله بَـاطِـلُ   وكُـلُّ نَـعِـيـمٍ لا مَـحَـالَـةَ زَائِـلُ

وقال أيضاً ﷺ حاكِياً عن الله عزَّ وجلّ: يقُولُ الله تعالى: عَبْدِي مَرِضت فَلَم تَعدني، فيقول العبد: يا ربّ، وكيف أعودكَ وأنت رب العالمين، فيقول الله تعالى: أما عَلِمْت أنه مرض عَبْدِي فلم تَعُدْهُ، فلو عدته لوجدتَنِي عنده» الحديث. فالحقُّ تعالى واحِدٌ في ذاتِهِ وفي صفاته وفي أفْعالِهِ، فالفعل واحِدٌ من صفة متَّحدة، قائمة بذاتِ واحِدَة، والصّفَة لا تفارق المَوْصُوف، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. ما حجبَك عَنِ الحقّ وُجود مَوْجُود معه، إذْ لا شيء معه، وإنما حَجَبَك تَوَهُّم مَوْجُود معه، فلمَّا أشْرَقَتْ شُمُوس العِرفان وانْتَهَك حجاب الوَهْم عَنِ الجَنَانِ، انْطَوَى وُجُود الأكْوَانِ ووقع العيَانُ على فَقْدِ الأعْيَانِ، ولم يبْقَ إلاّ الوَاحِد المنَّان، فبِحَار الجبرُوتِ مُتَدَفِقَةٌ بأنْوار الملكوتِ، فلمَّا بَرَزت عرائِسُ الأنْوَارِ بادِيَة الإظْهَارِ، خِيفَ أن يُنادى عليها بلسان الاشْتِهار، فاحْتُجِبَتْ في خُدُورها، وبطَنَتْ في ظهورها، إذ لا بُدَّ للحَسْنَاء من نِقابٍ وللشمس من سَحابٍ، ولله دَرُّ القائل:

وما احْـتَـجَـبَـتْ إلاَّ بِـرَفْـعِ حِـجَـابِـهَـا   ومِـنْ عَـجَـبٍ أنَّ الـظُّـهُـورَ تَـسَـتُّـرُ

ذِكْرُ الفَنَاءِ وأقسامُهُ

اعلم أنَّ الفَنَى في اللُّغة: هو الهلاك والتلاشي. وفي اصطلاح الصُّوفية: هو الغَيْبَة والاسْتهلاك في شُهُودِ الحقّ. وقال بعضهم: الفَنَاءُ: مَحْوٌ واضْمِحْلالٌ وذهابٌ عنك وزَوال. وسُئِلَ أبو سعيد بن الأعرابي عَنِ الفنَاءِ فقال: هو أن تَبْدُو العَظَمة والإجلال على العَبْدِ فتُنْسيه الدُّنيا والآخِرَة، والأحوال والدَّرجاتِ والمقاماتِ والأذْكار، تَفْنِيه عن كلِّ شَيْءٍ وعن عَقْلِهِ وعن نَفْسِهِ، وفنائه عن الأشْيَاء وعن فنائِهِ عن الفَنَاءِ، لأنّه يَغْرَقُ في بِحَار التَّعْظِيم. هـ.

وهو على ثلاثة أقسام: فَنَاء في الأفْعال، أن يرى الفعل كله من الله ذوقاً وكشفاً، لا علماً واعتقاداً، لأنَّ هذا حاصِلٌ للعوام. وفناء في الصِّفات، وهو أن يرى ألاَّ سَمِيع ولا بصيرَ ولا متكَلِّم ولا قادِرَ ولا مُرِيدَ ولا عَالِمَ إلاَّ الله وأنَّ سَمْع العباد وبصرَهُمْ وإرادتهم بالله ذوقاً وكشفاً، وفناء في الذَّات، وهو أن يرى ألاَّ موجود سِوَاهُ. تفنَى الآثار والرسوم ولا يَبْقَى إلاَّ الحيُّ القيوم ذَوْقاً وكشفاً، كما قال الشاعِرُ:

فـنـيـت بـه عـنـي فـبـانَ بـه غـيـبـي   فـهـذا ظـهـور الـحـق عـند الفَـنَـا قَـصْـدَا
أَحَـاطَ بـنـا الـتَّـعْـظـيـم من كُـلِّ جانِـبِ   وعادَتْ صفاتُ الحقِّ ممَّا يلي العَبْدَا

وقال الشيخ أبو العبَّاس المرسي رضي الله عنه: إن لله عباداً مَحَق أفعالهم بأفعالِهِ وأوصافهم بأوصافِهِ، وذاتهُمْ بذاتِهِ، وحمَّلهم من أسْراره ما يعجز عنه الأولياء. هـ.

وقال ابن العربي الحاتمِي رضي الله عنه: مَنْ رأى الخلق لا فعْلَ لهم فقد فازَ، ومن رآهُمْ لا حَيَاة لهم فقدْ جازَ، ومن شهدهم بعين العَدَمِ فقد وَصَلَ. هـ. والله تعالى أعلَمُ.

ذِكْرُ مقامِ البَقَاءِ

اعلمْ أنَّ البقَاءَ مُرَتَّبٌ على الفناءِ بأقسامِهِ، فمن فَنِيَ عن فِعْلِ نفسه وفعل غيره بَقِيَ بفِعْلِ ربِّهِ. ومن فَنِي عن صفة نفسه، بقي بصفات ربِّهِ، ومن فَنِيَ عن ذاتِهِ وذاتِ غَيْرِهِ بَقِيَ بشُهُودِ ذاتِ رَبِّهِ، فمهما تحقق الفناءُ وتمكَّنَ تحقق البقاء في الأقسام الثلاثة إلاَّ أنَّ الفَنَاء الغَالب فيه السُّكْر والدَّهْشَة فربَّما يُنْكِرُ الحِكْمَة لشُهُودِ القُدْرَةِ فإذا صَحَى من سكْرتِهِ أثبتَ الحِكْمة في محَلِّها، والقدرة في محلِّها، فيُعْطي كل ذي حقٍّ حقَّهُ، فيُعْطي العبودية حقَّها، والرُّبوبية حقها، فيَعْظم خطره ويَجِلّ قدْرهُ، وهو مقام الأمان من الرُّجُوعِ. ولذلك قال أبو الموَاهِبِ: من رجع إلى البقاءِ أمِنَ مِنَ الشقاءِ. يعني في الغَالبِ، وإلاَّ فالقُلُوب بيدِ الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية 99].

ولشيخ شيُوخنا سيِّدي علي الجَمَل رضي الله عنه ونَفَعَنا به كلام حَسَنٌ في الفَنَاءِ والبقاءِ، قال رضي الله عنه: اعْلَم أنَّ نتيجَة عُبُودية أهْل الله الفَنَاء في الله، كما أنَّ نتيجة الفناءِ في الله البقاءُ بالله، كما أن نتيجة البقاء بالله الفنَاء ولا فَنَاء، والبقاء ولا بقاء، عبودية أهل الله عُبُودية كسْبية، وعبودية أهْلِ الفَنَاءِ في الله عُبُودية قَهْرية، وعُبُودية أهل البقاء بالله عُبُودية كسْبية بعد القهْرية، وعبودية أهْل بقاءِ البَقَاءِ كسْبية قَهْرية، قهرية كسبية، الأولى عبودية بوجودِ الوسائِطِ. والثانية، وهي المُسمَّاة بالفَنَاءِ، عبودية مع فَقْد الوسائِطِ. والثالثة، وهي المُكَنَّاةُ بالبَقاءِ، عبودية بوجُودِ الوسائِطِ. والرابعة: وهي المُكَنَّاة ببقاءِ البقاءِ عُبُودية بالوسائِطِ مع فقد الوسائِطِ، وعُبُودية بفقد الوسائط مع وجود الوسائِطِ. وهذا المقام الرَّابع يُقال له: مقام التَّلوين في التَّمكين والرَّسُوخ في مقامات اليقين. هـ.

ثم قال رضي الله عنه: اعْلَم أنَّ الفنَاءَ فناءانِ: أنْ تَفْنَى أولاً عن البَشَرية ثم تفنى ثانياً عن فَنَائِكَ الذي فَنيتَ عن بشريتكَ. وكذلك البقَاءُ بقاءانِ: تَبْقَى أوَّلاً عن فَنَاءِ فنائِكَ، ثم تبْقى ثانياً عن بقَائِكَ الذي بقيت عن فَنَاءِ بقَائِكَ. البشرية تسْتشرفُكَ عن الفَنَاءِ بالصفاتِ في الصِّفَاتِ، والفَنَاء بالصفات يسْتشرفك على الفناءِ بالذَّاتِ في الذَّات،

والفناء بالذّاتِ يسْتشرفك على البَقَاءِ بالذَّات في الذّاتِ. يرحم الله الششتري حيث قال:

أفْـنَـانِـي ذَا الـحـب عَـنِ الـفَـنَـا ... وصِـرْتُ بـعـد الـفَـنَـا وُجُـودْ

صَـارَ مَـشْـرُوبِـي مـن إنـائِـي ... لـكـن مُـسْـتـعـذب الـورُودْ

تَـعَـجَّـبَ الـنَّـاسُ مِـنْ بَـقَـائِـي ... وأنـا مَـنْ نَـهْـوَى نَـسُـود

وقال سيِّدي عبد القادِرِ الجيلاني في بعض كلامِهِ:

فـأسْـجُـدُ أي أفْـنَـى وأفْـنَـى عَـنِ الـفَـنَـا ... فـأسْـجُـدُ أُخْـرى والـمُـتـيـم وَالِـعُ

انتهى كلامُه رضي الله عنه وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سَوَاءِ الطريق.

ولمّا بيّن لنا الحقّ تعالى سُلُوك الطريق إلى عَيْن التحقيق، وهو الجمع بين العبودية في الظّاهِر وشهود الرُّبوبية في الباطِنِ، أو تقُولُ: الجمع بين الشريعة في الظّاهِر والحقيقة في الباطِنِ، أمَرَنا بطلبِ الهداية والإرشاد إليها فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفَاتِحَة: الآية 6] قلت: الجملة طلبية دعائية. وهَدَى يتعدّى إلى واحدٍ بنَفْسِهِ، وإلى الثاني بِحَرْفِ الجَارّ مذكوراً أو محذوفاً.

مثال الأوّل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعرَاف: الآية 43]، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعَام: الآية 161].

ومثال الثاني: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسَان: الآية 3]، وهذه الآية. والصِّراط في الأصْلِ، المِنْهَاج الواضِح، والطريق الجادَّة، وهو في الأصْل بالسِّين من سرط الطعام إذا ابتلعَهُ لأنه يَسْرط السَّابِلة إذا سَلَكُوهُ. وإنما قلْب صادَ التجَانِس الطَّاء في الإطبَاق. فإن الصَّاد والضَّادَ والطَّاء والظَّاء، حروف الإطْباقِ. وقد يَشُمُّ الصَّادُ صَوْتَ الزَّاي، لأنَّ الزَّاي إلى الصَّادِ أقْرَبُ لأنها مجهورتانِ، وهي قراءة حَمْزَة.

وقرأ قنبلُ عن ابن كثير: ورُوَيْسٌ عن يعقوب بالسِّين على الأصْلِ. والباقون بالصَّادِ على القَلْبِ كما تقدَّم. والهِدَايَةُ في الأصْلِ هي الإرْشاد والبيان، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسَان: الآية 3]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: الآية 10] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فُصّلَت: الآية 17] وقد تطلقُ على خَلْقِ القُدْرة على الطَّاعة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القَصَص: الآية 56]. وقال البَيْضاوي: وهِدَاية الله تتنوَّعُ أنواعاً لا يُحْصيها عدٌّ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية 34]. ولكنَّها تترتَّبُ في أجْناس مُرَتَّبةٍ:

الأوَّل: إضافة القوى التي بها يتمكَّن المَرْءُ من الاهْتِداءِ إلى مَصالِحِهِ كالقوَّةِ العقلية، والحواسّ الباطنة، والمشاعر الظَّاهرة.

والثَّاني: نَصْبُ الدلائِلِ الفارقة بين الحقّ والباطِلِ، والصَّلاح والفسَاد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: الآية 10]، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَت: الآية 17].

والثالث: الهِدَاية بإرْسالِ الرُسُل وإنْزَالِ الكُتب، وإيَّاها عَنى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبيَاء: الآية 73]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسرَاء: الآية 9].

والرَّابع: أن يكشفَ عن قُلُوبهم الحجب، فتظهر لهم السَّرائر ويُريهم الأشياء كما هي، بالوحْي والإلهام، والمناماتِ الصَّادقة، وهذا قِسْم يختصُّ بنيلِهِ الأنبياء والأولياء، وإيَّاه عَنَى بقولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعَام: الآية 90]، وقولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العَنكبوت: الآية 69] هـ.

والمستقيم: الذي لا عِوَجَ فيه ولا انْحِراف، وأصْله: مُسْتَقْوَمٌ، فنُقِلت الكَسْرة إلى القافِ، وقُلِبَ الواو يَاءً. يقول الحقُّ جلَّ جلالُهُ بِلِسانِ الحِكْمَة مُخاطباً للقُدْرَةِ، أو بلسان المُلْكِ مُخَاطِباً للمَلَكُوتِ، أو بِلِسانِ الفَرْق طلباً للجَمْعِ وتعْليماً لعبادِهِ كيف يطلبُونَ الوصول إليه: اهْدِنا، أي ارشدنا إلى المِنْهاج المُسْتقيم، وقوِّنا على سُلُوكِهِ حتَّى نَصِلَ إلى عَيْن اليقين، وحق اليقين، والصِّراط المُستقيم، هو إتقان الشريعة علماً وعمَلاً، وتحصيل الطريقة ذَوْقاً وحَالاً، وتحقيق علم الحقيقة وعملها ذوْقاً وشهوداً كما فُهِمَ ذلك من قولِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية 5]

والحَاصِلُ: أنَّ الصِّراط المُسْتقيم، هو طَريق السَّيْر مِنَ الشريعة إلى الطَّريقة، ومن الطَّريقة إلى الحقيقة، ثم إلى ما لا نهاية له من التَّرَقِّي. فإذا قاله أهل مقام الشريعة، فالمُراد: ثَبِّتْنَا على ما هو حاصِلٌ، وأرْشِدْنا إلى ما ليس بِحاصِلٍ، وهو مقام الطَّريقة. وإذا قاله أهْل مقام الطَّريقة، فالمُراد: ثَبِّتْنا على ما هو حاصِل من مقام الطريقة؛ وارْشِدْنا إلى ما ليس حاصِل من مقام الحقيقة. وإذا قاله أهْل مقام الحقيقة، فالمُراد: ثَبِّتْنا على ما هو حاصِلٌ وارْشدنا إلى ما ليس بحَاصِلٍ من عُلُومٍ غيْبيَّة، وأسرار لدنية.

وقال الشيخ أبو العبَّاس المِرْسِي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: عُمُومُ المُؤمنين يقولُونَ: إهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيم أي بالتثبُّت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصِلٍ، فإنه حصل لهم التوحيد، وفاتهم درجة الصَّالحين. والصَّالحون يقولون: اهدِنا الصِّراط المستقيم، معناه: نَسْألك التَثَبُّتَ فيما هو حاصلٌ والإرشاد لما ليس بحاصلٍ، فإنَّهم حصل لهم الصَّلاحُ، وفاتهم درجات الشهادة. والشُّهداء يقولون:

اهْدِنا الصِّراط المُستقيم، أي بالتثبّت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصِلٍ، فإنهم حصلَ لهم الشهادة وفاتتهم درجات الصّدّيقية. والصِّدِّيقون يقولون: اهْدِنا الصِّراط المُستقيم، أي بالتثبّت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصِلٍ. فإنهم قد حصل لهم درجات الصدّيقية وفاتهم درجات القطب. والقطبُ يقول: اهدِنا الصِّراط المستقيم، أي بالتَّثبت فيما هو حاصِل والإرشاد إلى ما ليس بحاصلٍ، فإنه حصل له رتبة القطبانية وفاته عِلْم ما إذا شاء الله أن يُطْلعه عليه أطلَعَه عليه هـ.

ثم بيَّن الحق سبحانه أهل هذا الطريق، السَّالكين عليه، فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 7] فهو بدلٌ من الأوَّلِ، بدل الكلّ. والبَدَل في نية تكرار العامل من حيث إنَّه المقصود بالنسبية.

وفائدته: التوكيد، والتنصيص على أنَّ طريق المسلمين هو المشهود عليهم بالاستقامة على آكَدِ وجهٍ وأبلغه، لأنه جُعِل كالتفسير والبيان له، فكأنه من الشأن البينِ الذي لا خفَاءَ فيه أنَّ الطريق المستقيم ما يكون طريق المؤمنين، والذين جمع الذي، بُني للشبَهِ الافتقاري، وقد يُعرب فيُرفع بالواو.

وقرأ سيدنا عمر وابن الزّبير: صراط مَن أنعمت عليهم، واختلف في المُراد بالمُنعم عليهم، فقيل: الأنبياء عليهم السلام، وقيل: أهل التوحيد أينما كانوا. وقيل: أصحاب موسى عليه السلام قَبْل التحريف والنَّسْخ. وقيل: أصحابُ عيسى عليه السلام قبل التغيير والنَّسْخ والتحقيق أنَّهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النّساء: الآية 69] فالدَّرجة العلْيا من المُنْعَم عليهم هُمُ الرسل عليهم السلام، ثم الأنبياء، ثم الصدِّيقون، وهم العارفون بالله مِنَ الأولياء، ثم الشهداء، وهم المجاهدون في سبيل الله الجهاد الأكْبَر، وهم السَّائرون في ميادين النُّفُوس، ثم أهل الجهاد الأصغر، ثم الصالحون وهم عوامُّ المُسْلمين.

فدوائر الحَضْرَةِ أرْبَعَةٌ: دائرة النبوءَة وهي أقرب إلى الحَضْرَة، ثم دائرة الولاية، ثم دائرة الشهادة، ثم دائرة الصَّلاح. وكلَّما عَظم القُرْب من الحَضْرَة اشتد طلَبُ الأدَبِ، ولذلِكَ قال بعضهم: دائرة الوَلي أوْسع من دائرة النَّبِيّ، يعني في مُطالبة الأدَبِ والتعظيم والإجلال، لأنه كلما عَظم القربُ اشتدَّ الأدَبُ.

وهنا جوابٌ آخر، وهو: حقيقة الوِلاية، هو التَّصرُّف في الخَلْق بالهِمَّةِ، والنبوءة هي الإخبار بالغُيُوبِ بواسطة المَلَكِ، فإن قصِرَ على نفسه فهو النبيّ وإن أمر بالتبليغ فهو الرَّسُول. والولاية لا تُفارق النُّبوءة إذ الأنْبياء والرُّسُل عليهم الصلاة والسلام لهم

التصرف بالهمّة الباطنية والإخبار بالأمور الغيْبية، فكُلّ نبيّ ولي، وليس كل ولي نَبِّياً، والتصرف بالهمَّة أوْسع لأنه يُفْني الكون بأسره من عَرْشهِ إلى فرْشِهِ، حيث يفنى عن دائرة حِسِّهِ، بخلاف التصرُّف بأمر التَّشريع فحَدُّه إصلاح الظواهر. فالأنبياءُ والرُّسل عليهم الصلاة والسلام لهم دائِرَة الولاية ودائِرَة النبوءَةِ ودائرة ولايتهم أوسع من دائِرَة نبوءتهم. فهذا معنى قول من قال: دائِرَة الوَلِي أوسع من دائرة النَّبِي. يعني حيث اجتمعا في الأنبياء فدائرة ولايتهم أوْسع من دائرة نُبُوءتِهِمْ. وقد عَلِمْتَ أنَّ النبوءة تُلازمها الولاية، وقد تكون الولاية بلا نبوَّة فتكون أحطُّ من مرتبة النبوءة، لأنَّ الأنبياء عليهم السلام حازوا مرْتبة الولاية وزادوا بمزية النبوة والله تعالى أعلَمُ.

وقد أشار إلى شيءٍ من هذا، العارف المحقق جمال الإسلام، أبو القاسم الغاشاني في أول شرْح التَّائية ـ تَائية ابن الفارض ـ ثُمَّ إنَّ دائِرَة النُّبُوءة قد ختمت بنُبُوَّةِ نبيِّنا محمد ﷺ. وأمَّا دائرة الوِلاية فهي باقية إلى أنْ تختم بسيدنا عيسى عليه السلام، فهو عليه السلامُ حين يَنْزِلُ إنَّما يكون وَلِيّاً ويَحْكُم بشريعة نبينا محمد ﷺ إذْ لا نَبِيّ بعد نبيّنا محمد ﷺ. واعلم أنَّ دائِرَة الولاية مُؤَلَّفة من أولياء، ونجبَاء، ونقباء، وأوْتاد، وبُدَلاء، وأقطاب، وغوْث، وهو واحِدٌ.

قال الشيخ محمد الشهير بالصعكاك: وقد يُطلق القطبُ على مَن تحقق بمقام ومكان وصار مداره عليه، ويتعدد في الزَّمان الواحِدِ أقطاب في المقاماتِ. فإذا أُريد بالمقام الذي لا يتصف به إلاّ واحد عبّر عنه بالفردِ هـ، ويُقال له الغَوْث. واعلم أنَّ مقاماتِ الأولياء مائة ألف وثمانية وأربعون ألف مقام، وكل مقام بعيد عن المقام الذي انتقل عنه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية 76] وكل مقام يقتبس من المقام الذي فوقه، فأعلى المقامات: الغَوْث، وتحته القطبُ، وله وزيرانِ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شمالِهِ، ثم تحته الأوْتاد أرْبَعة، أحدها بالمشرق، والآخر بالمغرب، والآخر بالقبلة، والآخر بالجَوْف. ثم بعدهم البُدَلاءُ، وهم سَبعةٌ، والدُّنيا سبعة أقاليم، في كل إقليم واحد منهم. ثم النجباء، ثم النُّقباء، ثم الصوفية، ثم المريدون، ثم المرابطون، ثم الصَّالحون، ثم المحبُّون، فإذا مات منهم من الطبقةِ العُلْيا رجع واحِدٌ مكانَهُ.

قال سيّدي أحمد الرّاشدي رضي الله عنه في قوله ﷺ: «لا تزال طائِفَة من أُمَّتي ظاهِرِينَ على الحقّ لا يضرُّهم مَنْ خالفَهُمْ حتى يأتِي أمْرُ الله»: فهذه الطَّائفة التي نبَّهَ عليها عليه الصَّلاة والسلام عارفُون بالله، فمن لم يعرف الله في الدّنيا لم يَعْرفه في الآخرة. وهذه الطَّائفة على سبع مراتب، منهم الصالحون ثلاثة آلافِ، والأولياء ثلاثمائة، والبدلاءُ أرْبَعُون، والنقباء سبعَة عشر، والنجبَاءُ سبعَةٌ، والأوتاد أربَعَةٌ، والقطبُ واحِدٌ هـ.

وقال سيّدي عبد الله الهَبْطي في تفسير معاني هذه المَرَاتِب: وأمَّا معنى النُّقَباء، فهم الذين نَقَّبُوا الكون، وخرَجُوا إلى فضاءِ مُشاهَدَة المُكَوِّن. وأما معنى النّجباء: فهم السَّابقون إلى الله لنجابَتِهِم. وأما البُدَلاءُ: فهم الذين اسْتبْدلوا من صفاتِهِم صفات مَحْبُوبهم. وأمَّا الأقطاب فهم القائمُون بحقّ الكوْنِ والمُكَوِّن، قد تنزَّهوا عن حالة المَيْل. وأما الأوتاد فهم الرَّاسخون في معرفة الله تعالى. وأمَّا الرّجالُ، فهم الذين لا يشغلهم عن ذكر الله شاغِلٌ. وأمَّا الغَوْثُ فهو الذي يُغيثُ كل العَوَالم ويمُدَّها كُلٌّ على حسب ما يليقُ به. وأمَّا الجَرَسُ، فهو الذي يتلقى الأمْر جملة، ثم يبينُ له، فيوجِّهه إلى ما أُريد به مأخوذ من سماع صلْصَلة الجرسِ هـ. المراد منه.

وقد ذَكَرَ الرَّقَّامُ صاحب التصّوف الاتساعي، الذي بناه على آية: ﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ [التوبَة: الآية 112] هذه المراتب. فذكر أنَّ النُّقباء على عدد أهل بَدْرٍ، وأنَّ النُّجباء أربعون، ثم ذكر الأفراد وأنهم لا يَحْصُرهم عدد، ثم ذكر الأبدال وأنَّهم سَبْعة، ثم ذكر المُلامتية وأنهم لا يُحْصَى لهم عدد، ولكنهم داخِلون تحت نَظر القُطْبِ بخلافِ الأفرادِ، ثم ذكر الأوْتاد وأنهم أربعة، ثم ذكر الأمامين أحدهما عن يمين القطب ونظره في الملكُوتِ، والآخَرُ عن شمالِهِ ونظره في المُلْكِ. ثم ذكر الخلفاء، ثم ذكر القطب، وهو موضع نظر الله من العوالِم ومنزلته من الخَلْقِ بمنزلة إنسان العين من العين، ولا يعرف ذلك إلاّ من له قِسْطٌ ونَصيب وذوق من سِرّ البقاءِ بالله. وأمَّا تسميته بالغَوْثِ، فمن حيث اعتبار إغاثتهِ لعوالِمِ المَلكُوتِ، بمادَّته ورُتبته الخاصَّة، فكُلٌّ أسْماء لمُسَمّى واحد والله أعلم.

قُلْتُ: وقد تقدَّم قول الصعكاك أنَّ القطب قد يتعدَّدُ، فإذا أُريد به المقام الذي لا يتَّصِفُ به إلاَّ واحد سُمِّي بالقطبِ الفَرْد، أو بالغوثِ على ما تقدَّم.

وقال في حُسْن المحاضرة: أخْرج الخَطيب البغدادي وابنُ عساكر من طريق عبد الله بن محمد العَبْسي قال: سمعت الكِتَّاني يقول: النُّقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والبدلاء أربعون، والأخيارُ سبعةٌ، والعُمَدُ أربعة، والغوْث واحِدٌ. فمَسْكن النّقباءِ الغَرْبُ، ومسكن النجباء مِصر، ومسكن الأبْدال الشام، والأخيار سياحُونَ في الأرض، والعُمَدُ في زوايا الأرض، ومسكن الغَوْثِ مكّة، فإذا عرضت الحاجة من العامَّة ابتهل فيها النّقباء، ثم النجباء، ثم الأبْدال، ثم الأخيار، ثم العُمَدُ، فإن أُجيبوا، وإلاَّ ابْتهَل الغَوْثُ فلا تتمّ مسألة حتى تُجاب دعوته هـ.

قُلْتُ: الظاهِر أنَّ مَسْكن هؤلاءِ وهؤلاءِ الرّجال لا يتعيَّن في كل زمانٍ، وكذلك الغوث لا يلزمُ أن يكون دائماً في مكَّة، كما هو مُشاهدٌ في بعض الأزمان، فقد يكون الغَوْثُ بالمغربِ، وقد يكون بالمشرِقِ. ولعلَ المراد أن مركز نظره مكّة، أو يخلقُ الله

من روحانيته شخصاً يكون مقيماً بمكّة، ولا يلزَمُ أيضاً أن يكون شَرِيف النسب، كما قال الشيخ أبو العبّاس المِرْسي رضي الله عنه.

وللقُطْبِ علاماتٌ يُعْرف بها، ذكرها الشيخ أبو الحسن الشّاذلي رضي الله عنه ونَفَعنا به، فقال رضي الله عنه: وللقطب خمسة عشر كرامة، فمن ادّعاها أو شيئاً منها، فليُبْرز بمدد الرّحمة والعِصمة، والخِلافة، والنيابة، ومَدَد حَمَلَةِ العَرْش العَظيم، ويُكشف له عن حقيقة الذّاتِ، وإحاطة الصفات، ويكرم بالحكْمِ والفَصْلِ بين الوجودين وانفصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى مُنتهاه، وما ثبت فيه. وحُكم ما قبل وحُكْم ما بعد، وما لا قبل ولا بَعْدُ.

وعلمُ البَدْءِ: وهو العِلْمِ المحيطُ بكلّ عِلْمٍ وبكُلّ معلومٍ، وما يعود إليه هـ.

فأشار رضي الله عنه إلى العلامة الأولى بقوله: فَلْيُبْرِزْ بمددِ الرَّحْمَة، يعني يكونُ متخلقاً باسْمِهِ الرَّحيم، فتشمل رحمتُهُ البرَّ والفاجِر، والمؤمن والكافر. فجميع الوجود داخِلٌ تحت رحمانيته، وهو في ذلك على قدَم مَوْرُوثِهِ ﷺ، متخلقاً مع عِبَادِ الله بأخلاق رسُول الله ﷺ صاحب عَقْل وخُلُق وحِلْم وعَفْوٍ، وصِدْق وأمانةٍ، وعِفّةٍ وعَدْل، وزُهْدٍ وتواضع، وصَبْر وشُكْر، وجُودٍ وشجاعة، وحَياء ومُرُوءة، وهمّة وتودُّدٍ، ووقارٍ وشفقة ونَصِيحَة، إلى غير ذلك مِنَ الأخْلاقِ السَّنيَّة.

وأشار إلى الثانية بقوله: والعصمة، يعني الحفظ الإلٰهي والعصمة الرّبّانية، كما كان موروثه ﷺ إلاّ أنها في حقّه عليه السلام واجبة، وفي حقّ وارثه جائزة، ولا تُفارقه في الغالب فلا يتجاوز حدّاً ولا ينقص عَهْداً أُقيم في مقام الهَيْبَة والوَقار، ملجّم بلجام الشّرْع فيما يأخذُ ويَذرُ، متأدّباً بآدابِهِ، في حركاته وسكناته، وهذا الحفظ لا يختصّ بعاداتِهِ بل هو عامٌ في عاداته وعباداته. فيكون في جميع ذلك جارِياً على منهاج الشّرْع القويم، والصّراط المُستقيم، مجبور على ذلك لأنّ حركاتِهِ وسكناتِهِ بالله لا بنفسه، فبالله يَنْطق، ومنه يَسْمع، وبه يبْطِش، فهو معصومٌ بعِصْمة الله، مَحْفُوظ بحِفْظِ الله.

وأشار إلى الثّالثة بقوله: والخِلافَة: أي الخلافة التي توارثها الأنبياء من آدَمَ إلى نبيّنا محمد ﷺ، ثم بعد ذلك، توارثَها الأقطاب الرَّبانيون، قطب عن قُطْبٍ إلى أن يَرِث الله الأرض ومن عليها وهو خَيرُ الوارثين. فالقُطْب خليفَةٌ بالخلافةِ النّبويّة، نائِبٌ في الوجود عن مستخلفه، فقد بايعتْهُ الأرواح وانقادَتْ إليه الأشباحُ فجلس على كُرْسي الخلافة وبساط النّيابة فالوجود تحت خلافتِهِ والأكوان أُذْعِنت لإماراتِهِ، فهو يتصرّف فيها تصرّف الملِك في مملكته، والأمير في رعيته.

وأشار إلى الرّابعة بقولِهِ: والنيابة: أي يكون نائباً عن الحقّ، في تصريف الأحكامِ

والنَّقْضِ والإبْرام حسبما اقتضتْهُ الحِكمة الإلٰهية. وفي الحقيقة، ما ثَمَّ إلاَّ القُدْرة الأزلية.

وأشار إلى **الخامِسَة** بقوله: ومَدَد حملة العَرْش العظيم، يعني أنَّ الله تعالى يُمِدّ هذا القطب العارف بما أمَدَّ به حَمَلَة العرش، من القوَّة والمُكنة، فهو حامل عَرْش الأكوانِ كما أنَّ الملائكة حملت عرش الرَّحمٰن، فيكون له من القوَّة ما يحمِلُ به ما كُلِّفَ بحمله كما يحمله العرش، وهذا لا يكون إلاَّ لمن أمَدَّهُ الله بمَدَدِ اسمِهِ القَوِّي، فيكون حامِلاً محمولاً، حامِلاً في الظاهِرِ، مَحْمُولاً في الباطِنِ.

وأشار إلى **السادسة** بقوله: ويُكاشف له عن حقيقة الذَّاتِ، وهذا من خصائص القطبانية، إذ القطبُ لا يكون إلاَّ عارفاً راسخاً متمكِّناً، فقد كُشف عنه الحجابُ، وفُتح له الباب، فشهد جمال الذَّاتِ وأنوار الصفات، وهذا الكشف لا تطيقُهُ كلُّ الأرواح، ولا تحمِلُ ثِقْلَ أعْبائِهِ إلاَّ روح زكيّ وقلب وفيّ قد اسْتوطن حَضْرَة القُدس وثبَتَ على بِساطِ الأُنْسِ، قد تخلى عن أوصاف البشرية، وتحقق بأوصاف المَلكية، وقوي لمقابلة سطوات أنوار التجلي العظيم والكشف الخطير، ولا يكون هذا إلاَّ لقُلُوب الأقطاب الذين أقيموا مقام الخلافَة، وأجلسوا على كُرْسيِّ النيابة، فهم الذين يكاشَفُون بحقائقِ الذَّاتِ، وهذا الكشف هو المعبَّر عنه بالشهودِ التَّام، وهذا الشهود لا يُنالُ إلاَّ مع الفناءِ التَّامّ، وهو حالُ من أُخِذَ عن نفسه فانٍ في شهُودِ ربِّه، باقٍ ببقائِهِ، فيكون هذا الكشف للحقِّ بالحقِّ، فيكْشِفُ الحقُّ سبحانه حقيقة ذاتِهِ العَظيمة بمرآةِ قُلُوبِ المُقَرَّبين، وأسرار العارفين. وعند هذا الكشف تضمحلُّ الإشارة، وتَبْطل العبارة، فلا إشارة ولا مُشِير، ولا مُعَبِّر ولا تَعْبير، وإنما هو كشفٌ تضمحِلُّ به كُنْه الكائِناتِ، وتتحد مراتب أعداد الذوات، فترجع إلى ذاتٍ واحدة، وهذا هو مقام أهل التوحيد الخاصِّ، والله ذو الفضل العَظيم.

وأشار إلى **السَّابعة** بقولِهِ: وإحَاطَةِ الصِّفاتِ، أيْ ويُكْشف له عن إحاطَةِ الصفات بالكائناتِ التي هي مظاهر الذَّاتِ، والذَّات لا تُفارق الصِّفات، فمن كُشِف له عن حقيقة الذَّات فقد كشِفَ له عن إحاطَةِ الصِّفاتِ، إذْ لا فرق عند العارفِ بينهما إلاَّ من حيث الوَجْه والاعتبارُ، فلا مكَوَّن إلاَّ وقامت به أسرار الذَّات، وأنوار الصِّفات، وأسماء الأفعال من حيث الظهور. قيل: إن أسماء الله تعالى كثيرة لا تُحْصى، أظْهَرَ لنا منها سُبحانه ما ظَهَر، واسْتأثر بعلم باقِيها، ومعرفة القُطْب لأسماء الله تعالى وصِفاتِهِ أكْمَلُ من مَعْرِفة غيره لِصَفاء سرِّه ويقظَة روحِهِ واتِّساع باطِنِهِ. وما معرفة غيره بالنسبة لمعرفتِهِ إلاَّ كنُقْطة في بَحْرٍ، إذ هو القطب الذي عليه المدارُ، وقلْبُه خِزَانة العلومِ والأسْرار.

وأشار إلى **الثَّامنة** بقوله: ويُكْرَمُ بالحُكْمِ والفَصْل بين الوجودَيْنِ، والمُراد

بالوُجُودين: الوجود الأصْلي الذي هو عالَم الجبروت القديم قبل التجلّي، والوجود الفَرْعي الذي هو عَالَمُ المَلَكُوتِ الذي ظهر بعد التجلّي. وفي الحقيقة، إنما هو وُجُود واحِدٌ لكنَّ الأوَّل له حُكْم القِدَم باعتبار الأصل، والثاني له حُكم الحُدُوث باعتبار التجلّي والظهور. أو تقول: الأوَّل له حُكْم القِدَمِ، باعتبار التّلطيف. والثاني: له حُكْمُ الحُدُوث باعْتِبَار التَّكْثيف.

وقد أشار ابن الفارِضِ إلى الوجودِ الأول بقولِهِ في خَمْرِيتِهِ:

صَفَاءٌ ولا ماءٌ ولُطْفٌ ولا هَوَى ... ونورٌ ولا نارٌ ورُوحٌ ولا جِسْمُ

تقَدَّم كل الكائناتِ حَدِيثُها ... قديمٌ ولا شَكْل هُنَاكَ ولا رَسْمُ

ثم أشارَ إلى الثَّاني بقولِهِ:

وقامَتْ بها الأشيَاءُ ثم لحكْمَةٍ ... بِهَا احْتُجِبَتْ عن كُلِّ مَنْ لا لَهُ فَهْمُ

فالقُطْبُ هو الذي يُكْرَمُ بالحكْمِ والفَصْلِ بين هذين الوُجُودين ذوقاً وكشفاً، لأنّه قد سلك مقام الفَنَاءِ فيُكشف له عن حقيقةِ الوجود الأول، ثم رجع إلى البقاء فيُكشف له عن سرِّ الوجودِ الفَرْعي، فيُعْطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

وقال الخَرُّوبي: المُراد بالوُجودينِ، والله أعلم، الوجود السَّابق، وهو الوجود الرُّوحاني في مَوْطِنِ الأرْوَاحِ، والوجود اللاحق، وهو الوجود الجسماني. فالقطبُ أُكْرِم بالحكم والفصل بين هَذَيْنِ الوُجُودين بحَسَبِ الوِرَاثة النَّبوية، لأنَّ موروثه ﷺ أُكْرِم بذلك. والمُراد بالحكم والفَصْل، أن يكون القطبُ حاكماً فاصِلاً بينهما، بما ثبت لكلِّ واحدٍ منهما من الأحْكام. فيثبت لكلِّ واحدٍ حُكْمَهُ المختصَّ به، وذلك أن الوجود السَّابق اختصّ بمقام التعريف، لأنَّ الأرواح هناك خُوطبت به، والوجود اللاحقُ اختصَّ بمقام التكليفِ، فالتزم لكل وُجُود حُكْمَه حُكْماً مُفَصَّلاً ولِزَاماً عَدْلاً، والله تعالى أعْلَمُ هـ.

وأشار إلى العلامَةِ **التَّاسِعة** بقولِهِ: وانْفِصَالِ الأوَّل عن الأولِ: يعني أنَّ القطب لا بُدَّ أن يكون أُكْرِمَ بالعِلْمِ، بانفصال أوَّل التجليات عن أهلها، وهو الجَبَرُوتُ الأصْلِي. فالأول المنفصل عنه هو بَحْرُ الجبروت الأزلي، والأول المنفصل هي القَبْضَة النورانية المحمَّدية. فيُلحِقُ الفرع بأصلِهِ ويُردُّ الشَّيءُ إلى مَحَلِّهِ. وإلى هذا أشار شيخُهُ القطبُ ابن مشيش رضي الله عنه بقولِهِ: وحِيَاضُ الجَبَروتِ بِفَيْضِ أنوارِهِ مُتَدَفِّقة هـ.

ثم أشار إلى العلامَةِ **العاشِرة** بقوله: وما انْفَصَلَ عنه إلى مُنْتهاه: يعني أنَّ القطب يكون قد أطلعَهُ الله على جُزئيات ما انْفَصَل من تلك القبضة التي برَزَتْ من عالَم الجَبُروتِ، من أوَّلها إلى آخِرها على سبيلِ الإجمال والتَّفْصِيل. وقد أشار الشَّيخُ أبو العبَّاس المِرْسي رضي الله عنه إلى إحاطَةِ عِلْمِهِ ببعض هذه المُنْفَصلات، فقال: ما مِنْ

وليّ كان أو هو كائن، إلاّ وقد أطْلَعَني الله عليه، وعلى اسْمِهِ ونَسَبِهِ، وحَظُّه مِن الله تعالى هـ.

ثم أشارَ إلى العلامَةِ **الحادية عشرَة** بقولِهِ: وما ثَبَتَ فيها: يعني أنّ القطب يكون قد عَلِمَ ما ثبت في تِلك المُنفصلات من أسْرار القُدرة، وعجائِب الحِكْمة، أو ما ثَبَتَ فيها من أسْرار الذّاتِ، وأنوار الصِّفات، ولذلك أمر الله تعالى بالنَّظرِ إلى ما في باطِنِها من تلك الأسْرارِ، ولم يأمُر بالنظر إلى ظاهرها فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يُونس: الآية 101] أي ما فيها من أسْرار القدْرَة وعجائب الحِكْمَة، أو ما فيها من أسْرار الذّاتِ وأنْوار الصِّفات، ولم يَقُلْ تعالى: «قل انظروا السماوات» لئلاّ يَدُلّك على وجود الأجرام، والله تعالى أعْلَمُ.

ثم أشار إلى **الثّانية عشرَة والثّالِثة عشرة** بقولِهِ: وحُكْم ما قَبْل، وحُكْم ما بَعْد. حكم ما قَبْلُ: هو أسْرَار القَدَرِ، وهو ما سَبَقَ به العِلْمُ القديمُ. وحُكْمُ ما بَعْدُ: هو ما يقَعُ منه على حَسَبِ ما سبق في مواقيتِهِ ومواطِنِهِ. فيكون القُطْبُ قد أطْلَعه الله على ما كان، وما يكون، على حسَبِ الإجمال. وأمّا التّفصيلُ، فلا يعلمه إلاّ الحقُّ تعالى حسبَمَا دلَّتْ عليه الشّرائِع.

وأشار إلى **الرّابِعة عشرة** بقولِهِ: وما لا قَبْلُ ولا بَعْدُ: أي وعِلْمِ ما لا قَبْلَ له ولا بَعْدَ له، وهو سِرُّ الوَحْدَةِ الأزلية الأوّلية والأخيرية والظّاهرة والباطنة، وإليها أشار ابن الفَارِض رضي الله عنه بقولِهِ:

فلا قَبْلَهَا قَبْلٌ ولا بَعْدَها بَعْدٌ وقبْلية الأبْعادِ هِيَ لها خَتْمُ

فقولهُ: وقبلية الأبعاد الخ، يَعْني أنّ ما كان قَبْلَ الأشياء التي لها قَبل وبعد من اللطافة والصَّفاءِ، هي خَتْم لتلك الأشياء، فما كان أوّلاً هو ما كان آخِراً، وما كان ظاهِراً هو ما كان باطِناً، والله أعلم.

ثم أشار إلى **الخامِسَة عشرة** بقولِهِ: وعِلْم البَدْءِ، وهو العلم المحيط بكل عِلْم، وبِكل معلوم، وما يعود إليه. يعني أنّ القُطْب يكون أُكرِمَ بعلْمِ بَدْءِ الأشياء حين تجلّيها وظهُورها وما يعود إليه حين رجُوعِها إلى البُطونِ بعد هلاكِها واضْمِحلالِها. والمُرَاد بعلم البَدْءِ: الاطّلاع على أسْرار الوجود من أوّله إلى مُنتهاهُ. وكل من تحققتْ معرفته بالله يُكَاشف بأسْرار الوُجُودِ، وما المُراد منه من ابْتداءِ ظُهُورِهِ إلى انتهاءِ بطُونِهِ. والقطبُ يكون أعْرَفُ بذلك من غيره لكمال مَعْرِفته، والله تعالى أعلمُ وبالله التّوفيق، وهو الهَادي إلى سَوَاءِ الطريق، وهذا ما يتعلّقُ بأنواعِ المُنْعَم عليهم، على اختلافِ أنواعِهِمْ، خَرَطَنا الله في سِلْكِهِمْ بِمَنِّهِ وكرَمِهِ آمين.

5 ـ فضائِل نُور سيِّد المرسلين وذكر أطواره في الكونين

فَضَائِلُ نُورِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ وما نشأ منه مع ذِكْرِ أطوارِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيّدنا محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تَسْليماً. الحَمْدُ لله رَبِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلام على خَيْرِ البَرِيئَةِ مُحَمَّد وآله أجمعينَ. أما بَعْدُ:

فأوّلُ ما خَلَقَ الله تبَاركَ وتعالى قبل أن يَخْلُقَ الأشْياء كلها، باثنين وسبعين سنة، نور محمد ﷺ، وخلق من نُورِ محمَّد ﷺ أربعة حجب: حِجاب العِزِّ، وحجاب العظمة، وحجاب الوُحدانية، وحجاب القدرة. فمكَث نور محمد ﷺ في كل حِجَابٍ اثني عشر ألف سنة، يُسَبّح لله عزَّ وجلَّ ويُهَلِّله، ويُقدِّسه ويكبِّرهُ، ويجعل ذلك الثواب لأمَّة محمد ﷺ. وخَلَقَ الله تعالى من ذلك النُّورِ أربعة بِحَارٍ: بَحر الهَمِّ، وبحر الصَّبْر، وبحر العَفْو، وبحر الرَّحْمة. فأمر الله عزَّ وجل ذلك النُّور أن يتغَمَّس في كل بحر سبْعاً وعشرين مرَّة، وخلق الله أيضاً من نُور محمد ﷺ جَوْهرة بَيْضاء، طولها وعرضها مسيرة ثمانين ألف سنةٍ، فأمر تلك الجوهرة أن تتحرَّك، فتحرَّكت، فقطرَتْ منها مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، وخلق الله تعالى من كل قطرة نبيّاً، فأمر الله تلك الجَوْهرة أن تنشأ على خمسة عشر صنفاً. وخلق الله من الصِّنْفِ الأول العرش، ومن الثاني خلق الله تعالى الكُرْسي، ومن الثالث اللَّوْح، ومن الرّابع نور الشمس، ومن الخامس نور القَمَرِ، ومن السادِس نور الكَواكب، ومن السَّابع نور الجنان، ومن الثامن نور الصَّبْرِ، ومن التاسع نور القَلَم، ومن العاشر نور القدرة، ومن الحادي عشر نور الجواهر، ومن الثاني عشر نور سَلاطين الملائكة صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين. ومن الثالث عشر نور القدس، ومن الرابع عشر نور القلم المكتوب. فقال له الجليل جلَّ جلالُهُ وتقدَّست صفاته وأسماؤهُ: أكْتُبْ يا قَلَم. فقال له القلم: ماذا أكتب يا رب؟ فقال له الجليل جلَّ جلاله: أكتب توحيدي: لا إله إلاَّ الله محمَّدٌ رسُول الله. قال: ففعل القلم ذلِك، فلما وصل لاسْمِ محمَّد ﷺ رفع رأسه إلى الله عزَّ وجلَّ فقال له: يا رب ما هذا

الاسم الذي جَعلته مع اسمِكَ؟ فقال له الجليل جلَّ جلالهُ العظيم: يا قَلَم، ذلِكَ نبيّ مِن أُمَّة آدم عليه السلام، لولاه ما خَلَقْتُ جَنّة ولا ناراً، ولا شَمْساً ولا قمَراً، ولا سَمَاءً ولا أرْضاً، ولا بحراً ولا فَلَكاً يَدُورُ ولا أنت يا قلمُ. قال: فانشقَّ القَلَم عن اثنين وسبعين فرْقة، وقيل: اثنين، كل شقَّة تقول: الصلاة والسلامُ عليك يا نبيّ الله، الصلاة والسلام عليك يا محمَّد، الصلاة والسلام عليك يا سيّد الأوَّلين والآخرينَ. وخلق الله تعالى من نور محمد ﷺ الهَوَا، وخلق من الهوا بحرا، فأمره بالركُودِ من غير تطريد، فأمره أن ينتشيء فانتشأ. وخَلَق من ذلك البحر أربعة أرياح: التشاوية: السَّوَابح، والمباشرة: النَّوابِح، والعاصفات: الرَّوابح، والذَّاريات: اللّواقح. فضربَت البحار بعضها بعضاً فارتفَعَت حتى زبدت، وعظمت أمواجها وعلا دخانها، فقال له الجليل جلَّ جلاله: اجْمَدْ، فجَمَدَ، فقال للزّبد: كُونِي أرْضاً. وقال للدخان: كُونِي سمَاءً. فذلك قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ⑫﴾ [فُصِّلَت: الآية 12]. وخلق الله تعالى تحت الأرْض السَّابِعة السُّفْلى سريراً، والسَّريرُ على مَنكِب مَلَك، والمَلكُ على قَرْنِ الثور، والثور على الصَّخرة، والصَّخْرة على الماءِ، والماءُ على الهواءِ، والهواء على الصَّفاء، والصفاء على الضِّياء، والضياء على الظلمَة، والظلمَة على البَرْق، والبَرق على العلم، والعلم على الحِلْم، والحِلْم على الأزلية، والأزلية على الكَوْنِ، والكَون على القدرة، والقدرةُ على الإرادة، والإرادة لا يَعْلم ما تحتها إلاَّ الواحد القهَّار سبحانه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: الآية 82].

انتهى بحمد الله وحسْن عونِهِ،

وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً

احمد بن محمد بن عجيبة الحسني كان الله له

ويقول جامعه ومقدمه للطبع ـ خديم الطريقة العجيبة، وجامع مؤلفات سيدي أحمد بن عجيبة: عبد السلام العمراني الخالدي ـ هذا ما أردناه، والحمد لله بدءاً ومنتهاهُ. وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً.

فهرس المحتويات